الرّحلة والرّحالة المسلمون

تأليف

دكتور أحمد رمضان أحمد
الأستاذ المساعد بكلية الآداب
جامعة عين شمس



ص.ب ٣٩٨٣ جدة - شارع سمو الأمير فهد - مركز العثمان التجارى - تليفون ٦٥١٣٠٥٩
P.O.Box 3983 Jeddah.Prince Fahed Street, Al Othman Commercial Center. Tel:6513059

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحضارة الإسلامية دراسة موسوعية ينضوي تحت لوائها مختلف العلوم والمعارف، وإن كان جوهرها العقيدة ولحمتها وسداتها العلوم العقلية والفنون التشكيلية. ومن ثم فليس لعالم أو فقيه مهما أوتي من العلم وسعة المعرفة، أن يجمع شملها في مصنّف واحد. ولكن ليس معنى هذا أن يترك التأليف والتصنيف في موضوع الحضارة الإسلامية لاتساع بحورها وتشعّب منافذها، ولكن كما يقول المثل المأثور ما لا يدرك جلّه لا يترك كله.

ولما كان أمر الحضارة الإسلامية، كما أسلفنا القول، وكنت من المهتمين بأمرها والناهلين من منهلها والشغوفين بالتصنيف في فروعها، فقد وجدت بعض ضالتي في موضوع يجمع العديد من الموضوعات التي تدور في فلكها وتسير في مجاريها ذلك هو موضوع الرحلة والرّحالة.

فالرّحالة سفينة تقطع الفيافي والبحار وتتسنم قمم الجبال لتجمع كل ما هو مرتخص وغال وتروي ما هو تالد وطريف، ليشيد به صرح الحضارة، ويسجل تراثها وبصماتها في كل زمان ومكان.

هذا فضلاً عن أن النفوس لا يصلحها إلا التنقّل من حال إلى حال، والارتحال للاطلاع على الغرائب واستطلاع العجائب، وقد قال الله تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ وقال عز من قائل: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف

خلقت وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾.

ولقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة قُس بن ساعدة بعكاظ وفيها قوله: إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً.

والرحالة ينقل للقارىء صورة مرئية وقصة صوتية لكل ما شاهد وسمع، وفي ذلك يقول الرحالة ابن فضل الله العمري:

«ليبصر أهل كل قطر القطر الآخر ويتبينه بالتصوير وليعرف كيف هو، كأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان، مما اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفته له فيما رأيته بالمشاهدة ومما سمعته من الثقات بأذني».

ولما كنت من المهتمين بتاريخ العصور الوسطى فقد رأيت أن أتتبع سير الرحلة والرّحالة المسلمين حتى نهاية القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي. وحاولت جهدي أن أجمع ما استطعت من رحلاتهم، وما كتب وصنّف عنهم علني أستطيع أن أعطي فكرة شبه متكاملة عن هذه الدراسة الحضارية الهامة.

وعلى الله قصد السبيل.

المؤلف:
أحمد رمضان أحمد

الرحلة.. وأسبابها

الرحلة لغوياً من يرحَل رحْلاً ورحيلاً وَترحَالاً ذهب. ورحَّله من بلده أخرجه منها. وارتحل القوم انتقلوا والراحلة الناقة الصالحة لأن تُركب. والرّحلى مركب للبعير أصغر من القتب. والرَحْل أيضاً ما يستصحبه المسافر من الأوعية جمعه رحال.

والرُحلة الجهة التي يقصدها المسافر، يقال مكة رُحلتنا، وهو عالم رُحلة أي يرحل إليه(١).

لكل هذه التفسيرات جميعاً كانت رحلة المسلمين في أوائل العصر الإسلامي. وإذا كانت الجوانب المادية للحضارة الإسلامية، أخذت منذ البداية تخطو خطاً وئيدة متزنة، إلا أنها بالنسبة للرحلة والترحال والرحالة كانت تقفز بخطوات واسعة، رغبة في ارتياد المجهول وتقصّي الحقيقة وطلب العلم والمعرفة من مواطنها الأصيلة.

على أننا يجب أن نذكر في هذا المقام أن من أهم الأسباب والدوافع التي مهّدت للرحلة والرحالة الطريق لارتياد العالم، هو اتساع رقعة الدولة الإسلامية التي امتدت من الصين شرقاً وحتى المحيط الأطلسي غرباً فلقد عني المسلمون

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي مادة (رحل).

عناية خاصة، بعد الفتوح العربية، بالبلاد التي خضعت لهم وأصبحت جزءاً من دولتهم، فدوّنوا لها الدواوين وعبّدوا إليها الطرق ونظّموا لها البريد.

وحري بمن يتصدى للكتاب عن (الرحلة) أن يبدأ بدراسة نظام البريد، الذي من أجله عبّدت الطرق ومهّدت المسالك. فهو أول النظم الإدارية التي دفعت وشجعت المسلمين على الرحلة منذ نشأة الدولة الإسلامية.

لقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم منذ هجرته إلى المدينة المنورة بالعمل على تطبيق شريعة الدين الإسلامي القويم التي تجمع بين سياسة الدين والدنيا جمعاً مزج بين السلطتين الروحية والزمنية، مما جعل المستشرقين يقولون: «إن تقدم المسلمين في الحضارة بدأ في نظم الدولة كما بدأ في إدارة الحرب»[1].

كما ذكر العلاّمة عبد الحي الكناني الإدريسي في كتابه التراتيب الإدارية، العمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية وغيرها من المراتب الإدارية التي كانت قائمة في حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم، من وزارات متعددة، والكتابات بأنواعها والرسائل والإقطاعات وكتابه العهود والصلح والرسل والترجمان، وصاحب العسس في المدينة، والسجّان والعيون والجواسيس، وكتاب الجيش، والقضاة. هذا فضلاً عن صاحب المظالم وفارض النفقات وفارض المواريث، وصاحب بيت المال ومتولي الخـرّاج إلى غير ذلـك من التراتيب الإدارية[2].

---

(١) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٥١.

(٢) عبد الحي بن عبد الكبير الحسني الكناني الإدريسي الفارسي: التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣ وقد اعتمد عبد الحي في كتابه هذا على كتاب (تخريج الدلالات الشخصية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية) للعلامة أبي الحسن علي بن ذي الوزارتين المعروف بالخزاعي (٧١٠ ــ ٧٨٩هـ).
ذكر عبد الحي الكناني أنه رتّب كتابه على عشرة أقسام، كما رتّب الخزاعي كتابه على عشرة أجزاء، وقسّم كل جزء إلى أبواب ثم إلى فصول. وقد تناول في القسم الأول باب الرسول ثم باب الخانات والتجسس وباب الطرق وباب العمال إلى آخر ذلك. ويقع الكتاب في جزأين.

وهكذا نرى أن على قصر المدة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم لم تخل من ترتيب البريد ترتيباً يعطي رسله ورسائله مقاماً سامياً بين بقية العمال والعمالات. فمنذ اللحظة الأولى التي غادر فيها الرسول مكة بصحبة أبي بكر الصديق فراراً من قريش اتخذا عبد الله(١) بن أبي بكر رسولاً(٢) يأتيهما بأخبار قريش يوماً بيوم فكان عبد الله يبيت عندهما في بيت العنكبوت ويخرج من السحر فيبيت مع قريش ويجمع أخبارها وما اتخذته من وسائل للبحث عن محمد والتنكيل به. وهكذا كان عبد الله أول ساع للبريد في الإسلام(٣)، وأن وظيفة البريد كانت أولى الوظائف الإدارية التي لاقت اهتماماً كبيراً من جانب رسول الله، فلما رتّب حكومته بالمدينة كانت وظيفة البريد قد نضجت واتسعت في معناها.

على أن البريد في عهد عمر بن الخطاب خرج عن معناه البدائي، وهو نقل الأخبار إلى عمل الرقابة بمعناها الحديث، حتى قيل إنه: «كان لعمر عيون على الناس عجيبة»(٤).

وفي عهد الدولة الأموية والمروانيين(٥) منهم أدخل على نظام البريد تحسينات وتطورات هامة حتى أصبح آداة هامة في إدارة شؤون الدولة(٦). فقد أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بعمارة الطريق وصنعة الأميال من دمشق ومن إيليا(٧)، إلى جنوب بلاد الشام، إلا أن العمارة تمّت بعد وفاته في عهد الوليد بن عبد الملك.

---

(١) الطبري ج ٣ ص ١٢٣٦.
(٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٦١.
(٣) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٦٢.
(٤) محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ٣٠.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧.
(٦) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٦٩.
(٧) قد أكد وجود هذه الطرق (الصوه) علامة الطريق التي عثر عليها في دمشق وتصل بين شمال الشام وجنوبه [محمد العابدي: الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن ص ١٨٨].

ومن العجيب أن أحداً من الجغرافيين الأوائل لم يذكرها، وهم الذين عنوا منذ القرن الثالث الهجري بتدوين الطرق العامة من المشرق والمغرب بين العواصم والثغور، مثل ابن واضح اليعقوبي وابن خرداذبة وابن جعفر الكاتب.

ولعل أول من ذكرها هو المقدسي[1] من رحالة القرن الرابع الهجري، إذ يقول: وتأخذ من بيت المقدسي إلى أريحا بريدين[2] ومن أريحا إلى بيت الرام بريدين ثم إلى عمان مرحلة ومن عمان إلى الزرقاء مرحلة ومن الزرقاء إلى أذرعات مرحلة، ومن أذرعات إلى دمشق مرحلتين. على أن صنعة الأميال[3] كانت على جانب كبير من الأهمية ليس بالنسبة للبريد فحسب، بل أنها أفادت كذلك في بيان المسافة التي تجيز للمسلم قصر الصلاة وكذا الإفطار في حالات السفر.

ومن العوامل الهامة التي ساعدت على الرحلة وصف الأقاليم والعناية بها التي اعتبرت جزءاً من أخبار الفتوح والمغازي. كما كانت أنحاء الدولة الإسلامية المتسعة الأرجاء تتطلب الدراسة والوصف، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة، وتسهيلاً لمهمة الولاة. ومن ثم فقد كان أول ما دُوِن في التاريخ الإسلامي، كان

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٧٢.

(٢) المعنى اللغوي لكلمة بريد، هو مسافة قدرت باثني عشرة ميلاً، وقدرها الفقهاء وعلماء المسالك بأربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال. وقيل إن لفظ بريد فارسي معرب وأصله بالفارسية (بريد دم) أي مقصوص الذنب، لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز بذلك عن غيره من الدواب الأخرى. قال الصاحب علاء الدين: ومن جملة الأشياء وضعهم البريد في كل مكان طلباً لحفظ الأموال وسرعة وصول الأخبار ومتجددات الأحوال [الفخري: الأداب السلطانية ص ١٠١؛ القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧؛ نظير حسان: نظام البريد في الدولة الإسلامية ص ١٩ ــ ٢٠].

(٣) صنعة الأميال اصطلاح معناه قياس الطرق بالأميال والفراسخ والمراحل ووضع علامات عرفت باسم (الصوه) سجلت عليها المسافة [أحمد رمضان: الصوه وصنعة الأميال].

تاريخ المدن والأقاليم. وهي التي ارتبطت بالفتوح والجغرافيا، وترجع إلى صدر الإسلام.

ويحدثنا المسعودي[1] في ذلك فيقول: إن عمر بن الخطاب كتب بعد فتوحاته إلى حكيم معاصر له، بأن الله مكَّن للعرب في تلك البلاد فأقاموا في الأرض وسكنوا المدن، وطلب منه عمر أن يصف له المدن وجَوِّهَا ومنازلها وأثر المناخ على سكانها. كما سبق لعمر بن الخطاب أن عهد إلى بعض العلماء بالأنساب العارفين بأيام العرب أن يضعوا قوائم وسجلات القبائل العربية وأن يضعوا أحجاراً تحد المنطقة الحرام[2].

كما كان لوصف المدن والبقاع أهمية خاصة من الناحية الاقتصادية، فقد ساعدت الدولة الإسلامية في تحديد ثروة تلك البلاد ومعرفة قدرتها على دفع الجزية والخرّاج.

ومن العوامل الدينية التي ساعدت على الارتحال في فجر الإسلام، هو جمع الحديث من أفواه الرواة، فيحدثنا ابن سعد[3] في طبقاته، أن الحديث في النصف الثاني من القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني، لم يكن يؤخذ «بالسماع» و«القراءة» فحسب، بل استخدمت إلى جانب ذلك، طريقتان أخريان هما: «المكاتبة والمناولة»، إلا أن الطريقتين الأوليين اعتبرتا أفضل الطرق وسميتا «الرواية على الوجه». نذكر ممن اتبع طريق «الرواية على الوجه» على سبيل المثال، عبد الله بن عبيد[4] الرحمن (ت ١٨٣هـ/٨٩٨م) روى كتب الثوري على وجهها وروى عنه الجامع[5].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٣.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٤٢.
(٣) ابن سعد: الطبقات ج ٧ ص ٣٢٨.
(٤) المرجع السابق ج ٧ ص ٣٢٩.
(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٦٣.

وتروي لنا كتب علم الحديث، وكتب طبقات المحدثين، قصصاً كثيرة عن المحدثين الذين قاموا برحلات شاقة[١] في سبيل جمع الأحاديث المحفوظة في صدور الرواة المتفرقين في أنحاء العالم الإسلامي ليدونوها لأول مرة[٢].

وطبيعي أن تكون الرحلة من أهم الوسائل لطلب العلم في أوائل العصر الإسلامي، فقد كانت الكتب نادرة، وكانت الدراسة العملية تقوم مقام المراجع والمؤلفات اليوم. وفضلاً عن ذلك، فقد تعددت مراكز الثقافة في ديار الإسلام، فكان رجال العلم ينتقلون من إقليم إلى آخر يدرسون على مشاهير الأساتذة ويلتقون بأعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين وكذا الأطباء والفلاسفة والرياضيين[٣].

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في العصر العباسي، حرص الخلفاء على معرفة أجناس دولتهم، وطرق التحكم فيها، مما جعلهم يهتمون اهتماماً خاصاً بصورة الأرض وما احتوت من بحار وأنهار وجبال وغير ذلك من معلومات يتحتم معرفتها. لذلك نجد أبا جعفر المنصور يأمر بترجمة بعض العلوم إلى العربية وخاصة علم الفلك[٤] مما له اتصال بعلم البلدان، واقتفى أثره كل من جاء بعده من خلفاء العباسيين وبخاصة المأمون الذي أمر بترجمة كتاب بطليموس، الذي نقل عنه الخوارزمي[٥] معاصر الخليفة المأمون.

وقد أدت حركة الترجمة هذه إلى نهضة علمية كبيرة في جميع العلوم العقلية. أو كما يسميها العرب، علوم الأعاجم، ومن بينها علم البلدان أو علم الجغرافيا. وقد ظهر في العصر العباسي أكثر من اتجاه، فقد وجد في بادىء الأمر الاتجاه الرياضي الذي عني في المقام الأول بعلم الأطوال والعروض، ومن ثم

---

(١) ابن حجر: التهذيب ج ١١ ص ١١٩.
(٢) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ج ١ ص ١٠٤.
(٣) زكي حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٧.
(٤) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤.
(٥) أبو الفرج الملطي: مختصر الدول ص ٢٣٦.

سمي هذا الاتجاه بالجغرافية الرياضية وتقويم البلدان الذي بلغ تطوره في مؤلفات ابن سعيد المغربي وأبي الفداء.

أما الاتجاه الثاني، فقد اهتم بوصف المسالك والممالك والعجائب والرحلات ولذا سمي بالجغرافيا الوصفية. وقد أخذت الجغرافيا الوصفية في التطور، إلا أنها تخلت منذ القرن التاسع الهجري عن الوصف الدقيق والتعبير المعقول المقبول، واهتمت بالتراجم ووصف المزارات والأضرحة والخانقاوات التي أحيطت بالكثير من الأساطير والمعجزات وكرامات الأولياء.

ولعل من أهم بواعث الرحلة وأعظمها شأناً عند المسلمين تأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد سجّل النابهون من هؤلاء الحجاج مشاهداتهم وارتساماتهم وأحاسيسهم وكذا الطرق والدروب التي مروا بها وسلكوها والأحداث التي صادفوها في مصنفات عرفت بكتب الرحلة. وليس من شك في أن مدونات شاهد الرؤ يا أصدق قيلاً وأقوى تأثيراً ممن سمع أو قرأ أو استنبط. وكان الحاج يجني من رحلته إلى الحجاز فضلاً عن تأدية الفريضة، فوائد جّمة، منها الالتقاء بمعظم علماء وفقهاء العالم الإسلامي، ومنها المجاورة ثم التجارة التي يجني من ورائها النفع والكسب المادي.

وإذا أضفنا إلى ما تقدم الرحلة من أجل التجارة التي اتسع نطاقها عند المسلمين في العصور الوسطى. ولم يكتف بالارتحال في البر وفوق أديم الصحراء، بل لم يثنهم هول البحر من ركوبه والإتجار على شواطئه وموانيه بل ظهر منهم المعلمون المهرة والتجار الحاذقون من أهل سيراف والبحرين وعُمان أمثال أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر السيرافي، وأبي الزهر البرختيّ الناخذاه والحسن بن عمر واسماعيل بن ابراهيم بن ابراهيم بن حرواس الناخذاه وعبهرة الربان الكرماني، وسليمان المهدي، الذين جابوا المحيط الهندي ومنه إلى شبه جزيرة الهند، بل وصلوا إلى بحر الظلمات (أي المحيط الهادي) حتى بلاد الصين.

ولم يكتفِ المسلمون بالارتحال من أجل التجارة إلى شرق الدولة الإسلامية، بل تطلعوا إلى غرب العالم المجهول فوصلوا إلى ساحل بحر البلطيق فتبادلوا

المتاجر مع روسيا وفلندة والسويد والنرويج. ومن أشهر الرحالة المسلمين الذين جابوا أنحاء شرق ووسط اوروبا ابن فضلان، الذي ذهب إلى البلغار بإقليم الفولجا. كما وصلوا إلى غرب البحر المتوسط حتى الأندلس والمحيط الأطلسي، فزاروا الجزائر البريطانية وجزيرة ايسلندة، وغيرها من الدول الاوروبية.

ومما يؤيد وصول الرحالة المسلمين إلى تلك البقاع البيان الذي سجله المقدسي[1] في كتابه عن السلع التي كان التجار يرجعون بها إلى ديار الإسلام بعد رحلتهم إلى جنوبي روسيا ودول اوروبا الشمالية. ومن أهم تلك السلع أنواع الفراء والجلود والشمع والنشاب والقلانس والعسل والسيوف والدروع والأغنام والبقر. ولعل من أهم السلع التي كانوا يأتون بها من اوروبا هو الرقيق من السلاف والجرمان وسائر سكان اوروبا والذي كان يطلق عليهم العرب اسم الصقالبة. كما كانوا يحضرون من القسطنطينية ومن شبه جزيرة ايطاليا المنسوجات بأنواعها والمعادن، كما كان للمنسوجات الشرقية والسجاد سوق رائجة في تلك البلاد.

وإذا كان طلب العلم والحج والتجارة، هي العوامل التي دفعت المسلمين إلى الرحلة، فإن هناك عاملاً آخر دفع غير المسلمين إليها في العصر الحديث، ألا وهي الكشوف الجغرافية ثم الاستعمار.

من المعروف أن تهافت المغامرين والمكتشفين من الاوروبيين والبعثات العلمية لارتياد بلاد المشرق عامة والإسلامي منه بصفة خاصة، إنما حدث عندما انتهى الحكم الإسلامي في الأندلس. هذا فضلاً عن الكشوف الجغرافية التي بدأها البرتغال والاسبان في أوائل القرن السادس عشر، وذلك بالدوران حول القارة الافريقية واكتشاف رأس الرجاء الصالح، الذين كان كل أمانيهم هو تدمير كل ما هو إسلامي، وفي نفس الوقت استعمار بلاد المشرق الأقصى ذات الموارد الطبيعية التي تحتاجها مصانع اوروبا في ذلك الوقت.

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٣٧.

فقد أثارت الأرباح الطائلة التي اختص بها التجار العرب والمسلمون من تجارة الشرق، الحقد والحسد في الممالك الأوروبية مما دفعهم إلى التفكير في إيجاد طريق[1] آخر لهذه التجارة. وكان أول من فكرّ في إيجاد طريق آخر البرتغال عندما تولى عرشها الملك هنري الذي عرف بهنري الملاح (Henri Le Navigateur) الذي رأى أن يصل الهند عن طريق غرب أفريقية بدلاً من شرقها[2]. فأرسل لذلك الغرض بعوثاً بحرية الواحدة تلو الأخرى حتى استطاع الملاح البرتغالي الشهير برثلموميو دياز (Balrthelemio Diaz) أن يصل إلى جنوب أفريقية حتى وصل إلى خليج (الاجوا) وأطلق عليه اسم (رأس الزوابع) لهول ما لقيه في السير حوله[3].

وفي عهد الملك ايمانويل البرتغالي[4] استطاع الملاح فاسكو دي جاما (Vasco De Gama) بمساعدة البحار العربي القدير (ابن ماجد)[5] مواصلة اكتشاف برثلوميو دياز (Bartholomio Diaz) فوصل إلى رأس الزوابع وسماه تفاؤلاً «رأس الرجاء الصالح».

وبعد أن كابد المصاعب والأخطار في السير حوله لشدة الرياح الشرقية والتيارات البحرية، استطاع التغلب عليه. ولعل ما يدعو للدهشة في هذا المقام أن نعرف أن الذي ساعد البرتغال الذين أرادوا الذهاب إلى الشرق لاغتصاب طريق تجارة الشرق من العرب واستعمار بلادهم، إنما هو بحار عربي قدير هو شهاب الدين أحمد بن ماجد[6]. فقد استطاع ابن ماجد بفضل خبرته البحرية وتمرّسه في ركوب تلك البحار[7] ومعرفة الرياح التي تهب عليها والتيارات والدوامات التي

---

(١) السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك ص ٨٧.

(٢) ابراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١١٤.

(٣) اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٣١.

(٤) الشيخ زين الدين: تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين ص ١٩٧ (طبع لشبونة).

(٥) شهاب الدين أحمد بن ماجد: كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد رقم (٥٧) دار الكتب المصرية.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٢ ص ١٨٧.

(٧) هربرت خاسكي: البحر في تاريخ المسلمين وثقافتهم ص ١٦٧.

تجري[1] فيها واسترشاده بكتاب رهماني[2]، الذي وضعه البحارة العرب الأوائل في علم البحار، ليصل إلى الساحل الشرقي لأفريقيا ومنه إلى الهند.

ويصف هايد (Heyd) رحلة فاسكو دي جاما إلى الهند فيقول: وهبط (ملندة) حيث أخذ ما يلزمه من الزاد واستصحب معه بحاراً عربياً يدعى (أحمد بن ماجد) دلَّه على الطريق إلى (قليقوت) (Calicut). فوصل إليها فاسكو دي جاما بهداية هذا الدليل (ابن ماجد) في ثلاثة وعشرين يوماً في ثلاث مسماريات[3]، بعد انقطاع موسم الهند[4]. ويضيف هايد فيقول: ولم يرحّب به في بادي الأمر ملك (قليقوت) الملقب بالسامري، بل زاد في تنفيره منه تجار العرب في تلك الجهات، إذ أفهموه، أن البرتغال ليسوا إلا لصوص بحر لا عمل لهم إلا السلب والنهب في البحار[5].

ولم تكتف البرتغال بهذا القدر من النصر، ولكنها صممت على القضاء على طريق تجارة الشرق القديم قضاء مبرماً. فبدأت ترسل الأساطيل لاستخلاص

---

(١) جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٢٩٣ (تعريب يعقوب بكر).

(٢) الرهماني: كتاب إرشادات الملاحة، من رهنامة في الفارسية (نامة) بمعنى كتاب أو قصة (وراه) طريق. ويضم هذا الكتاب جداول فلكية. وخطوط العرض. كما يضم معلومات عن الرياح والسواحل والشعب، بل كل ما يحتاج الربان إلى معرفته من مد وجزر وخلافه من علوم البحار. وقد ألّف هذا الكتاب (رهماني) ثلاثة من الربابنة القدامى الذين عاشوا في العصر العباسي وهم محمد بن شاذان، وسهل بن إبان وليث بن كهلان. وقد أخذ مؤلفي (رهماني) الكثير عن المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الدركي الذي عاش في عام أربعمائة من الهجرة النبوية.

وقد اعتمد ابن ماجد في تأليف كتابه (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) على نسخة منه، نسخها حفيد ليث بن كهلان، فقد جاء في مخطوط ابن ماجد (وقد رأيت ذلك بخط ولد ولده في رهماني خمسمائة وثمانين سنة) [ورقة (٦) من مخطوط ابن ماجد رقم (٥٧) بدار الكتب المصرية (جغرافيا)].

(٣) المسمارية: اسم السفينة التي تستعمل فيها المسامير لربط ألواحها [ابن سيده: المخصص Dozy]. أما السفن المستعملة في بحر الهند فتربط ألواحها بالألياف ويطلق عليها كلمة (Jonque) وهو اللفظ الذي استعمله ابن بطوطة فعرّبه إلى (جنك) وجمعه أجناك.

(٤) نسبة إلى الرياح الموسمية التي تهب على الهند والتي تعرف باسم (Mousson).

(٥) Heyd. W.: Histoire Du Commerce Du Levant Au Moyen-Age. p. 157

تجارة الشرق من أيدي المسلمين وذلك باحتلال أرضهم التي تطل على المحيط الهندي مثل مسقط وعمان وعدن وغيرها من الموانى الإسلامية[1].

أما عن التأليف عن الرحلة فقد بدأ عند المسلمين الأوائل منذ القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد). ولكنهم لم يدونوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً، أما معظمهم فقد أدمج حديث وأخبار تلك الرحلات فيما ألّفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان. على أن التأليف للرحلة بمعناه الصحيح فيمكن القول بأنه بدأ في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

وليس بوسع دارس للرحلة والرحالة أن يتناولها كلها بالبحث والدراسة فهي تحتاج إلى موسوعات متخصصة، ذلك أنها من الكثرة بحيث لا يمكن أن تعد أو تحصى. فالرحالة ما بين حاج ومعتمر ومرتحل للعلم والمجاورة وما بين تاجر يبغي النفع والكسب المادي ومكتشف عميل للاستعمار.

وقد يكون من المفيد أن أنقل هنا أسماء قرابة مائة من الرحالة جمعهم عبد القدوس[2] الأنصاري، على سبيل المثال لا الحصر، وفيما يلي بيان أسمائهم وأسماء مصنفاتهم:

رحلة الإمام الشافعيّ من مكة إلى المدينة ــ للربيع. رحلة ابن فضلان. رحلة أبي دُلَف. رحلة مسعر بن مهلهل الينبعي. رحلة ابن رشيد الفهريّ الأندلسيّ. رحلة محمد بن أحمد القيسيّ. رحلة الرداعيّ اليمنّي. سفر نامة ــ لناصر خسرو. رحلة أبي حامد الغرناطيّ. رحلة ابن جبير. رحلة العبدريّ. مستفاد الرحلة والاغتراب ــ للقاسم بن يوسف التُّجيبّي السِّبْتِّي. . (ظهر القسم الأكبر من الجزء الثاني منها في عالم النشر بتونس وليبيا سنة ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م). رحلة ابن جابر إلى مكة. رحلة إلى بيت الله الحرام ــ لإدريس بن عبد الله الشاكري. رحلة ابن بطوطة. التعريف بابن

---

(١) الحاج أحمد راشد بك: تاريخ اليمن وصنعاء ص ١١٩.
(٢) عبد القدوس الأنصاري: مع ابن جبير في رحلته ص ١١.

خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ــ لابن خلدون. دُرَرُ الفرائد المنظمة ــ لعبد القادر الجزيريِّ الأنصاريّ. تاريخ المستبصر ــ لابن المجاور. رحلة ابن عثمان الحجازية. الرحلة التجانية ــ لعبد الله التجاني التونسي. حلية الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز ــ للنابلسي. الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز ــ لعبد الغني النابلسيّ. التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية ــ له. الرحلة الذهبية إلى الأقطار الحجازية ــ لأحمد بن علّي الشاذلّي. رحلة الْعَيَّاشيّ. الحلية الحقيقية في الرحلة الحجازية ــ لمصطفى كمال الدين الصديقيّ. النفحة المسكية ــ لعبد الله السُّوَيْدِي. تخليص الإبريز في تلخيص باريز ــ لرفاعة الطهطاويّ. الواسطة في معرفة أحوال مالطة ــ لأحمد فارس الشدياق. كشف المخبأ عن فنون اوروبا ــ له أيضاً. الفوائد السنية في الرحلة المدنية ــ لمحمد ابن أحمد القطبيّ المكي. التحفة اليمنية في الأخبار الحجازية ــ لمحمد بن علّي عَرْعَار اليمني العُنَّابي. رحلة عثمان عبد الرحمن بن الصلاح الشَّهْرَزُوري. وصف رحلة إلى الحبشة ــ لشرف الدين الحِيميّ الشَّبَامي. رحلة ابن عبد السلام الناصريّ. رحلة أبي الطيب الشرقيّ. رحلة نزهة الأنظار ــ للوريثلاني. رحلة الصديقيّ إلى البيت العتيق ــ لمحمد بن صديق خان. تشحيذ الأذهان في سيرة بلاد العرب والسودان ــ لمحمد بن عمر التونسيّ. الرحلة المكية ــ لعلي بن يحي الكيلاني. رحلة الوزير في افتكاك الأسير ــ للوزير محمد بن عبد الوهاب المغربي[1]. نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد ــ لأحمد بن المهدي الغَزَّال المغربيّ[2] (وهما الرحلتان اللتان قام بهما هذان السفيران المغربيان رسمياً من المغرب إلى الأندلس بعد أُفُول

---

(١) أورد الدكتور حسين مؤنس ذكر محمد بن عبد الوهاب سفير سلطان المغرب للتفاهم مع الأسبان بشأن تبادل الأسرى وتحدث في رحلته عن طليطلة وجامعها الذي حولّه النصارى إلى كنيسة. وكانت زيارته هذه سنة ١٦٩١م. راجع ص ٣٣٠ط مصر (عبد القدوس الأنصاري ص ١٢).

(٢) ذكر الدكتور حسين مؤنس في كتابه «رحلة الأندلس» هذه الرحلة، وقال: إنها كانت في سنة ١٧٦٥م حيث زار الغزال قرطبة ولكنه لم يسم رحلته، وقال: إن زيارة هذا الرحالة لقرطبة، كانت «ليتحدث في تنظيم تبادل الأسرى بين المغرب وأسبانيا» راجع ٧١ طبعة القاهرة. كما ذكر أن هذا الرحالة زار أيضاً طليطلة في نفس السنة ووصف كنيستها بأنها كانت جامعاً. راجع ص ٣٣٠ من نفس المصدر والطبعة. (عبد القدوس الأنصاري ص ١٢).

شمس الحضارة الإسلامية عن أجواء تلك البلاد). التحفة السنية للحضرة الحَسَنِيَّة بالمملكة الأَصْبَنْيُونِية ـ لأحمد الكردوديّ المغربيّ. رحلة الشتاء والصيف ـ لمحمد بن عبد الله الحسينيّ المُوسَويّ. رحلة الخياري المدني. دليل الوارد إلى مكة والمدينة من كل فج ـ لِلِّواءِ محمد صادق أمير الحج المصريّ. مشعل الحج في سفر المحمل بحراً وسيره بَراً ـ له أيضاً. نبذة سياحية إلى الآستانة العلية ـ له أيضاً. نشوة الشَّمُول في الذهاب إلى إسلامبول ـ لمحمود الآلوسي. دعوة المُدَام في العود إلى مدينة السلام ـ له أيضاً. فوائد الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب ـ له أيضاً. الرحلة اليمانية ـ للشريف البركاتي المكيّ. الرحلة الأَنْوَرِيَّة إلى الأصقاع الحجازية والشامية ـ لمحمد كُرْد علي. مرآة الحرمين ـ لإبراهيم رفعت أمير الحج المصري. الرحلة الحجازية ـ للبتنوني. رحلة الأندلس ـ له. الرحلة إلى أميركا ـ له أيضاً. الارتسامات اللِّطَاف في خاطر الحاجّ إلى أقدس مَطَاف ـ لشكيب أرسلان. ما رأيت وما سمعت ـ لخير الدين الزركليّ. رحلات محمد رشيد رضا. صور ومشاهدات في الحجاز لمحي الدين رضا. رحلات ـ لعبد الوهاب عزام. في صحراء ليبيا ـ لأحمد محمد حسنين. في منزل الوحي ـ لمحمد حسين هيكل. مع عاهل الجزيرة العربية ـ لعباس محمود العقاد. رحلة الحجاز ـ لإبراهيم عبد القادر المازني. رحلة في البلاد العربية السعيدة ـ لنزيه مؤيد العظم. رحلة الربيع والصيف ـ لطه حسين. في ربوع عسير ذكريات وتاريخ ـ لعمر رفيع. رحلات في عسير ـ ليحي ابراهيم الأَلْمِعِيّ. على خط النار ـ لعبد الله السعد. مذكرات سائح في الشرق العربي ـ لأبي الحسن علي الحَسنيّ النَّدوي. الطريق إلى مكة ـ لمحمد أسد (ليوبولدوايس). رحلة محمد شفيق مصطفى. قلب نجد والحجاز. تذكار الحجاز ـ لعبد العزيز صبري. يوميات عربيٍّ في أميركا ـ لسامي الكَبَّالي. غربيون في بلاد العرب ـ لسليمان موسى. شهر في دمشق ـ لعبد الله بن خميس. المجازُ بَين اليمامة والحجاز ـ له أيضاً. رحلة ينبع لحمد الجاسر. في شمال غرب الجزيرة ـ له أيضاً. رحلة الأندلس ـ لحسين مؤنس. رحلة إلى الشرق ـ لشكيب الأمويّ. رحلة إلى الرَّبْع الخالي ـ لتوفيق شاكر النَّتْشَة. أنا عائد من إسرائيل ـ لإبراهيم عِزَّة. رحلة الربيع ـ لفؤاد

شاكر. رحلة إفريقية الخضراءِ ــ لمحمد العبوديّ. رحلاتي إلى الديار الإسلامية ــ لمحمد محمود الصواف. رحلات صَفْوَت السقا أميني إلى الربوع الإسلامية. رحلة يوسف عثمان المهندس مع الخديوي إسماعيل إلى فرنسا سنة ١٨٦٧م .حول العالم في ٢٠٠ يوم ــ لأنيس منصور. أعجب الرحلات في التاريخ ــ له أيضاً. رحلةٌ إلى دولة تَرَانْزَسْتُور: قبرص (قبرس) لحسين قَدْرِي. رحلتي إلى إفريقيا الغربية ــ لناجي جواد. رحلة الرياض ــ للمؤلف. رحلتي إلى بني سُلَيْمٍ ــ له أيضاً. رحلة الباحة ــ له أيضاً. رحلة الجَار ــ له أيضاً. على هامش الرحلة إلى آسيا ــ لشريف شحاتة. سندبار دبلوماسيّ ــ لأحمد عبد المجيد. رحلة إلى آسيا ــ لشريف شحاتة. رحلة الصيف إلى بلاد البوسنة والهرسك ــ للأمير محمد علي شقيق الخديوي عباس الثاني. رحلة الأمير محمد علي إلى الجهة الشمالية لأميركا. السَّفَرُ إلى المؤتمر ــ لأحمد زكي مترجم مجلس النظار. كتاب منظر اوربا العجيب ــ لنجيب حسين الجُندي. رحلة الأندلس ــ لمحمد لبيب البتنوني. الرحلة إلى أميركا ــ له أيضاً. لندن ــ لأحمد عطية الله. رسائل سائر من بلاد العرب إلى بلاد اليونان ــ للشيخ محمد سليمان. رحلة كلية الآداب إلى ساحل البحر الأحمر وبعض مناطق الآثار بالوجه الْقِبْلِّي ــ لجملة أساتذة أولهم (مقالاً في الكتاب): توفيق الطويل، وآخرهم (مقالاً في الكتاب): إبراهيم أحمد رزقانة. جولة في ربوع العالم الإسلاميّ ــ لمحمد ثابت. جولة في ربوع إفريقية ــ له أيضاً. رحلاتٌ في الإسلام ــ لمحمود خليل الحصريّ شيخ القراءِ والمقارىء بمصر.

ولما كان الأمر كذلك فقد رأينا أن نتناول في مصنفنا هذا مختارات من أهم كتب الرحالة بالبحث والنقد والدراسة والترجمة لأصحابها مراعين في ذلك تسلسل الزمن مع تقسيمهم إلى فئات حسب موضوع وأغراض رحلاتهم.

□ □ □

الباب الأوّل

الرحلة عند العرب قبل الإسلام

بعد العرض الموجز لأسباب الرحلة والارتحال، رأينا من الواجب علينا قبل أن نتناول كتب الرحالة المسلمين بالنقد والتحليل والترجمة لأصحابها أن نسير في إيجاز عن الرحلة عند العرب قبل الإسلام وخاصة في البحار.

لقد كان لطبيعة شبه الجزيرة العربية ولموقعها الجغرافي أثر كبير في الاتجار بحراً على شواطئها، إذ أنها تحد من ثلاث جهات بخط ساحلي بالغ الطول يدور من خليج السويس إلى رأس الخليج الفارسي. وتمتد بالقرب من هذه السواحل اليمن وحضرموت وعمان، ولم يكن الاتصال بينها بحراً أشد هولاً من عبور الصحاري والجبال التي تفصل بينها براً. وكانت الملاحة تهيىء للعرب الاتصال عبر المياه المغلقة في البحر الأحمر والخليج الفارسي بمركزين من أقدم مراكز الثروة والحضارة في العالم، وهما مصر وإيران، فضلاً عن بلاد ما بين النهرين وكان يمكن بلوغها براً وبحراً. كما كان من اليسير عليهم عبور البحر إلى شرق أفريقية في الجنوب العربي والسير بسفنهم على ساحله بحثاً عن سلع المناطق الاستوائية، والبحر الأحمر والخليج الفارسي، يكملهما النيل والفرات ودجلة ممران طبيعيان للملاحة بين حوض البحر الأبيض المتوسط وشرق آسيا. وهكذا نرى أن العرب يطلون من كلا جانبي جزيرتهم على طريقين من الطرق التجارية الكبيرة في العالم.

حقيقة أننا لا نعرف حتى الآن شيئاً يذكر عن نشاط العرب في الملاحة قبل الفتح الهليني للشرق الأوسط، ولكن فيما تركته الشعوب المجاورة لها من النقوش

الكثيرة والكتابات على آثارها ما يشهد بأن سواحل شبه الجزيرة العربية، كانت في جميع العصور التاريخية على اتصال بالبلاد الأخرى بحراً. فتحدثنا النقوش السومرية والأكادية التي ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد عن الصلات البحرية بين بلاد ما بين النهرين وبلاد دلمون (Dilmun)، ولعلها جزر البحرين، وماجن (Magan) وهي عمان، وقيل كان يوجد بها الخشب والنحاس، كما ورد في نقش لجش[1] (Lagash)، ذكر لبناء السفن. وعلى الجانب الغربي للجزيرة العربية كانت السفن المصرية تمخر عباب البحر الأحمر منذ عهد ساحورع من ملوك الأسرة الخامسة، كما قامت عدة رحلات بحرية إلى بلاد بونت في عهد الأسرة السادسة. وكانت السفن التي قامت بتلك الرحلات تعبر البحر الأحمر إلى أقصى الجنوب، ثم تعود في أوبتها في اتجاه مضاد للريح، وهو أمر ليس بالهين في تلك العصور، وكانت تصنع في رأس خليج السويس وتسميها النصوص المصرية أحياناً باسم (سفن الجبال).

كذلك جاء في تاريخ الدولة الآشورية أن أحد ملوك مملكة أرض البحار (Sealand) التي تقع على الخليج الفارسي، وتمتد من مصب نهر الفرات إلى (دلمون)، أي إلى الشمال الشرقي لشبه الجزيرة العربية قد فر في أوائل القرن السابع قبل الميلاد مع بعض أتباعه عبر الخليج الفارسي والتجأ إلى أرض عيلام بعد ثورة فاشلة شنّها على سيده الملك الآشوري سنخريب. فما كان من الملك سنخريب إلّا أن جاء بفينيقيين إلى مدينة مينوى ليبنوا له سفناً قوية. ثم أقام على السفن ملاحين من صور وصيدا وقبرص وأمر بتسييرها جنوباً في مجاري الماء التي تشق البلاد وجرها على الأرض في بعض المواضع، حتى بلغت مصب الفرات. وتقول القصة، وأبحرت الحملة إلى مصب نهر أولاي[2] (Ulai)، الذي كان يصب وقتئذ في الخليج الفارسي مباشرة، وهناك نزل المحاربون إلى البر لملاقاة جنود (أرض البحر) على الشاطىء وأوقعوا بهم الهزيمة. وفي عهد الدولة البابلية الحديثة التي وحّدت غرب آسيا كله ومصر في امبراطورية واحدة، عمل الملك

(١) لجش: مدينة سومرية مكانها الآن تل اللوح بالعراق.

(٢) هو نهر قارون ويصب الآن في شط العرب إلى الجنوب من البصرة بنحو عشرين ميلاً.

دارا الأول على ربط فارس بالهند ومصر بحراً إلى جانب ربطها بهما براً، فبعث بأسطول في نهر السند جنوباً طاف حول الجزيرة العربية حتى وصل إلى مصر.

أما الإسكندر المقدوني فقد عنى عناية خاصة بتنشيط الملاحة في الخليج الفارسي، فاستأجر الفينيقيين للملاحة في الخليج واستيطان شواطئه، كما نقل كثيراً من السفن إلى بلاد ما بين النهرين وبنى بعض السفن مستعيناً بأشجار السرو القريبة من بابل، وعمل على تحسين الملاحة في الفرات والنهوض بميناء بابل، وأرسل ثلاث سفن جنوباً للاستكشاف، وقد جاءت إحدى السفن إلى البحرين حيث شاهد رجالها مصايد اللؤلؤ. وفي القرن الثالث قبل الميلاد كان أهل جرها (Gerrha) على ساحل الاحساء، ومعظمهم من العرب، الذين اشتهروا بسيادة التجارة البحرية والبرية في تلك المنطقة، كانوا يتجرون مع أرض البخور في جنوب شبه الجزيرة العربية عن طريق القوافل، كما كانوا يتجرون براً وبحراً مع مدينة سلوقية (Seleucia) على نهر دجلة، التي كانت السفن البحرية تستطيع التصعيد إليها فكانت نهاية الملاحة في الخليج[١].

وقد ظلت تجارة الخليج الفارسي طوال عهد الإمبراطورية الرومانية في حوزة مدن صغيرة تقوم بدور الوسطاء ويشغل العرب فيها مركزاً مرموقاً، مثل مدينة خاراكس[٢] وأبولوجوس ثم مدينة تدمر في صحراء سوريا، ولم يحاول الرومان القضاء على هذا النظام إلّا عندما فتح الامبراطور تراجان بلاد ما بين النهرين، ولكن سرعان ما استعادت تدمر بعد ذلك ازدهارها ونشاطها التجاري، فقد وافقت روما على تركها شبه مستقلة حتى يستطيع تجارها مزاولة تجارتهم في كلتا الإمبراطوريتين: الفارسية والرومانية.

وهكذا نرى أنه قد قامت في تلك الفترة التاريخية تجارة بحرية منتظمة من الخليج الفارسي إلى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، وأن عرب الخليج لعبوا دوراً أساسياً في هذه التجارة، ومع هذا فإن العصر الذهبي للخليج

---

(١) Muller: On the Erythraean Sea, p. 142

(٢) يقول (Pliny) أن خاراكس كانت سنة ٧٧م على حدود دولة البارثيين وكان يقوم عليها أمير سامي.

الفارسي لم يكن قد حان، فقد كانت الصدارة في تلك الأيام للبحر الأحمر. واعتماداً على ما ذكره أجاثارخيدس، واسطرابون وبربيلوس، وبليني الكبير، وعلى ما ورد في بعض النقوش الأثرية نستطيع أن نكوّن فكرة واضحة عن العرب والبحر الأحمر في العصر الهليني وأوائل العصر الروماني.

لقد سبق القول أن بطليموس الثاني اهتم بالكشف عن الشاطىء الأفريقي من البحر الأحمر، كما أقام عدة موانىء عليه مثل برنيس[1] (Berenice) وغيرها من المواني. وأنه لم يهمل أمر الشاطىء الشرقي للبحر الأحمر، فقد كلّف ارستون (Ariston) بأن يبحر من خليج السويس إلى باب المندب مستكشفاً في طريقه الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية. كذلك جعل بطليموس الثاني ومن جاء بعده من ملوك البطالمة خليج العقبة صالحاً للملاحة أمام التجار[2]. وهنا يقول أجاثارخيدس[3] السكندري أنهم (أي ملوك البطالمة) جعلوا العقبة صالحاً للملاحة أمام التجّار، ويضيف، وربما كان الغرض من هذا جملة الاستكشاف التي قام بها ارستون هو إعادة فتح الطريق الذي كان يسلكه سليمان وحيرام، إذ كانت فلسطين وفينيقيا خاضعتين لحكم البطالمة. وقد أثارت هذه المحاولة النبطين الذين كانوا يسيطرون على الطرف الشمالي من طريق القوافل الممتد من بلاد العرب الجنوبية ويغولون عليه في معاشهم، ويقول أجاثارخيدس عن النبطين «كانوا منذ القدم يعيشون عيشة راضية قانعة، بما تمدهم بها قطعانهم من غذاء، ولكنهم فيما بعد عندما جعل ملوك الاسكندرية الخليج صالحاً للملاحة أمام التجار أخذوا يهاجمون الناجين من السفن المحطمة، ويبنون سفن القرصنة لسلب الملاحين بالغين في ذلك ما بلغه التاوري[4] (Pontic Tauri) من قسوة

(١) تقع برنيس تجاه مدينة أسوان بالإقليم المصري.

(٢) Cary & Warmington: The Ancient Explores, p. 67

(٣) Rostovtzeff: Social & Economic History of the Hellen World, Vol. 1, p. 383.

(٤) التاوري: هم سكان الساحل الجنوبي من شبه جزيرة القرم المطلة على البحر الأسود (Pontus) ويقول عنهم هيرودوت أنهم كانوا يقدمون ركاب السفن الغارقة وكل من يأسرونهم في البحر من اليونانيين قرابين لآلهتهم العذراء (يعقوب بكر ــ العرب والملاحة هامش ص ٥٩).

وخروج على القانون. ولكن دهمتهم في عرض البحر السفن التي تضم صفوفاً أربعة من المجاديف (Quadrireme) أنزلت بهم ما يستحقون من عقاب».

فنتبينّ مما تقدم أن التجارة البحرية والبرية بين الهند وشبه الجزيرة العربية ومصر، كان معظمها في العصر الهلينستي في أيدي العرب، وبالإضافة إلى ما جاء في كتب الجغرافيين والمؤرخين القدامى عن ذلك، فقد عثر في الجيزة على تابوت عليه نقوش بالخط العربي الجنوبي واللهجة المعينية، مؤرخة بالسنة الثانية والعشرين من (بطلميوس بن بطليموس) أي سنة ٢٦٣ ق. م. وترجمة النص هو أن رجلاً من (معينيا) يسمى زيد ــ آل زيد كان يعمل كاهناً في أحد المعابد المصرية، وكان يستورد المر والذريرة (قصب الطيب) من بلاده للمعبد، ويصدّر إليها على السفينة التجارية التي يملكها، أثواباً جميلة من البز المصري[1]. ولم تقف تجارة العرب البحرية عند نهاية البحر الأحمر فحسب، بل تعدتها إلى البحر الأبيض المتوسط، فقد عثر في جزيرة ديلوس (Delos) ببحر أيجه، أهم مراكز شرق البحر الأبيض المتوسط التجارية في القرن الثاني قبل الميلاد، على كثير من النقوش المعينية والسبأية، وكلها ابتهالات وتقديس لآلهة عرب الجنوب.

أما في العصر الروماني، فقد كانت العلاقات التجارية مع البلاد العربية بسيطة، وذلك لاختلال الأمن في البحر الأبيض المتوسط، وللحروب الأهلية الرومانية، وقد أشار استرابون إلى ذلك بقوله: فيما مضى لم يتعد عدد السفن التي تستطيع عبور الخليج العربي (أي البحر الأحمر) والخروج إلى ما وراء المضيق (باب المندب) «عشرين سفينة»، أما في عصر الامبراطور أوغسطس (٣١ ق. م ــ ١٤ م)، فقد عاد الأمن إلى نصابه في البحر الأبيض المتوسط، كما هدأت الحروب الأهلية في الداخل فزاد الإقبال على التحف الشرقية وتجارة الهند»، ثم يضيف استرابون: إن أكثر من ١٢٠ سفينة كانت تبحر في العام من ميناء ميوس هورموس (Myus Hormus) إلى الهند، وعلى خلاف ما كانت عليه الحال من قبل. وقد بلغت تجارة الشرق قيمة كبيرة عند الرومان وظهرت في شبه

(١) Rostovtzeff: The Social & Economical History of the Hellenistic World, vol. II, p. 702.

الجزيرة العربية مدن جديدة أصبحت موانىء بحرية هامة مثل ميناء موزا (Muza) لشهرتها باللبان والعطور السبأية، لذلك حاول الرومان السيطرة على بلاد العرب الجنوبية، فاحتلوا ميناء عدن (٤١ ــ ٥٤ م) وأبقيت حامية رومانية هناك. وفي عهد الامبراطور تراجان وهدريان ازدهرت الطرق التجارية البحرية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي، وذلك بفضل المشـروعات الكثيرة التي قاموا بها في هذا الشأن، مثل إعادة حفر قناة تراجان التي تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض.

وفي القرن الثالث الميلادي ذبلت التجارة الرومانيـة الشرقيـة، نتيجة للاضمحلال السياسي والتدهور الاقتصادي وانخفاض قيمة العملة. كما ظهر في هذا القرن دولة فارسية وطنية في إيران اعتبرت نفسها الوارثة الشرعية لملوك الأخمينيين وبذلك أصبحت فترة حكم السلوكيين والبارثين، من وجهة نظرها، دخيلة في تاريخ الفرس. وفي القرن الرابع انقسمت الدولة الرومانيـة إلى قسمين، غربي وعاصمته روما وشرقي وعاصمته القسطنطينية، وهكذا أصبح يتنازع القوى في منطقة الشرق الأوسط قوتان كبيرتان، هما: الدولة الساسانية والدولة البيزنطية.

وقد شجعت الدولة الساسانية الملاحة والتجارة البحرية، وأسس أول ملوكها ازدشير الأول عدة موانىء بحرية ونهرية للاتجار مع شعب شرق أفريقية، وكان الساسان يطلقون عليهم اسم (زند أفريك)[١]. وقد أدى نشاط الفرس في الملاحة البحرية وازدياد نفوذهم في تجارة الشرق، إلى تهديد مصالح التجار العرب، مما دعا عرب البحرين وسائر عرب السواحل إلى عبور الخليج الفارسي والإغارة على الدولة الساسانية، ولكن الشاه شابور الثاني استطاع أن يرد على عرب شبه الجزيرة بالإغارة عليهم في عقر دارهم واحتلال البحرين وأقام حامية فارسية هناك.

---

(١) Brown: E. G. A Literary History of Persia, P. II0

أما بالنسبة لليونان والرومان فقد اضمحلت صلاتهم التجارية بالعرب منذ القرن الثالث الميلادي واستمر الحال كذلك إلى القرن السادس، وقد نتج عن هذه الحال أن كثيراً من المراجع التاريخية المعاصرة لتلك الفترة، كانت تطلق اسم (الهنود)[1] خطأ على الأحباش والحمرين، وذلك لجهل معظمهم بالعرب وساكني شواطىء البحر الأحمر. وفي القرن السادس استعادت التجارة البحرية بين الشرق والغرب بعض نشاطها القديم، فقد كان التجار اليونان يسلكون طريقين في البحر الأحمر، الأول يمتد من الاسكندرية مصعداً في النيل ثم يعبر الصحراء إلى أحد الموانىء، ومنه يسلك البحر الأحمر حتى ميناء (أدولس)[2] ثم إلى أكوم في الحبشة. وكان الطريق الثاني يبدأ من ايلة ويمتد على طول الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة العربية، وكانت السفن ترسو إذا جن الليل عند أحد المراسي الطبيعية.

وعلى الرغم من أن مؤرخي القرن السادس الميلادي، لم يذكروا شيئاً عن الملاحة العربية، فليس معنى هذا أنه لم يكن للعرب ملاحة في ذلك الوقت، وإن كان فيه ضمناً ما يدل على أن سفنهم التجارية لم يكن لها شأن يذكر في أعالي البحار، وكان هذا نتيجة حتمية للتدهور والإضمحلال السياسي والاقتصادي اللذين أصابا بلاد العرب الجنوبية في القرن السادس. فقد أرسل ملك أكسيوم حملة بحرية كبيرة سنة **٥٢٥** م أبحرت من ميناء أدولس وعبرت البحر الأحمر إلى بلاد اليمن، ولم يكن لدى (ذونواس) طاغية حمير أسطول حربي يصد به هجمات عدوه في البحر، فاستطاع الأحباش الاستيلاء على اليمن وأخضعوها لنفوذهم. أما من الناحية الاقتصادية، فقد تحول طريق التجارة الشرقية من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي ومنه إلى شط العرب ثم تختتم رحلاتها في (ثيريدون) عند مصب الفرات ومن هناك تحمل على ظهور الإبل حتى سوريا التي كان يسميها الصينيون (تا ـ تسن).

---

(١) العرب والملاحة في المحيط الهندي (ترجمة) ص ٩٣.

(٢) ميناء على الشاطىء الغربي للبحر الأحمر في الصومال.

وهكذا نرى أن نفوذ عرب الجنوب قد اضمحل على عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم. وانتقلت القوة والحيوية إلى عرب الشمال، المناذرة المجاورين للدولة الساسانية، والغساسنة المتاخمين للدولة البيزنطية، ولم يكن عرب الشمال أهل بحر. وإنما قدّرت لهم ظروفهم الجغرافية أن تربط حياتهم بتجارة القوافل القادمة من الجنوب والشرق إلى الشمال والغرب حاملة ثروات أفريقية وآسيا إلى الدولتين اللتين كانتا تفرضان سلطانهما على الشرقين الأوسط والأدنى في ذلك الوقت. أما عن عرب وسط شبه الجزيرة ونعني بهم عرب الحجاز، فقد كانت لهم صلة وثيقة بالحبشة عبر البحر الأحمر، بدليل هجرة نفر من أوائل المسلمين إليها، وإن كان عجز قريش عن مطاردة المهاجرين يدل على أنه لم يكن لديهم سفن خاصة بهم. ولما أسلم عرب وسط شبه الجزيرة وبلغت فتوحاتهم السواحل المحيطة بهم، أظهر بعضهم ميلاً إلى ركوب البحر، ولم يكن ميهلم سوى امتداد للنفوذ الذي دأب عليه العرب في الجاهلية منذ أقدم العصور، فكان الرجل يركب مركباً كما يركب جملاً، إما للتجارة أو للإغارة، وكان أول من قام بغارة بحرية من شواطىء شبه الجزيرة، هو عثمان بن العاص الثقفي والي البحرين، فقد أبحر من عمان في غارة جريئة على ساحل الهند عند (تانة) بالقرب من بمباي، كما اتجه أخوه إلى خور (الديبل) عند مصب نهر السند، ولما رجع جيش عثمان الثقفي من تانة، كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بذلك، فكتب إليه عمر: «يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم»[1]. وأراد العلاء بن الخضرمي[2] خليفته في ولاية البحرين أن يظهر جرأته وإقدامه، فعبر إلى فارس وتوغل فيها بعيداً حتى اصطخر فارس، وكان ذلك بتحريض من أهل ولايته فجمع لذلك إثني عشر ألفاً من المسلمين وركب البحر. وعلى الرغم من أن المسلمين عادوا إلى البصرة

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٧.

(٢) ذكر كثير من المؤرخين أن أول من ركب البحر في أمم الإسلام هو علاء بن الخضرمي، منهم البلاذري ص ٤٦٤ (المقريزي ج ١ ص ٢٧١، الماوردي الأحكام السلطانية ص ١٩٤ إلى ص ١٩٦، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٤.

محملين بالغنائم إلّا أن الحملة باءت بالفشل وفقد المسلمون سفنهم التي عبروا بها الخليج إلى فارس. فلما علم الخليفة بأمر تلك الحملة غضب على العلاء غضباً شديداً، لأنه أولاً قام بها دون إذن منه، وثانياً لأنه عمر كان يكره ركوب البحر، ولذا قرر عزل العلاء.

□ □ □

الباب الثاني

الرحلة في أوائل العصر الإسلامي

لقد ارتبطت الرحلة عند المسلمين منذ البداية بعلم تقويم البلدان أو علم الجغرافيا، ذلك أن الرحالة عنوا عنـاية خاصة بوصف المدن والبلدان وذكر طرقها وشعابها وجوها ومناخها ونباتاتها وحاصلاتها. كذلك عني الرحالة بعلم تقويم البلدان لحاجتهم إلى معرفة الطرق إلى مكة وذلك للقيام بفريضة الحج، هذا فضلاً عن عناية الرحالة بالتجارة.

ويتضح من رحلات السندباد البحري التي وردت في كتاب ألف ليلة وليلة، والتي ترجع إلى عهد الخليفة هارون الرشيد، أن العرب قاموا في العصر العباسي برحلات بحرية تبدأ من بغداد وتسير في الخليج الفارسي حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا (شبه جزيرة الملايو). وكان التجار يشجعون هذه الرحلات التي تجلب لهم توابل الهند وعطورها وحرير الصين.

وليس من المستبعد أن يكون الرحالة العرب قد وصلوا في رحلاتهم إلى بلاد الصين في القرن الثاني للهجرة[1]. وأنهم كانوا من بين الأجانب الذين فتح لهم ميناء كانتون وأسواقها (سنـة ٨٢ هـ / ٧٠٠م)، فقد أثبتت بعض القصص التي وقعت بتلك المدينة (سنة ١٤١هـ/٧٥٨م) وجود العرب هناك[2].

(١) Bretschneider, E: On The Knowledge Possessed by The Ancient Chinese Of The Arabs & Arabian Colonies And Other Western Counties Mentioned In The Chinese Books. p. 28 [London 1871].

(٢) ارنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣٣١ (ترجمة حسن ابراهيم).

كما جاوز الرحالة العرب جزيرة سيلان في العصر العباسي الأول، فبعد أن كان الرحالة في أوائل العصر العباسي يجوبون البحار الواقعة على ساحل الهند، أصبح من النادر أن يجوبوا الخليج الفارسي، فقد اتسعت مدى رحلهتم حتى وصلت إلى بلاد الصين. وكان المركز الرئيس لهؤلاء الرحالة في طريقهم إلى الصين هو ميناء سيراف حيث تجتمع فيها السلع الواردة من البصرة وعُمان وغيرها من هذه الجهات[1].

وتحدثنا كتب الرحالة عن صعوبة الملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصر الإسلامي، حتى يخيل لنا نحن أبناء القرن العشرين وكأنها أساطير أو ضرب من الخيال، فقد جاء في كتاب «عجائب الهند بره وبحره وجزائره» للرحالة المشهور (برزك بن شهريار الناخذاه[2] الرام الهرمزي) في قصته عن مهارة عبهرة في الملاحة ما يلي: أصله من كرمان، وكان ببعض عراها[3] يرعى الغنم ثم صار أحد بانانيه[4] مركب يختلف إلى الهند، ثم تحول إلى مركب صيني ثم صار بعد ذلك رباناً وله في البحر طرايق. وسافر إلى الصين سبع مرات، ولم يكن سلك قبله إلى الصين إلا من غرر»[5]. ثم يحدثنا عن غرق سفينته في الطريق إلى الصين فيقول: «ومن مصائب البحر المشهورة التي أثرت إلى يومنا هذا، أنني خرجت في مركب من سيراف في سنة ست وثلثمائة (سنة ٩١٩م) نريد صيمور، وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد ومركب سبها، وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر، ومن المراكب الموصوفة في البحر ونواخذتها مشهورون لهم قدرة ومنزلة في البحر. وفي المركب ألف ومائتا رجل من التجار والنواخذة والبانانية والتجار وغيرهم من صنوف الناس. وفيها من

---

(١) Heyd'W: Histoire Du Cammerce Du Levant Au Moyen Ages Tome. I, p. 72.

(٢) العرب والملاحة في المحيط الهندي ص٢٩٣.

(٣) عرى: مفردها عروة أي الناحية.

(٤) بانانية: جمع باني، ومعناها هنا الملاح، وإن كان المراد به عادة التاجر الهندي والكلمة هندية الأصل.

(٥) غرر بنفسه: عرضها للتهلكة.

الأموال والأمتعة ما لا يعرف مقداره لكثرته، فلما سرنا أحد عشر يوماً، رأينا آثار الجبال ولوايح أرض سندان وتانة وصيمور» ثم يضيف فيقول: «ثم جاءنا الريح من الجبال فلم نضبط الشرع، أخذنا الخب والمطر والرعد والبرق، فقال الربابنة والبابانية نطرح الأمتعة فمنعهم أحمد (ربان مركبنا) وقال: لا أطرح حتى يخرج الأمر من يدي وأعلم أني هالك. ونزل الناس ينزفون الجمة[1]، فلما كان اليوم السادس، وكاد المركب أن يغوص في البحر، قال: اطرحوا الحمولة، فلم يمكن طرح شيء لأن الخوابي[2] والأعدال[3] ثقلت بالمطر، وكان ما فيه خمسمائة منا[4]، فقد صار ألف وخمسمائة منا بالمطر وعاجلهم الأمر وطرحوا القارب إلى الماء. ونزل فيه ثلاثة وثلاثون رجلاً، وقيل لأحمد: قم فانزل في القارب، فقال: لا أبرح مركبي، فإنه أرجي في السلامة من القارب. وإن تلف أتلف معه فلاحظ لي في الرجوع بعد تلف مالي». ويستطرد بزرك في سرد القصة فيقول: ولشدة الجوع وما نحن فيه أومأ بعضنا إلى بعض أن نأكل واحداً منا، وكان معنا في القارب صبي سمين لم يبلغ الحلم، وكان أبوه في جملة من تخلف في المركب، فعزمنا على أكله، فأحس الصبي بذلك فأخذ ينظر إلى السماء ويحرك شفتيه وعينيه تحريكاً خفيفاً، فما مضت ساعة حتى رأينا آثار الأرض».

وينهي بزرك قصته فيقول: وهلك جميع أهل المراكب الثلاثة، فلم يسلم منهم إلا نفر من الذين كانوا في القارب».

وقد وصف الجاحظ[5] في كتابه «البيان والتبين» مثل هذه القصص التي يرويها رجال البحر فقال: وذكر بعض الحكماء أعاجيب البحر وتزيد البحرين فقال: البحر كثير العجائب، وأهله أصحاب الزوائد، فأفسدوا بقليل الكذب

---

(١) الجمة: الموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح.

(٢) الخوابي: جمع خباء يقول دوزي: توجد في مؤخر السفينة وهي كبينة ذات جانبين ومكشوفة للسماء [دوزي ج ٢ ص ٣٤٧].

(٣) الأعدال: جمع عدل وهو الكيل.

(٤) المن: كيل معروف أو ميزان أو رطلان.

(٥) البيان والتبين ج ١ ص ١٩١ ــ ١٩٢.

كثير الصدق وأدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكاد أن يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سلّمًا إلى ادعاء المجال».

وقد اقتبس المؤرخ التنوخي(١) من مثل كتاب بزرك الكثير في كتابه «الفرج بعد الشدة».

كذلك أورد لنا الرحالة عبيد الله (٢) البكري وصفاً مختصراً لرحلة قام بها رحالة يهودي من تجار الرقيق اسمه ابراهيم بن يعقوب وهو من الأندلس برحلة للتجارة خلال المانيا وبلاد الصقالبة في عهد القيصر (أتو) (Otto) الكبير في (سنة ٢٦٣هـ/٩٧٣م) على وجه التقريب، فلما عاد إلى الأندلس قدم وصفاً لرحلته هذه إلى الأمير الأموي(٣) في قرطبة عبد الله الذي تولى بعد والده عبد الرحمن الثاني من (سنة ٢٣٨ ــ ٢٧٣هـ). ويعلّق بروكلمان (٤) على هذه القصة فيقول: وهذه الرحلة التي لم يكن يراد لها التداول الأدبي حُفظ لنا مختصراً في مصنف البكري في الجغرافيا العامة. وقد نشرت هذه الرحلة كونيك (Kunik) وروزن (Rosen) مع ترجمة روسية في سان بطرسبرج (سنة ١٨٧٨ ــ سنة ١٩١٣م).

كذلك أورد لنا المقري قصة أحد الرحالة من مدينة أسوان بمصر وهو سُليِّم الأسواني الذي صَعَّدَ في نهر النيل حتى نهاية بلاد النوبة. وقد دوّن سُليِّم رحلته هذه كتاب سماه «أخبار النوبة» ولكن للأسف فإنه لم يصلنا ولا نعرف عنه غير المقتطفات التي أوردها المقري.

ولم تقتصر رحلة العرب على البحر، بل قاموا كذلك برحلات برية ولعل من أهم الشخصيات التي تردد ذكرها في المصادر التاريخية، سلاَّم الترجمان، فقد ذكره القزويني(٥) فقال: إن سلاماً الترجمان أمره الخليفة العباسي الواثق بالله

---

(١) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٧٩ ــ ٨٨.

(٢) البكري: المسالك والممالك ص ١٨٧.

(٣) المقري: نفح الطيب في عصر الأندلس الرطيب ج ٣ ص ٩٧.

B. b. Sh. The Book of Travels Of India. (Trans. By P. Quennel, London. 1928).

(٤) بروكلمان ج ٤ ص ٢٥٢.

(٥) القزويني: الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ٩٣.

بالرحيل ليتفقد السد الذي بناه الاسكندر ذو القرنين، وذلك تنفيذاً لرؤ يا رآها في المنام مؤداها، أنه رأى السد الذي بناه الاسكندر والذي يقع بين بلاد المسلمين وبين يأجوج ومأجوج، مفتوحاً فأخافته الرؤ يا.

وسار سلاَّم من مدينة سرمن رأى ومعه خمسون رجلاً ومائتا بغل تحمل الزاد والماء، ويقول ياقوت[1]: وقد استجاب حاكم أرمينيا لخطاب التوصية الذي أرسله الخليفة إليه مع سلاّم ليقضي له حوائجه ويسهّل مهمته، فزوده حاكم أرمينيا بدوره بخطاب يرجو فيه حاكم إقليم السرير أن يكون مبعوث الخليفة العباسي، موضع عنايته ورعايته.

ويضيف الإدريسي فيقول[2]: وكتب حاكم إقليم السرير إلى أمير إقليم اللان، وكتب الأخير إلى أمير فيلانشاه وكتب هذا بدوره إلى ملك الخزر في إقليم بحر قزوين الذي أرسل معه خمسة من الأدلاء، ساروا حتى وصلوا بعد ستة وعشرين يوماً إلى أرض سوداء كريهة الرائحة، ولكن الأدلاء كانوا مستعدين لاتقاء هذه الرائحة الكريهة بحمل الخل معهم. وأخيراً انتهوا إلى السور والسد المنشود، وعلى مقربة منه وجدوا حصوناً تسكنها أمة مسلمة تتكلم العربية والفارسية، ولكنها لم تسمع بخليفة للمسلمين.

ومن القصص الغريبة التي قيل أن سلاّم الترجمان قد قصها بعد عودته من رحلته إلى سر من رأى[3]، أنه قال: وأقمت عند ملك الجزر أياماً، ورأيت أنهم اصطادوا سمكة كبيرة جداً جذبوها بالجبال، فانفتح أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة، فأخرجوها إلى البر وهي تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح، وقد خلق الله في وسطها غشاء كالثوب الصفيق من سرتها إلى ركبتيها كأنها إزار مشدود على وسطها فأمسكوها حتى ماتت».

---

(١) ياقوت: معجم البلدان مادة (الصين).

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ١٢٧ (مختصر روما طبعة سنة ١٥٩٢م).

(٣) أبو حامد الأندلسي: تحفة الألباب ونخبة الاعجاب ص ٩٣.

ويعلق حسين[1] فوزي على قصة سلّام الترجمان هذه فيقول: «إن من المحتمل أن يكون ملك الجزر قد هزأ من سلام وعرض عليه منظراً تمثيلياً للقصة فظنها حقيقة» كما علّق عليها زكي[2] حسن فقال: «من المحتمل أن يكون سلّام الترجمان سمع من بلاد الخزر حديث تلك السمكة فعلقت بذهنه ومن ثم نسبها إلى مشاهداته الخاصة». على أننا نرى غير ما ذهب إليه الأستاذين الدكتور حسين فوزي وكذا الدكتور زكي، من أن القصة خرافية، بل هي حقيقة، فهناك أسماك تسمى عروس البحر تشبه إلى حد كبير الأنثى الآدمية، وهي معروضة في المتاحف، وقد رجّح المستشرق الفرنسي كرادي فو (Carra De Vaux[3]) أن الرحلة التي قام بها سلّام الترجمان، كانت إلى الحصون الواقعة في جبال القوقاز وعلى مقربة من دربند (أي باب الأبواب)، في إقليم داغستان غربي بحر قزوين.

ومهما يكن من أمر رحلة سلّام الترجمان، فإننا لا نستطيع الاعتماد عليها من حيث تقويم البلدان أو المعلومات الجغرافية، ذلك أن سلّام لم يدونها، كما أن المصادر التي تداولتها كالقزويني وياقوت والإدريسي وأبو حامد الأندلسي لم تكتب عنها إلا بعض مقتطفات[4].

وهناك مجموعة من الرحالة الأوائل في العصر الإسلامي الذين جابوا بلاد الصين وكشفوا عن مجاهل الطريقين البحري والبري إليها وإلى البلاد المجاورة لها كالملايو والهند وغيرهم، ولكنهم لم يدونوا رحلاتهم تلك أو لعلهم دونوها وفُقدت ثم جمعها من أتى بعدهم من الرحالة أو الجغرافيين في مؤلفاتهم أو اقتبسوا مقتطفات منها ومن أهم هؤلاء ابن وهب القرشي وسليمان التاجر.

ولعل أهم المصادر التي يمكن الرجوع إليها بالنسبة إلى رحلات هذين

---

(١) حسين فوزي: حديث سندباد القديم ص ١٣٥.

(٢) زكي حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ١٨.

(٣) Carra De Vaux: Les Penseurs De L'Islam. p. 117 T. II

(٤) لقد جمع لنا زكي حسن هذه المقتطفات واستطاع أن يعطينا فكرة شبه متكاملة عن رحلة سلام الترجمان في كتابه [الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ١٥].

الرجلين، هو أبو زيد حسن الذي أفاد مما حدَّث به ابن وهب، كما اقتطف منها المسعودي [١] عند حديثه عن ملوك الصين.

أما بالنسبة للرحالة سليمان التاجر، فقد جمع أبو زيد [٢] حسن في القرن الرابع للهجرة رحلته وأضاف إليها ذيلاً في مؤلف عرف باسم (رحلة سليمان التاجر) أو (سلسلة التواريخ) [٣]. وتمتاز هذه الرحلة وذيلها بالوصف الصادق للطرق التجارية ولبعض العادات والنظم الاجتماعية مع قلة الأساطير والخرافات [٤] التي كانت الطابع العام لكل رحالة ذلك العصر، بل وامتدت إلى العصور الوسطى. فيحدثنا مثلاً سليمان عن بعض جزائر البحار الشرقية التي تقع إلى الشرق من جزيرة سيلان فيقول: «جزائر تدعى لنجبالوس، وفيها خلق عراة، الرجال منهم والنساء، غير أن عورة المرأة (مغطاة) ورقاً من ورق الشجر، فإذا مرت المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار. وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد. ولا يحتاجون إلى كسوة لأن لا حر عندهم ولا برد. ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له أندمان، وأهليهما يأكلون الناس أحياء، وهم عراة ليس لهم قوارب» [٥].

كما يحدثنا سليمان عن علاقة المسلمين بالصين فيقول: «إن مدينة خانغو كان فيها رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ص ٥٦.

(٢) Renaudot, E: Ancient Accounts Of India And China By Two Mohamedan Mediaeval Travellers, 1733 Translated From Annotated French (1718) Of The Texts Of Sulayman The Merchant (851 A.D) And Abu Zayd Hassan Of Siraf (912.A.D.).

(٣) وقد طبعت هذه الرحلة (سنة ١٨١١م) على يد المستشرق لانجليس (Langles) ثم نشرها المستشرق رينو (Reinaud) مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥. كما أحاط بها المستشرق فران (Ferrand) في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى والتي ترجمها إلى الفرنسية وعلّق عليها في مؤلف من مجلدين [عن زكي حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٢٣].

(٤) زكي حسن: ص ٢٤.

(٥) فوزي حسين: السيرافي سليمان ص ٢٤.

يقصدونهم، وإذا كان يوم العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين».

ولعل دقة وصفه تبدو واضحة فيما ذكره عن الإعصار الذي هبّ على جزائر البحار الشرقية، إذ يقول: «وربما رؤي في هذا البحر سحاب أبيض يظل المراكب، ينشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر، فيعلى له ماء البحر مثل الزوبعة، فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته. ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر. فلا أدري أيستقي السحاب من البحر أم كيف هذا؟»[1].

على أن كل ما نعرفه عن ابن وهب القرشي، هو أنه وجيه من أهل الثروة والجاه في العراق وأنه ابن هبارين الأسود، ومن المرجح أن يكون قد ولد في الربع الأول من القرن الثالث للهجرة، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه قام برحلته إلى الصين (سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، وليس من المعقول أن يكون قد أقدم على رحلة خطرة إلى الصين وهو في سن تقل عن الخامسة والعشرين من عمره.

ويحدثنا عنه المسعودي[2] فيقول: ترك ابن وهب مدينة البصرة عندما خربها الزنج[3]، وخرج من ميناءسيراف على مراكب هندية. وساح طويلاً في ممالك الهند إلى أن انتهى إلى مدينة خانغو[4] (كانتون) بمملكة الصين. ثم

---

(١) فوزي حسين: ص ٢٥.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ص ٥٧.

(٣) آثار الزنج (Ethiopians) وهم طائفة من عبيد أفريقية، القلق والرعب في الدولة العباسية وكان مسرح هذه الثورات الجامحة التي دامت خمس عشرة سنة، هذه المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط. وقد انضم إلى هؤلاء الزنوج جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة تخلصاً من حالتهم. فقد كانوا لا يتقاضون من الأجر شيئاً بل كانوا يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر والسويق، مما جعلهم إزاء هذه الحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة على استعداد للخروج على ولاة الأمر فيهم. بدأت ثورة الزنج سنة ٢٥٥هـ في عهد الخليفة المهدي وانتهت على يد الموفق أخو المعتمد سنة ٢٧٠هـ [ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١]؛ الطبري ج ١ ص ١٧٦؛ [الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٨٠].

(٤) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣٣٣.

واصل سيره إلى مدينة خمدان العاصمة التي تقع على مقدار شهرين من خانغو عاصمة تلك المملكة. وهناك بقي ابن وهب وقتاً طويلاً لم يأذن له الأمبراطور بالمقابلة حتى يتم الاستفسار عن حقيقته من التجار العرب هناك، الذي يدعى قرابته لهم. فلما علم الأمبراطور بصحة نسبه، سمح له بالمثول بين يديه وأكرم مثواه وأخذ يناقشه في الدين والسياسة، ثم عرض عليه بعض صور الأنبياء، مثل صورة نوح في السفينة، وموسى وبني اسرائيل، وعيسى على حماره والحواريون معه، ثم صورة لمحمد صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون[1] به.

أما عن الرحالة سليمان التاجر، أو سليمان[2] السيرافي، فبرغم ذكر المصادر أنه سجل وصف سياحته إلى الهند والصين في مصنف كتبه (سنة ٢٣٧هـ/سنة ٨٥١م)، إلا أن أحداً لم يذكر شيئاً عن ترجمة حياته. وفي رأي حسين[3] فوزي، أن رحلة سليمان التاجر، من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وفي بحر الصين في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري). ثم يضيف فيقول: ربما كانت رحلة سليمان الأثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير، والطريق الملاحي إليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها كما يفعل الجغرافيون والمؤرخون العرب.

ويحدثنا عنه زكي حسن[4] فيقول: وتمتاز رحلة سليمان والذيل الذي وضعه أبو زيد، بما فيها من وصف صادق للطرق التجارية، ولبعض العادات

---

(١) لقد أورد زكي حسن الصور التي نهج المسلمون نهجها في مدرسة التصوير العربية في القرن السادس للهجرة في كتاب [الصين وفنون الإسلام ص ١٢ ـ ٣٩] وكذلك في [السيرة في الفن الإسلامي] المقتطف (عدد مايو سنة ١٩٤٠). وفي هذا ما يدل على صدق رواية ابن وهب عن تلك الصور.

(٢) كما يسميه زكي حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٢١.

(٣) حسين فوزي: حديث السندباد القديم ص ٢١ ـ ٣٢.

(٤) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٢٤.

والنظم الاجتماعية والاقتصادية، ولأهم المنتجات في الهند وسرنديب وجاوة والصين.

وينقل لنا المسعودي[١] وصف سليمان لبعض جزر المحيط الهندي، أن لأهلها ذهباً كثيراً وأن أكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويتدهنون. وإذا أراد أحد منهم أن يتزوج، لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل اثنين من الأعداء زوج اثنتين، وكذلك إن قتل خمسين زُوِّجَ خمسين امرأة بخمسين قحفاً. وسبب ذلك أن أعداءهم كثير، فمن أقدم على القتل كانت رغبتهم فيه أوفر. كذلك ذكر سليمان أن الملك كان يحتفظ لنفسه بنوع من العشب يشربه في الماء الساخن يعرف بالساخ، وهو الشاي.

كذلك ذكر أبو زيد حسن في ذيله[٢]، أن السفن القادمة من سيراف متجهة إلى البحر الأحمر، كانت إذا وصلت جهة أقامت بها، ونقل ما فيها من السلع إلى مراكب خاصة تحمله إلى مصر، وتسمى مراكب القلزم، وذلك لأن المراكب الأخرى كانت لا تستطيع الملاحة في شمال البحر الأحمر[٣].

وجاء في كتاب سلسلة[٤] التواريخ: «أن مما حدث في زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا، أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام، ولا يقوم في أنفسهم ذلك، حتى وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخرزة، التي تكسّرت بأهلها فقطّعها الموج وساقتها الرياح بأمواج بحر الخزر، ثم جرى في خليج الروم، ونفذ منه إلى بحر الشام، وأن الخشب المخرز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة».

---

(١) مروج الذهب ص ٨٠.

(٢) Ferrand, G: Voyage du Marchand Arabe Sulayman en Inde et en Chine redigé en (851) suivi de remarques par Abu Zayd Hassan vers (916) Trad. G. Ferrand, (Paris, 1922), p. 115.

(٣) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٢٥.

(٤) أبو زيد حسن وسليمان التاجر: سلسلة التواريخ (طبعة باريس سنة ١٨١١م).

وإذا كنا قد ذكرنا بعض الرحالة المسلمين الذين فقدت مدوناتهم عن رحلهتم، فيمكننا إضافة رحالة آخر على جانب كبير من الأهمية، ألا وهو أحمد بن فضلان بن عباس بن رشيد بن حماد. وبرغم وصول مدونة رحلة ابن فضلان إلينا، فقد عثر العالم التركي أحمد زكي[1] وليدي سنة ١٩٣٥ في مشهد على أصل الرسالة، كما نقل ياقوت في معجمه عن مختصر مفصل جداً لأصل رسالة مشهد أن الدافع إلى الرحلة لم يكن بناء عن رغبته في الرحلة، بل أنه قام بها تنفيذاً لرغبة الخليفة المقتدر بالله الذي أرسله مبعوثاً إلى ملك البلغار، مثله في ذلك مثل سلاّم الترجمان الذي قام برحلته استجابة لأمر الخليفة الواثق العباسي.

وابن فضلان هو أحمد بن فضلان بن راشد[2]، كان مولى للقائد العباسي محمد بن سليمان، ذهب في بعثة أرسلها الخليفة العباسي المقتدر بالله العباسي إلى ملك البلغار (سنة ٣٠٩هـ/سنة ٩٢١م). فقد طلب ملك البلغار من الخليفة بعد أن أسلم أن يبعث إليه من يفقهه في الدين، ويعرّفه شرائع الإسلام ويبني له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين[3] له» وكان ابن فضلان الخبير في تلك السفارة. وقد غادرت البعثة بغداد سنة ٣٠٩هـ متجهين إلى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار حيث وصلوا في (سنة ٣١٠هـ/سنة ٩٢٢م).

---

(١) وقد وجد أحمد زكي أن المخطوط أوفى في مادته من المقتبسات التي نقلتها المصادر، كما وجد مقدمة وصف فيها ابن فضلان رحلته عبر فارس وبخارى وخوارزم في طريقه إلى بلاد البلغار، كما يحتوي على كثير من الزيادات والتفصيلات. وقد نشر النص العربي لرحلة ابن فضلان إلى نهر الفولجا من مخطوطة مشهد مع ترجمة ومقدمة وملاحظات بالروسية لكراتشكوفسكي:

H. Ritter, Zum Text von I F. S Reisebericht, ZDMG. 96, 98-126.

عن بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ٤ ص ٢٤٢.

(٢) عبد الوهاب عزام: البلغار المسلمون (مجلة الثقافة عدد ٢٦١ ــ ٢٦٢، سنة١٩٤٣، سنة ١٩٤٤).

(٣) الاصطخري: مسالك الممالك ص ٧٩ (الطبعة الثانية ليدن سنة ١٩٢٧).

ويوضح لنا ياقوت[1] سبب خوف ملك البلغار من الملوك المخالفين له فيقول: وكان ملوك الخزر من أصل يشبه البلغار وكانت مملكتهم عند مصب نهر الفلجا ولكنهم كانوا من أتباع الديانة اليهودية وكانوا يعدون ملوك البلغار تبعاً لهم.

وقد ترك لنا ابن فضلان في رحلته صورة واضحة للبلغار وحضارتهم[2] وعاداتهم وتجارتهم، فمن عاداتهم، أن يأكل كل واحد من مائدته لا يشاركه فيها أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً. وكانوا يلبسون القلانس يرفعونها عن الرأس ويجعلونها تحت الإبط للتحية وإظهار الاحترام. ومن العادات التي أتعبت ابن فضلان كثيراً في مهمته الدينية[3] أن الرجال والنساء كانوا ينزلون النهر فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضهم من بعض، وقد اجتهد في منع ذلك فلم يوفق.

أما عن علاقة الملك بالرعية فيقول ابن فضلان: «كل من زرع شيئاً أخذه لنفسه، ليس للملك فيه حق، غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور. وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان كان له معهم حصة. كما كان مركز المرأة بينهم عالية، وكانت الملكة تجلس إلى جانب الملك في المناسبات الرسمية.

كذلك وصف ابن فضلان بعض قدماء الروس الذين شاهدهم على نهر الفلجا حين قدموا للتجارة مع البلغار. ومما يذكر عن دقة ملاحظة ابن فضلان، ما ذكره المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكي (V. Minorsky)، أن أعطى وصفاً دقيقاً لحفلة دفن زعيم روسي، حتى لقد استطاع أحد رسامي الروس في نهاية

---

(١) ياقوت: مادة بلغار.

(٢) Frachen. Ch. M: Ibn Foszlan Und Anderer Araber Berichte Über Die Russen Älterer Zeit Undihre Nachbarn. (St. Petersburg 1823).

(عن زكي حسن ص ٢٨).

(٣) المسعودي: مروج الذهب ص ٨٠.

القرن التاسع عشر، أن يرسم صورة حية لذلك الحفل وذلك اعتماداً على وصف ابن فضلان [١]. والرسم ما يزال موجوداً في المتحف التاريخي في موسكو.

ومن الرحالة المسلمين الذين ارتحلوا كمبعوثين من قبل الخلفاء أو الأمراء أبو دلف الخزرجي الينبوعي مسعد بن مهلهل [٢]، الذي أوفده الأمير الساماني نصر بن أحمد (سنة ٣٣١هـ/سنة ٩٤٢م) مع بعثة أرسلها أحد أمراء الصين ليخطب ابنة أمير بخاري، مما أتاح لأبي دلف زيارة الهند حتى آخر نقطة كانت تصل إليها السفن الإسلامية. وإن كنا لا نعرف متى ولد ولا متى مات، وكل ما نعرفه من كتابه (عجائب البلدان) أنه عاش أديباً جوالاً في بلاط نصر الثاني ابن أحمد الساماني [٣].

وكان أبو دلف شاعراً وأديباً، فقد حفظت لنا المصادر الأدبية [٤] والتاريخية [٥] القصيدة الطويلة التي قدمها إلى الصاحب اسماعيل بن عباد وزير بني بوية، ذكر له فيها حيل بني ساسان [٦] وأساليب حياتهم، كما جاء في تلك القصيدة إشارات إلى الرحلات الطويلة في بلاد الهند والصين [٧].

هذا وقد عني المستشرق وستنفلد [٨] عناية خاصة بما كتبه أبو دلف عن القبائل التركية.

وهكذا نرى أنه قد أتيح لكثير من المسلمين القيام برحلات منذ القرن الثاني للهجرة، ولكن هؤلاء الرحالة لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة

---

(١) زكي حسن ص ٣١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (مسعد بن مهلهل)، I (Paris 1913) p. 229

(٣) Ferrand: Relations De Vogages Et De Textes Geographic Arábe, Persc Et Turc

(٤) الثعالبي: يتيمة الدهر.

(٥) ابن النديم: الفهرست (أبو دلف).

(٦) بني ساسان اسم أطلق على قوم من العيارين المستهترين والشطار المحتالين كانوا يطوفون بالأقاليم ويتفننون في اختراع الحيل للحصول على المال بطريق غير مشروع [دائرة المعارف الإسلامية مادة (ساسان)].

(٧) Kurd Von Schloezer: Abu Dolef Misaris Ben Mohalhal p. 145 (Text Arabe Ét Traduction Latin Berolin: 1845).

(٨) F. Wüstenfeld: Des Abu Dolaf Misar Bericht Über Turkischen Horden. (Magd Burg 1842).

بذاتها إلا نادراً. ولكن حرصت المصادر التاريخية والجغرافية منذ القرن الرابع للهجرة، على جمع المعلومات الخاصة بالرحلات التي قام بها غيرهم ولم يصل إلينا شيء عنها من تأليف أصحابها أنفسهم.

وفضلاً عن ذلك كله، فهناك مجموعة كبيرة من الرحلات التي قام بها الملاحون التجار، ضاعت أخبارها، أو لم يرونها أصحابها، ولكن أخبارهم تلك كانت من أهم المصادر التي نقل عنها المؤرخون والجغرافيون الكثير من وصف البلاد النائية، والتي يرجع إليها الفضل فيما نراه من قصص الأدب العربي، مثل قصة سندباد البحري[١] وغيره.

أما بالنسبة للجغرافيين المسلمين، فمن المعروف أنه كان لاتساع نطاق التجارة والتعمق في دراسة العلوم العقلية والرغبة الشديدة في ترجمتها إلى العربية والحصول على أصولها من مواطنها، وذلك منذ العصر العباسي الأول، هذا فضلاً عن اتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين بالبلاد القاصية براً وبحراً، ثم تعبيد الطرق وجعلها آمنة، أكبر الأثر في التشجيع على الأسفار وتمهيد السبل أمام الرحالة والمكتشفين. فقد قام كثير منهم برحلات مهمة، ووضعوا في وصفها الكتب والمصنفات ووصفوا فيها ما شاهدوه في البلدان التي اختلفوا إليها وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة.

وهكذا خلّف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هي خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التي اكتسبوها من أسفارهم في جميع أنحاء العالم المعروف في ذلك الوقت وبخاصة الشرق الأقصى. على أن هذه الجغرافية العظيمة لم تظهر ظهوراً واضحاً ولم تؤت أُكلها إلا في العصر العباسي الثاني.

والحقيقة أن ما كتبه الرحالة المسلمون فيما بين القرنين الثالث والتاسع بعد

---

(١) Casanova, Paul: Notes Surles Voyages De Sindbad Le Marin. [Extrait Du Bulletin De L'Institut Francais D'Archeologie Oriental. T. XX (Caire 1922)].

الهجرة (التاسع والخامس عشر بعد الميلاد) عن الرحلات كثيرة جداً، ولكن المعروف أن الرحالة لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً، أما معظمهم فقد أدمجوا أخبار تلك الرحلات فيما صنفوه من كتب التاريخ أو كتب تقويم البلدان.

□ □ □

الباب الثالث

الرحالة الجغرافيون

سبق أن ذكرنا أن المصنّفات التي دوّنها الجغرافيون المسلمون عن رحلاتهم لم تظهر ظهوراً واضحاً إلّا في العصر العباسي الثاني وعلى وجه التحديد في أوائل القرن الثالث الهجري. على أن تلك المصنّفات عنيت في المرتبة الأولى بوصف أجزاء وأقاليم الدولة الإسلامية وما يجاورها من البلاد. أما باقي أخبار رحلاتهم من أحوال سياسية واجتماعية، فقد اعتبروها معلومات ثانوية سجلوها لإتمام قصة البلد أو المدينة التي يتحدثون عنها في مؤلفاتهم التي عرفت باسم تقويم البلدان.

ومن ثم فإننا نستطيع القول بأن مؤلفات غالبية الجغرافيين المسلمين الأوائل، إنما هي نتاج الرحلات التي قاموا بها والتي اصطلح على تسميتها باسم (تقويم البلدان). فلا نكاد نجد مصنفاً يحمل اسم الرحلة، اللهم إلّا إذا كان صاحبها قد قام برحلته تلك في مهمة رسمية، أو أحد التجار الرحالة الذين لا يلمون إلماماً كافياً بالعلوم الجغرافية.

ابن خرداذبة

هو أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة، ولد في خراسان سنة ٢٠٥[١] هـ/ سنة ٨٢٠م، وشبّ وترعرع وتلقى العلم في بغداد.

لقد اعتنق حبر ابن خرداذبه الإسلام وكان والده والياً على طبرستان (سنة ٢٠١ هـ/ سنة ٨١٦م). وإلى جانب العلوم التي تلقاها ابن خرداذبه درس الموسيقى والأدب على إسحاق الموصلي[٢].

وهو من أسرة ثرية مثقفة. تولّ إدارة البريد في إقليم الجبل (ميديا) بإيران، في عهد الخليفة المعتمد العباسي، وشهد معه ثورة الزنج وغيرها من الأحداث، مثل انفصال بعض الأقاليم وتكوين الدويلات المستقلة في مشرق الدولة العباسية مثل دولة الطاهريين والصفارية والسامانية.

ويعتبر ابن خرداذبه من أقدم الرحالة الجغرافيين في العصر العباسي، وقد خلف لنا كتابه «المسالك[٣] والممالك»، الذي يشتمل على معلومات هامة في

---

(١) وقيل أنه ولد سنة ٢١١ هـ.

(٢) كرامرز: ملحق دائرة المعارف الإسلامية ص ٦٥.

(٣) طبع هذا الكتاب في ليدن مع مجموعة المكتبة الجغرافية على يد المستشرق دي جوية (De Geoje) سنة ١٨٨٩. ويلي كتاب «المسالك والممالك» نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج ابن قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي. ويشمل الباب الحادي عشر من هذا الكتاب، موضوع عنوانه في ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب. كما يضم فهرست لأسماء الأماكن والأمم والرجال والقبائل.

نظم الحكم وفي النظام المالي بوجه خاص. ويعد هذا الكتاب من أقدم الكتب الجغرافية في اللغة العربية. وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبله ويصل إلى الهند والصين، كما يشتمل هذا الكتاب على إحصاءات وبيانات وافية عن خراج البلاد وطرقها والمسافات بينها.

ويذكر ابن خرداذبة أن السفن العربية كانت تسير بمحاذاة الشاطىء الفارسي وساحل الهند حتى ملبار. وكان اختيار هذا الطريق يرجع إلى الرغبة في شحن البضائع وتفريغها في الموانىء المختلفة لا إلى الخوف من التوغل في البحر. وفي الحقيقة أن تلك السفن كانت إذا غادرت ساحل (كروماندل) تعبر خليج بنغالة في خط مستقيم، كما كانت تفعل السفن الصينية.

ويثبت ابن خرداذبة في كتابه، أن العرب استطاعوا منذ أواخر القرن الثاني للهجرة أن يستقروا في ميناء (خانفو) الذي يقع إلى الجنوب من مدينة (شنغاهاي). كما كان لهم بسبب تساهل امبراطور هذه البلاد وكرمه، قاضٍ مسلم يحكم بينهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويؤمهم في الصلاة. كما كان العرب يتبادلون التجارة مع الصينيين، ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل في داخل هذه البلاد ابتغاء التجارة مع أهلها.

على أن حال تجار العرب ظل على ذلك، حتى قامت في هذه البلاد فتن وثورات كان من أثرها أن ساءت حال هؤلاء التجار، فقطعوا علاقاتهم مع الصين، وانتقلوا إلى شبه جزيرة ملقا واتخذوا مركزهم في مدينة كلة (Kalah)، وهي فرضة في الهند في منتصف الطريق بين عُمان والصين، وتقع في طرف خط الإستواء[1].

ويوضح ابن خرداذبة أنواع السلع التي حصل عليها العرب من السوق

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان مادة (كلة).

الجديدة وهي الكافور والقرنفل وخشب العود والصندل، وجوز الهند، والطيب والقصدير[1].

ويحدثنا ابن خرداذبة عن تجارة الرقيق فيقول: أما الرقيق فأبيضه كان يحمل من وراء الهند وأصله من الصقالبة أو الخزر الأتراك من بادية تركستان. وأحسنهم يربى في سمرقند وخوارزم ثم يحمل إلى بلاد الإسلام.

وكان الرقيق الأبيض يحمل أيضاً من الأندلس وفيه الجواري والغلمان وأصلهم من سبي الفرنجة وجليقية أو من الصقالبة. ومن الرقيق الأبيض صنف كان يرد من خراسان غال جداً، ربما بيع الغلام بخمسة آلاف دينار. أما الرقيق الأسود فكان يحمل إلى بلاد الإسلام من السودان بطريق مصر أو بلاد المغرب.

ويضيف ابن خرداذبة فيقول: وكان لهذه التجارات قوافل أو السفن تنقلها من المشرق والمغرب والشمال والجنوب وتبيعها في أسواق بغداد وغيرها من المدن الإسلامية.

وأكثر الناس اشتغالاً بنقلها في البر طائفة من التجار اليهود الرذانية كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر، وهي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلبية، ويسافرون بين الأقاليم العامرة يحملون التجارات من إقليم إلى آخر كما كان الفينيقيون في أبان دولتهم[2].

وقد عنى ابن خرداذبة عناية خاصة بالتعريف بالطرقات الموصلة بين بغداد والمدن الإسلامية الأخرى، وكذلك المسالك بين جميع هذه المدن، وفي ذلك يقول: «فهمت الذي سألت، من رسم إيضاح مسالك الأرض وممالكها وصفتها وبعدها وقربها وعامرها وغامرها ومغاوزها، ورسوم طرقها وطقوسها على ما رسمه المتقدمون منها. فوجدت بطليموس قد أبان الحدود وأوضح الحجة بلغة أعجمية فنقلتها من لغته باللغة الصحيحة.

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤٣.

(٢) ابن خرداذبة ص ١٥٣.

كما اهتم ببيان الطريق الموصل بين بغداد ومكة والطريق إلى المدينة مع التعرض لبعض أسماء المدينة المنورة ومن سكنها من اليهود. كما عنى عناية خاصة إلى التعريف بالطريق الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة إليها. ثم بينّ الطريق من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى الطائف ومن اليمامة إلى مكة ومن مكة إلى عمان على ساحل الخليج. كما فصَّل المخاليف وبين حدود الحرم، وقبله أهل كل بلد من الكعبة.

ويعجب ابن خرداذبة من هطول أمطار الحجاز واليمن في فصل الصيف فيقول: وأهل الحجاز واليمن يمطرون الصيف كله ويخصبون في الشتاء، فمطر صنعاء وما ولدها حزيران[1] وتموز وآب وبعض أيلول من الزوال إلى المغرب. يلقى الرجل نصف النهار فيكلمه، فيقول عجّل قبل الغيث لا بد من المطر في هذه الأيام».

ولم يغفل ابن خرداذبة أمر العمائر الأثرية التي شاهدها في رحلته فقد شملها بالوصف الدقيق، بل أنه كثيراً ما وصف الرسوم والكتابات التي نقشت عليها، ومن ذلك ما يقوله عن ظفار[2]، وهي من المدن الأثرية «أن يوجد على باب مدينتها مكتوب:

لمن ملك ظفار لحمير الأخيار   لمن ملك ظفار لحبشة الأشرار

لمن ملك ظفار لفارس الأحرار   لمن ملك ظفار لقريش التجار

تحدث الجغرافيون العرب كثيراً عن طرق الدولة الإسلامية، مما جعل جمهور المستشرقين يعتبرونهم أساتذة علم الطرق والمسالك في العصور الوسطى، وعلى رأسهم (Le Strange)[3] الذي أبدى رأيه في كتبهم، وأثنى على عنايتهم بعلم المسالك وقدرتهم البالغة في إثبات مقاساتها. وذكر في مقدمة جغرافي العرب ابن خرداذبة وأبو الفرج قدامة، فقد كان الأول مديراً للبريد في ولاية الجبال،

---

(١) حزيران = يونيه؛ تموز = يوليه؛ آب = أغسطس؛ أيلول = سبتمبر.

(٢) ظفار: مدينة في جنوب شبه الجزيرة العربية، وهي الآن داخل حدود سلطنة عُمان.

(٣) Le Strange: The Lands of Eastern Caliphate, p. II-13.

بينما كان الثاني عاملاً للخراج، وكلاهما تخصص في المسافات بحكم وظيفتهما، كما أن كلاهما رحالة، لذا جاءت روايتهما رواية شاهد عيان لا يعتريها الشك أو المظنة. هذا فضلاً عن أن مركز صاحب البريد في الدولة الإسلامية كما يقول هنري لامنس (Henri Lammens)[١] أمشبه بسفراء الدول الأوروبية الذين ترسلهم حكوماتهم إلى بعض مستعمراتهم لمراقبة ملوكها الوطنيين ومشاركتهم في الإشراف على حكوماتهم.

أما عن طرق العرب، فقد كان لهما طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي، أحدهما يسير شمالاً من حضرموت إلى البحرين على الخليج العربي ومن ثم إلى صور. أما الثاني فيبدأ من حضرموت كذلك ويسير محاذياً البحر الأحمر متجنباً صحراء نجد وهجيرها ومتجنباً هضاب الشاطىء ووعورتها. وعلى الطريق الثاني تقع مكة في المنتصف تقريباً بين اليمن وبطرة. وقد أفادت هذه الطرق التجارية العرب فائدة كبيرة وفتحت لهم باباً للرزق كبيراً. فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه، ومنهم من كان يستخدم في التجارة كأن يكون سائقاً أو حارساً أو دليلاً[٢].

فلما تعددت وتشعبت الطرق والمسالك في الدولة الإسلامية وخاصة في العصر العباسي، فقد كان من الضروري وخاصة للمشتغلين في البريد ولعمال الخراج، أن يكون لديهم ثبت مدوّن فيه طرق البريد وسككه. ولما كان كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة من أول المصنّفات العربية التي عنيت عناية خاصة بطرق البريد وسككه مع توضيح مقاسات تلك الطرق فقد رأينا أن ننقل مقتطفات منه لنعطي القارىء فكرة واضحة عن قيمة هذا المصنف الممتاز في ميدانه.

يوضح ابن خرداذبة[٣] الطرق إلى سائر كور المشرق ونواحيه، فيقول عن

---

(١) Henri Lammens: L'Empire des Omayadies, p. 408.

(٢) احمد أمين: فجر الإسلام ج ١ ص ١٤.

(٣) المسالك والممالك ص ١٨٩ ــ ٢٢٥.

الطرق المتفرعة من مرو: «ومن مرو طريقان أحدهما إلى الشامش وبلاد الترك والآخر إلى بلخ وطخارستان، فأما طريق الشامش والترك فمن مرو إلى كشماهن خمسة فراسخ ثم إلى الديواب ستة فراسخ ثم إلى المنصف ستة فراسخ ثم إلى الإحساء ثمانية فراسخ ثم إلى بئر عثمان ثلاثة فراسخ ثم إلى آمل ثمانية فراسخ».

ويبينّ لنا الطريق من المدينة إلى مكة:«من المدينة إلى الشجرة ستة أميال ثم إلى مكل إثني عشر ميلاً ثم إلى السيالة تسعة عشر ميلاً ثم إلى الرويثة أربعة وثلاثين ميلاً ثم إلى السقيا ستة وثلاثين ميلاً ثم إلى الأبواء تسعة وعشرين ميلاً ثم إلى بطحامر ثلاثة وثلاثين ميلاً ثم إلى مكة ستة عشر ميلاً».

ويحدد مسافات الطريق إلى نواحي المغرب، فيقول عن الطريق من الرملة إلى مصر: من الرملة إلى أزدود إثني عشر ميلاً ثم إلى غزة عشرين ميلاً ثم إلى رفح ستة عشر ميلاً ثم إلى العريش أربعة وعشرين ميلاً ثم إلى الواردة ثمانية عشر ميلاً ثم إلى الثعامة ثمانية عشر ميلاً ثم إلى الغديب عشرين ميلاً ثم إلى الفرما أربعة وعشرين ميلاً ثم إلى جرجير ثلاثين ميلاً ثم إلى الفاخرة أربعة وعشرين ميلاً ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى بليس أحد وعشرين ميلاً ثم إلى الفسطاط أربعة وعشرين ميلاً[١].

---

(١) لقد سبقت الدول العربية الدول الغربية في استنباط وحدة عربية لقياس المسافات بين البلدان المختلفة للإستعانة بها في إدارة شؤونهم، سموها بريداً. أما تقدير البريد، كما جاء في [(المصلح الشريف ص ١٨٤) لابن فضل الله العمري وكذا (صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٦) للقلقشندي] أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع هاشمي، والذراع أربعة وعشرون اصبعاً والأصبع أربعة شعيرات، والشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل. ولم يرد في كتب اللغة ما هي المسافة المعبر عنها بالميل، أما في كتب الفقه [ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ج ١ ص٧٢] فقد ذكر مسافة القصر في الصلاة هي أربعة برد أو ستة عشر فرسخاً وهي مسيرة إثنين وعشرين ساعة بالإبل. وقد جمع محمد سرسي مأمون وحدة القياس في هذه الأبيات:

إن البـريـد من الفـراسـخ أربـع — ولفـرسـخ فثـلاث أميـال ضعـوا
والميـل ألف أي من الباعـات قـل — والبـاع أربـع أذرع فـتـتبـعـوا

=

أما عن السكك التي ورد ذكرها في كتاب المسالك والممالك، فإن كلمة سكة معناها حارة أو طريق، وقد اصطلح العرب على إطلاق كلمة (سكة) على محطة البريد والجمع سكك[1]. وكانت المسافة بين محطة وأخرى يطلق عليها رسمياً كلمة سكة[2]. ويعرف القلقشندي [3] السكة فيقول، إنها الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريدية فيها فرساً بعد فرس. كذلك أطلقوا عليها مؤرخو العرب كلمة منازل[4].

ويحدثنا ابن خرداذبة عن سكك طريق المشرق فيقول عن الطريق إلى أذربيجان وأرمينية، من سرسميره إلى الدينور سكتين ومن الدينور إلى زنجان تسع وعشرين سكة ثم إلى المراغة إحدى عشرة سكة ثم إلى الميانج سكتين، ثم إلى أردبيل احد عشر سكة ثم إلى ورثان وهي آخر عمل أذربيجان إحدى عشرة سكة. ومن ورثان إلى برذعة ثمان سكك ثم المنصورة أربع سكك ومن برذعة إلى تفليس عشرة سكك ومن البرذعة إلى الباب والأبواب خمس عشر سكة ومن البرذعة إلى دابيل سبع سكك».

= ثم الذراع من الأصابع أربع من بعدها العشرون ثم الاصبع
ست شعيرات فظهر شعيرة منها إلى بطن الأخرى توضع
ثم الشعيرة ست شعرات فقط من ذيل بغل ليس عن ذا مرجع

وقد حقق الأستاذ محمود حسان سعداوي بكلية هندسة هذه المقاسات بالمتر والبوصة كما يلي:

البريد = أربعة فراسخ = ٧٣٧٥ متراً والفرسخ = ثلاثة أميال = ١٨٤٠ متراً والميل = ألف باع = ٦١٥ متراً والباع = أربع أذرع = ٢٤,١٩٢ بوصة والذراع = ٢٤ إصبعاً = ٦,٠٤٨ والإصبع = ست شعيرات = ٢٥٢ وبوصة والشعيرة = ست شعرات = ٠٤٢ وبوصة.

(١) Sprenager: Die Poste und Reiserouten des Orient. p. 4 (Heipzig, 1864).

(٢) ابن منظور: لسان العرب ج ٤ ص ٥٣ [السكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة أو رباط، وكان يرتب في كل سكة بغال، وبعد ما بين السكتين فرسخان وقيل أربعة فراسخ.

(٣) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٧٢.

(٤) الطبري مجلد (٣) ج ١ ص ٤٤٩.

أما عن سكك طريق الغرب فيقول ابن خرداذبة عن سكك اليمن: بين غمرة وصنعاء تسع وأربعين سكة ومن صنعاء إلى ذمار أربع سكك وبين ذمار وعدن سبع سكك وبين ذمار والجند أربع سكك وبين صنعاء ومأرب سبع سكك، وبين مأرب وعبدل وهي حضرموت على الأبل تسع سكك.

ويقول قدامة، أن هذه السكك رتبت فيها الرجال لحمل الخرائط وجعلت رسمًا للبريد. ويصفها ابن خرداذبة[1] فيقول أنها تتألف من سقيفة صغيرة من القش، ومن شجرتين يستظل تحتهما زوج من الخيول أو البغال. وهذه السقيفة مفتوحة من ثلاث جهات وإلى جوارها بعض العشش حيث يسكن الأشخاص الذين يعتنون بالدواب. وقد ظلت سكك البريد على حالها حتى العهد التركي في اليمن، فقد رآها وعلّق عليها شبرنجر (Sprenger)[2].

وأخيراً فقد كان لابن خرداذبة كثير من المؤلفات ذكر المسعودي بعضها، ولكن أشهرها كتاب المسالك والممالك. وتوفي ابن خرداذبة (سنة ٢٧٢ هـ وقيل سنة ٣٠٠ هـ/ سنة ٩١٢ م).

□ □ □

(١) المسالك والممالك ص ٢٢٥؛ ٢٢٦.

(٢) Sprenger: op. cit., p. 2-3

أبو الفرج قدامة بن جعفر

نشأ قدامة في العراق وكان أبوه نصرانياً. وقد التحق بمعاهد العلم ببغداد وقد أظهر من النباهة والذكاء ما جعله يبز أقرانه مما لفت نظر معلميه إليه، فرشحوه لتولي وظائف الدولة الإدارية والمالية وهو ما يزال صغير السن. فلما اعتنق الإسلام عينّ (سنة ٢٩٧ هـ/ سنة ٩٠٩م) في عهد الخليفة المقتدر بالله العباسي على رأس ديوان الخراج. وقد احتفظ بهذه الوظيفة حتى (سنة ٣٢٥ هـ/ سنة ٩٣٧م) أي حتى نهاية عهد الخليفة المقتدر بالله.

وقد اقتضت وظيفته تلك في ديوان الخراج، أن يرتحل إلى معظم أقاليم الدولة العباسية، ليكون عيناً للخليفة على عمال الجباية، وعلى أمور الدولة المالية، مما أكسبه خبرة عملية كبيرة ليس في أمور المال والخراج فحسب، بل في معرفة مسالك البريد وطرقها ومقاساتها، وأحوال الناس وتاريخهم وأسلوب كتاباتهم وكيفية التخاطب معهم، مما دفعه إلى التأليف في كثير من الموضوعات، ولكن من أسف لم يبق من تلك المؤلفات وخاصة في التاريخ واللغة، إلاّ بعض نبذ من كتاب (صنعة الكتابة) وهي الأقسام الأربعة الأخيرة التي أطلق عليها اسم كتاب (الخراج).

فقد وصف قدامة في كتابه (الخراج) الممالك المؤدية إلى النواحي وصفاً دقيقاً، وبينّ قدامة السبب في ذلك فيقول: «ليكون الخليفة على اطلاع دائم بأحوال المملكة ويتيسر لجيوشه، الانتقال بدون مشقة إلى النواحي التي قد يحدث فيها اضطراب. ويبدو أنه كتب كتاب الخراج سنة ٣١٦ نقلاً عن أوراق رسمية

اتصلت به. ويستدل من مطالعة الكتاب أن ما ورد فيه من جباية البلاد إنما كان جبايتها نحو سنة ٢٢٥ هـ.

وكتاب الخراج لقدامة لا يختلف كثيراً عن كتاب مسالك والممالك لابن خرداذبة فكلاهما عنى عناية خاصة بالمسافات ودعمها بالأرقام، كما أن أسلوب الكاتبين أداري جاف، وليس في ذلك غرابة فابن خرداذبة عامل بريد وقدامة عامل خراج، وكل منهما يهدف من وراء تأليف الكتابين إلى تعليم الموظفين خططهم بكل دقة ووضوح. إلّا أن قدامة يتعرض في كتابه من حين إلى آخر لبعض الأحداث التاريخية أو الاجتماعية التي لها علاقة بالمال.

وقد عني بتحقيق كتاب الخراج دي جوية (De Goeje) ونشره (سنة ١٨٨٩م) مع كتّاب كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، كما ترجمه إلى الفرنسية.

وقد بينّ قدامة في كتابه السبب الذي من أجله ألّف كتابه فيقول في الباب الحادي عشر منه: «يحتاج البريد إلى ديوان يكون مفرداً به وتكون الكتب المنفذة من جميع النواحي مقصوداً بها صاحبه ليكون هو المنفذ لكل شيء منها إلى الوضع المرسوم بالنفوذ إليه. ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة».

ويضيف فيقول عن صاحب ديوان البريد «ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه ما لا يحتاج من الرجوع فيه إلى غيره وما أن سأله الخليفة عنه وقت الحاجة شخوصه وإنقاذ جيش يهمه أمره. وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه، وجد عتيداً عنده ومضبوطاً قبله. وينبغي أن نأخذ من ذكر ذلك وتعديده بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال والفراسخ وغيره من وصف حال المنزل في مائه وخشونته وسهولته أو عمارته أو ما سوي ذلك من حاله. ونبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السلام إلى مكة وهو المنسك الأعظم وبيت الله الأقدم..».

ويحدثنا قدامة عن اهتمام العباسيين بالحرمين فيقول، لما استولى محمد بن عبد الله (محمد النفس الذكية) على المدينة خافه المنصور وبذل قصارى همه في

قتله ولم يستطع ذلك إلّا بعد جهد شديد. فكان ما قاساه الخليفة أبو جعفر المنصور من عواقب إهماله الحرمين عبرة لخلفائه، فلما تولى ابنه المهدي أكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة وفرّق هناك مالاً عظيمًا جاء به من العراق مقداره (٣٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم وجاءه وهو في المدينة (٣٠٠,٠٠٠) دينار من مصر (٢٠٠,٠٠٠) دينار من اليمن، ففرّقها كلها وفرّق (١٥٠,٠٠٠) ثوب. ووسع المسجد، واتخذ حرساً من الأنصار عددهم (٥٠٠) رجل حملهم معه إلى بغداد وأقطعهم الأرضين[1] وأمر بحفر نهر الصلة بواسط وأحيا ما عليه من الأرضين وجعل غلته لصلات أهل الحرمين والنفقات»[2].

ثم يختم عبارته السابقة فيقول: وأصبح إكرام الحرمين على هذه الصورة سنّة في بني العباس في أثناء حجهم أو عند البيعة لأولادهم، فإن الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ ومعه ابناه الأمين والمأمون فلما وصل المدينة أعطى فيها أعطية عنه وعن ولديه. وفعل مثل ذلك في أهل مكة وبلغ ما فرّقه (١,١٠٥,٠٠٠) دينار.

كما يعتبر كتاب الخراج وصنعة الكتابة، وثيقة خلّفت لنا، قيمة ارتفاع مملكة الإسلام، أي قيمة الجبايات الموظفة عليها. فمن المعروف أن العباسيين قد اهتموا بالخراج اهتماماً عظيمًا، وبصفة خاصة في عهد هارون الرشيد، الذي أمر أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة بن ثابت ومن أشهر فقهاء عصره، أن كتب في الخراج كتاباً[3] جامعاً «يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي[4]، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك أن يرفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم».

وقد عمل خلفاء العباسيين على عدم إرهاق المزارعين، وعنى البعض بوضع قواعد ثابتة لمقدار الخراج على حسب نوع المحصول وجودة الأرض،

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٨٣.
(٢) قدامة: الخراج وصنعة الكتابة، ص ٢٤٢.
(٣) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٣.
(٤) الجوالي: هي اختيار الأحسن من كل شيء سواء أكان من الممتلكات أو الأشياء الهزيل منها والصغير، وربما كانت هذه وظيفة العامل في الزكاة.

وراعوا خفض الضرائب في بعض الأحيان إذا قل المحصول لسبب من الأسباب وقد أدت هذه السياسة الحكيمة إلى أن خزائن العباسيين كانت تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الخراج حتى بلغت في أيام هارون الرشيد ما يقرب من إثنين وأربعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب[1].

ولعل مرجع هذه الزيادة يرجع إلى تلك الإصلاحات التي أدخلها أبو جعفر المنصور على خراج الأرض في السواد. فقد كان الخراج قبله يؤخذ نقداً على مساحة الأرض سواء زرعت أم لم تزرع، فغيره إلى نظام المقاسمة الذي يقضي بأن يدفع الزراع جزءاً من غلة الأرض ويبقى له ما يكفيه. كما شدَّد المنصور الرقابة على جباة الخراج حتى لا يظلموا الناس أو يستأثروا بأموال الدولة[2].

ويحدثنا قدامة[3] عن أرض أو ضياع (الالجاء) فيقول: ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة (الجاء) الأهالي ضياعهم ومغارسهم إلى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعززاً بهم من جباة الخراج. فكان صاحب الأرض يلتجىء إلى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه أن يكتب ضياعه باسمه فلا يتجرأ الجباة على العنف أو الظلم في اقتضاء خراجها، بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير. ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدون ذلك في دفاتر الحكومة، فتصبح الضيعة بتوالي الأعوام ملكاً للملجاء إليه[4]، ويصبح صاحبها الأصلي شريكاً في غلتها.

وقد بدأ الالجاء في الإسلام في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك عندما ألجأ أهل السواد في ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافة أخيه الوليد ضياعهم إلى مسلمة تعززاً به من جباة الخراج. ثم صارت تلك الضياع له وبقيت في أعقابه

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٠.
(٢) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨١ ــ ٢٨٢.
(٣) قدامة ص ٢٤١.
(٤) ابن الفقيه: كتاب البلدان ص ٢٨٢ وابن خلدون ج ١ ص ٣٠٨.

حتى قامت الدولة العباسية فقبض عليها العباسيون في جملة ما قبضوه من أموال بني أمية، ثم صارت من الضياع السلطانية[1].

ويكمل قدامة قصة الإلجاء في العصر العباسي فيقول: وقد كثرت ضياع الإلجاء في العصر العباسي حتى أصبح في حوزة الخلفاء وأقاربهم ورجال دولتهم ما لا يحصى عدده من الضياع واضطرت الحكومة إلى إنشاء ديوان خاص بخراجها وعشورها سموه ديوان الضياع وهو غير ديوان الخراج.

ويضيف قدامة فيقول: وقد رأيت مقدار خراج الضياع فيما دوَّنه علي بن عيسى في جريدته سنة ٣٠٦ هـ وكلها في بلاد المشرق، في الري ودماوند وقزوين وزنجان وقم وأصبهان وهمدان وماسندان وغيرها.

وإذا كان أبو يوسف قد ألّف كتاب الخراج في عهد الخليفة هارون الرشيد على أساس من الشريعة الإسلامية، فإن قدامة ابن جعفر قد فصل في كتابه الذي صنّفه في عهد الخليفة المقتدر بالله مقدار ما يزرع في كل إقليم من الحنطة والشعير، وما يجب أن يصل إلى بيت المال في بغداد صافياً بعد دفع أموال الجند وما تتطلبه الجباية من نفقات وإصلاح الترع والجسور وما ينفق على الدواوين، وما يتطلبه الخليفة ووزرائه وكتّابه ورجال بلاطه[2].

وقد يكون من المفيد أن ننقل هنا بعض مقتطفات مما أورده قدامة في كتابه، خاصاً ببيان خراج الدولة العباسية في عهد الخليفة المعتصم بالله، مفصلاً مقدار ما يجبي من الحنطة والشعير باعتبار طساسيج السواد أي نواحيه في الشرق والغرب، وكذا موارد الجباية من أقاليم المشرق والمغرب يقول قدامة[3]: مجموع جباية السواد باعتبار طساسيج (نواحي) (١٧٧,٢٠٠) كر[4] من الحنطة، ومن الشعير (٩٩,٧٢) كراً ومن الورق (النقود) (٨,٠٩٥,٨٠٠) درهم.

---

(١) قدامة ص ٢٤١.

(٢) هلال بن الصابي: تاريخ الوزراء ص ١٣٤، ٢٢٠.

(٣) كتاب الخراج ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠.

(٤) الكر: وحدة مكاييل والكر العراقي أربعون أردباً (محيط المحيط).

ثم حوّل قدامة الحنطة والشعير إلى دراهم على اعتبار أن ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً، والدينار على صرف خمسة عشر درهماً بدينار، فبلغ ذلك (١٠٠,٣٦١,٨٥٠) درهماً.

ولعل قدامة بن جعفر هو أول مؤرخ ترك لنا وصفاً مفصلاً عن البطائح ومقدار خراجها مفصلاً، فهو يقول: البطائح مستنقعات أو أرض كان يغمرها الماء في أسفل العراق بين البصرة والكوفة. وسببها أن دجلة (نهر) انبثق في أيام (قباذ فيروز) (في عصر بني ساسان) بثقب كبير بقرب كسكر فاغفل أمره حتى غلب ماؤه وغرّق كثيراً من أرضين عامرة كانت تليه وتقرب منه. فلما ولي (أبوشروان) العادل الشهير، أمر بذلك الماء فزحم بالمسنيات حتى عاد بعض تلك الأرضين إلى العمارة. ثم خلفه ابنه (برويز) وفي أيامه زادت الفرات ودجلة زيادة عظيمة (في السنة السادسة للهجرة) لم ير مثلها وانبثقت بثوق كبار فجهد (برويز) أن يسكرها حتى ضرب أربعين سكراً في يوم واحد فلم يقدر على رد الماء».

ويضيف قدامة فيقول: فظلت الحال على ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب، فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت إليها أحد ويعجز الدهاقين عن سرها فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت[١]، ومع ذلك فقد كان خراج هذه الأرض المستنقعة كبيراً، فإن عبد الله بن دراج استغل منها (٥,٠٠٠,٠٠٠) درهم في خلافة معاوية بن أبي سفيان[٢]، ولكنهم قلما عنوا بإصلاحها والانتفاع بالأرض المغمورة. فلما تولى الحجاج بن يوسف، انبثقت بثوق أخرى وكبرت البطائح. فلم علم الوليد بخبرها وطلب منه مبلغ (٣,٠٠٠,٠٠٠) درهم استكثرها، فقال له أخوه مسلمة «أنا أنفق على سدها من مالي على أن تعطيني خراج الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق المال على يد ثقاتك» فرضي الوليد بذلك فحصلت للوليد أرضون وطساسيج كثيرة فحفر نهرين سماها (السيبين) وعمر تلك الأرضين واستخرج للوليد أيضاً

(١) قدامة ص ٢٤٠.
(٢) الماوردي ص ١٧١: أدب الدنيا والدين.

من البطائح ثم لهشام بعده مالاً كثيراً ثم جرى الناس على ذلك إلى أواخر بني أمية[1].

ثم ينتهي قدامة إلى إجمال الخراج فيقول: من ذلك يتضح أن جباية الخراج (٣٩٦,١٥٥,٠٠٠) درهم وفي عهد المعتصم (٣٨٨,٢٩١,٣٥٠)[2] درهم.

وكان المال الذي يتأتى من الموارد السالف ذكرها ينفق على موارد الدولة فتدفع أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين كما تدفع أعطيات الجند، هذا فضلاً عما تنفقه على المرافق العامة.

وإذا كانت الدولة العباسية قد أخذت تسير بخطى سريعة إلى الضعف السياسي في العصر العباسي الثاني، فبعد أن كانت الوزارة في العصر الأول وزارة تنفيذ، أضحت في العصر العباسي الثاني وزارة تفويض، فقد تبع الضعف السياسي ضعف في جميع مناحي الحياة وخاصة الناحية الاقتصادية.

وقد استطاع قدامة أن يبينّ ذلك في وضوح عندما قدم لنا جباية الخراج في كل عهد من العهود، فبعد أن بينّ جباية الخراج في عهد المأمون ثم المعتصم يورد لنا بياناً يذكر فيه أقاليم الدولة العباسية ومقدار جباية الخراج في أواخر القرن الثالث الهجري في كل سنة.

ويوضح لنا قدامة السبب في اقتصاره على بيان خراج الدولة العباسية في عهد هذين الخليفتين فيقول: وإذا كنا لم نقف على ميزانيتها في عهد الخلفاء الخمسة الأولين، فلم نعلم مقدار جبايتها في العام مما يعبرون عنه بارتفاع الدولة لضياع حساباتها في الفتنة بين الأمين والمأمون إذا احترقت الدواوين[3] وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بني أمية في عام الجماجم[4].

---

(١) قدامة ص ٢٤١.
(٢) قدامة بن جعفر: كتاب الخراج ص ٢٤٩ ـــ ٢٥١.
(٣) قدامة: الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٣٦.
(٤) الماوردي: أدب الدنيا والدين ص ١٨٣ [بهامش الكشول للعاملي].

وقد تبينّ لنا مما أورده قدامة أن الجباية كانت بالدرهم في مشرق الدولة العباسية وبالدينار في أقاليم الغرب. كذلك أورد لنا، صافي ما حمل إلى بيت المال من العين (أي الذهب الصافي) (٤,٩٢٠,٠٠٠) دينار من الورق (الذهب) وأن الدينار يساوي خمسة عشر درهماً وأن مجموع الجباية بلغ (٧٣,٨٠٠,٠٠٠) درهم[1].

ويضاف إلى هذا المبلغ ما يجبى من ضرائب أخرى تجبى من أهل الذمة ومن أرباب الحرف والصناعات وعلى التجار الوافدين على الدولة الإسلامية وغير ذلك من الضرائب، إذ يقول قدامة: ومما يدخل في شيء من الإرتفاع جزية رؤوس أهل الذمة بحضرة مدينة السلام وهي (٢٠٠,٠٠٠) درهم.

وقد توفي قدامة بن جعفر (سنة ٣١٠ هـ وقيل سنة ٣٢٠ هـ/ سنة ٩٣٢ م).

□ □ □

(١) قدامة: الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٤٩ ــ ٢٥١.

أحمد بن يعقوب بن واضح
المعروف باليعقوبي

هو أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح. كان جده من موالي الخليفة المنصور. وكان اليعقوبي رحالة ومؤرخاً وجغرافياً قام برحلات طويلة في أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب. وقد ألّف اليعقوبي (كتاب البلدان)، وهو أقدم الكتب التي وصلت إلينا من نوعه، طبع في المكتبة الجغرافية في ليدن، ثم قام بنشره حديثاً جاستون فييت (Gaston Wiet) بعد ترجمته إلى اللغة الفرنسية مع كثير من الشرح والتعليق.

ولليعقوبي مؤلف آخر في التاريخ يعرف بتاريخ اليعقوبي، طبع كذلك في ليدن على يد هوتسما[1] (Hortzmans) في جزئين، الأول في التاريخ العام القديم والثاني في تاريخ الإسلام مرتب حسب الخلفاء إلى عصر المعتمد على الله سنة ٢٥٩ هـ. وهناك نسخة أخرى من تاريخ اليعقوبي مطبوعة في مطبعة النجف الأشرف بالعراق.

وكتاب البلدان، من أقيم الكتب التي صنفت في موضوعه، ذكر فيه الأسفار التي قام بها والوظائف التي تقلّدها في الدولة الطاهرية بخراسان والدولة الطولونية بمصر والشام. هذا فضلاً عن البيانات التي اقتبسها من غيره. وقد انفرد اليعقوبي بأسلوب متميز فلم ينسج على منوال من سبقوه، فقد حرص على فحص وتمحيص كل ما يكتب. وقد أشار اليعقوبي إلى ذلك في مقدمة الكتاب

(١) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ص٣٣.

فقال: إني عنيت في عنفوان شبابي، وعند احتيال سني وحدة ذهني، بعلم أخبار البلدان والمسافة بين كل بلد وبلد، لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغربي.

وقد اشتهر اليعقوبي بميوله العلوية، ومن ثم فإننا نجده غالباً منحازاً للعلوية لائمًا معارضيهم وخاصة من بني أمية. فمن ذلك قوله عن عثمان بن عفان في موضوع اقتناء المسلمين للأموال في أيامه وانحيازه لأهله وأقربائه: «قد باشروا ذلك في أيام عثمان، لأنه لم يكن شديداً مثل عمر، وكان مع ذلك أموياً فاعتز الأمويون به وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية، وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها في بعد الإسلام لأن النبي منهم. فأخذ عثمان يولي الأعمال رجالاً من أقربائه وفيهم من لم يعتنق الإسلام إلاّ يأساً من فوزه على المسلمين.

ويضيف اليعقوبي فيقول: وكثرت في أيامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يستخص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة، كما فعل بغنائم أفريقية سنة **٢٧ هـ** فإن المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منها (٢,٥٠٠,٠٠٠) ديناراً أعطى خمسها إلى مروان بن الحكم وزوّجه ابنته وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال»(١).

كذلك يحدثنا عن جور عمال بني أمية في جمع الخراج فيقول: وكان من أعمالهم في الاستكثار من الأموال فرض الخراج على الأرض الخراب، وكانوا يفرضون على الأهالي هدية في عيد الفيروز بلغت في عهد معاوية (١٠,٠٠٠,٠٠٠)(٢) درهم، وفرضوا مالاً على من تزوج وعلى من يكتب عرضاً(٣).

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩١.
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٩.
(٣) الطبري: ج ٣ ص ١٣٦٧.

ويصنف اليعقوبي في هذا الصدد فيقول: ولم يكن عمال بني أمية يأتون هذه الأعمال من عند أنفسهم دائماً، بل كثيراً ما كانوا يفعلونه بأمر خلفائهم، كما رأيت مما كتبه معاوية إلى وردان وكان ذلك شأنه في تحريض العمال على جمع الأموال، وهم يخترعون له الطرق للاستكثار منها[1].

ويحدثنا عن عملية استخراج الأموال من العمال في العصر الأموي فيقول: «فأصبح الخلفاء لا يعزلون عاملاً عن عمله إلاّ حاسبوه على ما عنده من مال، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل إليه معرفتهم من أموالهم كما فعلوا بخالد القسري إذ وشى به كاتبه حيان النبطي أنه فرّق (٣٦,٠٠٠,٠٠٠) درهم، فبعث هشام إليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله[2]. ويسمون هذا العمل استخراجاً وكانوا يستخدمون الشدة فيه فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية».

ومن الموضوعات التي نجد أن اليعقوبي قد تحامل على بعض خلفاء بني أمية تحاملاً، لا نعتقد بصحته، ذلك الرأي الذي أدلى به في السبب الذي من أجله أقام عبد الملك بن مروان قبة الصخرة سنة ٧٢ هـ، فيقول: «إن عبد الملك منع أهل الشام من الحج، وذلك أن عبد الله بن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة، فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا. فقال: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال: لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد. وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة. فبنى على الصخرة قبة وعلّق عليها الستور الديباج وأقام لها سدنة، وأخذ الناس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة».

---

(١) اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٥٨.
(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ٣٨٨.

ويعلّق زكي حسن[1] على هذا القول: ويبدو أن هذه الرواية من وضع خصوم بني أمية، لأن عبد الملك كان من التابعين وغير محتمل أن يقدم مثله على تغيير شعائر الدين بتحويل الحج عن الكعبة».

وقد انفرد اليعقوبي[2] بأسلوب متميز، فقد حرص على فحص وتمحيص كل ما يكتب، ومن أمثلة ذلك ما فصّله عن خراج مصر منذ عهد الراشدين إلى العصر الأموي وتعليله لسبب نقصانه، فيقول: «في هذه السنة فتح عمرو بن العاص الاسكندرية وسائر أعمال مصر واجتباها (١٤,٠٠٠,٠٠٠) دينار من خراج رؤوسهم لكل رأس دينار، وخراج غلتهم من مائة أردب أردبان. وبلغ خراج مصر في عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح (١٤,٠٠٠,٠٠٠) ثم أخذ الخراج يتناقص حتى بلغ في عهد أسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ هـ ـ ٩٩ هـ) (١٢,٠٠٠,٠٠٠) دينار. وبلغ في ولاية عبيد الله بن الحجاب في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ ـ ١٢٥ هـ) (٤,٠٠٠,٠٠٠) دينار. ويرجع هذا النقص إلى كثرة دخول المصريين في الإسلام وانصراف الولاة عن العناية بالري.

ويتكلم اليعقوبي عن تضمين الخراج أو تقبيله بالنسبة لعمال الخراج في العصر العباسي فيقول: والظاهر أن العمال زادوا استقلالاً عما كانوا عليه في أيام بني أمية حتى آل الأمر إلى تضمين الخراج أي تقبيله. وهي أن يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة إلى بيت المسلمين في بغداد وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لا يطالبه الخليفة إلاّ بالمال المضروب. ويكون ذلك في إمارة الاستيلاء. كذلك فعل الرشيد مع إبراهيم بن الأغلب عامله على أفريقية، وكان هذا الإقليم عالة على الدولة يحمل إليه من مصر كل سنة (١٠٠,٠٠٠) دينار معونة، فلما تولاه ابن الأغلب تنازل عن هذا المال وبذل أن يحمل كل سنة (٤٠,٠٠٠)[3] دينار وفعل الرشيد نحو

---

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٦٣.

ذلك ببرقة فإنه جعلها قانوناً قائماً فوجه بمولي له فضمن خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار[1]. وكذلك فعل المأمون مع عبد الله بن طاهر فإنه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١ هـ قدراً معيناً.

ويتحدث عن مستغلات الدولة العباسية وغلة دار الضرب فيقول، بلغت غلات الأسواق والأرجاء ودور الضرب في مدينة السلام (١,٥٠٠,٠٠٠) درهم في السنة، وبلغت غلات ومستغلات سامرا وأسواقها (١٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم في السنة»[2].

وقد كانت رحلة اليعقوبي إلى ما وراء الهند ذات فائدة كبيرة، فقد رأى على الطبيعة كيف كان خلفاء الدولة العباسية يجلبون الغلمان من الأتراك والفراغنة وقد سجل ذلك في كتاب البلدان، فقال: «وكانت الفتوح قد أدركت ما وراء الهند وكان العمال هناك يبعثون الهدايا إلى بلاط الخلفاء وفي جملها صبيان الأتراك والفراغنة فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب أمه بهم (يقصد المعتصم). فاقتنى منهم ألوفاً اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً[3]، فضاقت بهم بغداد وضجر البغداديون من سوء تصرفهم فابتنى لهم مدينة سامرا وأقامهم فيها[4] وأطلق لهم الأرزاق وجند منهم الجند».

«ويبين لنا اليعقوبي حال الجند من الأتراك في عهد المعتصم فيذكر: أن جند المعتصم إنما كانوا يحاربون لمجرد كسب المال وحملها إلى بلادهم في أقصى الشرق. ولم يكن الخلفاء يجدون بداً من استنصارهم ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بالمال. فكانوا يبذلون لهم الرواتب الكبيرة غير ما يهبونهم إياه من الهدايا ونحوها اقتداء بما كان يفعله المعتصم معهم، لأنه بنى لهم سامرا وأقطعهم فيها

---

(١) اليعقوبي (كتاب البلدان ص ١٣٣).
(٢) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٣٨.
(٣) القرماني: أخبار الدول ص ١٥٧.
(٤) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٣٢.

الإقطاعات واشترى لهم الجواري فزوّجهم منهن ومنعهم أن يتزوجوا أو يصاهروا أحداً من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى البعض بقصد نقاء السلالة. وأجرى للجواري الأتراك أرزاقاً قائمة وأثبت أسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر أحد منهم يطلق امرأته ولا يفارقها»[١].

وقد تناول اليعقوبي (المصادرة) في الإسلام بشيء من التفصيل، فقال: «هي قديمة في الإسلام تتصل بعصر الراشدين وأول من صودر العمال. فكانوا إذا اكتسبوا مالاً من تجارة أو سبيل آخر غير رواتبهم المفروضة، أخذ الخلفاء نصفه وأضافوه إلى بيت المال، كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبحرين[٢]. وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة. فلما أفضت الأمور إلى بني أمية وكان ما كان من استبداد عمالهم وطمعهم في أموال الجباية أصبح الخلفاء في أواخر الدولة لا يعزلون عاملاً من عمله إلّا حاسبوه على ما عنده من المال واستخرجوا ما تصل إليه أيديهم من أموال وكانوا يسمون ذلك استخراجاً».

كذلك تناول استئثار رجال الدولة بالأموال وأخذهم الرشوة فقال: «وكان من أبواب الكسب عند الكتّاب ارتشاؤهم للتوسط في تولية العمال أو سواهم كما فعل أحمد بن أبي خالد الأحول كاتب المأمون في التوسط لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين خراسان وقد شرط له على نجاحه في ذلك (٣,٠٠٠,٠٠٠) درهم[٣]. وكان كتّاب الدواوين في الولايات يشاركون العمال في ما يأتيهم من الهدايا أو الرشوة وقد يقاسمونهم على النصف»[٤].

وقد تناول فيما تناول في كتبه الفلاسفة ومركزهم في الدولة الإسلامية وخاصة في عهده فقال: وأما الفلسفة بحد ذاتها فقد كان أصحابها متهمين بالكفر وكان الانتساب إليها مرادفاً للانتساب إلى التعطيل، ومن أقوالهم «كان

(١) كتاب البلدان ص ٣٣.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٨١.
(٣) اليعقوبي: ج ٢ ص ٥٥٤.
(٤) المقريزي: الخطط ج ١ ص ٩٩.

فلان سامحه الله يتهم بدينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه[1]»، وقد شاع ذلك في بغداد بين العامة حتى في أيام المأمون ولذلك سماه بعضهم أمير الكافرين[2]، ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون بذلك حتى ذهب عصر المأمون والمعتصم والواثق وتنصب المتوكل فأصبح مريدو الفلسفة يتجنبون الظهور بها أو ينكرونها وهم كلفون بها.

وكان اليعقوبي حريصاً في وصفه للبلدان دقيقاً في بيان طرقها ومسالكها يفحص ويمحص كل ما يكتب، ومن أمثلة ذلك وصفه للطريق من مصر[3] إلى مكة». ومن أيلة إلى شرف البعل ومن شرف البعل إلى مدين وهي مدينة قديمة عامرة بها العيون كثيرة والأنهار المطردة العذبة والأجنة والبساتين والنخل وأهلها أخلاط من الناس.

ومن أراد أن يخرج منها إلى مكة أخذ على ساحل البحر المالح إلى موضع يقال له عينونا فيه عمارة ونخل وبه مطالب يطلب الناس فيها الذهب. ثم إلى العونيد وهي مثلها ثم إلى الصلا ثم إلى النبك ثم إلى القصيبية ثم إلى البحرة ثم إلى المغيثة وهي تبعل ثم إلى ظبة ثم إلى الوجة ثم إلى منخوس التي يوجد بها غاصة يخرجون منها اللؤلؤ ثم إلى الحوراء ثم إلى الجار ثم إلى الجحفة ثم إلى قديد ثم إلى عسفان ثم إلى بطن مر (وادي فاطمة).

ويضف الطريق إلى المدينة: ومن أراد أن يسلك على طريق المدينة، أخذ من مدين إلى منزل يقال له اغراء ثم إلى قالس ثم إلى شعب ثم إلى بدا ثم إلى السقيا ثم إلى ذي المروة ثم إلى ذي خشب ثم إلى المدينة، فهذه المنازل من مصر إلى مكة والمدينة».

ثم يصف مكة المكرمة فيقول: إنها بين جبال عظام وأودية ذات شعاب فجبالها المحيطة بها، أبو قبيس الأعظم، منه تشرق الشمس على المسجد الحرام،

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٤.
(2) اليعقوبي ج ٢ ص ٥٤٦.
(3) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٣٤٠ ــ ٣٤١.

وجبل قعيقعان وفاضح والمحصب وثور عند الصفا. وحراء وثبير وتفاحة والمطابخ والفلق والحجون وسفر. ولها في الشعاب شعب الحجون وشعب دار مال الله وشعب النطالين».

وقد وصف اليعقوبي أغمات إحدى مدن مراكش الهامة، فقال: أغمات بلد خصيب فيه مرعى ومزارع في سهل وجبل وأهله قوم من البربر» وتوفي اليعقوبي نحو سنة (سنة ٢٨٤ هـ/ سنة ٨٩٧ م).

□ □ □

(١) كتاب البلدان ص ٢١ ــ ٢٢.

أبو إسحق ابراهيم بن محمد الاصطخري
المعروف بالكرخي

هو أبو إسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي، كان محباً للأسفار والرحلات، سافر وحقق بنفسه كثيراً من مواقع ووصف البلاد والبحار. وقد كان الاصطخري معاصراً لأبي زيد البلخي وتلميذه في فنه.

والحقيقة أنه لما ترجمت كتب الجغرافيا مثل كتاب بطليموس وغيره من كتاب اليونان إلى العربية واطلع العرب عليها، أخذوا في تأليف الكتب على مثالها وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل. ولم يكتفوا بالنقل والسماع ولكنهم ارتحلوا فركبوا البحار وساحوا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وجابوا الأقطار أقصاها وأدناها وكتبوا ما شاهدوه وحققوا وصححوا كثيراً من الأغلاط التي وقع فيها بطليموس. على أن علم الجغرافيا بمعناه الصحيح لم ينضج إلا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

على أن أول من دوّن علم الجغرافيا عند العرب على نحو ما عند اليونان هو أبو زيد البلخي الذي ألفّ في أوائل القرن الرابع الهجري كتاباً في الجغرافيا سماه (صور الأقاليم). وقد نحا الاصطخري نحو معاصره وأستاذه البلخي في كتابه الذي سماه (مسالك الممالك) الذي نشر في المكتبة الجغرافية على يد دي جويه (De Geoie) (سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧٣) وطبع للمرة الثانية في ليدن سنة ١٩٢٧. وأعيد نشر الكتاب سنة ١٩٦١ بتحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني

(١) ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٧.

(بوزارة الثقافة والإرشاد بالقاهرة) وقد جدّ الاصطخري في تقسيم كتابه على تقسيم البلخي فجعل بلاد المسلمين عشرين قسمًا، بدأ بديار العرب وانتهى إلى ماوراء النهر، ووصف كل قسم على حدة، مع ذكر للبلاد والمدن وتجاراتها ومزارعها وصناعة وحرف أهلها. وقد وضّح الأصطخري كتابه (مسالك الممالك) بالخرائط.

ولا نعرف عن ترجمة الأصطخري إلا القليل، ويبدو أنه ولد بأصطخر وتحوّل إلى دار السلام وتوفي (سنة ٣٤٠هـ/سنة ٩٥١م) أو بعدها. وقد فصّل لنا الأصطخري في مقدمة كتابه أسلوبه ومنهجه فقال: «إني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك، وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم مايعود بالأعمال المجموعة إليها. ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة تحكي موضوع ذلك الإقليم».

ثم يضيف فيقول: «ففصلت بلاد الإسلام عشرين إقليمًا لأن فيها الكعبة ومكة وأم القرى وهي واسطة هذه الأقاليم».

وقد صوّر الأصطخري تلك الأقاليم، في اختصار ولم يسهب في الوصف والكلام لأنه كما يقول: «الإسهاب في الكلام الذي يؤدي إلى ملال من قرأه، وغرضي تصوير هذه الأقاليم، أما ذكر المدن والجبال والبحار والمسافات، فقد يوجد في الأخبار».

ولعل من أهم مميزات كتاب (المسالك والممالك) هو مقارنتها المدن ببعضها أي إن ترك تحديد المسافات ولجأ إلى نسبة المدن والبلاد ببعضها البعض رغبة منه في الاختصار وإعطاء فكرة واضحة ومبسّطة، فمثلاً يقول: «وليس بالحجاز بعد مكة والمدينة أكبر من اليمامة، ويليها في الكبر وادي القرى. والجار ميناء المدينة، بيد أن جدة ميناء مكة، وليس بعد مكة أكثر مالاً وتجارة من جدة. وقوّام تجارتها بالفرس».

وقد قسّم الأصطخري العالم المعروف في ذلك الوقت إلى قسمين كبيرين:

أقاليم المشرق، وأقاليم المغرب التي بدأ أقسامها بديار العرب. والمقصود بديار العرب، هي شبه الجزيرة العربية، التي يصفها فيقول: «ويحيط بها بحر فارس من عبادان وهو مصب ماء دجلة في البحر، حتى ينتهي إلى عمان ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي إلى سواحل اليمن إلى جدة ثم يمتد إلى مدين حتى ينتهي إلى ايلة. «ويضيف الاصطخري فيقول: ويراد ببحر فارس كل البحار المحيطة ببلاد العرب من مصب دجلة إلى ايلة»[1].

ويحدد الأصطخري العواصم والثغور بالنسبة للشام فيقول: أما العواصم فيراد بها أعالي الشام وراء حلب إلى الاسكندرية وقصبتها انطاكية وهي تلي دمشق بالنزاهة. وكانت عاصمة الشام في عهد الروم وكان عليها سور ضخم للغاية قيل إن دوره للراكب يومين. ومن مدن العواصم بالشى على ضفة الفرات ومنبج في البرية»[2].

أما الثغور فهي ما وراء العواصم إلى حدود جبل طـورس في آسيا الصغرى ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهي أكبر الثغور، وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنه وطرسوس.

ويضيف الأصطخري فيقول: وقد يدخلون الثغور في العواصم، والمراد بالثغور عندهم المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم».

ويتحدث الأصطخري عن الخراج في العصر العباسي، فيذكر البلاد التي زاد الخراج بها زيادة كبيرة مثل خراسان فيقول: «وخراج خراسان نحو (٤٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم إذا أضيف إلى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها. ولذلك كانت عناية بني العباس في إبان دولتهم مبذولة في هذين البلدين وفي الحجاز. أما العراق فللمال، وأما خراسان فللمال والرجال، وأما الحجاز فهو مصدر الثقة في الخلافة وتثبيت البيعة»[3].

---

(١) الأصطخري ص ٢٨.
(٢) الأصطخري ص ٦٢.
(٣) الأصطخري ص ٨٣.

وتناول الأصطخري دراسة جباة الخراج في العصر العباسي وتقسيم الأراضي تبعاً لطريق جبابية خراج فيقول: «فبلاد فارس كان خراجها على ثلاثة أصناف: المقاسمة والمساحة والقوانين وهي المقاطعات. على أن أكثر بلاد فارس على المساحة، وتختلف الأخرجة فيها باختلاف البلاد فأثقلها في شيراز»[١].

ثم تكلم عن مصادر الجباية، فذكر منها (أخماس المعادن) فقد كانت المعادن عندهم ضربين: ظاهرة وباطنة، فالمعادن الظاهرة، ما كان جوهرها المستودع فيها. بارزاً كمعادن الكحل والملح والقار والنفط، فهي لا يجوز إقطاعها لأنها كالماء والناس فيه سواء يأخذه من ورد إليه. وأما المعادن الباطنية فهي ما كان جوهرها مستكناً فيها، فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس مما يخرج منها[٢].

ويذكر الأصطخري معادن فارس: «وفي بلاد فارس عامة المعادن، الفضة والحديد والانك والكبريت والنفط والصفر والزئبق، وبغربي أصبهان معدن الكحل»[٣]. ويعدد معادن مصر وبعض البلاد العربية فيقول: «وكان في صعيد مصر جنوبي النيل (كذا) معدن الزبرجد في برية منقطعة عن العمارة[٤]. وفي البحرين مغاوص اللؤلؤ وفي صنعاء مناجم العقيق، وبين ينبع والمروة معادن الذهب وعلى شواطىء عدن ومخا العنبر»[٥].

ولعل من الأخبار التي انفرد بها الأصطخري عند وصفه للبلاد والمدن هو عنايته بتتبع أخبار أهلها، فقد أعطانا فكرة واضحة عن ثراء بعض العائلات وكبار رجال الدولة العباسية فقال: «فقد كان في أصطخر بيت ينتسب إلى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عيينة بلغ من يساره أنه ابتاع بمليون درهم مصاحف

---

(١) الأصطخري ص ١٥٧.
(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٨٧.
(٣) الأصطخري: ١١٥ ــ ٢٠٢.
(٤) المرجع السابق ص ٥١.
(٥) المقدسي ص ١٠١.

وفـرّقهـا في مـدن الإسـلام. وكـان خـراج هـذا البيت من ضيـاعهم (١٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم. ومنهم مـرداس بن عمـر كـان خـراج مـالـه (٣,٠٠٠,٠٠٠) وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه[١].

كما يفصل ثراء بعض المدن فيقول عن سيراف: «وكان في سيراف تجار واسعو الثروة يجوز مال أحدهم (٦٠,٠٠٠,٠٠٠) درهماً اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والأبنوس والفلفل وغيرها[٢]. ومنهم من يبني داراً فينفق على بنائها (٣٠,٠٠٠) دينار»[٣].

ومما يدل على دقة الأصطخري في البيانات التي يذكرها وحرصه على التأكد من صحتها هو ما ذكره في باب إحصاء سكان البلدان الإسلامية مع ذكر أنهارها وروافدها إذ يقول عن البصرة: «البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم وإنما مصَّرها العرب، وليس فيها مياه إلا أنهاراً. وذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة، فزادت على مائة ألف نهر وعشرين ألف نهر تجري فيها الزوارق». ويعقب الأصطخري على هذه الإحصائية فيقول[٤]: «وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال حتى رأيت كثيراً مع تلك البقاع فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زوارق صغار، ولكل نهر اسم ينسب به إلى صاحبه الذي احتفره أو إلى الناحية التي يصب فيها فجوزت أن يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها».

كما وصف بغداد في أيامه في القرن الرابع الهجري فقال: «وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد إلى نهر بين فرسخين على جدار واحد حتى تتصل من نهر بين شط دجلة ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة الشماسية نحو خمسة أميال وتحاذي الشماسية، في الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلاً دجلة

---

(١) الأصطخري ص ١٤٢.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٤.
(٣) ابن حوقل ص ١٩٨.
(٤) الأصطخري ص ٨٠.

إلى آخر الكرخ» ثم يضيف فيقول: «وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير مميز تخترق إليه أنهار من الفرات».

ويحدثنا الأصطخري عن بلاد النوبة فيقول: «والنوبة نصارى وهي بلدان أوسع من الحبشة وبها من المدن والعمارة أكثر مما بالحبشة ويخترق نيل مصر فيما بين مدنها وقراها حتى يتجاوز ذلك إلى رملة من أرض الزنج ثم يتجاوزها إلى براري يتعذر مسلكها. وبلغني أن في بعض أطراف حدود فيها زنج بيض وبلد الزنج هذا بلد قشف قليل العمارة قليل الزروع إلا ما تصل بها من مستقر الملك[1].

□ □ □

(١) الأصطخري: ص ٢٨ ــ ٣٦.

ابن الفقيه الهمذاني

ابن الفقيه الهمذاني من جغرافيي القرن الثالث للهجرة الذين ارتحلوا وكتبوا الشيء الكثير عن بلدان العالم الإسلامي وخاصة عن بلاد العرب والحجاز. وقد وصلنا من مؤلفاته (مختصر كتاب البلدان) الذي ألّفه حوالي (سنة ٢٧٩هـ/سنة ٨٩٢م) الذي نشره دي جويه (De Goeje) بمطابع ليدن مع تعليمات باللغة اللاتينية والعربية سنة ١٨٨٥.

وقد دوّن ابن الفقيه في كتابه هذا، رحلاته، فوصف فيه الأرض والبحار في الصين والهند وبلاد العرب التي خصّ منها البصرة والكوفة. ومما يدل على أهمية المعلومات التي ذكرها ابن الفقيه في مصنّفه، أن المقدسي وكذا ياقوت الحموي قد ذكروه كثيراً في كتبهم هذا فضلاً عما اقتبسوه منه.

كذلك أدلى ابن الفقيه بدلوه في أحداث التاريخ الإسلامي الهامة، فمن ذلك ما ذكره عن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين في العصر الأموي، فهو يقول: فلما حدثت فتنة الأشعث[1] سنة ٨٢هـ (واقعة الجماجم) حرق الديوان وصناعات الحسابات، فأخذ كل قوم ما يليهم[2].

ويضيف ابن الفقيه، فيقول: على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معادية، في هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء

(١) ابن الفقيه ص ١٥٤.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٨٣.

ورجال التقوى. وفي ذلك يقول أبو ذر الغفاري: «إن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم. كما كان يقوم في بلاد الشام ويقول: «يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، بمكاو من نار تكوى بها جباههم وظهورهم». ومازال يكرر ذلك حتى ولع الفقراء بقوله.

ولم يكن أبو ذر يخشى في الله لومة لائم، رده على معاوية عندما سأله عن بناء قصر الخضراء في دمشق «كيف ترى هذا؟ فقال أبو ذر: «إن كنت بنيته من مال الله فإنك من الخائنين، وإن كنت بنيته من مالك فإنك من المسرفين»[1].

كذلك يذكر مقاسمة معاوية شطر أموال عماله فيقول: «وكانت مشاطرة عمر عمّاله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك في مشاطرة العمال فلم يكن يموت له عامل إلا شاطر ورثته وهو يقول: إنها سنة سنها عمر، ثم تدّرج إلى استصفاء أموال الرعية وهو أول من فعل ذلك»[2].

وقد عني ابن الفقيه عناية خاصة بإقليم العراق، ومن ثم حرص على أن يؤرخ لكل من حوادثه أو ظاهرة من ظواهره، ومن أمثلة ذلك ماذكره عن السواد: «فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها وخصوصاً السواد، فإنه من أخصب بقاع الأرض فخراجه (١٢٠,٠٠٠,٠٠٠)، درهم وذلك نحو ثلث خراج المملكة كلها. والسواد كثير الجباية من أيام الفرس فقد جباه قباذ بن فيروز (١٥٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم وجباة كسرى بن قباذ (٢٨٧,٠٠٠,٠٠٠) درهم وجباه غيرهم من ملوك الفرس (١٢٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم سوى (٣,٠٠٠,٠٠٠) من الوضائع لموائد الأكاسرة[3]. وكانوا يجبون ذلك على غير ظلم أو تعسف ولكنهم كانوا يعتنون بالري فيحفرون الترع ويبنون السدود والجسور».

---

(١) ابن الفقيه ص ١٥٦.

(٢) ابن الفقيه ص ١٠٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٥.

وقد أفرد ابن الفقيه باباً خاصاً للبصرة والكوفة فقال: «هي من أقدم المدن التي بناها المسلمون، وقد اتخذها العرب في بادىء الرأي معسكراً في مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة، فكان من البصرة على الضفة الغربية للفرات إلى مكة رمال وجبال وسهول لا يفصل بينهما نهر. وبنوها أولاً بالقصب ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن بإذن عمر. وجعلوا المدينة خططاً بحسب القبائل لكل قبيلة خط، وجعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعاً وهو مربدها، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع، ووسط كل خط رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم وتلاصقوا بالمنازل»[١].

ثم يضيف فيقول: «واشتهر أهل البصرة بالأسفار التجارية إلى كل الجهات حتى ضرب المثل[٢] في ذلك فقالوا: وأبعد الناس نجعه في الكسب بصري وخوزي[٣] ومن دخل فرغانة والسوس الأقصى، فلا بد أن يرى بها بصرياً أو خوزياً أو حيرياً»[٤].

أما عن الكوفة فيقول: «بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة أشهر بناها سعد بن أبي وقاص. ويقال في سبب بنائها، أن سعداً بعد أن فتح العراق وتغلّب على الفرس، نزل في عاصمتهم المدائن، ثم بعث إلى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة وفداً يخبره بذلك. فلما وصل الوفد إلى عمر رأى ألوانهم قد تغيرت وأحوالهم قد تبّدلت، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا وخومة البلاد غيّرتنا.

فأمرهم عمر أن يرتادوا منزلاً يُنزِلون فيه المسلمين لأن العرب لا يوافقهم من البلاد إلا ما يوافق الإبل وكتب إلى سعد: «ابعث سليمان وحذيفة رائدين فليرتادوا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر.

---

(١) ابن الفقيه ص ١٨٨.
(٢) المرجع السابق ص ١٩١.
(٣) خوزي من أهل خوزستان.
(٤) حيريا من أهل الحيرة.

ففعل سعد ذلك فاختاروا مكاناً وراء الفرات وبينه وبين الحيرة، وبنوها أولاً بالقصب كما بنوا البصرة ففعلوا ذلك لتكون المنازل قريبة من الخيام فأحرقت، فاستأذنوا عمر في البناء باللبن فأجابهم إلى ذلك على شرط أن لا يزيد أحدهم على ثلاثة أبيات ولا يطاولها».

□ □ □

أبو علي أحمد بن عمر ابن رستة

هو ابن رستة أبي علي أحمد بن عمر، وهو من أعظم الجغرافيين الرحالة في القرن الثالث للهجرة الذين نهلوا من المعرفة اليونانية والرومانية بعد تعريفها وتنقيحها. ألّف ابن رستة موسوعته (الاعلاق النفيسة حوالي (سنة **٢٩٩** هـ/ سنة **٩٠٣** م) الذي طبع الجزء السابع منه في المكتبة الجغرافية بليدن مع كتاب البلدان لليعقوبي (سنة **١٨٩١** ـ سنة **١٨٩٢** م) بليدن.

وقد تناول ابن رستة في الأقسام الأولى من كتابه دراسة عجائب السموات ومركز الأرض وحجمها ووصف كثير من أقاليمها، وعلاقتها بالفضاء وخطوط الزوال والاحرام وتقسيم هيئة الأرض. أما القسم السابع منه فقد خصصه للنواحي الفلكية.

وقد صنف ابن رستة موسوعته (الاعلاق النفيسة) وهو مقيم في أصفهان، ومن ثم فقد كان لها الحظ الأوفر من عنايته عندما بدأ يصف المدن والممالك ويجمع أخبارها والتي كان معظمها من مشاهداته خلال رحلاته ولا غرو في ذلك فهي بلدة ومسقط رأسه كما يذكر ذلك في حديثه عنها.

فمن وصفه لأصفهان: سألت أن أصف لك أصبهان وتربتها وهواءها وطيبها وسقيها وأحوالها وسائر أسبابها التي تبينّ بها من سائر البلدان الموصوفة فضائلها المذكورة عجائبها، إذ كنت من أهلها. وكان ما أودعته كتابي من ذكر غيرها من البلدان إنما هو خبر قد يصح ويسقم وحكايات احتجت إلى التعديل

فيها على تقليد من لعل الضرورة دعت إلى تعديله وقبول قوله، إذ كانت إحاطتي بعلم أحوال ما ذكرته من البلدان ومسافات ما بينها وعجائبها وتفاضل بعضها على بعض وما لها من الخاصيات متعذرة علي، وعلى كل من حاول من قصدت له ولم يكن لأحد أن يطالبني به».

وبعد هذه المقدمة ينصرف إلى وصف أصفهان فيقول: أصبهان كورة واسعة الرقعة قد أجمع الناس على أنها ثمانون فرسخاً في مثلها ومن قصبتها إلى كورة شيراز من بلاد فارس ثمانون فرسخاً ليس في ذلك اختلاف بين أحد من السابلة والتجار الذين يكثر اختلافهم».

ثم يحدثنا عن حاصلاتها وما بها من المعادن وما يقوم عليها من الصناعات فيقول: «وتربتها أصح الترب تبقى بها الثمار سنة مثل العنب على رقة قشره والصيني على كثرة مائه والتفاح والسفرجل والرومان حتى يجمع فيها بين العتيق والجديد منها، وتبقى بعد ذلك أيضاً مدة».

ويعدد معادنها فيقول: «ثم بها معادن الفضة إلّا أنها في هذا الوقت مهجورة لا يعمل فيها وآثار العمل الذي كان يعمل فيها قائمة من آبار محفورة كان يستخرج منها الجوهر. وكان العمل فيها قائماً حتى جاء الله بالإسلام، وكان أهلها مجوساً، فأخذوا بالجزي ولم يكونوا عهدوها فشغلوا عن العمل فيها فتعطلت. وبها معدن الصقر (النحاس الأصفر) وعليه للسلطان خراج عشرة آلاف درهم. وبها معدن الأثمد[1] الفائق الذي يجلب إلى الآفاق وكذلك التوتيا»[2].

---

(١) الإثمد: جاء في صحيح البخاري والقرماني (الأخبار الطوال ص ٨٦) عن ابن عمر، رضي الله عنهما، ما نصه: وكان صلى الله عليه وسلم يكتحل قبل أن ينام ثلاثاً في كل عين، قال «إن خير كحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر». والإثمد كما جاء في معاجم اللغة (الإفصاح ص ١٥٦) الإثمد حجر الكحل، أو حجر يكتحل به. ويضيف ابن سيدة (المخصص ج ٤ ص ٥٨) وهو شيء يشبه الكحل وليس به» ويقول: اللأُصف وهو اسم للإثمد يكحل به في بعض اللغات، والإثمد هو الحلوُ وهو حجر بعينه يستشفي به من الرمد (التراكوما) وهو الرمد الحبيبي».

(٢) ابن رستة: الاعلاق النفسية ص ١٥١ ـ ١٥٦.

كذلك أعطانا ابن رستة وصفاً ضافياً لمدينة صنعاء جاء فيه: هي مدينة اليمن ليس باليمن ولا بتهامة ولا بالحجاز مدينة أعظم منها ولا أكثر أهلاً وخيراً ولا أشرف أصلاً ولا أطيب طعاماً منها. وهي مدينة جليلة برية معتدلة الهواء يعدل طيب هوائها في جميع السنة هواء ربيعياً في السنة إذا اعتدلت وطابت.

أما أمطارها فكثيرة، ولأمطارها أوقات معلومة، عندهم علامات لذلك لا يخطئون. ويمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً ومن الخريف أربعة أشهر، ثم تنقطع الأمطار عندهم فلا يمطرون أصلاً إلى مثل ذلك الوقت من العام الآخر، وأكثر ابتداء مطرهم في الوقت الذي يمطرون فيه بعيد المطر».

ويقول عن حاصلاتها الزراعية «وتدرك عندهم الحنطة دفعتين والشعير والأرز ثلاث دفعات وأربعاً، ومن ثمارهم عنبهم ما يدرك في السنة دفعتين أيضاً. وعندهم فواكه سرية مثل أنواع التفاح والبرقوق وهو الخوخ ومن أنواع الإجاص ما ليس بخراسان والكمثري أنواع كثيرة. وعندهم على ما زعموا قريب من سبعين لوناً من العنب، وعندهم النخيل في قراها دون قصبتها. والموز عندهم كثير في كل موضع يدرك الموز عندهم في كل أربعين يوماً يقطع ثمرته ولا ينقطع القطاف عنهم أبداً. وعندهم بقلى رطب وقصب سكر وجوز وفستق ورمان وتين وسفرجل وبطيخ حسن غير طيب يؤكل مع السكر، والقثاء وأنواع الخضر والأترج عندهم كثير كبار حلو الطعم. كما يوجد عندهم ألوان الرياحين والورد والياسمين والنرجس والسوسن الوان، وربما وجد كلها في وقت واحد وعندهم العسل الكثير». ثم يضيف فيقول: ويفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين يشترى جميع ذلك بسعر واحد. وللحوم ضأنهم وبقرهم خاصية، وذلك أنها لا تنضج إلّا على الجمر والوقود يسخنها ولا ينضجها.

ونختم موضوع الحاصلات الزراعية التي تزرع بصنعاء، بتقسيم أرضها الزراعية إلى ثلاثة أنواع من حيث الري إذ يقول: وهي على ثلاثة أصناف، صنف منها على العيون وصنف على الآبار يستقي منها بالإبل والبقر، وصنف وهي أثراها وأكثرها قيمة على ماء السد. والسد سكر قد اتخذ على فوهة جبال

قد أحاطت بمواضع تقرب من ضياعهم قد نصبوا على أسافل ذلك السد أفواهاً يجرون منها المياه في أنهار قد احتفروها إلى ضياعهم.

أما عن الصناعات في صنعاء فيقول ابن رستة: ومن عندهم يجلب الادم والنعال المشعرة والانطاع والبرود[1] المرتفعة والمصمت والأردية.

وقد تعرّض ابن رستة لأهل صنعاء في شيء من التفضيل فقال: وهي مدينة كثيرة الأهل طيبة المنازل بعضها فوق بعض، إلاّ أنها مزوقة. أكثرها بالجص والآجر والحجارة المهندمة منها ما أساسها من الجص والآجر وسائرها حجارة مهندمة حسان. وأكثر سطوحها مفروشة بالحصا لكثرة أمطارها. ونساؤهم حرائر والناس ينتشرون في حوائجهم بالنهار يجتمعون في مجالس الفقهاء وغيرهم بعد العتمة إلى وقت يضرب فيه الكوس (الأبواق) المنصوب على غمدان (قلعة) فيسمع ذلك أهل البلد فمن وجد قبل صوت الكوس لم يتعرض له ومن وجد بعد ذلك قتل. لابن يعفر صاحب اليمن قلعة تعرف «بشبام وشام». . ووجودهم قوم من نسل سيف بن ذي يزيد في غاية السراوة والنبل يتقدمون في ذلك وجوه سائر الكور وهم قوم يرجعون إلى سخاء وكرم.

أما ما يتعاملون به من النقود فيقول: معاملة أهل البلد بالدنانير المطوقة والدراهم السديسية والفلوس فضرب الدرهم ربما ارتفع من الستين إلى المائة بدينار والفلوس أربعة وعشرون بدرهم وزن كل درهم مقطعاً وكل ما كان أكبر كان أرطب.

وبعد ذلك يتحدث عن أهم عمائرها الدينية والحربية فيقول: ومسجد

---

(١) البرود: مفرده بردة ويقول ابن منظور (اللسان ج ٤ ص ٥٤) «قال ابن سيدة: البرد ثوب فيه خطوط وخص بعضهم بالوشي. والبردة هي الشملة المخططة. ومن المعروف أن اليمن اشتهرت بالبرود، يقول الجاحظ (التبصر ـ بالتجارة ص ٢٢) ومن خصائص اليمن السيوف والبرود. كما يذكر الثعالبي (لطائف المعارف ص ٢٣) برود اليمن، كما يقول في (ثمار القلوب ص ٥٣٤) ويقال في نفائس الملابس برود اليمن. ويلاحظ أن البرود كانت من ألبسة الترف الغالية، والراجح أنها لم تكن شائعة بين الفقراء [صالح العلي: ألوان الملابس العربية مستل من المجلد (٢٦) من مجلة المجمع العلمي العراقي ص ١٠٦].

جامعها بقرب سورها مبني من حجارة وجص وهو مسجد كبير. وذكر فقهاء تلك الناحية أن هذا المسجد بني بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهده. وأن موضع المحراب قبر نبي من الأنبياء، وكان يعظم ذلك قبل بناء المسجد في المتقدم من أجل ذلك وأنه تولى بناءه رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وليس لشيء من مساجدها رحبة إلّا المسجد الجامع.

وقبالة المسجد الجامع بالقرب منه على قدر عشر أذرع قلعة أساسها من الصخر وهي تعرف بغمدان موضع التبابعة بناها سام بن نوح. وذكر فقهاؤهم أنه أول بناء بني بعد الطوفان وسمكها مرتفع جداً، وقد نقص عامة حواليها واستعمل ما خرج منها من الحجارة حتى قال بعضهم أنه اكتفى بما خرج منها من الحجارة عن نقل الحجارة إليها من غيرها. وفي هذه القلعة بئر يستقي منها الماء إلى هذه الغاية ويقولون لها بئر سام بن نوح».

□ □ □

لسان اليمن
أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني
المعروف بابن الحائك

كان أبو محمد الهمداني من بيت متوسط من بيوت بكيل من بني قيس بن ربيعة بن عبد بن عليان بن أرحب، ومن فرع الطوارق من أداهم عبد بن عليان[1]. وجدُّ جدّه ذو الدمنة، وهو سليمان بن عمر بن الحارث بن منقذ، كان شاعراً حكيمًا حمّال أمانات. وكان سليمان يتجر بالإبل، ولعله اقتطع لإعطائها أرضاً في المراشي كان يسميها (الدمنة) فعرف بها.

وقد كان وطن بني عبد بن عليان بن أرحب هو (المراشي)[2] الوادي الثالث من أودية الجوف، جوف همدان وهو منفهق من الأرض تفضي إليه أربعة أودية كبار في شمال صنعاء بينها وبين صعدة من بلاد خولان القضاعية.

وبقي سلف أبي محمد في وطنهم المراشي إلى أن كان أول من تحوّل عنه يوسف المقدا أبو جدّ (الهمداني)، فانتقل مع أبيه داود في آخر عمره لاحقين باخوتهم من بني الأزهر بن جذيل، فخالطوهم مع بلحارث من مذحج، بالرحبة ورحابة وصدور الخشب في وادي (الخارد) أول أودية الجوف الأربعة السالف الإشارة إليها. ثم انتقل يوسف إلى صنعاء في آخر عمره بمن معه من بنيه ومنهم

---

(١) لقد أورد الهمداني نسبه كاملاً في كتابه الإكليل ج ١٠ ص ١٩٢ ــ ٢٠٤.

(٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب ص ٨٢ [ساقط بَرط والمراشي في الوادي الثالث من أودية الجوف الكبرى في اليمن، وأولها الخارد وثانيها خبش والثالث المراشي والرابع وادي المنبج].

يعقوب الجد الأدنى (للهمداني)، ويبدو[1] أن ذلك كان في أواسط القرن الثاني للهجرة في خلافة أبي جعفر المنصور، والانتقال من الخارد إلى صنعاء ثم في الربع الأول من القرن الثالث زمن الخليفة المعتصم أو الواثق.

وفي صنعاء ولد الهمداني، ويقول محب الدين[2] الخطيب: ولا نعرف تاريخ ولادته، وقد يكون ذلك بعد أن مضى على هذا البيت في صنعاء نحو نصف قرن أي زمن المعتمد بالله بن المتوكل [سنة **٢٥٦** هـ إلى سنة **٢٧٩** هـ]. وقد نشأ الهمداني في عصر تقدمت فيه العلوم والآداب وتفنن أهلها في التصنيف والتأليف فشارك الهمداني في جميع معارف عصره من تاريخ وأنساب وجغرافية ومساحة وفلك ودراسة لحركات الكواكب وبحث عن سنن الطبيعة وآراء الملل والنحل. وقد أصاب ما أصاب من بعض هذه العلوم العقلية في صدر حياته، لأن مشاغله بعد ذلك التي دلت عليها أخباره لا تمكنه من هذه الدراسة لو لم يتمكن منها في أيام شبابه.

ويحدثنا الهمداني عن حياته الاجتماعية[3]، فيقول أن زوجته هي فاطمة ابنة عمه محمد بن يعقوب شقيق والده الحسن بن يعقوب، وأنه قد رزق منها بولد هو (مالك بن الحسن) الذي مات في حياة والديه، وللهمداني في رثائه قصائد ضاعت مع دواوينه.

وقد اتخذ (الهمداني) (ريدة) وطناً له بعد صنعاء، وهي عاصمة البون من بلد حاشد. ولما كان الهمداني من (بكيل) فهو يعتقد أن بئرها العجيبة هي البئر المعطلة المذكورة في القرآن. وأن قصرها الأثري (تلفم) هو القصر المشيد. وتبعد ريدة عن صنعاء (٢٠) ميلاً ومنها إلى (اثافت) (١٦) ميلاً. ولا ندري متى فارقها ليقوم برحلته الكبرى إلى الشمال، وهي الرحلة التي أفدنا منها كتاب (صفة جزيرة العرب).

---

(١) الهمداني: الإكليل ج ١٠ [مقدمة الناشر محب الدين الخطيب (يج)].

(٢) محقق الإكليل ج ١٠، بينما نجد محمد بن علي الأكدع الذي حقق كتاب (صفة جزيرة العرب) يحدد تاريخ ميلاده سنة ٢٨٠ هـ، ولا أرى هناك خلاف يذكر.

(٣) الإكليل ج ١٠ ص ١٩٨.

واختار الهمداني في أواخر حياته الإقامة في صَعْده، وهي من ديار خولان قضاعة. وقد سجن في زمن الإمام الزيدي أحمد الناصر (سنة ٣١٥ هـ/ سنة ٩٢٧ م) وفي زمن أبي يَعْفُر الحوالي لأبيات في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم نسبوها إليه، ولكن ربما كان سجنه لأسباب سياسية. وتوفي بسجن صنعاء سنة ٣٣٤ هـ.

ويبدو أن أسرته كانت تحترف نقل الحجيج إلى مكة مما أتاح له كثرة السفر وزيارة العديد من البلاد العربية وخاصة العراق، كما أقام مدة طويلة في مكة حيث تضلع في جميع العلوم واجتمع بشيوخها مثل الأنباري والزاهدي وابن خلويه وأخذ عنهم، غير أنه يعتبر شيخه أبا نصر محمد بن عبد الله الحميري المرجع الأوحد في أخبار اليمن وأنسابها. فقد مدحه في مقدمة كتابه (الإكليل) الذي يعتبر رغم الاتهامات التي وجهت إليه موازياً (لجمهرة الأنساب لابن الكلبي).

ولم تكن حياة الهمداني وقفاً على العلم والتصنيف، بل ساهم في حركات عصره وحوادث وطنه، فقد كان عصره زمن حوادث وانقلابات، ففيه ظهر القرامطة، واتخذ الإسماعيليون من اليمن ميداناً لنشاطهم، وفيه قامت الإمامة العلوية لأول مرة على يد يحيى الهادي وابنيه المرتضى والناصر حملة مذهب الإمام زيد إلى اليمن. ولعل هذه الأحداث هي التي دعت الهمداني إلى التحول عن صنعاء ويتخذ له وطناً جديداً في مدينة (ريده) عاصمة البون ودار ملك بني الضحاك الذين أزالوا مملكة آل يعفر بعد أن عجزت الدولة العباسية عن إزالتها.

وقد وثق الهمداني صلته بسيد همدان في عصره أبي جعفر أحمد بن محمد بن الضحاك العبدي المعيدي صاحب الوقائع والأيام، فكان له خلاً وصاحباً.

أما عن إنتاج الهمداني العلمي، فيشير أبو الحسن القفطي إلى (زيجة)[1]

---

(١) بركلمان: تاريخ الأدب العربي ج ٤ ص ٢٤٩ (المترجم) طبعة دار المعارف الثانية بالقاهرة.

المعروف ويقول أن عليه كان اعتماد أهل اليمن. كذلك كان الشعر واللغة والأدب من أوائل ما اضطلع به الهمداني، ومن ذلك قصيدته العظمى (الدامغة) في فضائل قحطان ومطلعها:

ألا يا دارُ لولا تنطقينا فإنا سائلوك فخبرينا

والتي اطلع عليها القفطي[1] على شرح الهمداني لها في مجلد كبير استدل منه على فضله في اللغة والأدب، فعقد له بسبب ذلك ترجمة أخرى في (كتاب النحاة) كما ضمه جلال السيوطي كذلك في كتاب (بغية الوعاة). كما نقل السيوطي عن مؤرخ اليمن أبي الحسن علي بن الحسن الخزرجي[2] دواوين شعر الهمداني التي بلغت ست مجلّدات. ويذكر صاعد[3] الأندلسي للهمداني كتاب «سرائر الحكمة» وكتاب «القوي» وكتاب «اليعسوب في الرمي والقسي والسهام والنصال (وسماه الهمداني في صفة جزيرة العرب» القوس من اليعسوب.

وإذا كان الزيج وعلم الفلك ونظم الشعر والتفقه في اللغة العربية من أقدم معارف الهمداني، فلعل من أقدمها كذلك كتابه في (الحيوان) وكتابه (القوي) وكتابه (سرائر الحكمة). ويأتي بعد هذه المجموعة كتابه (اليعسوب) في آلات الحرب وأخبار الأبطال والشجعان الذين امتازوا باستعمالها. ثم يأتي بعد ذلك كتابه الإكليل ذلك أنه احتوى على إشارات متعددة عن تلك الكتب.

ويعتبر كتاب الإكليل من المراجع الأصيلة في تاريخ اليمن، ويتكوّن من عشرة أجزاء جمع فيها الهمداني تاريخ ماضي اليمن من جميع الوجوه بما يملكه من وسائلها وقربه من عصورها وخبرته بآفاقها.

---

(١) الزيج: عبارة عن كشوف تبينّ حساب حركات الكواكب وما يتعلق بها من أعمال الملاحة [سعاد ماهر الملاحة في مصر الإسلامية ص ٢٣٦].

(١) ابن القفطي: أنباء الرواة ج ١ ص ٢٨٣ (وهي القصيدة التي شرحها هو وولده).

(٢) توفي أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي سنة ٨١٢ هـ.

(٣) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ٤ ص ٢٥ (المترجم) طبع دار المعارف (القاهرة الطبعة الثانية).

وهناك آثار كثيرة للهمداني قد فقدت الآن، وقد أشار إلى بعضها عبد الله محمد الحبشي[1]، مثل (الأيام) الذي ورد ذكره في بغية الدعاة للسيوطي. وكذا (الجوهرتان العتيقتان المائعتان في الصفراء والبيضاء والمشتبة) في كتاب الإكليل.

ولعل من المراجع الفريدة التي تهمنا في موضوع الرحلة والرحالة، هو كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني، فهو من أمهات الكتب لمعرفة جزيرة العرب وخاصة الجزء الجنوبي منها. ذلك أن الهمداني لم يكتف بوصفها نقلاً عن غيره وإنما تنقل إلى معظم أجزائها، بل حاول جاهداً بفضل تبحره في علم اللغة أن يكشف أسرار الخط المسند الحميري.

ويعبّر الهمداني عن رأيه في جزيرة العرب في مقدمة كتابه صفة جزيرة العرب فيقول: أفضل البلاد المعمورة من شق الأرض الشمالي إلى الجزيرة الكبرى وهي الجزيرة التي يسميها بطليموس (ماروى) تقطع على أربعة أقاليم من عمران الشمال إلى الخامس فجنوبيها: اليمن وشماليها وغربيها: شرم أيلة وما طردته من سواحل إلى القلزم وفسطاط مصر وأرض نجد والعروض وتسمى جزيرة العرب».

ويظهر تبحر الهمداني واضحاً في تسميته لأجزاء جزيرة العرب الخمسة، فهو لا يرى من الضروري إهداء اليمن لليمن ووصف الشام بالشام، كما يرى اعتماداً على ما هو شائع عند أهل اليمن، أن الحجاز بين اليمن والشام والعروض ما أعرض عن جبال السراة وتوجه نحو الشمال الشرقي.

وقد كانت معرفة الهمداني لكل المواضع المعروفة في البلاد في زمانه أنه استطاع أن يصف اليمن بجبالها وأنهارها وأمطارها ونباتها كما يتعرض لأماكن الوحوش والنمور والأسود وما إليها».

وقد علّق عبد المجيد الذويب[2] عن كتاب (صفة الجزيرة العربية) فقال:

---

(١) عبد الله محمد الحبشي: مراجع تاريخ اليمن (طبع دمشق سنة ١٩٧٢).

(٢) عبد المجيد الذويب: (الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ جزيرة العرب جامعة الرياض سنة ١٩٧٧) الجغرافيون العرب.

نرى أن الهمداني اقتصر على وصف الجزيرة العربية وألم بكل ما حوته فكأنه أعد، دون أن يشعر أو يفكر قائمة لجميع مسميات خريطة طبوغرافية لم تطبع بعد.

□ □ □

أبو الحسن
علي بن الحسين بن علي المسعودي

لعل من أشهر الرحالة الجغرافيين باعاً وأكثرهم ارتحالاً وأشملهم علماً ومعرفة، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الذي وصفه ابن خلكان بإمام المؤرخين وشبّهه زكي حسن[١] بهيرودوت المعروف (بأبي التاريخ).

وإذا كنا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ مولده إلا أنه يغلب على الظن أنه ولد بمدينة بغداد من أسرة تنتسب إلى الصحابي عبد الله بن مسعود[٢]. كما لا نعلم إلا القليل عن حياته السابقة على قيامه برحلاته المتعددة.

وقد اختلفت بعض المصادر العربية في أصل المسعودي ومن ثم فقد رأينا من واجبنا أن نذكرها دون أن ندلي فيها برأي، فمن ذلك ما ذكره ابن النديم[٣] أن المسعودي من أصل مغربي، بينما يضعه ابن شاكر الكتبي[٤] في عداد البغداديين. ويعلّق نقولا[٥] زيادة على ذلك فيقول: «يتضح من تتبع هذه القضية أن أسرة المسعودي جاءت من المغرب واستقرت ببغداد، ولكن لم يتضح بعد فيما إذا كان هو نفسه ولد في بغداد أم جاءها طفلاً».

---

(١) زكي حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٣٩.

(٢) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ج ١ ص ٥٣٤.

(٣) ابن النديم: الفهرست ص ٢١٩ (القاهرة مطبعة الرحمانية سنة ١٩٢٩).

(٤) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ص ٥٥ (القاهرة طبعة بولاق سنة ١٨٨٥).

(٥) Nicola. A. Ziadeh: Diyar al-Sham according to al Masudi (Masud: Milenary Commerative, Volume, Calcuta 1960) pp. 20-24.

وقد ارتحل إلى إيران (سنة ٣٠٥هـ/سنة ٩١٧م) حيث أقام في أصطخر فارس، ثم ذهب إلى الهند وزار ملتان والمنصورة، وواصل من سيلان مسافراً مع التجار إلى بحر الصين. وفي طريق عودته جال في المحيط الهندي فزار عمان وزنجبار وسواحل أفريقية الشرقية والسودان. ومضت به حياته القلقة إلى بحر قزوين وإلى فلسطين وذلك (سنة ٣١٤هـ/سنة ٩٢٦م) ثم اتجه إلى آسيا الصغرى وأنطاكية (سنة ٣٣٧هـ/سنة ٩٤٨م). كذلك زار بلاد الشام والعراق وبلاد العرب الجنوبية ثم انتهى به المطاف في مصر (سنة ٣٤١هـ/سنة ٩٥٢م) التي بقي بها حتى توفي (سنة ٣٤٥هـ أو سنة ٣٤٦/سنة ٩٥٦ أو سنة ٩٥٧م).

ويعد المسعودي من المؤلفين ذوي الثقافة المتنوعة الذين عاشوا في القرون الأولى للهجرة، فهو لم يهتم بالجغرافيا والتاريخ اللذين ارتحل من أجلهما فحسب، بل اهتم كذلك بعلم الكلام والأخلاق والسياسة وعلوم اللغة، ولكن معظم جهده كان في الجغرافيا والتاريخ. ورغم أن الدقة والعمق لم تتوفر لديه دائماً[1] إلا أننا ندين له بمجموعة من الأخبار القيّمة حول البلاد الإسلامية وبمعلومات مهمة أخذها من مصادرها الأصيلة التي فقدت ولا نجدها إلا عند شيخ المؤرخين المسعودي.

ولعل المسعودي قد أحسّ بعدم تحريه الدقة في بعض المعلومات التي جمعها من أسفاره العديدة والمتلاحقة، فنّوه إلى ذلك في مقدمة كتابه مروج الذهب حيث قال: على إننا نعتذر من تقصير إن كان، ونتنصل من إغفال أو غرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار، تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواص الأمم بالمعاينة كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والرانج. فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والهوات والطالقان وطوراً بالشام، فسيرى في الآفاق سرى الشمس في الأشراق»[2].

---

(١) فؤاد سزكين ص ٥٣٤.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ١ ص ٥.

أما عن مؤلفات المسعودي فهي كثيرة ضاع معظمها بسبب ضخامة حجمها وقلة انتشارها، أما ما بقي منها كاملاً أو مختصراً أو أدخل المؤلف مادته في مصنفات أخرى له. ولعل أبرز مؤلفاته سبعة هي: كتاب ذخائر العلوم وما كان في سائر الدهور وكتاب الاستذكار لما مر في سالف الأعمار، وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم. أما الكتب الأربعة الأخرى فهي: «كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة»[1]. ويقال أن هذا الكتاب كان يقع في ثلاثين مجلداً، وأن المسعودي أدخل مادته في كتابيه (كتاب الأوسط) و(مروج الذهب) ولم تصل إلينا منه إلا بعض المختصرات. وأول مختصر له مجهول المؤلف، قد وصف في عدة مخطوطات بأنه المجلد الأول من الأصل[2].

وكتابه (الأوسط) وهو مختصر من أخبار الزمان، توجد منه قسم في أياصوفيا[3]، وإن كانت النهاية ساقطة، وترجع إلى القرن التاسع الهجري، وهي ذات أهمية خاصة حيث أنها منقولة عن نسخة بخط يد المسعودي من سنة ٣٣٢هـ.

أما كتاب «مروج الذهب ومعدن الجوهر»، فمن المعروف أن المسعودي كان من المعتزلة ساح في طلب العلم فطاف أكثر أجزاء العالم الإسلامي وقضى الجزء الأخير من حياته في مصر حيث ألّف كتابه (مروج الذهب). وقد أسس المسعودي في تأليف التاريخ سنّة جديدة، فصار لا يرتّب الحوادث حسب السنين الهجرية بل جمعها تحت رؤوس موضوعات من الشعوب والملوك والأسرات. وقد تبعه في هذه الطريقة بعض المؤرخين ولا سيما ابن خلدون[4].

وكتاب (مروج الذهب) مصنّف تاريخي جغرافي عظيم القيمة لم يكتف فيه المسعودي ببحث الموضوعات التي اعتادها المؤرخون المسلمون، بل تطرّق إلى

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ٣ ص ٥٧.
(٢) بروكلمان ج ٢ ص ٢٦٣، فؤاد سزكين ج ١ ص ٥٣٦.
(٣) أيا صوفيا رقم ٤/٢٩٣٨ (من ٣٠٦ م ــ ٤٣٥ د).
(٤) سيده كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي ص ٣٦.

تواريخ الهند والفرس والروم واليهود. ويقع الكتاب في قسمين، تناول في القسم الأول وصف الخليقة وروى قصص الأنبياء في إيجاز، ثم انتقل إلى وصف الأرض والبحار والعجائب والغرائب وتاريخ الأمم القديمة وما كانت تعتنقه من الأديان وما تعتقد فيه من المذاهب وما تتبعه من العادات والتقاليد. ثم عرض للأيام والشهور والتقاويم وكل ما يتعلق بذلك.

أما القسم الثاني، فقد خصصه لتاريخ الإسلام من أواخر عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل خلافة المطيع العباسي. وقد بيّن المسعودي في مقدمة مروج الذهب جوامع أعراض هذا الكتاب فيقول: «أما بعد فإنا صنّفنا كتابنا في أخبار الزمان وقدّمنا القول فيه في هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها. ثم أتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة والأمم الدائرة والقرون الخالية والطوائف البائدة»[1].

وقد عرّف المسعودي بكتابه «التنبيه والإشراف» في مقدمته فقال: «رأينا أن نتبع ذلك بكتاب سابع مختصر نترجمه بكتاب «التنبيه والإشراف» نودعه لمعا من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها، وكيفية أفعالها، والبيان عن قسمة الأزمنة، وفصول السنة، وما لكل فصل من المنازل والتنازع في المبتدأ به منها. والرياح ومهابها وأفعالها وتأثيراتها، والأرض وشكلها وما قيل في مدار مساحتها وعامرها وغامرها والنواحي والآفاق وما يغلب عليها»[2].

ويوجد من هذين الكتابين عدد من النسخ المخطوطة كما توجد منها نسخ مترجمة إلى عدة لغات شرقية وغربية.

فبالنسبة (لمروج الذهب) فقد ترجم جزء منه إلى الفارسية موجود مخطوطة منها في مكتبة كلية الفلسفة بطهران (١٢٥ رقم ١٦١ح). كما توجد ترجمة فارسية أعدها ميرزا حيدر على فخر الأدباء أعدها سنة ١٣١٦هـ توجد في طهران.

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ١ ص ٢ ــ ٣.
(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف ص ٥ (طبعة ليدن بريل سنة ١٨٩٣).

كذلك نشر مع ترجمة فرنسية له في تسع مجلدات في باريس سنة ١٨٦١ وقام بالنشر والترجمة (C. Barbier De Meynard De Pavet De Caurteille).

ثم طبع في جزئين سنة ١٩٦٢/١٩٦٥، وطبع مرةثانية طبعة منقّحة مع ترجمة نقّحها (Ch. Pellat) ثم في بولاق سنة ١٢٨٣هـ والقاهرة سنة ١٣٠٣هـ.

كما نشر مع ترجمة انجليزية قام بها في لندن سنة ١٨٤١ (Sprenger I). كذلك نشره محمد محي الدين عبد الحميد سنة ١٩٦٤ بالقاهرة في مجلدين ثم طبع في بيروت في ٤ مجلدات سنة ١٩٦٦.

أما كتاب «التنبيه والإشراف» فقد ترجمه إلى الأردية عبد الله العمادي سنة ١٩٢٦ بحيدر أباد ونشره دي جويه (De Geoje) في لندن سنة ١٨٩٤ وترجمه إلى الفرنسية بعد تنقيحه (Carre De Vaux) سنة ١٨٩٧ بباريس ثم نشره مرة أخرى عبد الله اسماعيل الصاوي سنة ١٩٣٨ بالقاهرة.

وإتماماً للفائدة فقد رأينا أن نشير إلى مصنفات المسعودي التي وصلت إلينا أو التي ورد ذكرها في كتبه وهي:

إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، وهو مطبوع بالنجف سنة ١٩٥٥ كتاب «الاستذكار لما مرّ من سالف الأعمار» وكتاب «ذخائر العلوم فيما كان في سالف الدهور»[١].

وقد ذكر المسعودي كتابه (مروج الذهب) في كتبه التالية:

كتاب «الصفوة في الإمامة»[٢] وكتاب «الاستنصار»[٣] وكتاب «الزاهي»[٤]

---

(١) جاء ذكرهما في كتاب «أنوار علوم الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام لجمال الدين الادريسي ص ١٤ (باريس ٢٧٧٤) (انظر بلوشيه: E. Blochet. R. S. O. 2/739).

(٢) مروج الذهب: ج ٤ ص ١٣٥.

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ١٣٥، ج ٥ ص ٤٤١.

(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ١٣٥.

وكتاب (الانتصار المفرد لفرق الخوارج»[1] وكتاب «القضـايا والتجـارب»[2] وكتاب «مظاهر الأخبار وطرائف الآثار»[3].

من هذا السرد الموجز لبعض مصنفات المسعودي نرى أنه لم يترك علمًا أو فناً إلا وأدلى فيه بدلو، فمن أقواله في علم الفلك ما ذكره في «مـروج الذهب»[4] «أن السماء الدنيا من زمردة خضراء والسماء الثانية من فضة بيضاء والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء والسماء الرابعة من درة بيضاء والسماء الخامسة من ذهب أحمر والسماء السادسة من ياقوتة صفراء والسماء السابعة من نور قد طبقها بملائكة قيام على رجل واحدة تعظيمًا لله لقربهم منه قد خرقت أرجلهم الأرض السابعة واستقرت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة».

ومن الموضوعات التي أولاها المسعودي كثيراً من اهتمامه، المجتمع في جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده، فيحدثنا مثلاً عن طبقة الخاصة في بلاد فارس قبل الإسلام فيقول[5]: أما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجال الدين والأشراف من بقايا الدول السالفة. فبعد الملك وأهله تأتي طبقة الشهارجة (شهرجان) أو السهارجة، وهم أشراف السواد وأرباب الدولة كالبطارقة عند الروم تليهم طبقة الدهاقين وأحدهم دهقان وينتسبون إلى الملوك القدماء من الدول السالفة وهم أصحاب الأرضين وفي أيديهم أكثر البقاع يستغلونها على رقاب الطاجية. والدهاقين خمس مراتب قد يتولون الإمارات ويتعاطون الحكومة كأمراء بخارى (بخارا اخرا) فقد كانوا عند ظهور الإسلام من الدهاقين وكذلك هرات. وقد يكون الدهقان مثل عامة الناس.

ويحدثنا عن طبقة الخاصة في العصر العباسي فيقول: وأهل الخليفة هم بنو هاشم وكانوا أرفع الناس قدراً بعده ويسمونهم الأشراف وأبناء الملوك، فإذا دخلوا على

---

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٤١.
(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٤٠٥.
(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٣٦٠.
(٤) مروج الذهب الباب الثالث ج ١ ص ٤٦.
(٥) المسعودي ج ١ ص ١٢٣.

الخليفة جلسوا على الكراسي وسائر الناس دونهم على الوسائد أو البسط إلّا هو فإنه يجلس على السرير. وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال فضلاً عن النعم والهدايا على ما يتراءى للخليفة في أمرهم فإذا خاف تطاول أحدهم للملك أغل يديه وقطع لسانه بالعطاء ــ تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم[1]».

ويضيف فيقول عن ثراء تلك الطبقة «واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة لمحمد بن سليمان فقد بلغت أمواله نيفاً وخمسين ألف ألف درهم غير الضياع والدور وكانت غلته ١٠٠,٠٠٠ درهم في اليوم[2]. وبلغت ثروة خمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي ما لا يسعه الديوان[3].

ثم تناول المسعودي بعد ذلك طبقة الارقاء التي زاد عددها زيادة كثيرة نتيجة لكثرة الحروب والفتوحات التي قام بها المسلمون لنشر الدعوة الإسلامية فقال: فهل يستغرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أو مائة أو ألف. حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه[4].

وكذلك أشار إلى الجواري فقال: وكثيراً ما كان العمال والأمراء يتقربون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا فأهدى ابن طاهر إلى الخليفة المتوكل هدية فيها (٢٠٠) وصيفة[5] ووصيف. فلا غرو إذا تكاثرن في قصور الخلفاء والأمراء وأهل الوجاهة. وليس الاستكثار منهن حادثاً في الإسلام وإنما هو من بقايا القديم فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الأكاسرة (٦٠٠٠) جارية وكان لجماعة بني العباس ألف جارية[6]. .

---

(١) المسعودي ج ٢ ص ١٧٧.
(٢) المسعودي ج ٢ ص ١٨٨.
(٣) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥١.
(٤) المسعودي ج ٢ ص ٢٢.
(٥) المسعودي ج ٢ ص ٢٨٠.
(٦) المسعودي ج ١ ص ١١٥، الحسن بن عبد الله: ترتيب الدول ص ١١١.

ويضيف المسعودي فيتحدث عن النتائج التي أدت إليها تعدد الجواري في دور الكبراء وتسابق أهل الترف إلى التفنن في تزيينهن، فيقول: وأشهر من فعل ذلك أم جعفر، فإنها لما رأت ابنها يخنث الغلمان فيلبسهم ملابس النساء، اتخذت طائفة من الجواري سمتهن المقدودات عممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات أو المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق الذهب[1].

ثم يعرج بعد ذلك إلى طبقة العامة من سكان المدن فيتحدث عن العياريين فيقول: ظهر العيارون في بغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة وكان لهم في الفتنة بين الأمين والمأمون شأن كبير لأن الأمين لما حوصر وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم المآزر وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ودرقاً من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل. وبلغ عددهم يومئذ خمسين ألف عيّار وساروا للحرب يضربون الأعداء بالمقلاع والحصى، وكانوا أهل مهارة بذلك فأبلوا بلاء حسناً لكنهم لم يثبتوا أمام المجانيق والجنود المنظمة فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير[2].

ويتحدث عن طائفة من الرعاع تعرف بالشطار وهي من أهل الدعارة واللصوص فيقول: وكان أولئك اللصوص إذا شاخ أحدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات. وكانوا في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم (التوّابون) على أنهم كثيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون أمرهم[3].

ولعل من الموضوعات التي عنى بها المسعودي عناية خاصة وسبق الكثيرين

---

(١) المسعودي ج ٢ ص ٣٦٦.
(٢) المسعودي ج ٢ ص ٢١٨.
(٣) المسعودي ج ٢ ص ٣٣٥.

من مؤرخي الإسلام في تناولها، هي ذكر العمائر فوصف دورها وقصورها وما تحويه من رياش وأثاث فقال عن قصور العباسيين في سامراء: على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها وأولهم المعتصم بالله فقد كان كلفاً بالبناء فبنى سامرا لأتراكه وأقطعهم فيها القطائع. والمتوكل على الله كان مغرماً بالعمارة فبذل فيها الأموال الطائلة فأحدث أساليب من الأبنية لم تكن معروفة قبله منها النمط الحيري والكمين ذات الأروقة. وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفري بذل في بنائها جميعاً أكثر من (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم[١].

ويتكلم عن قصر الثريا فيقول: «فلما تولى المعتضد سنة **٢٧٩** هـ أضاف إليه (أي قصر التاج) ما جاوره فوسّعه وكبّره، واتفق خروجه إلى آمد فلما عاد رأى الدخان يرتفع إلى الدار فكرهه وابتنى على ميلين منه قصراً سماه (قصر الثريا) طوله ثلاثة فراسخ أنفق فيه (٤٠٠,٠٠٠) دينار[٢].

ثم اتبع ذكر العمائر بوصف ما بها الأثاث والرياش والمجوهرات فقال: وأحدث العباسيون في عهد هارون الرشيد أشكالاً من الفرش وفنونه لم يسبقهم إليه أحد منها ما ينسبون اختراعه إلى زوجته زبيدة فقد ذكروا أنها أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق[٣]. واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم وتفننوا في تزينها وكتابة الأشعار عليها مما يناسب المراد بها أو يشار به إلى غرض[٤]. على أن كتابة الأشعار على المراوح كانت معروفة في أيام بني أمية[٥].

(١) المسعودي ج ٢ ص ٢٧٩.
(٢) المسعودي ج ٢ ص ٣٢٨.
(٣) المسعودي ج ١ ص ٣٦٦.
(٤) المسعودي ج ٢ ص ١٩٦.
(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص ١٨٤.

وينتقل المسعودي من ذكر العمائر والأثاث والرياش إلى ذكر الخيل والحلبة والسباق فيقول: وكان العرب في الجاهلية بتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك وكثيراً ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق. وكانوا يرسلون خيلهم إلى الحلبة وهي ميدان السباق عشرة عشرة، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض[1].

ثم يتكلم عن الخيل في الإسلام فيقول: وكان لمعاوية حلبة يخرجون إليها في أيام معينة للسباق فمن حاز قصب السبق أجازوه[2]. ومن غريب ما ذكروه أن يزيد بن معاوية كان عنده قرد يكنىّ أبا قيس يحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأ وكان نبيهاً خبيثاً يحمله على أثان وحشية قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة. فجاء أبو قيس في بعض الأيام سابقاً وتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل وعليه قباء من الحرير الأحمر والأصفر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير من ذات اللون بشقائق وعلى الأثاث سرج من الحرير الأحمر المنقوش[3].

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة في الحلبة يستجيد الخيل للسباق ويبذل في اقتنائها الأموال فاجتمع عنده (٤٠٠٠) فرس ولم يسبقه أحد من العرب إلى ذلك. وكان له فرس سابق اسمه (الزائد) اشتهر في ذلك العصر. وكان الوليد بن يزيد مغرم بالخيل السباق فجمع منها ألف فرس أسبقها فرس اسمه (السندي) كان يسابق به في أيام هشام وكان يقصر عن فرس هشام (الزائد) وربما ضامة أو جاء مصلياً. وكان ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة[4]. ولمحمد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها هي أحسن ما نظم في حلبة السباق[5].

---

(١) المسعودي ج ٢ ص ٣٨٠.
(٢) قصب السبق: قصبة يغرسونها في آخر الحلبة ممن سبق إليها واقتلعها فهو الفائز.
(٣) المسعودي ج ٢ ص ٦٨.
(٤) المسعودي ج ٢ ص ١٢٩، ١٣٥.
(٥) المسعودي ج ٢ ص ٣٨١.

وتكلّم عن الحلبة والسباق عند العباسيين فقال: أما العباسيون فلم يكونوا أقل رغبة في السباق وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقة والشماسية، وللرشيد مواقف شهيرة في الحلبة نظم فيها الشعراء القصائد في مدح السوابق [١].

وإذا ما تركنا الجانب الاجتماعي في كتابات المسعودي وذهبنا إلى النواحي السياسية والمذهبية، لعرفنا علو كعبه في هذا المجال أيضاً، فمن ذلك حديثه عن الخوارج، إذ يقول: ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعة للخروج على بني أمية وإثارة الفتن والإضطرابات، ولا سيما في أفريقية وبلاد المغرب، حيث يميلون إلى الخوارج[٢].

ويحدثنا عن أسباب زوال ملك بني أمية فيقول: سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها (أي العارفين بتاريخها) عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا، وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخرجت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا. وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا[٣].

ويبدو واضحاً من كتابات المسعودي عن الدولة العباسية ميله الظاهر وتحيزه السافر لهم، فمن ذلك حديثه عن عبد الله السفاح وزواجه قبل توليته الخلافة من أم سلمة، إذ يقول: وكانت (أي أم سلمة) قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فمات فتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات. فبينما هي ذات يوم إذ مر بها

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٤٧، المسعودي ج ٢ ص ١٩٩.
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١.
(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ١٩٤.

أبو العباس السفاح، وكان جميلاً وسيمًا، فسألت عنه، وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها وقالت لمولاتها: قولي له: هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك، وكانت تمتلك كثيراً من المال والحشم والجواهر، فأتته المولاة وعرضت عليه ذلك فقال السفاح: أنا مملق لا مال عندي، فدفعت إليه المال، وأقبل إلى أخيها وطلب إليه أن يزوجه منها فزوجها إياها، فأصدقها خمسمائة دينار وأهدى من يلوذ بها مائتي دينار، وزفت إليه في ثياب موشاة بالجوهر وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمراً إلاّ بمشورتها حتى أفضت إليه الخلافة[1].

ويصف المسعودي المنصور فيقول: وكان المنصور من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف. وكان يعطي الجزيل والخطير ما كان إعطاؤه حزماً ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تصنيعاً. وكان كما قال زياد: لو أن عندي بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره. وخلف ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشرة ألف ألف دينار، وكان مع هذا يضعه بماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام. ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود وعليه الحطب والتوابل[2].

ومن طريف ما ذكره المسعودي عن العصر العباسي الثاني، ما رواه عن لسان أعرابي في وصف رجال الدولة في عهد الخليفة الواثق، قال: ذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الجاسمي[3]، قال: خرجت في أيام الواثق إلى سر من رأى فلما قربت منها لقيني أعرابي، فأردت أن أعلم خبر العسكر منه، فقلت: يا أعرابي! ممن أنت؟ قال من بني عامر، قلت كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين؟ قال: أرضا عالمها، قلت، ما تقول في أمير المؤمنين؟ قال وثق بالله وكفاه، أشجى القاسية وقصم العادية ورغب عن كل ذي جناية، فقلت، فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد قال: هضبة لا ترام وجبل لا يضام، تشحذ له المدى وتنصب

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٥ ــ ٢١٧.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦.

(٣) نسبة إلى حاسم، وهي قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف باسم جاسم على بعد أميال من الجابية) معجم ياقوت.

له الحبائل، حتى إذا أقبل كان قد وثب وثبة الذئب وختل ختلة الضب، قلت، فما تقول في محمد بن عبد الملك الزيات[1]، قال: وسع الداني شره ووصل إلى البعيد ضره، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا مخلب.

قلت: فما قولك في إبراهيم أخيه، قال: أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون.

قلت: يا أعرابي أين منزلك حتى آتيك، قال: اللهم عفواً مالي منزل، أنا أشتغل النهار وألتف الليل، فحينما أدركني الرقاد رقدت، قلت فكيف رضاك عن أهل العسكر، قال: إن أعطوني لم أحمدهم وإن ضيعوني لم أذمهم[2].

وقد تناول المسعودي حركات الموالي في العصر العباسي بالشرح والتفصيل، فيقول مثلاً عن الزنادقة في عهد الخليفة المهدي: إن هذا الخليفة أسرف في قتل الملحدين، وأنه أنشأ هذا الديوان الذي عهد به إلى صاحب الزندقة للبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم، كما ألّف هيئة علمية لمناظرتهم ووضع الكتب للرد عليهم.

ويتحدث عن قصور العباسيين فيقول في وصف محمد بن سليمان الذي ولي البصرة في عهد الخليفة المهدي فيقول: ولما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار، دخل عليه عبد الصمد بن شبة فقال له محمد: كيف ترى بنائي؟ فقال: بنيت أجلّ بناء بأطيب فناء وأوسع بناء وأرق هواء على أحسن ماء بين صواري حسان وظباء[4].

ويتكلّم عن ولع الخلفاء العباسيين بالعمارة، فيقول عن المعتصم: كان المعتصم يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة: فأولها عمران الأرض التي

---

(١) لقد ذكر المسعودي أن أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير غلبا على الواثق حتى كان لا يصدر أمراً إلاّ عن رأيهما، وقلّدهما الأمر وفوّض إليهم كله».

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٧.

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٠١.

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٤.

يحيا بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال. وتعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر المكسب ويتسع المعاش[1].

كما أدلى المسعودي بدلوه في الأحداث التي عاصرها فمن ذلك ما أبداه من آراء عصر أمرة الأمراء[2]، وخاصة توزون، إذ يقول: وكان الخليفة المستكفي كغيره من الخلفاء الذين سبقوه ألعوبة في أيدي الأتراك حتى إن توزون الذي أقره الخليفة في منصب إمرة الأمراء، ضم إليه غلاماً تركياً من غلمانه يقف بين يديه. ولا شك أن الدافع حدا بتوزون إلى انتهاج هذه السياسة هو الوقوف على أسرار الخليفة وما يجري في دار الخليفة من أمور[3].

وإذا تركنا الجانب السياسي والمذهبي في كتابات المسعودي، نجد أن حديثه عن البلاد والشعوب التي ارتحل إليها يشغل الجانب الأكبر من المصنفات التي تركها لنا، فيحدثنا مثلاً عن البحار التي جابها وارتحل إليها ويخص بالذكر رحلاته في المحيط الهندي وشرقي أفريقية، إذ يقول: وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بالأوال، طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع بالذراع العمرية، وهي ذراع ذلك البحر. والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع. وربما بدا بهذا البحر فيظهر طرفاً من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع. وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من مر السهم. والمراكب تفزع منه بالليل والنهار وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك»[4].

واستقر المطاف بالمسعودي في مصر حيث وفد عليها في حكم الأخشيد فأخذ بجمالها وكثرة آثارها، فقد اهتم بوصف الأهرام وغيرها من الآثار أكثر من اهتمامه بوصف عمائرها ومبانيها المدنية، كما لم يعن بوصف البلاط وطبقات

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٤٥.
(٢) امتد هذا العصر من (٣٢٤هـ إلى ٣٣٤هـ).
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٤١.
(٤) المراجع السابقة ج ١ ص ٢٣٤.

الشعب. إلّا أنه مع ذلك لم يغفل الحديث عن وصف نظام الري الذي لم ير مثله في أي من البلاد التي زارها على كثرتها. وتناول كذلك ذكر جبر الخليج وقطع السدود وليله الغطاس[١].

ومما يدل حقاً على مدى ما وصل إليه المسعودي من اتساع في الأفق وتقدم في التفكير سبق به أقرانه من معاصريه، بل والأجيال التي تلته من المؤرخين، هو ما دوّنه في كتابه «مروج الذهب» من وصف لما قام به المصريون من أعمال البحث والتنقيب عن الآثار، وكشفهم أقبية مملوءة بالهياكل والمميات، وما كان لذلك من أثر في تنبيه الأذهان إلى أهمية البحث عن الآثار المصرية القديمة[٢].

ولعل خير ما نختم به الحديث عن المسعودي ورحلاته قوله: ولكل إقليم يقتصر علمه على أهله، وليس من لزم جهة وطنه، وقنع بما نما إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه[٣].

□ □ □

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢١٣.
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٩.
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١١٣.

أبو القاسم
محمد بن علي بن حوقل النصيبي

ولد ابن حوقل بنصيبين بالجزيرة وإن كنا لا نعرف تاريخ مولده، إلّا أنه قضى طفولته بنصيبين ثم عزم على السفر والارتحال في السابع من شهر رمضان سنة **٣٣١** هـ في ديار الإسلام فظل يجوب البلاد نحو ثلاثين عاماً طلباً لدراسة البلاد والشعوب ورغبة في الارتزاق من باب التجارة، فطاف العالم الإسلامي من شرقيه إلى غبيه، فزار المغرب والأندلس والسودان الغربي من سنة **٣٣٦** هـ إلى **٣٤٠** هـ، كما زار مصر وأرمينية وأذربيجان سنة **٣٤٤** هـ ثم العراق وخراسان وفارس من سنة **٣٥٠** هـ إلى **٣٥٨** هـ وما وراء النهر وأخيراً صقلية سنة **٣٦٢** هـ.

وقد لقي ابن حوقل الأصطخري (سنة **٣٤٠** هـ/ سنة **٩٥٢** م)، وكان الأصطخري قد صنع خارطة رديئة للسند ولكنه صنع خارطة جيدة لفارس، فأراه ابن حوقل خارطتين من صنعه، أحدهما لأذربيجان والأخرى للجزيرة فمدحهما الاصطخري كثيراً. ثم طلب الاصطخري من ابن حوقل أن يعيد النظر في كتابه كله ويحسّنه ففعل ابن حوقل ذلك[1].

ومنذ ذلك الحين أصبح الأصطخري دليل الرحالة الجغرافي، بعد أن كان يعتمد قدامة بن جعفر من قبل، حتى أن ابن حوقل لما ألّف كتابه احتذى حذو الاصطخري لكن خرطه كانت أدق وأنفع. وقد خلف لنا جغرافيو القرن الرابع

(١) ابن حوقل، ص ٣٢٨.

الهجري عدداً كبيراً من الخرط الخاصة بديار الإسلام بلغ عددها (٨٢) خارطة لكنها انتهت إلينا في (٢٢٧) نسخة[١].

ويرى المستشرق ريزيتانو (Rizzitano) أن النسخة النهائية من كتاب ابن حوقل وهو (المسالك والممالك أو صورة الأرض) وضعت سنة ٣٧٨ هـ بعد محاولتين إثنتين إحداهما حررت سنة ٣٥٦ والثانية سنة ٣٥٧ هـ. وعلى الرغم من أن ابن حوقل اقتبس من الاصطخري تخطيط الكتاب وجزءاً لا بأس به من محتواه، فإنه دون شك قد أضاف أشياء جديدة، كما أن أسلوبه في الكتابة يمتاز بالسهولة والوضوح، وعباراته قوية رصينة خالية من السجع والمحسنات البديعية. كما يبدو في كتاباته اهتمامه البالغ بالتجارة والجبايات.

أما عن السبب في تأليف كتابه فيوضحه في مقدمة المسالك والممالك فيقول: «وكان مما حضني على تأليفه وجذبني إلى رسمه أني لم أزل في حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك متطلعاً إلى كيفية البينّ بين السالك في السير والحقائق وتباينهم في المذاهب والطرق.. وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ في الممالك كتاباً مقنعاً وما رأيت فيها رسماً متبعاً فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب واستنطاقي فيه وجوهاً من القول والخطاب وأعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر والشهرة لبلوغ الوطر بحبور السلطان وكلب الزمان وتواصل الشدائد على أهل المشرق والعدوان».

وقد حقق كتاب (المسالك والممالك أو صورة الأرض) دي جويه (De Goeje) سنة ١٨٧٣ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٣٨.

ويتبين لنا دقة ابن حوقل في وصف المدن والبلدان في وصفه مثلاً لمدينة برقة إذ يقول[٢]: «فأما برقة فمدينة وسط ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية ولها كور عامرة. وهي بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوماً وكسراً في مثله

---

(١) زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب ص ٣٢.

(٢) ابن حوقل ص ٦٦.

ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها. وأرضها حمراء خلوقية التربة وثياب أهلها أبداً محمرة، ويعرف أهلها بالفسطاط (بمصر) من بين أهل المغرب بحمرة ثيابهم وتغيرهم. ويطوف بها من كل أموالها جمة. وهي أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان. وبها من التجارة وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلاباً لما فيها من التجارة وعابرين عليها مغربين ومشرقين وذلك أنها تتفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي مثله، والجلود المجلوبة للدباغة بمصر، والتمور الواصلة إليها من جزيرة أوجلة، ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت، وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب. وشرب أهلها من ماء المطر بمواجن يدخر بها؟»[1].

ثم يعرج بعد ذلك على اطرابلس فيقول فيها: أما طرابلس فكانت قديماً من عمل أفريقية وسمعت من ذكر أن عمل أفريقية لما كانت أطرابلس مضافة إليها معروف معلوم. وكان من (صبرة) وهي منزل من أطرابلس على يوم، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا. ولم أعرفها قديماً ولا سمعت بها على الخارج من أطرابلس إلى القيروان، وعلى القادم من القيروان إلى أطرابلس غير ما يقبضه المتولي عمل أطرابلس من كل جمل ومحمل وحمل، وذلك كالذي (بليدة)، وهي أيضاً قرية بينها وبين أطرابلس إلى جهة المشرق مرحلتان من الضريبة على الجمال والاحمال والمحامل والبغال والرقيق والغنم والحمير وما إلى عدا ذلك من الأسباب الواردة وأخذ الصدقات والخراج واللوازم، والبربر المقيمين هنالك من هوارة وغيرهم إليه»[2].

ويصف ابن حوقل صقلية فيقول: «ويلحق بها في حسن الحال مما هو بيد أهل الإسلام صقلية وهي جزيرة طولها سبعة أيام في أربعة أيام. والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وأكثر أرضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة

---

(١) ابن حوقل ص ٦٧.
(٢) ابن حوقل ص ٦٩.

معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم قصبة صقلية. وهي على نحر البحر وهي خمس حارات متجاور غير متباينة ببعيد مسافة وإن كانت حدودها ظاهرة بيّنة[1].

وقد عجب ابن حوقل لكثرة المساجد في صقلية ولما سأل عن السبب في ذلك قيل له: «إن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يشاركه فيه غير أهله وحاشيته».

ويبدو أن ابن حوقل كان قاسياً على أهل صقلية، فهو ينتقد كثرة المساجد كما يصف معلميهم بالجنون والجهل، بل قال إن جنونهم يفوق جنون المعلمين في كل بلد. ويبدو أن أبو حوقل كان غير منصف للمعلمين جميعاً ومعلمي صقلية بصفة خاصة[2]، فمن ذلك قوله «وإنما توفرت عدتهم (أي المعلمين) مع قلة نفعهم لفرارهم من الغزو ورعبتهم عن الجهاد[3]. وأن المعلم أحمق محكوم عليه بالنقص والجهل والخفة وقلة العقل. ومن أعظم الرزية وأشد البلية أن جميع أهل صقلية، لصغر أحلامهم ونقص درايتهم، وبعد أفهامهم، يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم»[4].

وقد وصف ابن حوقل مدينة (بلرم) عاصمة صقلية وصفاً عظيم الشأن جليل القيمة، وهو أول وصف لمؤرخ إسلامي لهذه المدينة، إذ يقول: «ومنها المدينة الكبرى المسماة (بلرم) وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع يسكنها التجار وفيها مسجد جامع وكان بيعة للروم قبيل فتحها. وببلرم طائفة من القصابين والجزارين والأساكفة، وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم، والقليل منهم في المدينة برأس السماط. ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذاؤون وبها غير سوق صالح. ويدل على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم، وذلك أني حزرت المجمع فيه إذا غص أهله بلغ سبعة آلاف

---

(١) المرجع السابق ص ١١٨.
(٢) زكي حسن ص ٤٠، ٤١.
(٣) ذلك لأن المعلمين في صقلية كانوا يعفون من الجهاد والقتال.
(٤) ابن حوقل ص ١١٤.

رجل ونيفاً لأنه لا يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفاً للصلاة وكل صف منها يزيد على مائتي رجل»[1].

وقد أعجب ابن حوقل بالأندلس أيما إعجاب عند زيارته لها (سنة ٣٣٧ هـ/ سنة ٩٤٨ م)، فقال: فأما الأندلس فهي من نفائس جزائر البحر ومن الجلالة في القدر بما حوته واشتملت عليه بحال سآتي بأكثرها في أول سنة سبع وثلاثين وثلثمائة والقيم بها أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن ابن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. وطولها شهر في عرض نيف وعشرين يوماً فيها غامر وأكثرها عامر مأهول ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والأنهار العذبة والرخص والسعة في جميع الأحوال إلى نيل النعيم والتملك الفاشي في الخاصة والعامة، فينال ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ويسار ملكهم بقلة كلفه ولوازمه وسقوط شغله بشيء يحذره وحال تخيفه إذ لا رقبة عليه لأحد من أهل جزيرته ولا خشية له من عدو ينصب لمملكته مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله»[2].

ومما يدل على اهتمام ابن حوقل بالتجارة وحرصه الشديد على معرفة الجبايات والخراج والجوالي[3] والعشور والصدقات، أنه أعطانا وصفاً دقيقاً وشرحاً مسهباً لأحوال الأندلس المالية، فهو يقول: «ومما أدل بالقليل منه على كثيره وغزيره، أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضمانها في كل سنة مائتا ألف دينار ويكون عن صرف سبعة عشر دينار ثلثه ألف ألف وأربع مائة ألف درهم، هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده وجواليه وما يقبض من الأموال الوافرة على المراكب الواردة إليهم والصادرة عنهم والرسوم على بيوع الأسواق»[4].

---

(١) ابن حوقل ص ١١٨.
(٢) ابن حوقل ص ١٠٧.
(٣) الجوالي: هي الأموال التي تجبى مشاهرة. أما الخراج فيجبى مساهنة (أي سنوياً).
(٤) ابن حوقل ص ١٠٨.

ويبدو أن إعجابه بمدينة قرطبة كان عظيمًا حتى أنه شبهها ببغداد، فيقول: «وقرطبة وإن لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به وهي مدينة ذات سور وحجارة ومحال حسنة ورحاب فسيحة وفيها لم يزل ملك سلطانهم قديماً ومساكنه وقصره من داخل سورها المحيط بها وأكثر أبواب قصره في داخل البلد من غير جهة ولها بابان يشرعان في نفس سور المدينة إلى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي ربضها متصلة مبانيها بربضها الأسفل وأبنيتها مشتبكة مستديرة على البلد من شرقه وشماله وغربه فأما الجنوب منه فهو إلى واديه وعليه الطريق المعروف بالرصيف والأسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها»[1].

ويستطرد في وصف قرطبة فيحدثنا عن مسجدها الجامع وعن حبوسها وأوقافها وعن سورها وما به من أبواب ومداخل فيقول: «ومسجد جامعها جليل عظيم في نفس المدينة والحبس منه قريب، وقرطبة هذه بائنة بذاتها عن مساكن أرباضها غير ملاصقة لها والمدينة قريبة المحال ودرت بسورها غير في قدر ساعة. وهي نفسها مستديرة حصينة السور وسورها من حجر. ولم تكن الزهراء[2] بذات سور تام وبها مسجد جامع حسن طيب في نفسه. ولقرطبة سبعة أبواب حديد، وهي فخمة واسعة الحال بحسن الجدة وكثرة المال والتصرف في وجوه التنعم بجيد الثياب والكسي من لين الكتان وجيد الخز والقز والمتعة بغاره المركوب والمأكول والمشروب»[3].

وينتقل من الأندلس إلى المغرب فيحدثنا عن مدينة فاس[4] فيقول: وفاس

---

(١) المرجع السابق ص ١١٢.

(٢) وضع أساس مدينة الزهراء عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ في الشمال الغربي من مدينة قرطبة وعلى بعد ثلاثة أميال منها. وقد استمر العمل في بنائها حتى نهاية عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٥٠ هـ. وفي عهد ابنه الحكم المستنصر إلى سنة ٣٦٥، أي نحواً من أربعين سنة [المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ٢٦٩].

(٣) ابن حوقل ص ١١٣.

(٤) وضع إدريس الثاني أساس مدينة فاس سنة ١٩٢ هـ فأسس عدوة الأندلسيين وأدارها بالسور من ناحية القبلة أي الجنوب الشرقي، ثم وضع ادريس الثاني أساس عدوة القرويين سنة =

مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان[1] يليهما أميران مختلفان، وبين أهل الجانبين الفتن دائمة والقتل الذريع متصل. ونهرها كبير وغزير الماء عليه أرحبة كثيرة، وهي مدينة حصينة مفروشة بالحجارة أحدثها أدريس بن ادريس (أي ادريس الثاني). في كل يوم من أيام الصيف يرسل في أسواقها من نهرها ماء فيغسلها فتبرد الحجارة. وجميع ما بها من الفواكه والغلات والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات فزائد على سائر ما يقرب منها وبعد، في أرض الهبط موقعه وظاهر بكثرته حدة وموضعه ومستفاض بوفورة مكانه ومرفقه»[2].

وقد يكون من المفيد أن ننقل هنا روايتي الاصطخري وابن حوقل في وصف مدينة (جدة) لزي ما أضافه ابن حوقل من معلومات دقيقة ومفصلة عن البلاد التي كتب[3] عنها، فمثلاً يقول الاصطخري «ليس بالحجار بعد مكة أكثر مالاً».

ثم يذهب بنا إلى قابس فيقول «وقابس مدينة منها على ست مراحل إلى جهة القيروان وجادة الطريق ذات مياه جارية، وأشجار متهدلة وفواكه رخيصة وبها من البربر الكثير ولهم من الزروع والضياع ما ليس مثله لمن جاورهم، إلى زيتون وزيت وغلات وعليها سور يحيط به خندق. ولها أسواق في ربضها وجهاز من الصوف كثير، ويعمل بها الحرير الكثير الغزير، وبها جلود تدبغ بالقرظ وتعم أكثر المغرب فتأتي من طيب الرائحة ونعمة اللمس بمثل حال الأديم الجرشي.

= ١٩٣ هـ. وهكذا نرى أن مدينة فاس تتكون من العدوتين الأندلس والقرويين [ابن القاضي: جذور الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس (مخطوطة ج ٢ ص ١٢٤ بالرباط) ورقة ص ٣٩٠].

(١) المقصود هنا بالجانبين هو العروتان السالف الإشارة إليهما، العروة بضم العين وسكون الدال وفتح الواو ومعناها شاطىء النهر أو البحر، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم سورة الأنفال، آية ٤٢: ﴿إذ أنتم بالعروة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ إلى آخر الآية.

(٢) ابن حوقل ص ٩١.

(٣) عبد المجيد الذويب: الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية.

وبها صدقات وزكوات وضرائب وجوال على اليهود، وسائمة كثيرة. ولها عامل بنفسه وهي خصبة في أكثر أوقاتها»[1].

ثم يعرج على سفاقس فيقول: «وهي ناحية على نحر البحر ولها مرسى ميت الماء (أي هادىء) وعليها سور من حجارة وأبواب حديد منيعة، وفيها محارس مبنية للرباط بها. وأسواقها عامرة وهي قليلة الكروم وفاكهتها من قابس تسد حاجة أهلها وشراب أهلها من مواجن بها. ولهم من صيود السمك ما يكثر ويعظم تصاد بحظائر قد زربت وعملت في الماء فتأخذ بأيسر سعي. وبناؤها بالحجارة والجير وبينها وبين المهدية مرحلتان ولها عامل عليها للسلطان بذاته»[2].

ثم يخص المهدية[3] بالذكر لما لها في نفسه من مكانة خاصة، حيث أنها حاضرة الفواطم الأولى في شمال أفريقية فيقول: والمهدية مدينة صغيرة استحدثها المهدي القائم بالمغرب وسماها بهذا الإسم وهي في نحر البحر وتحول إليها في سنة ثمان وثلثمائة وهي من القيروان على مرحلتين. فرضة لما والاها من البلاد، كثيرة التجارة، حسنة السور والعمارة منيعة. ولها سور من الحجارة وله بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة[4]، وعلى مثالهما عملا ومثل شكلهما اتخذا. كثيرة القصور نظيفة المنازل

---

(١) ابن حوقل ص ٧٠.

(٢) ابن حوقل ص ٧١.

(٣) المهدية: أسس عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمغرب حاضرة جديدة له بدلاً من مدينة القيروان التي أسسها عقبى بن نافع، وذلك سنة ٣٠٣ هـ سماها المهدية وفرغ من بنائها سنة ٣٠٥ هـ وانتقل إليها سنة ٣٠٨ هـ وأقام بها ثم عمّر بها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن، وجعل له طبقة سوقاً خاصاً بها فنقلوا أموالهم. وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة آهلة عامرة، منها ربض زويلة، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصر الخليفة المهدي. ويقول البكري، أن السفن التي كانت تخرج من المهدية كانت تمر في طريقها إلى الاسكندرية بكثير من الموانىء كمدينة قابس، ومرسى الأندلس، ومرسى مدينة طرابلس، وليدة، وسرت وأحدابية، وسوسة، وبرقة وتبنى، وطبرق والزيتون، والسلوم، والأندلسيين ثم تصل إلى الاسكندرية.
[البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٨٤ ــ ٨٦].

(٤) الرافقة أو الرفيقة مدينة في شمال العراق تقع على نهر الفرات وقد بنيت محلها مدينة الرقة.

والدور حسنة الحمامات والخانات، خصبة رفهة الفواكه والغلات طيبة الداخل نزهة الخارج بهية المنظر». ويضيف ابن حوقل فيقول: «أدركتها سنة ست وثلثين وملوكها كماة وجيوشها حماة وتجارها طراة. وقد اختلت أحوالها، وانتقل عنها رجالها بانتقال ملوكها عنها وبعدهم منها. وكان أول نحس أطلها أبو يزيد مخلد بن كيداد وخروجه بالمغرب على أهلها»[١].

ويصف بنزرت: وبنزرت مدينة على البحر خصبة أصغر من سوسة في ذاتها وعامل المعونة ينزل من أعمالها في بنزرت فيها ثمار كثيرة وأنهار طفورة واسعة غزيرة الارتفاع بها والجدي على السلطان قليل. ولها واد عجيب يخرج فيه كل شهر نوع من السمك، وإذا أهلّ الهلال لا نجد من ذلك النوع واحدة ويظهر غيره. وأهل هذا الإقليم جلد ناسه ذوو بأس في البر والبحر. صُبر على الشقاء والكد مع قلة الخور والضجر»[٢].

ويتحدث عن تونس فيقول: «مدينة تونس وهي قديمة أزلية ذات مياه جارية قليلة والانتفاع بها كثير والعائدة إلى أربابها صالحة. وهي خصبة في ذاتها متسعة بغلاتها ويعمل بها غضار حسن الصباغ وخزف حسن كالعراقي المجلوب. وكان اسمها في قديم الزمان ترشيش، فلما أحدث فيها المسلمون البنيان واستحدثوا البساتين والحيطان سميت تونس. وهي مصاقبة لقرطاجنة المشهور أمرها بالطيب وكثرة الفواكه وحسنها وجودة الثمار وصحة الهواء واتساع الغلات. ومن غلاتها القطن ويحمل إلى القيروان فيظهر الانتفاع به وكذلك القنب والكروبا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت وكثير من الماشية مختصة بها»[٣].

وقد يكون من المفيد أن ننقل هنا روايتي الاصطخري وابن حوقل في وصف مدينة (جدة)، لنرى ما أضافه ابن حوقل من معلومات دقيقة ومفصلة عن

(١) ابن حوقل ص ٧١.
(٢) المرجع السابق ص ٧٤.
(٣) ابن حوقل ص ٧٣ ـ ٧٤.

البلاد التي كتب[1] عنها، فمثلاً يقول الاصطخري «ليس بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها وقوام تجارتها الفرس». ويضيف ابن حوقل فيقول: «وكانت جدة عامرة كثيرة التجارات والأموال ولم يكن بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها، فلما أقام بها ابن جعفر الحسني تشتت أربابها ورزحت أحوالها».

وكان ابن حوقل شديد التعلق بخلفاء الدولة الفاطمية مما جعلهم من منزلة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلت الكثيرين يوجهون تهمة التجسس لحسابهم. فقد ذهب المستشرق دوزي (Dozy) إلى أن ابن حوقل كان يتجسس ويعمل لحساب الفاطميين في الأندلس، ذلك أنهم (أي الفاطميون) كانوا في البداءة يتطلعون إلى الإستيلاء على تلك البلاد، ولعلهم كانوا يسعون إلى جمع المعلومات عنها[2].

وقد استشهد دوزي (Dozy) على صحة ما ذهب إليه، بما كتبه ابن حوقل في الحط من شأن الفرسان الأندلسيين وشرح ما كانت عليه البلاد من ضعف، ليحث الخليفة الفاطمي على أن يقدم على غزوها، فمن ذلك قول ابن حوقل «ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها. وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها. وإن شجعت أنفسهم ومرنوا القتال فإن أكثر حروبهم فتصرف على الكيد والحيلة. وما رأيت ولا رأى غيري بها إنساناً قط جرى على فرس فارة أو برذون هجين ورجلاه في الركابين».

وعلى ما في هذه الفقرة من هجاء لاذع لأهل الأندلس، إلاّ أننا لا نستطيع أن نستشف من ورائها بأي تصريح أو تلميح يدعونا أن نتهم الرجل بتهمة التجسس، خاصة وأنه ليس له في الموضوع ناقة أو جمل، وهو رجل ذو عقلية تجارية من الدرجة الأولى كما سبق أن بيّنا في ترجمة حياته.

---

(١) عبد المجيد الذويب: الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية.
(٢) زكي حسن ص ٤١.

ويحدثنا ابن حوقل عن المسلمين في السند والهند وسيلان فيقول: «وكانوا (أي المسلمون) آمنين في حماية أمرائهم من أهل السند والهند الذين منحوهم حق الحياة في كل شرائعهم الخاصة. وكان تجار العرب في ذلك الحين وسطاء في التجارة بين السند وبلاد الهند المجاورة وبين العالم الخارجي. وجلبوا منتجات الصين وسيلان إلى موانىء السند، وحملوها من هناك عن طريق الملتان إلى تركستان وخراسان»[1].

□ □ □

(١) ابن حوقل ص ٢٣٠.

شمس الدين
أبو عبد الله بن أبي بكر البناء المقدسي
المعروف بالبشاري

لا نعرف إلا القليل عن مولده ونشأته، وإن كان من المؤكد أنه ولد ببيت المقدس. جاب وطاف في أقاليم العالم الإسلامي للتعرف على شعوبها وعاداتهم وتقاليدهم معرفة مبنية على الرؤيا والملاحظة الدقيقة. وبعد تلك الدراسة والمعرفة الغزيرة الدقيقة الفاحصة وضع كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) في مدينة شيراز (سنة ٣٧٥ هـ/ سنة ٩٨٥م) وكان له من العمر أربعون عاماً.

وينقد زيادة[١] كتاب المقدسي فيقول: وكان كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) نموذجاً للكتاب العلمي المرتب المنتظم المبوب المقسم. هذا فضلاً عن أنه يحوي نقداً علمياً صريحاً أدبياً لشيوخه في هذا الموضوع». وهو يقدم للوصف الجغرافي الدقيق بذكر ما دفعه إلى الاهتمام بهذا الموضوع ثم بعرض القواعد التي أسس الكتاب عليها. ثم يذكر البحار والأنهار، وبعد ذلك يقدم للقارىء الأسماء المتفقة إسماً والمختلفة صقعاً وينتقل إلى الخصائص في الأقاليم فيجملها ويذكر المذاهب والذمة. ويشفق على الفقهاء من قراءة كتابة بكامله فيختصر لهم باباً خاصاً هو خلاصة للكتاب. وبعد أن يعدد أقاليمه الأربعة عشرة التي قسم إليها مملكة الإسلام، يأخذ هذه الأقاليم فيفصل كورها وقصباتها، ثم يعود فيجمل الأقاليم عامة اقتصاداً وإدارة وما إلى ذلك.

---

(١) نقولا زيادة، ص ٤٧.

وقد وضع البلاد التي كتب عنها وزارها بالرسوم والخرط وفي ذلك يقول المقدسي: «وأفردنا أقاليم العجم عن أقاليم العرب، ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمىّ وجعلنا رمالها الذهبية وبحارها المالحة بالخضرة وأنهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف إلى الأفهام» [1].

ومما يدل على أن المقدسي قد تحرى الدقة فعلاً في كل ما كتب أو وصف اقتصاره على ذكر البلاد والأقاليم التي زارها ورآها رأى العين، وهي الأقاليم الأربعة عشرة، ستة منها هي جزيرة العرب والعراق وأقور والشام ومصر والمغرب، والثمانية الباقية هي أقاليم العجم وهي المشرق والديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند. أما البلاد التي لم يزرها ولم يرتحل إليها مثل الأندلس والبلاد الاوروبية أو بلاد الشرق الأقصى فلم يذكرها.

أما عن السبب في تأليف كتاب (أحسن[2] التقاسيم) كما يقول المقدسي: «أما بعد فإن ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سننهم واقفوا سننهم وأقيم علمًا أحيى به ذكرى ونفعاً للخلق أرضى به ربي، ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء ثم تبعتهم الأخلاف فشرحا كلامهم واختصروه. فرأيت أن أقصر علمًا قد أغفلوه وانفرد بمن لم يذكروه إلا على الاخلال وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار ووصف امصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة».

ويترك المسالك والدروب والبحار والأنهار ويتكلم عن الحاصلات فيقول: «وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات واختلاف أهل البلد في

---

(١) المقدسي، ص ٩.

(٢) طبع هذا الكتاب في القسم الثاني من المكتبة الجغرافية العربية ليدن سنة ١٨٧٧، بإشراف دي جويه (De Goeje) وعليه بعض تعليقات وترجمتها إلى اللاتينية. وطبع مرة ثانية مع ترجمة فرنسية وشروح وتعليقات باعتناء دوزي ودي جويه في ليرن سنة ١٩٠٨. كذلك طبع الجزء الأول في المكتبة الهندية في كلكتا سنة ١٨٩٧/ سنة ١٩٠١ مع ترجمة انجليزية.

كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم وإليهم. وذكر مواضع الأخطار في المفازات، وعدد المنازل في المسافات وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال»[1] .

وقد بالغ المقدسي في الأطناب في ذكر تجاربه إلى حد الإسراف، كما يبدو أنه كان يلجأ في رحلاته إلى التنكر في ملابس وأزياء مختلفة ويختلق أسماء متعددة حتى يتسنى له الدخول في طوائف مختلفة بغية دراسة عاداتها وتقاليدها، وفي ذلك يقول: ولقد سميت بستة وثلاثين إسمًا دعيت وخوطبت بها مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني، وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح ووراق، وغير ذلك، لاختلاف البلدان التي حللتها وكثرة المواضع التي دخلتها»[2] .

أما عن الأطناب في تجاربه فيقول: «ثم أنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة، فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت وتفقهت وأدبت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر وأممت في المساجد وذكرت في الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت في المحافل وتكلمت في المجالس .وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائيين[3] الثرائد ومع النواتي العصائد. وطردت في الليالي من المساجد. وسحت في البراري وتهت في الصحاري وصدقت في الورع زماناً وأكلت الحرام عياناً»[4] .

ثم يعود فيذكر لنا ما عاناه في سبيل تصنيف كتابه فيقول: «وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء،

---

(١) المقدسي، ص ٢٤١ .
(٢) المرجع السابق، ص ٤٣ .
(٣) الخانقائيون: أي ساكني الخانقات وهي أماكن العبادة للمتصوفة.
(٤) المقدسي: ص ٤٤ .

وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها»[1].

ويتحدث المقدسي عن تنظيم الدعوة العباسية فيقول: «أما الكوفة وسواها فشيعة علي، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وأما الجزيزة فحرورية[2] وأعراب كأعلاج[3]، ومسلمون في أخلاق النصارى. أما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية، وعداوة راسخة وجهل متراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر. ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر. وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء، ولم توزعها النحل، ولم يقترح فيها فساد وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشواري وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أحسام منكرة. وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق»[4].

ثم تناول خراج الدولة العباسية بالبحث وخص بالذكر منها خراسان، فقال: ومن البلاد التي زاد بها الخراج زيادة كبرى خراسان، فقد كانت أرض خصبة مع سعتها ورغبة أهلها في نصرة الدولة العباسية. وخراج خراسان نحو أربعين ألف ألف درهم إذا أضيف إلى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها. ولذلك كانت عناية بني العباس في ابان دولتهم مبذولة في هذين البلدين وفي الحجاز. أما العراق فللمال وأما خراسان فللمال والرجال،

---

(١) المرجع السابق: ص ٤٥.
(٢) حرورية مشتقة من حروراء وهي قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا علي بن أبي طالب، فنسبوا إليها وسموا حرورية.
(٣) العلج هو حمار الوحش الغليظ.
(٤) المقدسي: ج ٣، ص ٢٩٣ — ٢٩٤.

وأما الحجاز فهو مصدر الثقة في الخلافة وتثبيت البيعة. والمدائن فهذه مدن بغداد وبخراسان قرى كثيرة أجل من أكثر هذه المدن»[1].

ويصف المقدسي الرملة بفلسطين، والتي يقال انها بلد[2] المقدسي أصلاً، فيقول: «الرملة قصبة فلسطين بهية حسنة البناء خفيفة الماء مرية واسعة الفواكه جامعة الأضداد بين رساتيق جليلة ومدن سرية ومشاهد فاصلة وقرى نفيسة. والتجارة بها مفيدة والمعايش حسنة، ليس في الإسلام أبهى من جامعها ولا أحسن وأطيب من حواريها ولا أبرك من كورتها ولا ألذ من فواكهها. موضوعة بين رباطات فاضلة ذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة نظيفة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وأمور جامعة. وخطت في السهل وقربت من الجبل والبحر وجمعت التين والنخل وأنبتت الزروع على البعل وحوت الخيرات والفضل، غير أنها في جزيرة من الوحل وفي الصيف ذريرة من الرمل»[3].

ويصف لنا مناقب الشام فيقول: اقليم الشام جليل الشان ديار النبيين ومركز الصالحين، ومعدن البدلا ومطلب الفضلا، به القبلة الأولى وموضع الحشر والمسرى، والأرض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجبلية والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبرة وديار أيوب وبئره ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة اسحاق وأمه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجب أرميا وحبسه ومسجد اورياء وبيته وقبة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحيى ومشاهد الأنبياء وقرى أيوب ومنازل يعقوب، والمسجد الأقصى وجبل زيتا، ومدينة عكا، ومشهد صديقا وقبر موسى ومضجع إبراهيم ومقبرته ومدينة عسقلان وعين سلوان،

---

(١) المقدسي: ص ١٢٢.
(٢) زيادة: ص ٥٠.
(٣) المقدسي: ص ١٦٤.

وموضع لقمان، ووادي كنعان ومدائن لوط وموضع الجنان ومساجد عمر ووقف عثمان»[1].

ومن الأوصاف التي ذكرها المقدسي في كتابه عن السفن التي تمخر عباب البحار والمحيطات تدل دلالة واضحة على معرفة تامة ببناء السفن وأسماء أجزائها، فمن ذلك قوله: «والمؤخر هو أجزاء المركب الخلفية ويتكون من الأجزاء الآتية، السكان أو الخيزرانة[2] أو الكوثل[3] أو الدفة، والسكان دفة السفينة التي في مؤخرها، وتديرها ذات اليمين وذات الشمال، وقبل لها سكان لأنها تسكن به عن الحركة والاضطراب. ويضيف المقدسي فيقول: «وكانت دفات السفن تجري في البحار تحرك بحبلين كسفن النزهة عندنا»[4].

وفضلاً عن دقة ملاحظة المسعودي وعينه الفاحصة، فإنه كان يعني عناية خاصة بالأخبار الطريفة والعادات الشاذة، فمن ذلك ما ذكره عن المسجد الجامع ببغداد، إذ قال: وكانت على أبواب مسجد بغداد مياضيء تكرى». ويعلق زكي حسن على ذلك فيقول: وقد بحثنا طويلاً فلم نوفق إلى العثور على أمثلة تاريخية أخرى لمراحيص بدفع القوم أجراً لاستعمالها، كما نرى في هذه الأيام[5].

وقد يكون من المناسب أن نختم الحديث عن رحالتنا المقدسي بنقل جزء مما ذكره عن خيرات ومحاصيلها وصناعتها، إذ يقول: وهو بلد التجارات يرتفع منه أديم جيد على الماء بتخمين لين والبطائن الحمر والهملختات والمثلث هذا من المصر ومن الصعيد الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب ومن ينيس لادمياط الثياب الملونة من دمياط القصب ومن الغيوم الأرز وكتان[6] دون بوصير فريدس الكتان الرفيع ومن الفرما الحيتان ومن مدنها القضاف الحبال من الليف في غاية

---

(١) المقدسي: ص ١٥١.
(٢) ابن سيرة: المخصص، ج ٩، ص ٢٧.
(٣) دوزي: ج ٢، ص ٢٨٩.
(٤) المقدسي: ص ٦٧.
(٥) زكي حسن: ص ٤٣.
(٦) كتان دون أي كتان جيد (ابن سيده المخصص ج ٥، ص ٣٧).

الجودة ولهم القباطي والأرز والخيش والعباداني[3] والحصر والحبوب والجلبان ودهن الفجل والزنبق وغير ذلك الخصائص».

ويضيف المقدسي في حديثه فيقول: «ولا نظير لأقلامهم وزاجهم ورخامهم وخلهم وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وجلودهم وموزهم وشمعهم وقندهم ودقهم وصبغهم وريشهم وغزلهم وأشنانهم وهريستهم ونيرتهم وحمصهم وترمسهم وقرطهم وقلقاسهم وحمرهم وبقرهم ونهرهم وتعبرهم وحسن نغمتهم وعمارة جامعهم، ومعايشهم وتجاراتهم وصدقاتهم كل ذلك في غاية الجودة»[1].

□ □ □

(١) العباداني: نسبة إلى عبدان مدينة بالشاطىء الشرح للخليج العربي بايران تشتهر بزراعة الحصير الجيد.

(٢) المقدسي: ص ٢٠٢.

أبو الريحان البيروني الخوارزمي

ولد البيروني ونشأ في إقليم خوارزم، ونسب إلى بيرون[١] مدينة بالسند، وهو من رحالة وجغرافي القرن الخامس للهجرة، توفي (سنة ٤٤٠ هـ/ سنة ١٠٤٨ م). وقد أتيح للبيروني أن يصحب محمود الغزنوي في فتوحاته بالهند، مما هيأ له الفرصة بالقيام بكثير من الرحلات في تلك البلاد وتعلّم لغاتها وضبط مواقع مدنها، كما صحح كثير من الأخطاء الجغرافية التي كانت مدوّنة عنها.

وقد أمضى البيروني شبابه وجزءاً كبيراً من حياته في كنف أمراء بيت مأمون بن مأمون أمير خوارزم، ثم ارتحل (سنة ٣٩٠ هـ/ سنة ١٠٠٠ م) إلى بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير، الذي اشتهر في طبرستان بتشجيع العلم والعلماء. وفي إقليم طبرستان أتم تأليف كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وأهداه إلى شمس المعالي. وقد تناول البيروني في كتاب (الآثار الباقية)[٢] دراسة تاريخ نظم الجماعات والطوائف المختلفة وعاداتهم وتقاليدهم وخص بالذكر منها الاحتفال بالأعياد القومية والدينية. وقد اتسمت كتابة البيروني بسعة الاطلاع والنقد والتمحيص العلمي مع غزارة وعمق في التفكير.

---

(١) وقيل نسبة إلى (Bèriti) أحد أحياء حاضرة هذه البلاد، عن:
Sachau: Preface to Bèrunis Chronology of Ancient Nations p. VII (English Trans, London, 1879).

(٢) طبع هذا الكتاب في مدينة لبيتزج بإشراف الأستاذ سخاو السالف الإشارة إليه مع ترجمة إلى الإنجليزية (١٨٧٦ ــ ١٨٧٩). وطبع طبعة ثانية في لبزج سنة ١٩٢٣.

ومما ساعده على تأليف مثل هذا الكتاب القيّم دراساته المتعمقة في الفلسفة والفلك والرياضيات وعلوم اللغة والتاريخ وتقويم البلدان، مما جعل شهرته تمتد إلى أوروبا في العصور الوسطى[1].

وقد جمع البيروني جميع الأخبار والآثار والقصص المتعلقة بوطنه وخاصة الوقائع التاريخية التي شاهدها بنفسه في كتاب أسماه (كتاب تاريخ خوارزم). وقد أورد أبو الفضل البيهقي عدة فصول من هذا الكتاب في كتابه (تاريخ المسعودي).

ثم عاد البيروني إلى خوارزم حيث قضى بقية حياته في بلاط محمود الغزنوي، حيث ألّف كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة) ويعرف باسم (تاريخ الهند)[2]. وقد سجل في هذا الكتاب كثيراً من أخبار محمود الغزنوي، الذي يقول عنه «كان محمود الغزنوي أول من تلقب من الغزنويين بلقب سلطان، بعد أن كان يلقب بلقب أمير. وقد لقبه الخليفة القادر بالله يمين الدولة وأمين الملة، وظهرت هذه الألقاب على السكة التي كانت تحمل اسمه[3]» ويتضح من كتاب الهند أن البيروني كان ملمًا باللغة السنسكريتية وبقليل من السريانية والعبرية. وقد قيل أن مؤلفات البيروني أربت على المائة مؤلف.

ويحدثنا البيروني عن جهاد الغزنوي في سبيل نشر الإسلام في الهند، فقد اصطبغت حملاته في الهند بين سنتي (سنة ٣٩٢ هـ وسنة ٤١٥ هـ/ سنة ١٠٠٠ م، سنة ١٠٢٤ م) بصبغة الجهاد الديني، فيقول البيروني: «وكان يرمي من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام في هذه البلاد ليكون ذلك كفارة لما كان من قتال المسلمين ولذلك فرض على نفسه في كل عام غزو الهند».

---

(١) زكي حسن ص ٥٤.

(٢) طبع هذا الكتاب في لندن ــ جوتا ١٨٨٧/١٨٨٨ مع ترجمة إنجليزية بإشراف Sachau: Preface to Bèrùnis Chronology of Ancient Nations, VII.

(٣) نقل عنه ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤، ٨٥.

ويذكر فتح إقليم الملتان[١] فيقول: «ونشر الإسلام فيها وولي عليها أحد المسلمين وعهد إليه بتعليم أهلها قواعد الإسلام، وفي سنة **٣٩٦** قصد محمود مدينة الملتان نفسها، وانتصر وهو في طريقه إليها على أنذيال بن جيبال لأنه لم يسمح له بالمرور من بلاده، ولما سمع أبوالفتوح داود صاحب الملتان وكان يدين أهلها بمذهب القرامطة، بقدوم محمود الغزنوي إلى بلاده، فرّ إلى سرنديب، فقضى محمود على مقاومة أهلها وافتتحها عنوة وفرض عليها الجزية[٢].

ويصف كيف استولى محمود الغزنوي على قلعة (بهيم[٣] نغر) وما غنمه منها من الجوهر والمال فيقول: فأخذ من الجواهر ما لا يحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية، ومن الأواني الذهبيات سبعمائة ألف وأربعمائة مناً، وكان فيها بيت مملوء من فضة، طوله ثلاثين ذراعاً، وعرضه خمسة عشرة ذراعاً وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم فغرس تلك الجواهر في صحن داره، وكان قد اجتمع إليه الرسل والملوك، فأدخلهم إليه فرأوا ما لم يسمعوا بمثله»[٤].

كما ألّف البيروني كثيراً من المصنفات غير الكتابين السابقين نذكر منها كتاب (التفهيم في صناعة التنجيم) كتبه باللغتين العربية والفارسية، غير أنه جعل أحدهما ترجمة للآخر. وهو في مقدمات علم الهيئة والهندسة والنجوم بطريقة السؤال والجواب وقد ألّفه (سنة **٤٢٠** أو سنة **٤٢٥/ ١٠٢٩** أو **١٠٣٣**) وقد أهداه إلى الأميرة ريحانة الخوارزمية. وكذلك ألّف كتاب (القانون المسعودي)

---

(١) إقليم الملتان: وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود في جنوب بلاد البنيجاب على سمت غزنة فاستولى على مدينة بهاطية. وانتصر على صاحبها بحيرا سنة **٣٩٥** هـ.

(٢) Defrèmery: Essai Sur L'Histoire des Ismaèliens. p. 30

(٣) تبع محمود الغزنوي أثر برهمن بال حتى بلغ قلعة (بهيم نغر) وكان الهنود قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم ونقلوا إليها الذخائر والجواهر، فنازلهم محمود وحصرهم وقاتلهم وأرغمهم على طلب الأمان، وفتحوا باب الحصن، وملك المسلمون القلعة، وصعد محمود الغزنوي إليها في خواص أصحابه وثقاته.

Wosceley Haig: Encyclopaedia of Islam, Vol. II p. 133.

خصيصاً للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي وأهداه له، كما أهدى كتابه الذي ألّفه في الأحجار الكريمة إلى السلطان مودود بن مسعود[1].

ولعل أدق من أعطانا وصفاً عن الاحتفال بالنيروز والمهرجان والرام عند الفرس، هو البيروني، ففي أصل النيروز يقول: أما عن أصل النيروز فإنه يرجع إلى سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ثم رد إليه بعد أربعين يوماً، فعاد إليه ملكه، وأنه الملوك (وعكعب) عليه الطيور، فقالت الفرس (نوروز آمد) أي جاء يوم جديد، فسمي هذا اليوم (النوروز)[2].

ويضيف البيروني فيقول: وكان النيروز من المواسم القديمة، اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد، وهو أيام السنة عندهم، ويقع في الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل أي عند ابتداء فصل الربيع. وقد سن ملوك خراسان سنة جديدة، فاتخذوا هذا اليوم موسمًا يلبس فيه جنودهم، ملابس الربيع والصيف وفيه يحتفلون بعيد النيروز. ويضيف البيروني فيقول، وأول من اتخذ هذا اليوم هو جمشيد[3]. وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس، غير أنه عاد في العصر العباسي، وقد أضر تغير نظام النيروز القديم ضرراً بالغاً بالمزارعين، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز، فكان يجيء والزرع أخضر في الوقت الذي يجب أن يدفع فيه الضرائب.

ويستطرد البيروني في الحديث عن النيروز فيقول: «ومما يدل على اهتمام الأكاسرة، أنه في هذه الأيام الخمسة، أن يبدأ الملك يوم النيروز، فيعلم الناس بالجلوس له والإحسان إليه، وفي اليوم الثاني يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات، وفي اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماء موابذته وفي اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وخاصته وفي اليوم الخامس لولده وصنائعه فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والإكرام. ويستوفي ما استوجبه من الميرة

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٤٠٣.
(٢) البيروني: الآثار الباقية (طبعة سخاو) ص ٢١٦.
(٣) البيروني: الآثار الباقية ص ٢١٦.

والإنعام، فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم فنوروز لنفسه، ولم يصل إليه إلاّ أهل أنسه ومن يصلح لخلوته، وأمر بإحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين، فيتأملها ويفرّق منها ما يشاء ويودع الخزائن ما شاء».

ويتكلم البيروني[1] عن المهرجان فيقول: «وكان أكاسرة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنيروز في أول العام، وفي آخر العام بالمهرجان ويسمونه (روز مهر) ومعناه يوم محبة الروح. وقد قال عنه سلمان الفارسي «كنا على عهد الفرس نقول أن الله أخرج زينة لعباده من الياقوت في النوروز ومن الزبرجد في المهرجان، ففضلهما على غيرهما من الأيام كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر. ويوافق المهرجان بداية الشتاء. أما عن (الرام) فيقول: وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس، ويسمونه (رام روز) وهو المهرجان العظيم[2].

ثم يتناول البيروني، تاريخ النيروز في العصر العباسي وعلاقته بجمع الخراج فقال: إن الملاك اجتمعوا في عهد هشام بن عبد الملك، وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسري، وشرحوا له ما يجدونه من الصعاب، وسألوه أن يؤخر النيروز شهر فأبى، وكتب إلى هشام بذلك فأجاب: إني أخاف أن يكون ذلك من قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرّم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾[3].

ويستطرد البيروني فيقول: «واستمرت الحال كذلك إلى أن ولي هارون الرشيد الخلافة، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا إلى يحيى البرمكي، وسألوه أن يؤخر النوروز نحواً من شهرين، فهمَّ يحيى بإجابة طلبهم، ولكن أعداءه

---

(١) الآثار الباقية ص ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٣.
(٣) سورة التوبة: الآية ٣٧.

أخذوا يرمونه بالتعصب للمجوسية، فعدل عن ذلك، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل»[1]. وظل الحساب الجاري متقدماً شهراً عن الحساب الحقيقي الذي تنضج فيه الغلات، وظل الفرس يحاولون إلى الكبس (التأخير) فلم يتم لهم. وما زال الفرق يتعاظم بتوالي الأعوام حتى صار في أيام المتوكل يقع في نيسان (أبريل) والزرع أخضر. واتفق أن المتوكل مرَّ ببستان فرأى الزرع أخضر فقال لرفيق له: «مالي أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج» فقصَّ عليه السبب فأمر أن يضاف إلى تلك السنة ما كان تأخر فإذا هو شهران وبضعة أيام حتى يصير النيروز في الوقت اللازم. فأصدر أمره بذلك سنة **٢٤٣** هـ، ففرح الناس لأنه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس».

ولكن أمر المتوكل لم ينفذ تماماً لأنه قتل واضطربت البلاد حتى كانت أيام المعتضد بالله روجع في ذلك فأصدر أمره آخر سنة **٢٨١** هـ بتأخير النوروز ستين يوماً وكان قد وافق أوائل المحرم سنة **٢٨٢** هـ فأمر أن يكون في **١٣** ربيع أول منها. وجعلوه موافقاً **١١** حزيران (يونيو)[2].

وقد تناول البيروني في كتابه (التفهيم في الفلك) براعة العرب في علم النجوم فقال[3]: «ولا غرابة في إتقانهم معرفة النجوم ومواقعها، فإنها كانت دليلهم في أسفارهم وأكثر أحوالهم، فكانوا إذا سألهم سائل عن الطريق المؤدي إلى البلد الفلاني قالوا (عليكم بنجم كذا وكذا). ومن أمثلة ذلك أن سليك بن سعد سأل قيس بن مكشوح المرادي أن يصف له منازل قومه ثم هو يصف له منازل قومه. فتوافقا وتعاهدا أن لا يتكاذبا، فقال قيس بن المكشوح «حد بين مهب الجنوب والصبا ثم سرّ حتى لا تدري أين ظل الشجرة، فإذا انقطعت المياه فسر أربعاً حتى تبدو لك رمله وقفّ بينها وبين الطريق فإنك ترد على قومي مراد وخثعم» فقال السليك: «خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من أفق السماء فثم منازل قومي بين سعد بن زيد مناة».

---

(١) الآثار الباقية ص ٢١٥.

(٢) البيروني ص ٣٣١ (الآثار الباقية).

(٣) البيروني: التفهيم في الفلك ص ٢٣٨.

واشتهر في جاهلية العرب في اتفاق النجوم جماعة منهم بنو مارية بن كلب وبنو مرّة بن همام الشيباني[1].

ومن الموضوعات التي تتصل بعلم النجوم، هو ما يدور حولها من آساطير خاصة وأنهم قد عبدوها وألهوها وفي ذلك يقول البيروني[2]: «فالعرب ألهوا الأجرام وعبدوها وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه على أننا نستدل عليه من بعض ما وصل إلينا من أسماء أصنامهم وعبادة بعض رحالهم. فاللات اسم للزهرة وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعري وكان يتناظرون في أفضلية بعضها على بعض قالوا: وأبو كبشة أول من عبد الشعري وكان يقول الشعري تقطع السماء عرضاً ولا أرى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجمًا يقطع السماء عرضاً غيرها».

كذلك تناول البيروني في كتاب (تاريخ الهند) معرفة الهنود التامة بعلوم الهيئة، فقد كانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وأبراجها، ولها أسماء خاصة بلغتهم، فقد قسّموا علم الفلك على مذاهب ثلاثة[3]، مذهب الأرجهيز والثاني مذهب الأركند، أما المذهب الثالث فيعرف باللغة السنسكريتية سندهنتا، وهو عبارة عن الزيج، وقد نقل العرب المذهب الثالث إلى العربية وسموه (السند هند). وفي هذا الصدد يقول البيروني[4]: «أن رجلاً جاء بغداد (سنة ١٥٤ هـ/ سنة ٧٧١ م) في جملة وفد السند على المنصور وهو ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته، وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (براهمسهطسوهانت) ألّفه سنة ٦٢٨ م (سنة ٦ هـ أو سنة ٧ هـ)، الفلكي والرياضي الشهير (برهمكيت) للملك (فياكهر مكة). ويضيف البيروني فيقول: «وكلف المنصور الهندي بإملاء مختصر الكتاب ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية، وباستخراج كتاب منه تتخذه

---

(١) البيروني: التفهيم في الفلك ص ٣٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٠.

(٣) جورجي زيدان: التمدن الإسلامي.

(٤) البيروني: (تاريخ الهند) ص ٢٠٨ ــ ٢١١.

العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب، وما يتعلّق به من الأعمال. فتولى ذلك الفزاري وعمل منه زيجاً اشتهر به بين علماء العرب حتى أنهم لم يعملوا إلاّ به إلى أيام المأمون».

ويتحدث البيروني عن اتخاذ العباسيين الألقاب الدينية، وأنه كان رمز الساسة العباسيين في أيام ضعفهم، مما لم نجده عند العباسيين الأوائل، فيقول: «والذي بقي في أيدي العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملكي دينوي، كمثل ما لرأس الجالوت عند اليهود من أمر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دولة، فالقائم من ولد العباس الآن إنما هو رئيس الإسلام عند أصحاب النجوم لا ملك..»[1].

□ □ □

(١) الآثار الباقية ص ١٣٣ (طبعة سخاو).

أبو عبيد الله بن أبي مصعب
عبد العزيز بن أبي زيد
محمد بن أيوب بن عمرو البكري

يعتبر العلامة أبو عبيد البكري اللغوي من أشهر جغرافي القرن الخامس الهجري في غرب العالم الإسلامي. ولد البكري بالأندلس وإن كنا لا نعرف تاريخ مولده على وجه التحديد، إلا أنه نشأ وترعرع في عصر ملوك الطوائف وتوفي (سنة ٤٨٧ هـ /١٠٩٤ م). وقد وصف المؤرخ البلنسي ابن الآبار[1] فقال: «وكان أبو عبيد البكري من مفاخر الأندلس، وهو أحد الرؤساء الأعلام، وتواليفه قلائد في أجياد الأيام». ويرجع نسبة البكري إلى أبي بكر الصديق.

وأبو عبيد البكري سليل أسرة من الأمراء حكمت مدينة ولبة وجزيرة شلطيش حيناً، وذلك في عصر بني عباد ملوك أشبيلية، أعظم ملوك الطوائف في

---

(١) ابن الأثار: كتاب الحلة السيراء، ص٢، ص١٨٥.

ولد ابن الآبار عبر بلنسية بشرق الأندلس سنة ٥٩٥ هـ، ودرس على والده وعلى غيره من علماء المدينة. ولما حاصر ملك أرجوان خايمي الفاتح مدينة بلنسيه، اضطر ابن الآبار وأسرته إلى الهجرة إلى تونس حيث عينه سلطانها أبو زكريا الحفصي أقوى ملوك المغرب في ذلك الوقت كاتباً له. ولما خلف المستنصر بالله والده زكريا، غضب على ابن الابار لغطرسته وأمر بقتله وحرقه (سنة ٦٥٨ هـ/ سنة ١٢٦٠ م). وقد ترك ابن الآبار عدة مؤلفات منها كتاب المعجم لأصحاب الصدقة وكتاب التكملة لكتاب الصلة، وكتاب الحلة السيراء وغيرها من الكتب الأدبية أخرى.

وقد نشر كتاب الحلة السيراء في أول الأمر (دروزي) ثم الألماني مولى ثم حسين مؤنس حرينا في جزئين في القاهرة سنة ١٩٦٣.

عهد أبو عمرو عباد بن محمد بن اسماعيل، الذي تلقب في أول الأمر بفخر الدولة ثم المعتضد بالله[1]. وقد افتتح المعتضد عصره بالاستيلاء على القواعد الإسلامية في غرب الأندلس من أمرائها الأصاغر، حتى يخلص الغرب كله من الوادي الكبير إلى المحيط لسلطان بني عباد[2].

وبعد سقوط (لبلة) في يد المعتضد بالله بن عباد (سنة ٤٤٥ هـ /١٠٥٣ م)، صوب وجهه نحو الاستيلاء على إمارتين صغيرتين أخريين من إمارات ولاية المغرب، أولهما (ولبة) وجزيرة شلطيس، الواقعة جنوب غربي (لبلة)، وإمارة شنحتمرية الغرب في غربها. وقد آلت ولاية (ولبة) وجزيرة شلطيس الواقعة تجاهها في المحيط في مصب نهر أوديل، في أعقاب الفتنة إلى أبي زيد عبد العزيز البكري، كبير زعمائها وبويع بها[3] (سنة ٤٠٣ هـ/ سنة ١٠١٢ م). وظل يتولى حكمها مدة طويلة، حتى قويت أطماع المعتضد[4] بالله، واتجهت أنظاره إلى الاستيلاء على امارات الغرب، أخذ يضيق الخناق على ثغر (ولبة) ويوالي غارته عليه، فلم يجد البكري بداً إلا مفاوضة ابن عباد في عقد الصلح على أن يسلم إليه ثغر (ولبة) ويكتفي البكري بجزيرة شلطيش.

وبرغم موافقة البكري على التخلي عن ولبة والاحتفاظ فقط بجزيرة شلطيش، إلا أن المعتضد عاد من جديد يضايقه ويفرض عليه نوعاً من الحصار على جزيرته، مما جعل البكري يضطر في آخر الأمر من التنازل عن الجزيرة كذلك، بل وانتهى به الأمر أن باع أملاكه وسفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال من الذهب وغادر الجزيرة بأهله وأمواله إلى قرطبة ليعيش في كنف ابن جهور[5]، وقيل أنه عاش في أشبيلية في كنف ابن عباد إلى أن توفي بها (سنة ٤٥٠/ سنة ١٠٥٨) وان محمد عبد الله[6] يرجح الرواية الأولى.

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٩.
(٢) ابن بسام: الذخيرة، ص ١٢٧؛ ابن الأبار، ج ٢ ص ٤٠ و٤١.
(٣) محمد عبد الله عنان: ص ٤٣.
(٤) أبو مروان بن حيان القرطبي: المقتبس في أخبار الأندلس ص ٣٤٣.
(٥) ابن حيان: المقتبس، ص ٢٥٣.
(٦) محمد عبد الله عنان، ص ٤٣.

ويحدثنا ابن بشكوال[1] عن ترجمة أبي عبيد البكري فيقول: قد عاش حيناً في المرية[2]، تحت كنف المعتصم[3] ورعايته، وفي ظل رعايته صنف كتابه وموسوعته الجغرافية المسماة «المسالك والممالك».

---

(١) لقد أعطانا المؤرخ القرطبي ابن بشكوال المتوفي (سنة ٥٧٧ هـ/ سنة ١١٨٢ م) بترجمة كاملة لأبي عبيد البكري في كتابه (الصلة) في تاريخ علماء الأندلس رقم (٦٣٢) الذي يعتبر تكملة لكتاب ابن الفرضي، كما يقول هو في مقدمة كتابه الصلة (ورتبته على حروف المعجم ككتاب بن الفرضي وعلى رسمه وطريقته).

(٢) لقد أصبحت المرية في عهد ملوك الطوائف احدى ممالك دول الفتيان الصقالبة وخلفائهم في شرقي الأندلس، فقد غلب عليها (خيران العامري) وذلك في (سنة ٤٠٥ هـ/ سنة ١٠١٤ م)، فقد غدت المرية منذ ذلك الحين قاعدته الرئيسية ومستودع أمواله وعدته، كما غدت مركز الدعوة لامامة هشام المؤيد. واستقر (خيران) في المرية وبسط حكمه على أعمالها، وكانت المرية يومئذ تشمل المنطقة الممتدة من شاطىء اسبانيا الجنوبي الشرقي على هيئة مثلث كبير يمتد غرباً حتى وادي آش وحدود مملكة غرناطة وشمالاً حتى بسطه وجيان وقد كانا أهم قواعدها بعد المرية، هذا فضلاً عن أوريوله ومرسيه. وقد حصن خيران المرية وأصلح قصبتها الشهيرة وزاد في مساحتها حتى غدت من أعظم قصبات الأندلس وبنى حولها السور الهابط من الجبل إلى البحر وجعل له أربعة أبواب منها باب يخرج منه إلى بجانة كما زاد في قبلة جامع لمرية [لسان الدين بن الخطيب: أعمال الاعلام، ص٢١٢؛ ابن عنراري المراكشي: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٤].

(٣) خلف معن في حكم المرية ولد أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح (سنة ٤٤٣ هـ/ سنة ١٠٥١ م) الذي اتخذ لقبين هما المعتصم بالله والواثق بفضل الله. وقد بذل المعتصم جهوداً عظيمة في توسيع قصبة المرية وتجميلها وأنشأ بها قصره الكبير الممتد حتى الجبل وإلى جانبه بستانه العظيم وأنشأ مجلساً رحباً مفروشاً بالرخام الأبيض ومجلساً آخر مقرنصاً بالرفوف المذهبية. وجلب المعتصم الماء إلى مدينة المرية ووصلها الى الجامع. على أن أهم ما اشتهر به المعتصم بن صمادح هو أدبه وشعره وحمايته لدولة الشعر والأدب، وقد كان بلاطه الصغير في المرية ينافس مجالس الأدباء في بلاد أشبيلية، فقد كان بلاطة منتدى لطائفة كبار شعراء العصر، فقد كان وزيره أبو الأصبغ عبد العزيز بن أرقم شاعراً مقتدراً يجيد الوصف والمديح، وأبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز إمام الموشحات. وفي ذلك يقول ابن بسام الشفنترين «ولم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة، أخلد إلى الدعة، واكتفى بالضيق من السعة، واقتصر على قصر يبنيه، غير أنه كان رحب اللقاء جزل العطاء، اتسع في مدحه المقال وأعملت إلى حضرته الرجال، ولزمته جملة من فحول الشعراء كأبي عبد الله بن حداد وابن عبادة وابن الشهيد وغيرهم»، الأمير عبد الله بن بلقين، التبيان ص ٤٥؛ ابن الآبار: الحلة السيراء، ص ١٧٢؛ قلائد العقبان للفتح بن خاقان، ص ٤٧؛ ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المجلد الثاني ص ٢١٨؛ العذري: كتاب ترصيع الأخبار، ص ٨٥.

هذا وقد درس أبو عبيد البكري على أبي مروان بن حيان القرطبي، والحافظ ابن عبد البر وأبي العباس العذري وغيرهم من علماء وفقهاء[1] عصره. وقد ترك لنا أبو عبيد البكري مؤلفات قيمة فضلاً عن موسوعته الجغرافية السالف الإشارة إليها، منها كتابه معجم ما استعجم وهو قاموس لغوي جغرافي ويبين لنا في مقدمته السبب في تأليفه فيقول) «فإني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس، أردت أن أفصح عنه، بأن أذكر كل موضع مبين البناء معجم الحروف حتى لا يترك فيه لبس ولا تحريف».

كما صنَّف كتاب اللآلىء في شرح آمال القالي وكتاب نبوة نبينا محمد. وكتاب «المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب» وهو مستل من الممالك والمسالك. وكان البكري من أقطاب الأدب في عصره، وكان آية في التبحر في اللغة ومن أساتذة الأنساب والأخبار[2].

وقد شهد البكري دخول دولة المرابطين الأندلس عندما استنجد بهم المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ليصدوا عن المسلمين جيوش (ليو السادس) المسيحية، كما شهد بداية زوال دولة ملوك الطوائف.

وقد يكون من المفيد أن ننقل مقتطفات من كتب البكري ومؤلفاته كي نزداد معرفة به وبالبلاد التي زارها والرحلات التي قام بها. ففي كتابه المسالك والممالك، يحدثنا البكري عن إحدى دول الخوارج في بلاد المغرب، وهي دولة (برغواطه) فيقول: فمنذ أواخر الأمويين سنة ١٢٢ هـ، كان ميسرة الخارجي الصفري قد ثار فيما بين طنجة والسوس وتسمى بالخلافة ولكنه هزمه ثم قتله أتباعه ونزلوا بزعامة أحدهم (طريف بن ملوك) على الساحل حتى مصب وادي أم الربيع[3]. واستطاع طريف استمالة الناس بزهده وبالجهل والسحر حتى

(١) ابن بشكوال: الصلة رقم ٦٣٢.
(٢) ابن الآثار: الحلة السيراء، ج ٢ ص ١٨٥.
(٣) في الأرض الممتدة ما بين الرباط والدار البيضاء حتى مصب وادي أم الربيع.

قدموه عليهم وأصبحت مدينة شالة[1] القديمة عاصمة هذه الدولة التي عرفت بدولة برغواطة».

ويضيف البكري فيقول عن هذه الدولة: «وقد ظلت هذه الدولة في أولاد طريف وأحفاده حتى قضى عليها المرابطون في القرن الخامس، وقد أخرجت أثناء صراعها مع الأدراسة دعوة دينية زعمت أنه قد أوحى بها إلى صالح ابن طريف (صالح المؤمنين) وأنه المهدي وسوف يعود ويقتل الدجال. وفي دعوته تحريف للإسلام، من ابتكار آيات قرآنية وتغيير للأحكام المتصلة بالمحارم والمحرمات وتعدد الزوجات. ولهذا عرفت بزندقة برغواطة وكانوا يقرؤون القرآن بالبربرية»[2].

ويتبين لنا من حديث البكري عن دولة المدرارية[3] وهي دولة خارجية أخرى في بلاد المغرب، أنه لا يميل إلى المذهب الخارجي على إطلاقه، ولكنه مع ذلك كان منصفاً في التفرقة بين الطوائف الخارجية المتعددة والمتعارضة في عقائدها، فمن ذلك قوله: «قد أقامها الخوارج الصفرية في البلدة التي أنشأوها (سنة ١٤٠ هـ/) وسموها سلجماسة[4] على سيف الصحراء بالمغرب. وحين استقر حكم البلد في يد أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي البربري الأصل الأندلسي المولد والذي كان حداداً في بعض أرباض قرطبة ويلقب بالمدرار، أعطى الحكم لأولاده وأحفاده». ويضيف فيقول: وكانت الصفرية والأباضية أكثر الخوارج تسامحاً واعتدالاً مع المخالفين لمذهبهم، إذا ما قورنوا بفرق الأزارقة والحروريين في المشرق». وقد بيعت هذه الدولة (أي المدرارية) الفاطميين في أواخر أمرها، فلما طرد محمد بن الفتح أحد أصحاب المذهب

---

(١) شالة: تقع اليوم في ضواحي مدينة الرباط.

(٢) البكري: المسالك والممالك، ص ١٣٨.

(٣) مؤسس الدولة المدرارية كان سودانياً أسود اللون يدعى عيسى بن يزيد المكناسي الذي أسس سلجماسة وقسم مياهها وأمر بغرس النخيل بها.

(٤) سلجماسة: هي مدينة اندرست الآن ويقوم مكانها مدينة الريساني في منطقة تافيلات الحالية.

المالكي أسرتها وأقام فيها خلافة لنفسه وتلقب بالشاكر بالله سنة ٣٤٢ هـ، قضى الفاطميون على الدولة كلها[١] (سنة ٣٤٧ هـ/ سنة ٩٥٨ م).

كما تناول البكري الحديث عن الدولة الخارجية الثالثة في بلاد المغرب وهي الدولة الرستمية فيقول عن مؤسسها: أقامها عبد الرحمن ابن رستم بن بهرام في المغرب الأوسط. ويرون أن بهرام هذا كان مولى لعثمان بن عفان ويصوغ له نسباً يصله بملوك بني ساسان، أضحى من فقهاء وزعماء الخوارج الأباضية في أفريقية وشارك في النضال ضد العباسيين أثناء ثورة أبي الخطاب في أطرابلس، وصار والياً على القيروان، فلما قدم ابن الأشعث مع الجيش العباسي (سنة ١٤٤ هـ/ سنة ٧٦١ م) انهزم عبد الرحمن فسارا إلى المغرب الأوسط»[٢].

ويفصل البكري قصة دولة المذهب العلوي، وهي دولة الأدارسة في بلاد المغرب، وكيف استطاع أخوي محمد ذي النفس الزكية يحيى وأدريس الهرب بعد قتل محمد النفس الزكية على يدي أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ، فيقول: «هرب الأول (يحيى) إلى طبرستان والديلم، أما الثاني (أدريس) فركب إلى مصر في السرّ يرعاه مولى عاقل شجاع اسمه راشد. وكان صاحب البريد هناك واضح مولى صالح بن المنصور رق لهما أو كان على الهوى الشيعي فساعدهما على الفرار إلى المغرب فحملهما على البريد حتى نزلا في القيروان. وزاد الهاربان في التستر بأن جعل ادريس من نفسه خادماً عند راشد، وغرّب الاثنان حتى نزلا بلدة وليلى عند زعيم قبائل أوربـة، واستمال ادريس جموعاً أخرى من لواته ونفزة ومكناسة وزواده وغيرها فبايعوه بالإمامة سنة ١٧٢ هـ[٣]».

ويضيف فيقول: «وإذا مات ادريس سريعاً بمؤامرة عباسية، فإن راشد مولاه استطاع إبقاء البيت العلوي الادريسي قائماً حول طفل ولد لإدريس من إحدى جواريه بعد شهر من وفاة الأب وحمل الطفل اسم ادريس أيضاً. وأدار

(١) البكري: المسالك والممالك، ص ١٥١.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٧.
(٣) المسالك والممالك: ص ١١٩.

راشد الامارة بينما كان الطفل يكبر وبالرغم من أن راشداً قتل بدوره في مؤامرة عباسية سنة ١٨٦ هـ، فإن ادريس الثاني وجد من يكفله ويحفظ ملكه في شخص أبي خالد بن يزيد العيدي وجدد له البيعة سنة ١٨٧ من قبائل البربر كافة، ووفدت على الامارة الجموع من افريقية والأندلس فرساناً للحرب وجماعات للإقامة»[١].

وقد عني البكري عناية خاصة بتتبع خطوات الفتح الإسلامي في شمال افريقيا، فأعطانا صورة مفصلة إلى حد كبير فيقول في فتح عمرو بن العاص لأطرابلس: فغزا مدينة إطرابلس سنة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة التي على الشرف من شرقيها ثم دخلها رجل من مدلج من ناحية الكنيسة ففر الروم إلى سفنهم[١]».

ولكن فتح طرابلس كان يتطلب أن فتح من الساحل والجوف وفي ذلك يقول البكري: فقد بعث عمرو قائده عقبة بن نافع إلى فزان حتى بلغ زويلة[٢]، وهي من إطرابلس وكانت مشهورة بتجارة الرقيق، وصار ما بين برقة وزويله للمسلمين»[٣].

ويحدثنا عن مقاتلة زهير بن قيس البلوي لكسيلة البربري (سنة ٦٩ هـ/ سنة ٦٨٧ م) فيقول: «فلما بلغ كسيلة قدومه إليه رحل من القيروان بجموع هائلة من البربر والروم إلى ساقية ممس[٤] التي تقع على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس، أما قوات المسلمين فنزلت بطاهر القيروان وأقامت هناك ثلاثة أيام.

ثم دار القتال بين جيشيهما على وادي ممس فانتصر جيش زهيرانتصاراً

(١) المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب، ص ١٢٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١١.
(٣) البكري: المغرب، ص ١٠.
(٤) ساقية ممس تقع بين القيروان وتبسا (البكري: المغرب، ص ١٤٦).

كبيراً وقتل كسيلة ومضى المسلمون في طلب البربر فقتلوا منهم عدداً كبيراً وطاردوهم حتى وادي ملوية».

ويتكلم عن تاريخ الدولة الأموية في الأندلس في حكم الأمير حكم الربضي الذي تولى بعد الأمير هشام الرضا (سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) وما حدث بينه وبين الربضيين من المولدين، وانتصار الحكم عليهم وتشتيت شملهم. فقد أمر الحكم بهدم الربض وحرث أرضهم وزراعتها كما أمر من تبقى من الربضيين بترك البلاد. مما اضطر عدد كبير من الربضيين إلى مغادرة الأندلس عقب فشل ثورتهم فعبر بعضهم المضيق إلى العدوة الغربية حيث استقروا بين قبائل البربر في جبال الريف شمال المغرب[١]، فيقول: وقد اشتغل القرويون بالتجارة بينما اشتغل معظم أهل الأندلس بالزراعة والصناعة وهناك العداوات والمنافسات بينهما لا تنتهي بحيث أدت في النهاية إلى اندماجهما في مدينة واحدة هي فاس اليوم. ولما لم تستوعب فاس كل ربضية الأندلس استقر بني موسى منهم مكان يعرف (بأوزقور) بالقرب من مدينة أغمات في جنوب المغرب وفي مدينتي أغيفي ووليلي بالقرب من مكناس»[٢].

وينتقل بنا البكري[٣] للحديث عن الأندلس فيبدأ بتفسير معنى كلمة (الأندلس) فيقدم لنا خلاصة دقيقة لمعنى الأندلس من الناحية الجغرافية والتاريخية

(١) لقد أسس ادريس الثاني في دار القيطون مدينة أخرى سماها العالية في مقابل مدينة فاس التي لا يفصلها عنها سوى نهير صغير يعرف بوادي فاس وهو متفرع من وادي سبو. ولما كانت المدينتان في حاجة إلى تعمير فقد رحب ادريس الثاني بالمهاجرين الربضيين الأندلسيين المقيمن في منطقة الريف شمالاً للإقامة بفاس، فاستجابو لطلبه ونقلوا معهم الحضارة الأندلسية لاسيما وإن معظمهم كانوا من أهل الحرف والصناعات والزراعة، حتى أنهم أعطوا المدينة طابعم الأندلسي حتى أن فاس سميت باسمهم وعرفت بمدينة الأندلسيين. أما مدينة العالية التي تقع على الضفة المقابلة لمدينة فاس، فقد أسكنها أدريس الثاني لجماعة من عرب افريقية من نواحي القيروان ولهذا سميت بمدينة القيروانيين ثم خفف الاسم إلى قرويين. وبمضي الوقت غلب اسم فاس على المدينتين وصار يشمل عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين.

(أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٤).

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٥٥.

(٣) البكري: المغرب في ذكر افريقية والمغرب، ص ٥٩.

فيقول في وصفه لجزيرة الأندلس: إن اسمها في القديم (إباريه) من وادي (إبره) ثم سميت بعد ذلك (باطقة) من وادي (بيطى) وهو نهر قرطبة. ثم سميت (إشبانية) من إسم رجل ملكها في القديم كان اسمه (إشبان) وقيل سميت (بالإشبان) سكنوها في أول الزمان على جريه النهر وما والاه. وقال قوم ان اسمها هو في الحقيقة (إشبارية) من (اشبرش) وهو الكوكب المعروف بالأحمر. ويستطرد فيقول: وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش[1] الذين سكنوها».

ومن القصص التي تشبه الأساطير التي يرويها البكري عن جهاد الأندلسيين من المولدين والبربر والمستعربين (Mazarabes) ضد المسيحيين والنرمانديين في البحر، الذين انتشروا في بلدان الساحل الشرقي الأندلسي التي كانت تعرف باسم البلاد البحرية، كما عرف هؤلاء المجاهدين بالبحريين[2]، قصة خشاخش بن سعيد بن أسود مما يذكرنا بحديث الأدريسي[3] عن الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة. فيحدثنا البكري[4] عن خشخاش وأصحابه فيقول: «ركب خشخاش بن سعيد بن أسود مع جماعة من الأحداث المراكب ودخلوا البحر وغابوا فيه مدة ثم عادوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة.

(١) «الأندلس مأخوذة من (قندلس) ولعلها قندلس» ابن خلدون ج ٢ ص ٢٣٥، ويضيف محمد عبد الله عنان فيقول: ومن الواضح أن ابن خلدون يقصر القندال أي الوندال» (دولة الإسلام في الأندلس قسم أول، ج ١ ص ٥٠).

(٢) كذلك انتشر هؤلاء البحريون في بعض جهات الساحل الافريقي الشمالي على شكل جاليات أندلسية متفرقة وكانت لهم فيها مدارس ورباطات ودور صناعة بجوار العناصر اليمنية العربية. وأهم المدن التي أسسوها هناك مدينة تنس سنة ٢٦٢ هـ، ومدينة وهران سنة ٢٩٠ هـ في الجزائر. ويشير البكري إلى أن بعض هؤلاء البحريين كانوا يترددون بسفنهم في كل عام بين شاطىء المغرب والأندلس فيقضون فصل الشتاء في المغرب والصيف في الأندلس، كذلك كان لهؤلاء البحريين الأندلسيين مغامرات ومحاولات في المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات (الهادىء) لكشف غياهبه وظلماته في منتصف القرن الثالث الهجري.

(٣) الادريسي: نزهة المشتاق، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ (سنتناولها في شيء من التفصيل مع ترجمة الادريسي).

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص ٦١ ـ ٦٢ ـ ٨١.

وكان بيت بني أسود من البيوت المشهورة في بجانه، ولهم رباط على ساحلها عرف بقابطة[1] بني الأسود. وقد ظهر اسم خشخاش ووالده سعيد بن أسود ضمن قادة الأساطيل التي قابلت النورمانديين في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط».

ويتحدث البكري عن موقف الحكومة الأموية في الأندلس تجاه أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس فيقول: وكان لها هي الأخرى عيون ووسطاء منبثون في أنحاء المغرب، وكان هناك وجود لجماعات أندلسية على طول الساحل في طنجة ووهران وتنس وبونة (عنابة الحالية) وبجاية ومرسى الدجاج وكانت هذه الجماعات قوية التمسك بالعقيدة السنية شديدة الكراهية للمذهب الشيعي»[2].

ويضيف البكري فيقول: وفي ربيع الأول (سنة ٣١٩ هـ/ سنة ٩٣١ م) احتل عبد الرحمن الناصر مدينة سبتة على يد قائده فرج بن عفير وعمل على تحصينها لأهمية موقعها[3]. وشكلها بالرجال وأتقنها بالبنيان، وبنى سورها بالكذان، وألزم فيها من رضيه من قوادة وأجناده، وصارت مفتاحاً للغرب والعدوة من الأندلس وبابا إليها، كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الأندلس من العدوة المغربية، وقامت فيها الخطبة باسم أمير المؤمنين لثلاث خلون لربيع الأول من العام المؤرخ»[4].

وأشار البكري إلى أنه كان يعيش بسبتة «جماعة أندلسية كبيرة من أهالي

---

(١) كانت بلدة بجانة (بتشديد الجيم (Pechina) التي تنتمي إليها أسرة بني الأسود والتي يوجد بها رباطهم، بالقرب من ألمرية، وهي أهم قاعدة في الاقليم الشرقي لما تمتاز به من موقع حصين مأمون وأرض خصبة عند مصب نهر (اندرش) المعروف أيضاً بوادي بجانه. ولعل رباط القابطة أو القبطة المشهور في كتب التاريخ ومكانه اليوم (Cabo de Gata) على ساحل المرية. [الحميري: الروض المعطار، ص٢٨، ٣٧؛ العذري: ترصيع الأخبار، ص ٨٦ ــ ٨٨.

(٢) البكري: المغرب، ص٥٥، ٦٥، ٨٢.

(٣) البكري: المغرب، ص٨٩، يعارض ابن خلدون البكري في تاريخ سقوط سبتة فيقول انها سقطت في يد الناصر سنة ٣١٧ هـ.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ص٣٠٧.

مدينة (قلسانة) هاجروا إليها واستوطنوها أيام المحل (الجدب) الذي حل بالأندلس سنة أحد وثلاثين ومائة، وكانوا يؤدون الطاعة إلى قريش العدوة من الحسنيين (أي الأدارسة) حتى افتتحها عبد الرحمن الناصر»[1].

كذلك يقول البكري أن عبد الرحمن الناصر حاول (سنة ٣٢٠ هـ/ سنة ٩٢٢ م) احتلال جزيرة أرشقول[2] بالقرب من شاطىء تلمسان فيقول: وهي جزيرة عالية منيعة تحصن بها أحد أمراء الأدارسة واسمه الحسن بن عيسى بن أبي العيش. فحاصرها عبد الرحمن مدة طويلة حتى كاد أهلها يهلكون من العطش بعد أن فرغت جبابهم من المياه، ثم تداركهم الله بغيث وابل روى ظمأهم عندئذ اضطرت مراكب الأندلس وسفنهم الانصراف عنهم عائدة إلى المرية»[3].

ويكمل البكري[4] حقله الاشتباكات البحرية بين عبد الرحمن الناصر والدولة الفاطمية في عهد المعز لدين الله فيقول: «كما أمر مملوكه (أي الناصر) غالب بن عبد الرحمن الناصري بالابحار فوراً والإغارة على سواحل الفاطميين في افريقية، فنزلوا ونهبوا، ثم قصدتهم عساكر المعز فعادوا إلى مراكبهم ورجعوا إلى الأندلس وقد قتلوا وقتل منهم» ويستطرد في وصف معاودة القائد الغالب الكرة في السنة التالية (سنة ٣٤٥ هـ/ سنة ٩٥٦م) فهاجم في سبعين سفينة مدينة الخراز (حالياً La Calle) فيقول: قاعدة بحرية تبنى فيها المراكب الحربية فاضرم النار فيها، كما خرب منطقة سوسة وطبرقة شرقي بنزرت».

ومن الموضوعات التي كتب عنها مؤرخنا الجغرافي كتابه المعاصر هي دولة المرابطين إذ يحدثنا عن اللثام والنقاب فيقول: وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب، وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال، ولا يميز رجل منه وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب، وكذلك في

(١) البكري: المرجع السابق، ص ١٠٤.
(٢) جزيرة أرشقول تسمى اليوم رشجون (Rachgoun) أمام مصب نهر تافنا بالجزائر.
(٣) البكري: المرجع السابق، ص ٧٧ ــ ٧٨.
(٤) البكري: المرجع السابق، ص ٥٥.

المعارك إذا قتل منهم قتيل وزال عنه قناعه، لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وصار ذلك ألزم من جلودهم»[1] ويضيف[2] عثمان ابن غازي يقول: «وكانوا يلبسون الغفائر[3] القرمزية اللون والعمائم ذات الزؤ ابات».

كما أشاد البكري بشجاعة المرابطين فقال: ولهم في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم وهو يختارون الموت على الانهزام، ولا يحفظ لهم فرار من زحف، وهم يقاتلون على الخيل النجب، وأكثر قتالهم وهم راجلون على أقدامهم صفوفاً، بأيدي الصف الأول القنا الطوال للمداعسة والطعان، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق، يحمل الرجل الواحد منها عدة، يزرقها فلا يكاد يخطىء ولا يشوي[4]. ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده راية، فهم يقفون ما وقفت الراية منتصبة، وأن آماها إلى الأرض جلسوا جميعاً، فكانوا أثبت من الهضاب[5]».

وقد يكون من المفيد أن ننقل هنا جزءاً مما أشار إليه البكري عن إحدى الطوائف التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين وهي قبائل برغواطة وذلك لأهميتها، ولأن البكري كان معاصراً لها واستمد معلوماته عنها من تقرير كتبه سفير دولة برغواطة أبو صالح زمور البرغواطي عندما وفد على الخليفة الحكم المستنصر بالأندلس سنة **٣٥٢** هـ فيقول: إن مؤسس هذه الدولة هو طريف بن شمعون الذي نسبت إليه جزيرة طريف. وقد اعتنق طريف الإسلام ومات على مذهب الخوارج، وخلفه على حكم ولاية تامسنا ولده صالح بن طريف في القرن الثاني، وصالح هذا هو الذي تنبأ في قومه، وشرع لهم ديانته الجديدة بالبربرية، فزعم أنه صالح المؤمنين الذي ورد اسمه في سورة التحريم (وان تظاهروا عليه

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٢) عثمان بن غازي: الروض الهتون في وصف مكناسة الزيتون، ص ٦.

(٣) الغفائر جمع غفارة وهي عبارة عن (حرملة كنسية) على شكل نصف دائرة مركزها فتحة الرقبة وقطرها الشقين الأماميين، وهي تشبه عباءة التتويج التي نسجت من الحرير للملك صقلية روجر الثاني والمحفوظة في متحف الكنوز في فيينا (زكي حسن شكل رقم ٢٩٠).

(٤) أشوى السهم أخطأه (عن أحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب، ص ٢٧٠.

(٥) البكري: المرجع السابق، ص ١٦٦.

فالله هو مولاه، وجبريل وصالح المؤمنين[1]، والملائكة بعد ذلك ظهيرا» إلى آخر قصته وتعاليمه[2].

ولعل خير ما نختم به الحديث عن رحالتنا الجغرافي أبي عبيد البكري هو حديثه ووصفه لمدينتي المهدية والمنصورية، إذ يبدأ الكلام عن بناء مدينة المهدية فيقول: إن بناء هذه المدينة كان محاولة أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ومن معهما من كتامة قتل المهدي والتنكيل بأهل القيروان»[3].

ويصف البكري مدينة المهدية[4] فيقول: «يحيط بها البحر من ثلاث جهات، ويدخل إليها من الجانب الغربي، شيدت مبانيها بالصخر، واتخذ لها المهدي بابين من الحديد لا خشب فيهما، زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً، ووزن كل مسمار من المسامير التي استعملت في تركيبه ستة أرطال. ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات. وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجاً، عدا ما كان يجري فيها من القنوات، ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ هاماً وسوقاً نافعة للسلع التي كانت تحملها السفن من الاسكندرية ومن الشام وصقلية وغيرها[4]. وكانت السفن التي تخرج من المهدية تمر في طريقها إلى الاسكندرية بكثير من الموانىء، كمدينة قابس ومرسى الأندلس ومرسى مدينة إطرابلس ولبرة ومرت وأجرابية وسوسة وبرقة وتبني وطبرق والزيتونة والسلوم والأندلسيين ثم تصل إلى الاسكندرية»[5].

---

(١) سورة التحريم: آية رقم (٤).

(٢) البكري: المرجع السابق ص ١٣٤ ــ ١٤١.

(٣) البكري: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٤) تقع المهدية على بعد ستين ميلاً جنوب القيروان، ويصف ابن الأثير كيف وقع اختيار المهدي على موقعها فيقول: ثم وفق المهدي إلى موقع المهدية، وهي متصلة بالبحر كهيئة كف متصلة بزند، فتأملها فوجد فيها راهباً في مغارة فقال له: بم يعرف هذا الموضوع؟ فقال: هذا يسمى جزيرة الخلفاء، فأعجبه الاسم، فبناها وجعلها دار مملكته. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨ ص ٢٣).

(٥) البكري: المغرب ص ٢٩.

(٦) المرجع السابق، ص ٨٤ ــ ٨٦.

ثم يذكر لنا البكري ما فعله المهدي عند الانتهاء من بنائها فيقول: «ولما فرغ المهدي من بناء حاضرته الجديدة في سنة خمس وثلثمائة قال: «اليوم آمنت على «الفاطميات» يعني بناته، ثم انتقل إليها في شهر شوال سنة ثمان وثلثمائة وأقام بها ثم عمر بها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن، وجعل لكل طبقة سوقاً خاصاً بها فنقلوا إليها أموالهم. وكان لهذه المدينة أرياض كثيرة آهلة عامرة، منها ربض زويلة وكان أقرب الأرباض إلى قصره، وفيه الأسواق والحمامات وربض الحمى وقد أقام فيه أجناد افريقية من العرب والبربر وربض قفصة»[1].

ويقول البكري أن المهدي حذا حذو أبي جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرته إلى الكرخ، فأمر ببناء مدينة أخرى بجوار مدينة المهدية وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً، وأحاطها بسور وأبواب وأقام عليها الحراس، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر وأسكنها الدكاكين بحرهم وأهليهم.

ثم ينتقل بنا البكري إلى مدينة المنصورية، فيذكر السبب في بنائها فيقول: «بقيت المهدية حاضرة الدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد كيراد على الخليفة القائم بأمر الله، ثم ولي ابنه المنصور الخلافة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة وانتصر على أبي يزيد بالقرب من مدينة القيروان، فاتخذ مدينة (صبرة) القريبة منها حاضرة لدولته سنة سبع وثلاثين وثلثمائة فسميت المنصورية نسبة إليه.

ثم يصف البكري مدينة المنصورية فيقول: وكان لهذه المدينة خمسة أبواب، الباب القبلي، والباب الشرقي، وباب زويلة، وباب كتامة، وباب الفتوح، وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير. وقد نقل الخليفة المنصور إلى حاضرته الجديدة أسواق مدينة القيروان وأرباب الصناعات فازدهرت فيها الصناعة والتجارة، وغدت حاضرة الدولة الفاطمية إلى أن قدم الخليفة المعز مصر في اليوم السابع من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة، فأصبحت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية[2]».

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٠ ــ ٣١.

(٢) البكري: المرجع السابق، ص ٢٥.

ويحدثنا البكري كذلك عن تأسيس مدينة تونس التي أنشأها حسان بن نعمان الغساني (سنة ٨٢ هـ/ سنة ٧٠١ م) وذلك بعد طرد الروم من قرطاجنة ورأى أن يقيم تجاهها مدينة إسلامية تقع على البحر وتشرف على مدخل قرطاجنة. فأنشأ تونس على بعد (١٢) ميلاً إلى الشرق منها، وكانت قبل ذلك مدينة صغيرة تعرف (بتنيس) وفي ذلك يقول البكري: كانت تونس تسمى قديماً (ترشيش) ويقال لبحرها (براد) وكذلك يسمى مرساها مرسى (رادس)[1]. ثم أرسل عبد العزيز بن مروان الى حسان ألف قبطي بأهله وولده إلى ترشيش وأمره بأن يبني لهم دار صناعة، يصنع فيها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر وأن يغار منها على ساحل الروم فيشغلهم ذلك عن مهاجمة القيروان[2].

ويستطرد البكري في وصف تونس فيقول: وشيد حسان فيها مسجداً جامعاً وداراً للامارة ومحارس للجند، وقدر لهذا المحرس أن يكون أعظم ثغور افريقية بعد ذلك بثلاثين عاماً على يدي عبد الله بن الحبحاب. ونمت واتسع عمرانها وأقبل إليها الناس يستوطنونها وأقيم فيها جامع الزيتونة نسبة إلى القديسة زيتونة التي عاشت أيام الوندال.

□ □ □

(١) المرجع السابق، ص ٣٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٨.

محمد بن عبد العزيز
الشريف الادريسي

ولد الادريسي في مدينة سبتة (سنة ٤٩٣ هـ/ سنة ١١٠٠ م) بالمغرب الأقصى ودرس في جامعة قرطبة. وقد بدأ رحلاته وهو في السادسة عشرة من عمره فقد طاف في الأندلس وفرنسا وانجلترا، كما زار معظم أرجاء شمالي أفريقية، ثم رحل لتأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام فزار مصر والحجاز وآسيا الصغرى وبلاد اليونان التي وصل إليها (سنة ٥١١ هـ/ سنة ١١١٧ م).

ويعزو بعض المستشرقين قلّة معلوماتنا عن ترجمة حياة الادريسي إلى أن المؤرخين العرب قد تجاهلوه لإسرافه في مدح ملك صقلية المسيحي روجر الثاني، ولإنصافه مسيحي صقلية إلى درجة كبيرة في وقت كان المسيحييون فيه يشنون الحروب الصليبية على المسلمين ويعملون على طردهم من الأندلس.

وقد عارض زكي[1] حسن هذا الاستنتاج بقوله: ولكن هذا التعليل لا يقوم على أساس متين، لأن شكوانا في شأن ضياع سيرة الإدريسي تصلح أيضاً لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يسرفوا في مدحهم.

ولم يكن الادريسي من أعلام الجغرافيين المسلمين الذين كان للرحلات شأن عظيم في آثارهم العلمية فحسب، بل كان عالماً موفّقاً عميقاً في بحثه. ولما

(١) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص٦٧.

لم يجد في الشرق ما كان يؤمله عاد إلى بلده وفي نفسه شيء من المرارة. وكانت الدولة الحاكمة في ذلك الوقت هي دولة الموحدين.

وقد اتصل بمسامع الملك روجر[1] الثاني ملك مملكة الصقليتين (أي صقلية ونابلس) من سنة ١١٠١ م إلى سنة ١١٥٤ م، والذي كان يعشق كل ما هو شرقي، بما امتاز به رحالتنا الادريسي وما وصل إليه من العلم والمعرفة، فدعاه إلى بلاطه بمدينة يلرمو عاصمة صقلية (سنة ٥٣٣ هـ/ سنة ١١٣٨ م) وعهد إليه أن يؤلّف له كتاباً شاملاً في وصف مملكته وسائر الآفاق المعروفة في ذلك العهد فرحّب الادريسي بهذه الدعوة. وقد وضع الملك روجر الثاني تحت إشراف الادريسي مجموعة من الروّاد قامت بزيارة البلدان النائية لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواقعها. كما وضع تحت تصرفه (٤٥٠) ألف رطل من الفضة الخالصة ليصنع له كرة يرسم عليها المصوّرون موقع البلدان وأسماءها.

وقد أتم الادريسي تأليف الكتاب الذي طلبه منه روجر الثاني والذي أسماه (نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان، في خمس عشرة سنة في (سنة ٥٤٨ هـ/ سنة ١١٥٤ م) قبل وفاة روجر الثاني. وقد ظل الكتاب ينسب لفترة طويلة إلى أمير البلاد. فيقال (كتاب رجار) أو (الكتاب الرجاوي).

وقد سجل الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق» ما أفاده من رحلاته التي قام بها إلى المشرق وإلى أوروبا كما أضاف إليها ما جمعته اللجنة التي أرسلت بأمر

---

(١) ولعل خير ما يثبت ذلك، رغبته في أن تكون عباءة التتويج التي توج فيها ملكاً على صقلية أن يقوم بصناعتها عمال مسلمون، بل وأن تكون الكتابة المطرّزة عليها باللغة العربية كما يكون أسلوبها الزخرفي شرقي بحت. وتتكون زخارف العباءة المنسوجة فيه بخيوط من الذهب واللآلىء من رسم نخلة على جانبيها رسم أسد ينقض على جمل ليفترسه. وتحتوي العباءة (الغفارة) على شريط من الكتابة يحيط بها نصها كالآتي:

«مما عمل للخزانة الملكية المعمورة بالسعد والإجلال والمجد والكمال والطول والإفضال والقبول والإقبال والسماحة والجلال والفخر والجمال وبلوغ الأماني والآمال وطيب الأيام والليالي بلا زوال ولا انتقال بالعز والدعاية والحفظ والحماية والسعد والسلامة والنصر والكفاية بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة».

(زكي حسن: فنون الإسلام ص ٣٦٠).

روجر الثاني إلى البلاد النائية والأقاليم المختلفة، وكذا ما قيّده من أحاديث الرحالة ورواياتهم وقصص التجار والحجاج الذين التقى بهم في السفن أو في القوافل البرية. هذا فضلاً عن المعلومات التي استطاع الحصول عليها من المسيحيين الوافدين على الملك روجر الثاني في صقلية. وفي ذلك يقول زكي حسن[1]: والواقع أنه بهذه البيانات، امتاز على سائر الجغرافيين المسلمين، فإن من سبقه منهم لم يستطيع الكتابة عن أوروبا في شيء من الدقة ولم يظفر بمشاهدات أولئك الروّاد الذين أوفدهم الملك إلى أقصى أطراف أوروبا مثل إسكندناوة. أما الذين خلفوه فقد عمد معظمهم إلى نقل ما كتبه هو في هذا الصدد».

كما لا يبعد أن تكون معلومات الإدريسي الدقيقة والمفصّلة عن البلاد المسيحية نتيجة اتصال المسلمين بأوروبا عن طريق الأندلس والحروب الصليبية. فقد كان العرب يعرفون الكثير عن المانيا والسويد والنروبج وغيرها من البلاد الواقعة شمالي القارة الأوروبية.

ولعل من أهم مميزات المعلومات التي سجلها الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق) وكذا الخريطة التي وقعها على الكرة الفضية، الدقة وعدم المبالغة. فقد أشار إلى مقياس خريطته، فقال «إن كل درجة (٢٥) فرسخاً»، والفرسخ ثلاثة أميال فيكون طول الدرجة (٧٥) ميلاً، ولم يخطىء الإدريسي إلاَّ في مواقع قليلة، مثال ذلك أنه وضع (كليمار) في السويد في درجة (٥٦ ⅓) بدل (٥٦ ½)، وأخطأ في تعيين موقع إنجلترا والدانيمراك بنصف درجة. ولم يضع خطوط الطول لعدم استطاعته تحقيق مواضعها، وإنما أثبت خطوط العرض التي تبدأ أفقية من خط الإستواء إلى الشمال، ووضع ست درجات بين كل خط وخط. وقد قيل أن الإدريسي أسرع في إنجاز خريطته بسبب مرض روجر الثاني ملك صقلية[2].

---

(١) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٦٥.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٥٨٨.

وقد ترجم كتاب الإدريسي في أوائل القرن السابع عشر، إلى اللغة اللاتينية، ويبدو، كما قال زكي حسن، أن الغربيين اعتمدوا عليه في كتاباتهم عن تقويم البلدان ولا سيما بلاد الشرق في القرون الوسطى، وذلك إلى أن تقدم علم الجغرافيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أشار إلى ذلك البارون دي[1] سلان فقال: »إن كتاب الإدريسي لا يمكن أن يوازن بأي كتاب جغرافي سابق له، وإن ثمت أجزاء من المعمورة، لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الأمور المتصلة بها».

وقد طبع كتاب (نزهة المشتاق) لأول مرة في روما سنة ١٥٩٢ م، كما طبع (كزاد ميللر خريطة الإدريسي طبعة أنيقة مزيّنة بالألوان سنة ١٩٢٦ م، وكانت في الأصل ثلاثة أمتار ونصف طولاً ومتر ونصف عرضاً. ثم نقلها ميللر في مترين طولاً ومتر عرضاً. وقام المجمع العلمي العراقي حديثاً بطبع هـذه الخريطة التي حددت العالم الإسلامي من قبل الغزو المغولي في القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد.

ويقول السيوطي[2] عن الإدريسي أنه كان محدثاً لامعاً ألّف كتاب المفيد في أخبار الصعيد» وأنه مات بالقاهرة في شهر صفر (سنة ٦٤٩ هـ/ سنـة ١٢٥١ م). كما اشتق من كتاب (نزهة المشتاق) جزءاً عُرف باسم (كتاب الغرب وأرض السودان ومصر والأندلس).

ولعل من أهم ما ذكره الإدريسي في كتابه (أرض السودان ومصر) حديثه عن مملكة غانة، إذ يقول: «ومدينة ملال إلى مدينة غانة الكبرى نحو من إثنتي عشرة مرحلة في رمال ودمامس[3] لا ماء بها. وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو. وهي أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً وإليها يقصد

---

(١) (في عدد أبريل سنة ١٨٤١ من المجلة الآسيوية الفرنسية) عن (زكي حسن الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٦٦).

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٨.

(٣) دمامس: أي قفار.

التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى، وأهلها مسلمون، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهو يخطب لنفسه لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي، وله قصر على ضفة النيل (لعله يقصد نهر النيجر) قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه، وزيّنت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزجاج. وكان بنيان هذا القصر في عام عشر وخمسمائة من سني الهجرة»[1].

ويستطرد فيقول: «وكان بنهر النيجر جزيرة تقع شرقي مدينة غانة طولها ثلثمائة ميل وعرضها مائة ميل، ويحيط بها النهر في سائر السنة».

ويصف الإدريسي منابع نهر النيل الذي عيّنه بدقة في خريطته، إلاّ أنه أخطأ عندما اعتبر نهر النيجر امتداد لنهر النيل، وفي ذلك يقول: وبعد انتهاء موسم الفيضان في شهر أغسطس وانخفاض مياه هذا النهر، يقصد أهالي هذه الجهات الجزيرة بحثاً عن التبر، فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه وتعالى كثيراً أو قليلاً من التبر، وما يخيب منهم أحد. فإذا عاد النيل (يقصد النيجر) إلى حدة باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضاً، واشترى أكثره أرقلان، وأهل المغرب الأقصى، وأخرجوه إلى دور السكك (أي صك العملة) في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع هكذا في كل سنة[2]».

ويتحدث الإدريسي عن البحر الأحمر وصعوبة الملاحة فيه في ذلك الوقت ومن ثم فقد احتاجت السفن التي تسير فيه إلى أنواع خاصة من الخشب يمتاز بمتانته وصلابته حتى تستطيع مقاومة وتحمّل العوامل والتأثيرات الجوية والبحرية القاسية، فقد كانت ألواح الهياكل تصنع من خشب الساج أو خشب جوز الهند. وفي ذلك يقول: وكانت مراكب أهل سيراف إذا وصلت من بحر الهند إلى جدة أقامت بها، ونقل ما فيها من الأمتعة التي تحمل إلى مصر في مراكب القلزم، إذ

---

(١) الإدريسي: الغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٦.
(٢) الغرب وأرض السودان ومصر الأندلس.

كان يتهيب لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته، وكثرة جباله النابتة فيه، وأنه لا ملوك في شيء من سواحله ولا عمارة، وأن المركب إذا سلكه احتاج في كل ليلة إلى أن يطلب موضعاً يستكن فيه خوفاً من جباله فيسير النهار ويقيم الليل، وهو بحر مظلم كريه الروائح لا خير في بطنه ولا ظهره وليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر وفي جباله الجوهر والمعادن والذهب.

ويستطرد الإدريسي فيحدثنا عن طريقة جلفطة سفن البحر الأحمر التي كان يتخذ لها مزيج من القار أو الراتج ودهن الحوت، ثم يصف الحيتان الصالح دهنها للجلفطة فيقول: «وذكر الربانيون أنهم يتصيدون ما صغر منها فيطبخونها في القدور فيذوب جميع لحمها ويعود شحمًا مذاباً وهذا الدهن مشهور في بلاد اليمن في عدن وغيرها من المدن الساحلية، وفي بلاد فارس وساحل عمان وبحر الهند والصين، وهو عمدتهم في سد خروق المراكب، وكان الغرض من هذا أيضاً حماية القاع من دود السفن»[1].

ويتحدث في هذا الكتاب عن المغرب فيقول الإدريسي الذي عاصر دولة المرابطين والموحدين عن أغمات[2]: «وأهل أغمات يتوفرون على ثروات ضخمة من تجارة النحاس والثياب الصوفية والعمائم والآلات الحديدية وما منهم رجل يسافر عبيده ورجاله إلاّ وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً موقرة. ولم يكن في الملثمين أحد أكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً. كما يقول في وصف مراكش في عهد المرابطين: وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة».

ويرتحل الإدريسي بنا إلى الأندلس ويحدثنا عن مدينة الزهراء[3] فيقول:

---

(١) نزهة المشتاق ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق ص ٦٧.

(٣) أنشأ مدينة الزهراء الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ــ ٣٥٠ هـ)، التي تقع على بعد ثمانية كيلومترات شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس من جبال قرطبة، وما زالت بقايا المدينة قائمة هناك ويسميها الإسبان (Medina Zahra). وتذكر المصادر الأندلسية إلى أن الناصر بناها تكريماً لذكرى سُرِّية أو جارية له اسمها الزهراء.

«ومن مدينة قرطبة إلى مدينة الزهراء خمسة أميال، وهي قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها، وفيها قوم سكان بأهاليهم وذراريهم وهم قليلون. وهي في ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية، مدينة فوق مدينة، سطح الثلث الأعلى يوازي على الجزء الأوسط، وسطح الثلث الأوسط يوازي على الثلث الأسفل وكل ثلث منها له سور. فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها، والجزء الأوسط بساتين وروضات والجزء الثالث فيه الديار والجامع». ويختم الإدريسي وصفه لمدينة الزهراء بقوله: «وهي الآن خراب وفي حال الذهاب»(١).

ويفهم من وصف الإدريسي للمدينة، أنها كانت تقع على سفح ثلاثة مدرجات من الجبل، القسم الأعلى فيه قصور الخلافة والقسم الأوسط عبارة عن بساتين ورياض والقسم الأسفل يحتوي على الجامع ومنازل الخاصة وكل قسم من هذه الأقسام له سور وأبواب(٢).

ويتناول الإدريسي موضوع البحرية في المغرب في عهد المرابطين، فقد كان في عهد يوسف بن تاشفين أسطول صغير يتألف من السفن التي تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس، وكان عدد هذه السفن كبيراً بالنسبة للسفن الحربية، وكان الأسطول المرابطي قد ارتقى كثيراً في عهد علي بن يوسف وفي ذلك يقول الإدريسي: «إن أحمد بن عمر كان والياً لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله، وكان ينقسم إلى وحدات وقد انتصر على سفن الفرنجة في فتح بلنسية وجزر البليار»(٣).

وبمناسبة الحديث عن البحر، هناك القصة الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة، الذين توغّلوا في المحيط الأطلسي في منتصف القرن الثالث للهجرة التي رواها لنا الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق(٤)، والتي تشبه إلى حد ما

(١) الإدريسي: المصدر السابق ص ٣١٢.
(٢) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٠٦.
(٣) المرجع السابق ص ٥٤.
(٤) نزهة المشتاق ص ١٨٤، ١٨٥.

قصة خشخاش التي رواها لنا أبوعبيد البكري. ويروي الإدريسي القصة فيقول: «ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه. ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغررين إلى آخر الأبد».

ثم يبدأ في سرد القصة من البداية فيقول: وذلك أنهم اجتمعوا، ثمانية رجال كلهم أبناء عم، فأنشأوا مركباً حمالاً وأدخلوا فيه الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر. ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية، فجروا بها نحو من أحد عشر يوماً، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش[١]، قليل الضوء فأيقنوا بالتلف، فردوا قلاعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحر في ناحية الجنوب إثني عشر يوماً، فخرجوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عدّ ولا تحصيل، وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظراً إليها، فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين بري، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرّة لا يقدر أحد على أكلها، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب إثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فيها.

ويستطرد الإدريسي في سرد القصة فيقول: فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك، فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها في دار، فرأوا بها رجالاً شقراً، زعوراً شعور رؤوسهم سبطة[٢]، وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب. فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام. ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي، فسألهم عن حالهم، وفيما جاءوا وأين بلدهم، فأخبروه بكل خبرهم، فوعدهم خيراً، وأعلمهم أنه ترجمان الملك، فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك. فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس. فضحك الملك وقال للترجمان خبِّر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر، وأنهم

(١) التروش: أي الصخور التي لا يكاد يسترها الماء (زكي حسن: الرحالةص٤٧).
(٢) شعر سبط: أي ناعم مرسل.

جروا في عرضه شهراً إلى أن أقطع عنهم الضوء وانصرفوا إلى غير حاجة ولا فائدة تجدي. ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً وأن يحسنوا ظنهم بالملك ففعل. ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جري الريح الغربية فعمر بهم زورق، وعصبت أعينهم وجري بهم في البحر برهة من الدهر».

ويكمل الإدريسي القصة فيقول: «قال القوم: قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جيء بنا البر فأخرجنا وكتّفنا إلى خلف، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا: فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة، فحلّوا من وثائقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر، فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم، فقلنا، لا فقال، إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين، فقال زعيم القوم: واأسفي، فسمي المكان إلى اليوم «أسفي» وهو المرسى الذي في أقصى المغرب».

ويعلّق زكي حسن[1] على هذه القصة فيقول: «إننا نرجّح أنهم وصلوا أولاً إلى مقربة من إحدى جزائر أزور (Azores) التي تبعد عن غربي البرتغال نحو (١٣٧٠) كيلومتراً، والظاهر أنها لم تكن مجهولة عند الفينيقيين والقرطاجنيين والنورمنديين والعرب. ولما انحدر الفتية إلى الجنوب وساروا إثني عشر يوماً فالمحتمل أنهم وصلوا إلى جزر ماديرا. أما الجزيرة التي انتهى إليها الفتية وقبض عليهم فيها، فلعلها إحدى جزر الخالدات (الكناري الآن) التي تبعد عن الساحل الشمالي الغربي لأفريقية بنحو مائة كيلومتر».

ومن القصص التاريخية التي انفرد بذكرها الإدريسي عند الكلام عن جغرافية بلاد الأندلس وفتح طارق بن زياد لها، وهي القصة التي تقول أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس»[2]. ويعلّق محمد عبد الله عنان على هذه القصة فيقول: «وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية

---

(١) الرحالة المسلمون ص ٤٩ ــ ٥٠.

(٢) لم يشر إلى حرق طارق لسفنه غير ثلاثة مراجع أحدها كتاب الإكتفاء لابن الكردبوس والثاني نزهة المشتاق للإدريسي والثالث كتاب الروض المعطار للحميري.

عن الإدريسي فيما يرجّح، وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق. ثم يضيف فيقول: وقد يقال إن الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية، فقد استهله طارق بقوله «أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلّا الصدق والصبر».

على أن الأستاذ محمد عبد الله عنان وغيره من المؤرخين المحدثين[1] يرتابون كذلك في نسبة هذه الخطبة إلى طارق بقوله: إن معظم المؤرخين المسلمين، ولا سيما المتقدمين منهم لم يشر إليها ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذري، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية، ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون، ونقلها المقري عن مؤرخ لم يذكر اسمه. هذا فضلاً على أن لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعباراتها، ما يحمل على الشك في نسبتها إلى طارق، وهو بربري لم يكن عريقاً في الإسلام والعروبة. والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان.

على أننا لا نرى ما أثاره الأستاذ محمد عبد الله عنان من الإرتياب في رواية الإدريسي لا للسبب غير أن لغة الخطبة بليغة لا يمكن لبربري أن يقولها، ولأن معظم المؤرخين الأوائل لم يذكروها[2]. وللرد على ذلك نقول، أما بالنسبة للغة فليس من المستبعد أن يكون قد قالها باللغة البربرية لجيشه المكوّن معظمه من البربر، ثم ترجمت المصادر الخطبة البليغة العربية في عصره أو في عصر لاحق إلى العربية[3]. أما انفراده بذكر قصة حرق السفن فليس ذلك بغريب بالنسبة لمؤرخ مثل الإدريسي الذي جندت له جماعة كبيرة من المسيحيين الذين أرسلهم الملك روجر الثاني إلى البلاد النائية والقاصية لجمع المادة العلمية لتأليف كتابه (نزهة المشتاق).

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول ـ القسم الأول ص٤٨ ـ ٤٩، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٧٩، (طبع روما).

(٢) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٥.

(٣) لقد وردت الخطبة في تاريخ عبد الملك بن حبيب وكتاب نفح الطيب للمقري وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان وكذا كتاب الإكتفاء لابن كردبوس.

وينتقل بنا الإدريسي إلى الأندلس فيحدثنا عن المسجد الجامع بقرطبة الذي خصص له فصلاً هاماً فيقول: «وفي قرطبة المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً. ويستطرد في وصف مئذنة الجامع التي أنشأها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل التي تصدعت، والتي رأى عبد الرحمن الناصر وخاصة منذ تلقبه بالخلافة سنة ٣١٧ هـ أن يقيم مئذنة جديدة بدلاً من أن يقيم بدلاً منها مئذنة جديدة تسمو على سائر العمران بقرطبة فيقول: وأمر في سنة أربعين وثلثمائة ببناء صومعة جديدة، فجمع لها العرفاء من المهندسين في كل مكان وأحضر لها الأحجار الضخمة على عجل، فهدموا مئذنة هشام إلى قواعدها، وهدموا السور الشمالي للمسجد وحفروا الأساس حتى بلغ الماء، وأتموا بناءها في ثلاثة عشر شهراً فجاءت رائعة البناء. وكان مئذنة هشام ذات مطلع واحد، فجعل لمئذنة الناصر مطلعين وفصلوا بينهما بالبناء، فلا يلتقي الراقون فيها إلّا بأعلاها ولكل منهما مائة وسبع درجات. وبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً حتى مكان المؤذن وفوق ذلك عشرين ذراعاً، ثم نصب بأعلى المئذنة سفود بارز، ركبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة»[١].

ثم يعرّج على زيادة الحكم المستنصر، وهي من أعظم ما أضيف إلى جامع قرطبة وأهم ما عمارته القباب التي تقوم على هياكل عقود بارزة متشابكة في أشكال هندسية رائعة، تؤلف نجوماً تتوسطها قبيبات مفصصة وأجري في الفراغات بين العقود بالفسيفساء المذهبة[٢]، والتي يصفها الإدريسي فيقول: وكل هذه القسي مزججة، وصنعة القرط قد أعيت الروم والمسلمين بغريب أعمالها ودقيق تكوينها».

ولقد فتح الحكم المستنصر في جامع قرطبة إلى يمين المحراب باباً يؤدي إلى الساباط الجديد الذي يصل بين قصره ومقصورة الجامع. ويتصل هذا الباب بمخزن تحفظ فيه العدد والطسوت والحسك الخاص بوقيد الشموع في كل ليلة

---

(١) الإدريسي: المرجع السابق ص ١١.
(٢) السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٤ ــ ٣٨.

السابع والعشرين من رمضان، كما كان يحفظ مصحف يصفه الإدريسي[1] فيقول: «مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان، وهو المصحف الذي خطه بيمينه، رضي الله عنه، وفيه نقط من دمه. وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد وأمامهم رجل ثالث بشمعة، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه. وله بموضع المصلي كرسي يوضع عليه ويتولى الإمام قراءة نصف حزب ثم يرده إلى موضعه»[2].

ويشك المقري في نسبة المصحف إلى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فيقول: «وما توهموه أنه خطه بيمينه فليس بصحيح، فلم يخط عثمان واحداً منها، وإنما جمع عليها بعضاً من الصحابة»[3].

وقد بحثنا في موضوع الخلاف بين روايتي الإدريسي والمقري فيما يختص بموضوع المصحف المنسوب إلى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وتوصلنا إلى النتائج الآتية.

حقيقة أن القول بوجود مصحف عثمان بن عفان لم يقف عند حدود دول العالم الإسلامي في المشرق فحسب، بل تعداه إلى المغرب، إذ يذكر الحسن[4] بن عبد الله عند كلامه عن هيئة الملوك ولباسهم ما نصه «ولم تزل

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٨ ــ ١٠.

(٢) وظل هذا المصحف بموضعه في جامع قرطبة ثم آل أمره إلى الموحدين إذ أخرج منها سنة ٥٥٢ هـ أيام عبد المؤتمن بن علي، فاعتنى به وتبركوا به، ثم إلى بني مرين، وكان السلطان أبو الحسن المريني لا يسافر موضعاً إلاّ حمله معه، إلى أن انهزم أبو الحسن في واقعة طريف، فوقع المصحف في أيدي البرتغال، ثم تحايل المسلمون على استرداده فوصل فاس سنة ٧٤٥ هـ على يد أحد تجار (أزمور) واستمر بقاءه في الخزانة السلطانية (المقري. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ج ٢ ص ١٣٦ ــ ١٣٧، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣٩٦).

(٣) المقري: المرجع السابق ج ٢ ص ١٣٥.

(٤) الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول ص ١١٩.

الخلفاء والملوك تختص بنوع من الزي لا يشاركون فيه، فملوك تركب بالجتر على رأسها، وهي التي يسمونها بمصر المظلة ويجلسون تحتها على التخت، وكذلك الخلفاء وملوك تجلس على نطع أو مصلي لميلهم إلى التواضع. أما الموكب فمنهم من يركب بالسنجق وراءه، وملوك المغرب يركبون بمصحف عثمان، رضي الله عنه، على ناقة أمامهم ويلبسون برنساً بنفسجياً لا يلبسه غيرهم راكباً في جميع بلادهم.

ولما كان المصحف موضوع البحث، (وهو ما يزال محفوظاً حتى الآن في الخزانة السلطانية بمدينة الرباط) والذي جاء في وصف أنه مكتوب بالخط الكوفي الجميل وأنه قد وضع على الكلمات نقاط حمراء وأخرى سوداء. من هذا الوصف البسيط استطعنا أن نرجع المصحف إلى تاريخه الصحيح. فقد ورد في المراجع التاريخية أن زياد ابن أبيه والي العراق أمر أبا الأسود الدؤلي[١] سنة ٦٧ هـ بوضع النحو حتى يقضي على اللحن الذي تفشّى بين العجم. فاستعان أبو الأسود بنقط تعرف بها الحركات تميزاً للاسم من الفعل من الحرف، وكان هذا هو الإصلاح الأول للخط العربي بقصد ضبطه وشكله[٢]. أما الإصلاح الثاني فقد حدث في عهد الخليفة الأموي الوليد عبد الملك بن مروان (٨٦ ــ ٩٦ هـ) عندما صعب على العجم التميز بين الحروف المتشابهة، ففزع الحجاج إلى كُتّابه وسألهم أن يصنعوا لهذه الأحرف المتشابهة علامات تميزها عن بعضها[٣]. ويقال أن نصر بن عاصم قام بذلك، فوضع الأعجام بمعنى (النقط) فنقطت الحروف بنفس مواد الخط لأن نقط الحروف جزء منه»[٤].

يؤخذ من ذلك أن العرب استخدموا الحركات، وهي على هيئة نقط بمداد يخالف لون مداد الخط، غالباً الأحمر، والأعجام وهي النقط بنفس مداد الخط وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، أي في عصر الدولة

(١) أبو البركات عبد الرحمن الأنباري: نزهة الأولياء في طبقات الأدباء ص ١٢٧.
(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٤٠.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٥.
(٤) الفهرست ص ٤٢.

الأموية. أما الإصلاح الثالث الذي حدث في عصر الدولة العباسية فقد قام الخليل بن أحمد الفراهيدي سنة ١٦٠ هـ، وهو إبدال النقط التي وضعها أبو الأسود للدلالة على الشكل بجرات علوية للدلالة على الفتح وسفلية للدلالة على الكسر وجرة برأس واو للدلالة على الضم واصطلح على أن يكون السكون الخفيف رأس خاء بلا نقط أو دائرة»[١].

مما تقدم نستطيع القول بأن المصحف المذكور ليس هو مصحف عثمان ولا بخطه وإنما هو يرجع إلى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة أي قبل الإصلاح الثالث الذي قام به الفراهيدي، حيث أن المصحف المذكور، كما جاء في وصفه، يحتفظ بنقاط حمراء وأخرى سوداء.

ونرتحل مع الإدريسي صوب المشرق حيث يصف مدن الشام وحواضرها، فيقول عن دمشق: «دمشق مدينة من أجلّ بلاد الشام وأحسنها مكاناً وأعدلها هواء وأطيبها ثرى وأكثرها مياهاً وأغزرها فواكه وأعمّها خصباً وأوفرها مالاً وأكثرها جنداً وأشمخها بناء. ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة وطول الغوطة مرحلتان في عرض مرحلة بها ضياع كالمدن».

ويستطرد في وصف دمشق فيتحدث عن صناعاتها فيقول: ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصفة والقديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد ويتجر به منها إلى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها والمتباعدة عنها»[٢].

كما وصف بيروت فقال: «بيروت مدينة على ضفة البحر عليها سور حجارة كبيرة واسعة ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد يقطع ويستخرج منه الكثير ويحمل إلى بلاد الشام. وتجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد. وكان بها مقام الإمام الأوزاعي الفقيه»[٣].

---

(١) طبقات الأدباء ص ١٢٩.
(٢) نزهة المشتاق ص ١٩٥.
(٣) نزهة المشتاق ص ١٩٤.

أما عن بيت لحم فيصفها فيقول: «سرت من بيت المقدس إلى مدينة بيت لحم فوجدت على طريقي عين سلوان، وهي العين التي أبرأ فيها السيد المسيح الضرير الأعمى ولم تكن له قبل ذلك عينان (أي أنه كان ضريراً). وبقربها بيوت كثيرة منقورة في الصخر، وفيها رجال قد حبسوا أنفسهم فيها عبادة. أما بيت لحم وهو الموضع الذي ولد فيه السيد المسيح فبينه وبين المقدس ستة أميال»(١).

ولم يترك الإدريسي أصحاب الديانات السماوية الأخرى إلاّ وتناول أحوالهم في المجتمع الإسلامي بالبحث والدراسة، فمن ذلك حديثه عن اليهود الذين رزحوا تحت حكم القوط، سمح لهم العرب بمزاولة التجارية وبحرية الملكية، كما تمتعوا بكثير من التسامح الديني، وأسند إليهم الكثير من مناصب الدولة، وأضحت قرطبة مركزاً للدراسات العبرية.

ويستطرد الإدريسي فيقول: أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلاً جنوبي قرطبة، كان أهلها أكثر غنى من بني جلدتهم من سائر البلاد الإسلامية(٢).

□ □ □

(١) المرجع السابق ص ١٩٣.

(٢) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٢٠٥.

شهاب الدين
أبو عبد الله بن عبد الله
ياقوت الحموي الرومي البغدادي

ولد ياقوت في بلاد الروم (سنة ٥٧٥ هـ/ سنة ١١٧٩ م)، وأوتي به أسيراً من بلاد الروم وهو حدث، ونقل إلى أسواق الرقيق في بغداد مع غيره من الأسرى، حيث اشتراه تاجر بغدادي أصله من حماه اسمه عسكر بن ابراهيم، فنسب ياقوت إليه وغلب عليه لقب الحموي. وكان مولاه عسكر لا يعرف الكتابة، فأرسله إلى المدرسة ليتعلم فينتفع به في إدارة تجارته، فتلقى العلوم المعروفة في عصره. ثم دعاه مولاه التاجر فأخذ يرسله من بلد إلى آخر في أعماله التجارية ولاسيما في منطقة الخليج العربي.

وقد جرت بين ياقوت وبين مولاه عسكر نبوة أدت إلى عتقه (سنة ٥٩٦ هـ/ سنة ١١٩٩ م) وأشركه معه في تجارته وأخذ يبعثه في شؤونها إلى الاصقاع المختلفة. وحدث أن دب الخلاف بينه وبين مولاه، فعاش ياقوت من نسخ الكتب وبيعها، أي أنه احترف الوراقة وأفاد من وراء هذه الصناعة بما تركه لنا من مؤلفاته النفيسة، وفي تلك الأثناء اتصل بالعبكري فأفاد منه كثيراً وخاصة في علوم الأدب وتراجم الأدباء والرواة.

ولم يمض وقت طويل حتى عطف عليه سيده عسكر، فأرجعه إلى عهدته وكلفه بتجارة سافر بها، وعند عودته إلى بغداد وجد مولاه قد توفى، فأخذ ما يمكنه من الاتجار من تركة مولاه، فاشتغل بتجارة الكتب. ولكنه لم يلبث أن عاد إلى حياة الأسفار والرحلات، فساح في آسيا الصغرى، وبلاد الشام ومصر وبلاد العرب وايران وبلاد ما وراء النهر واستقر به المقام أخيراً في خوارزم (خيوه

الآن) حيث بدأ في تأليف معجمه العظيم (معجم البلدان) (سنة ٦١٢ هـ/ سنة ١٢١٥ م) وأتمه (سنة ٦٢١ هـ/ سنة ١٢٢٤ م).

إلا أن اقامته في خوارزم لم تطل، إذا لم يكد يسمع بتحرك جنكيز خان نحو الغرب حتى كر راجعاً إلى الموصل (سنة ٦١٦ هـ/ سنة ١٢١٩ م) مخلفاً وراءه كل ما جمعه من مال وثروة. وهكذا عاد إلى الموصل معدماً مما اضطره أن يكتب إلى الوزير ابن القفطي[1]، وكان في حلب يطلب منه العون المادي فشمله بعطفه وأحاطه برعايته واستدعاه إلى حلب. ولكن ياقوت عاد إلى الموصل بعد أن أمضى عامين في حلب حيث انصرف الى اتمام معجمه. ثم رحل إلى مصر وعاد منها إلى حلب فعمل على تنقيح معجمه وتوفي في حلب(٦٢٦هـ / سنة ١٢٢٨ م).

ومن الواضح أن ياقوت قد أفاد كثيراً مما شاهده في أسفاره وما جمعه من الخزائن التي تردد عليها في مراكز الثقافة التي نشطت فيها الحياة الفكرية وخاصة في بلاط السلاجقة في مرو حاضرة خراسان ولاسيما في عهد السلطان سنجر ثم عهد أمراء الخوارزمين. وقد أقام ياقوت الحموي في مدينة مرو ثلاثة أعوام أخذ العلم على علمائها وأفاد من خزائن كتبها. ويبدو أن أمر الاستعارة من خزائن كتبها كان أمراً ميسوراً حتى أنه استعار في وقت واحد ما يقرب من مائتي مجلد، كما يظهر أنه كان يدفع رهناً للنادر منها، ولكن أكثرها كان من غير رهن[2].

ويشيد ياقوت بمركز مرو الثقافي في عهده فيقول: «إن مرو أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم». ويتحدث عن خزانات

---

(١) هو علي بن يوسف المشهور بالقفطي، وهو ابن جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي وزير حلب المولود بمدينة فقط من أعمال صعيد مصر سنة ٥٦٨ هـ، والمتوفي سنة ٦٢٥ هـ بمكة، وقد تولى علي بن يوسف على خراج حلب واشتهر بالأمانة والكفاية وولع بالاستزادة من العلم وتشجيع رحالة مثل ياقوت الحموي. ثم تولى القفطي الوزارة للملك العزيز الأيوبي وظل فيها حتى مات سنة ٦٤٦ هـ. وقد ألف القفطي كثيراً من الكتب أهمها كتاب (تاريخ الحكماء) استمد كثيراً من معلوماته من كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الذي توفي قبله بعشرين سنة (براون: تاريخ الأدب في ايران، ج ٢، ص٥٩٣، المترجم).

(٢) زكي حسن، ص ١٠٥.

كتبها فيقول: فكنت أرتع فيها، أقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد وأنهاني عن الأهل والولد. وأكثر فوائد هذا (أي معجم البلدان) وغيره مما جمعته، فهو من تلك الخزائن. وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة»(١).

وقد صنَّف ياقوت كتباً أخرى غير معجمة نذكر منها كتاب (مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع) الذي اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق المتوفي (سنة ٧٣٩هـ سنة ١٣٣٨ م). وقد طبعة جوينبول في أربعة أجزاء في (لندن سنة ١٨٥٣) كما ألف كتاب (إرشاد الأريب الى معرفة الأديب) وقد طبع في سلسلة ذكرى المستشرق جب (Gibb) في سبعة أجزاء في القاهرة (سنة ١٩٠٧ ـ سنة ١٩١١). ويعرف باسم (معجم الأدباء).

أما كتابه معجم البلدان فهو بحق من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في كل ما يتعلق بجغرافية وتاريخ بلاد غربي آسيا، وفي ذلك يقول المستشرق(٢) (Carra de Vaux): أنه من المؤلفات التي يحق للإسلام أن يفخر بها كل الفخر. وقد نشره وستفيلر (Wüstenfeld. F.) في ستة أجزاء (سنة ١٨٦٦ ــ سنة ١٨٧١) وطبع في القاهرة عشرة أجزاء (سنة ١٣٢٣ هـ/ سنة ١٩٠٦ م).

ويقدم ياقوت لكتابه (معجم البلدان) فيقول: أما بعد، فهذا كتاب في أسماء البلدان. والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأبداد والأوثان. لم أقصد بتأليفه وأصمد نفسي لتصنيفه لهواً ولا لعباً، ولكني رأيت التصدي له واجباً والانتداب له مع القدرة عليه فرضاً لازباً ثم يستطرد فيبين بعض الأسباب في تأليفه معجمه فيقول: ثم قلما رأيت الكتب المتقنة الخط المحتاط لها بالضبط والنقط، إلا وأسماء البقاع أو محرفة أو مهملة وعن محجة الصوب منعطفة أو منحرفة، قد أهمله كاتبه جهلاً وصورة على التوهم نقلاً. ومن ذا الذي يستغني من أولى البصائر عن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها وضبط أصقاعها وتنقيحها، والناس في الافتقار إلى علمها

---

(١) ياقوت مادة (مرو).

(٢) Carra de Vaux: Les Penseurs de L'Islam. Vol. II P. 19

سواسية لأن من هذه الأماكن ما هي مواقيت للحجاج والزائرين، ومعالم للصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، ومشاهد للأولياء والصالحين، ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين.

وقد كان ياقوت أميناً أمانة تذكر له بالفضل عندما عدد المصادر والمراجع التي اعتمد عليها أو أخذ منها. بل أكثر من ذلك فقد اختتم وثبت مصادره بالثناء على أصحابها وحرص على ذكر اسم كل مرجع أخذ منه أو اعتمد عليه في حينه وفيما يلي ثبت مراجعه ومصادره.

وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة أهل الأدب، وهم أبو سعيد الأصمعي، ظَفِرْت به رواية لابن دُرَيْد عن عبد الرحمن عن عمه، وأبو عبيد السكوني، والحسن بن أحمد الهمداني، له كتاب جزيرة العرب، وأبو الأشعث الكِندي في جبال تِهامَةَ، وأبو سعيد السيرافي، بلغني أن له كتاباً في جزيرة العرب، وأبو محمد الأسود الغُنْدِجاني، له كتاب في مياه العرب، وأبو زياد الكلابي، ذكر في نوادره من ذلك صَدْراً صالحاً وقفتُ على أكثره، ومحمد بن إدريس بن أبي حَفصة، وقفتُ له على كتاب سماه مَناهل العرب، وهشام بن محمد الكلبي، وقفت له على كتاب سماه اشتقاق البلدان، وأَبُو القاسم الزَّمَخْشَري، له كتاب لطيف في ذلك، وأبو الحسن العِمْراني تلميذ الزمخشري، وقف على كتاب شيخه وزاد عليه رأيتُه، وأبو عبيد البكري الأَنْدَلُسي، له كتاب سماه مُعجم ما اسْتَعْجَمَ من أَسماء البقاع لم أَرَهْ بعد البحث عنه والتَّطلُّب له، وأبو بكر محمد بن موسى الحازمي، له كتاب ما ائتَلف واختلف من أسمائها، ثم وَقَفَني صديقُنا الحافظ الإمام أبو عبد الله محمد ابن محمود بن النَّجَّار، جزاه الله خيراً، على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر الأصفهاني، من كتاب أَلَّفه أبو الفتح نَصْر بن عبد الرحمن الإسكندري النحوي، فيما ائتَلف واختَلف من أسماء البقاع، فوجدتُه تأليفَ رجل ضابط قد أَنفذ في تحصيله عمراً وأَحسن فيه عيناً وأثراً، ووجدت الحازمي، رحمه الله، قد اختلسَه وادَّعاه، واستَجهَل الرُّواةَ

فرواه، ولقد كنت عند وقوفي على كتابه أَرفَع قَدْرَه من علمه، وأرى أن مَرماه يَقصُر عن سهمه، إلى أن كشَفَ الله عن خبيته، وتَمحَّضَ المحضُ عن زُبدته، فأما أنا فكل ما نَقَلْتُه من كتاب نصر، فقد نسَبْتُه إليه وأَحَلْتُه عليه، ولم أُضِع نَصَبَه، ولا أخمَلْتُ ذكره وتعبه. والله يُثيبه ويرحمه.

ويعلق زكي حسن على كثرة مصادره فيقول: ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نحدد مقدار ما أفاد ياقوت من رحلاته تحديداً دقيقاً، فإنه نقل في معجمه عن كثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين، ولم يعين الأقاليم التي زارها بنفسه وكتب عنها مشاهراته الخاصة»[1]. ويقص علينا ياقوت أول الأسباب وأهمها التي دفعته إلى تأليف معجمه فيقول: وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب، أنني سُئلتُ بمَرْوُ الشاهجان، في سنة خمس عشرة وستمائة، في مجلس شيخنا الإمام السعيد الشهيد فخر الدين أبي المظفر عبد الرحيم ابن الإمام الحافظ تاج الإسلام أبي سعد عبد الكريم السَّمْعاني، تَغَمَّدَهما الله برحمته ورضوانه، وقد فُعِل الدعاء إن شاءَ الله، عن حُباشَةَ اسم موضع جاءَ في الحديث النبويّ، وهو سوقٌ من أسواق العرب في الجاهلية، فقلت: أرى أنه حُباشَةُ بضم الحاء، قياساً على أصل هذه اللفظة في اللغة، لأنّ الحُباشَةَ: الجماعة من الناس من قبائل شتى، وحبَشْتُ له حُباشَةً أي جَمعت له شيئاً. فانبرى لي رجلٌ من المحدّثين، وقال: إنما هو حَباشَةُ بالفتح. وصَمَّمَ على ذلك وكابَرَ، وجاهَرَ بالعِنادِ من غير حُجّة وناظَرَ، فأَرَدْتُ قطعَ الاحتجاجِ بالنَّقْل، إذ لا مُعَوِّلَ في مثل هذا على اشتقاق ولا عَقْل، فاستعصى كَشْفُه في كتب غرائب الأحاديث، ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بِمَرْوَ يومئذ، وكثرة وجودها في الوقوف وسهولة تناولها، فلم أظْفَر

---

(١) قد عني أحد المستشرقين (Heer) في نهاية القرن التاسع عشر بدراسة معجم البلدان وأخرج بحثاً في المراجع التاريخية والجغرافية التي اعتمد عليها ياقوت. ولكن أحداً لم يستطع حتى الآن أن يبين نصيبه الخاص وآثار أسفاره وتجاربه في هذه الموسوعة الجليلة الشأن».
(زكي حسن ص١٠٦).

به إلا بعد انقضاء ذلك الشَّغَب والمِراء، ويأسٍ من وجوده يَبْحث واقتراء، فكان موافقاً والحمد لله لما قُلْتُه، ومَكيلاً بالصاع الذي كِلتُه، فأُلقي حينئذ في رُوعي افتقارُ العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً، وبالاتقان وتصحيح الألفاظ بالتَّقْييد مخطوطاً، ليكون في مثل هذه الظُّلْمة هادياً، وإلى ضَوء الصواب داعياً.

وقد التمس منه بعض طلابه مراراً أن يختصر معجمه، ولكنه رفض أن يقوم بهذا العمل رفضاً باتاً قائلاً لهم:

ثم اعلمْ أن المختصر لكتاب كمن أقدَم على خَلْقٍ سَوِيٍّ، فقَطَعَ أطرافه فتركه أشلّ اليدين، أبترَ الرجلين، أعمَى العيني، أصلَم الأذنين؛ أو كمن سلب امرأة حُلِيّها فتركها عاطلاً، أو كالذي سلب الكَمِيّ سلاحه فتركه أعزلّ راجلاً.

وقد حُكي عن الجاحظ أنه صنَّف كتاباً وبوّبه أبواباً، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاءً، فأحضره وقال له: يا هذا إن المصنَّف كالمصوَّر وإني قد صوّرت في تصْنيفي صورة كانت لها عينان فعوَّرْتهَما، أعمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصَلَّمْتَهما، صَلَّمَ الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتَهما، قطع الله يديك، حتى عَدَّ أعضاءَ الصورة، فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار، وتاب إليه عن المعاودة إلى مثله.

وقد أهدى ياقوت معجمه إلى الصاحب الكبير الوزير بن عبد الواحد الشيباني، وفيما يلي نص الأهداء.

ثم أَهديت هذه النّسخة بخطي إلى خزانة مولانا الصاحب الكبير، العالم الجليل الخطير، ذي الفضل البارع، والإفضال الشائع، والمَحْتِدِ الأصيل، والمجد الأثيل، والعزّة القَعْساء، والرتبة الشَّمَّاء، الفائز من المكارم بالقِدْح المعلي، المتقلد من المكارم بالصارم المحلّي، إمام الفُضلاء، وسيّد

الوزراء، السيّد الأجلّ الأعظم، القاضي جمال الدين الأكرم، أبي الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الواحد الشَّيباني ثم التَّيْمي، حَرَسَ الله مجدَه وأَسبغَ ظِلَّهْ وأَهلك نِدَّه ونصر جندهْ وهزم ضده، إذ كنت منذ وُجِدْتُ في حَلٍّ وتَرحال، ومبارزة للزمان ونزال، أَسأَل منه سِلْماً ولا يَزيدني إلا هَضْماً.

فلما قَضَت نفسي، من السَّيْر، ما قَضَتْ، على ما بَلَتْ من شدة وليَانِ

بعد طول مُكابدة حُرْفة الحِرْفة وانتظار تبلُّج ظلام الحظ يوماً من سُدْفة:

عَلِقْتُ بحَبْلٍ من حبال ابن يوسف، أَمِنْتُ به من طارق الحدثانِ

فردّ عني صَرفَ الدهر والمِحَنِ، ورَقَّة خاطري عن معاندة الزمن. لمّا:

تَغَطَّيْتُ، عن دهري، بظلِّ جناحه، فعَيْني ترى دهري، وليس يراني

فأصبحتُ من كنفه في حرزٍ حريز، ومن إحسانه وتكرُّمه في موطن عزيز:

فلو تسأَلُ الأيام عني لما دَرَتْ وأَين مكاني، ما عَرَفْنَ مكاني

ويتحدث ياقوت عن العمارة في العصر العباسي، فيروي قصة بناء الخليفة المتوكل لمدينة الجعفرية فيقول: «عزم جعفر المتوكل على أن يبني مدينة جديدة يتخذها حاضرة له، فوضع أساس مدينة الجعفرية[١] في مكان قريب من سمارا ناحية الشمال وبين قصره الذي سماه الجعفري. وبنى قصراً آخر سماه اللؤلؤه امتاز بارتفاع بنائه وحفر نهراً يأخذ ماءه من دجلة ويصل إلى هذه المدينة عرف باسم (جبة) دجلة، وانفق على شق هذه الترعة مائتي ألف دينار».

ويستطرد فيتكلم عن ما أصاب مدينة سمارا بعد بناء الجعفرية فيقول: ان سامرا كادت تخرب وتخلو من أهلها على أثر انتقال المتوكل إلى الجعفرية ولم تلبث

(١) وتعرف أيضاً باسم (المتوكلية).

هذه المدينة (الجعفرية) أن تخربت على أثر مقتل هذا الخليفة في سنة سبع وأربعين ومائتين، بعد أن هجرها ابنه المنتصر».

ويحدثنا عن حب الخليفة المعتضد بالله للعمارة فيقول: فبنى قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه (قصرالتاج) لم يتم في أيامه فأتمه ابنه المكتفي، وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني. فلما تولى المعتضد سنة تسع وسبعين ومائتين أضاف إليه ما جاوره فوسعه وكبره وأدار عليه سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً واقتطع من البرية قطعة عملها ميدانا. وأخذ في بناء قصر التاج فاتفق خروجه إلى آمد فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار فكرهه وابتنى على ميلين منه قصراً سماه (قصر الثريا). ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي فأتم بناء قصر التاج وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين في خمسة أذرع[1].

ويصف دار الشجرة فيقول: وبنى المقتدر داراً فسيحة ذات بساتين موفقة عرفت بدار الشجرة لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام ايوانها وبين شجر بساتينها، لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضه لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل ثمار. وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة إذا ما مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير. وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً، ومثلها عن يسار البركة قد ألبسوا أنواع الحرير المديح مقلدين بالسيوف وفي أيديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن الناظر إليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه»[2].

وينتقل إلى مصر فيحدثنا عن دار صناعة السفن في عصر الخليفة الفاطمي المعز الدين الله بالمقس بالإضافة إلى الدارين السابقتين بجزيرة الروضة والفسطاط. ويعلل ياقوت السبب في بناء دار الصناعة في المقس، إلى محاولة

---

(١) معجم ياقوت، ج ١ ص ٨٠٦، ٩٢٤.
(٢) معجم ياقوت، ج ٣ ص ٥٢٠.

الروم الاستيلاء على بيت المقدس مما دفع المعز في إنشائها، وفي ذلك يقول: «والمقس صنيعة كانت تعرف باسم أم دينين واقعة على ساحل النيل، وقد جعلها المعز مرفأ صناعياً، وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس «ويستطرد ياقوت فيبين أصل كلمة المقس: وقد عرفت في أول الأمر باسم المكس لإقامة صاحب المكس والعشار بها ثم قلبت (الكاف) قاف فقيل المقس»[1].

وقد أعطى ياقوت تاريخاً دقيقاً مفصلاً عن الجغرافية عند المسلمين مع ذكر الأسباب الداعية إلى اهتمام المسلمين بهذا العلم، التي أوجزها في ثلاثة أسباب، أولها الحج وثانيها الرحلة في طلب العلم وثالثها لزوم معرفة الأماكن والمناطق، فيقول: ولذلك كان أول ما ألفه العرب في الجغرافية من عند أنفسهم ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية. وأول من ألف في ذلك رواه الأدب والشعر كالأصمعي والسكوني ثم ألفوا في بلاد العرب كلها كما فعل الهمداني في جزيرة العرب وأبو الأشعث الكندي في جبال تهامة»[2].

وكان طبيعياً أن يعني ياقوت عناية خاص بالحديث عن المكاتب وخزائن الكتب في العالم الإسلامي ـ التي ارتوى من قبض علمها وكان معجمه أحد ثمارها، فيتكلم عن خزائن بغداد فيقول: ثم أنشأ البغداديون المكاتب في محلة بين السورين في الكرح التي وقفها سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة سنة احدى وثمانين وثلثمائة وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم. احترقت فيما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك أول ملوك السلجوقية سنة سبع وأربعين وأربعمائة»[3] وقد خصص ياقوت الباب الثالث من معجم البلدان في ذكر وتفسير الألفاظ التي يكثر تكرارها وفي حاجة إلى معرفتها كالبريد والفرسخ والميل والكورة وغير ذلك، فيقول مثلاً في البريد: «فأما البريد ففيه خلاف وذهب قوم

(١) المرجع السابق، ج ٣ ص ١٢٢.
(٢) معجم ياقوت، ج ١ ص ٧٩٩.
(٣) معجم ياقوت، ج ١ ص ٧.

إلى أنه بالبادية اثنا عشر ميلاً، وبالشام وخراسان ستة أميال. وقال أبو المنصور: «البريد الرسول وإيراده الرسالة. وقال بعض العرب: الحمى بريد الموت أي أنها رسول الموت تنذر به. والسفر الذي يجوز فيه قصر الصلاة أربعة برد، ثمانية وأربعون ميلا، بالأميال الهاشمية التي في طريق مكة، وقيل لدابة البريد بريد لسيرها في البريد»[1].

«وأما الفرسخ، فقد اختلف فيه أيضاً، فقال قوم فارسي معرب أصله من فرسك، وقال اللغويون الفرسخ عربي محض يقال، انتظرتك فرسخاً من النهار أي طويلاً. وقال الزهري أرى أن الفرسخ أخذ من هذا. وروى ثعلب عن ابن الاعرابي قال: سمي الفرسخ فرسخاً، لأنه إذا مشى صاحبه استراح وجلس، قلت كذا قال: وهذا كلام لا معنى له، والله أعلم».

قالت الحكماء: «استدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة ألف ذراع، فالفرسخ أثنا عشر ألف ذراع».

ويستطرد ياقوت فيفسر كلمة الكورة والمخلاف وغيرها فيقول: «وأما الكورة فقد ذكر حمزة الأصفهاني، الكورة إسم فارسي يقع على قسم من أقسام الأستان وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للأستان، فالكورة والأستان واحد». ويستأنف السرد فيقول: «قلت أنا الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة». وأما المخلاف، فأكثر ما يقع في كلام أهل اليمن، وهو واحد مخاليف اليمن، وهي كورها ولكل مخلاف منها اسم يعرف به، وهو قبيلة من قبائل اليمن أقامت به وعمرته فغلب عليها اسمها. وفي حديث معاذ: من تحول من مخلاف إلى مخلاف فعشرة وصدقته إلى مخلاف عشيرته الأول، إذا حال عليه الحول. وقال أبو عمرو، يقال استعمل فلان على مخاليف الطائف وعلى الأطراف والنواحي. وقال خالد ابن جنبة، في كل بلد مخلاف، بمكة مخلاف والمدينة

(١) ياقوت معجم البلدان، ج ١ ص ٣٥.

والبصرة والكوفة ويفسر معنى الاستان فيقول: الاستان والكورة واحد، وقال شهرستان وطبرستان وخوزستان مأخوذ من الاستان فخفف بحذف الألف. ثم ينقسم الاستان إلى الرساتيق وينقسم الرستاق إلى الطساسيج. وينقسم كل طسوج إلى عدة قرى. مثال ذلك اصطخراستان من أساتين فارس ويزدرستاق من رساتيق اصطخر. وزعم مؤيد الري أن معنى الأستان المأوى ومنه يقال، وهما استان كرفت إذا أصاب موضعاً يأوي إليه.

ويستطرد ياقوت في تفسير الرستاق والطسوج فيقول: «ويعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو أخص من الكورة والاستان. وأما الطسوج فهو أخص وأقل من الكورة والرستاق والاستان، كأنه جزء من أجزاء الكورة. كما أن الطسوج جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدينار. وهي لفظة فارسية أصلها تسو، فعربت بقلب التاء طاء وزيادة الجيم في آخرها وزيد في تعريبها بجمعها على طساسيج[1]».

يحدثنا ياقوت في كتابه إرشاد الأريب على معرفة الأديب» كما يطلق على المستشرقون معجم الأدباء عن أشهر كتاب وأدباء العصر الفاطمي فيقول:

«وقد اشتهر من كتاب الفواطم أبو عبد الله القضاعي المتوفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجرائي في أن يكتب العلامة أو الشارة التي تزيل بها الأوراق، شارة للخلافة، وهي (الحمد لله شكراً لنعمته).

كما تناول بالبحث كاتباً وأديباً آخر من العصر الفاطمي هو ابن منجب الصيرفي الذي تقلد ديوان الرسائل (سنة ٤٩٥ هـ/ سنة ١١٠١ م) في عهد الخليفة الآمر والذي ظل في منصبه إلى (سنة ٥٣٦ هـ/ سنة ١١٤١ م) وكان من

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، ج ١ ص ٣٦ ــ ٣٨.

البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين كذلك، فيقول عنه ياقوت: وقد خلف لنا كتابه «الإشارة إلى من نال الوزارة في عهد الدولة الفاطمية»[1].

كما تناول ترجمة كثير من شعراء العصر الفاطمي الأخير، وذلك نقلاً عن عماد الأصفهاني الذي ترجم له كذلك فقال: ولد أبو عبد الله محمد بن هبة الله الأصفهاني الملقب عماد الدين بأصفهان سنة تسع عشرة وخمسمائة وكان شافعي المذهب، درس الفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وتخرج فيها وأتقن المجادلة وفنون الأدب واتصل بخدمة الوزير عون الدولة بن هبيرة فأحسن إليه وقربه وشمله بعطفه. فلما توفي هذا الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق حيث تقلد إدارة البريد سنة اثنين وخمسين وخمسمائة. وفي سنة سبع وستين وخمسمائة تولى التدريس بدمشق. ولما توفي نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي ذهب عماد الدين إلى الموصل حيث مرض مرضاً شديداً وظل بها حتى سنة وسبعين وخمسمائة، ثم رحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين الايوبي حتى وفاته، فعاد إلى دمشق وعكف على الأدب حتى مات سنة سبع وتسعين وخمسمائة»[2].

□ □ □

(١) ياقوت: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٥ ص ٤٢٢ ــ ٤٢٣.

(٢) ياقوت: إرشاد الأريب، ج ٨ ص ٨١ ــ ٩٠.

أبو حسن
علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك
ابن سعيد المغربي

ولد ابن سعيد (سنة ٦١٠ هـ/ سنة ١٢١٤ م) في قلعة يحصب من أعمال غرناطة، وكان جده لوالده شجاعاً مقداماً، أبدى ولاءه لدولة المرابطين مما أثار غضب وحقد أهل الأندلس عليهم (سنة ٥٦٩ هـ/ سنة ١١٧٣ م) فاضطر إلى الإلتجاء إلى القلعة، ثم انضم تحت راية الموحدين. أما والده أبو موسى، فقد كان عالماً تقياً مولعاً بمطالعة الكتب. وهكذا نرى أنه ينتمي إلى أسرة بني سعيد التي حكمت قلعة يحصب أو قلعة بني سعيد من أعمال غرناطة في القرنين السادس والسابع ويسمى اليوم (Alcala la Real)[1].

وقد تلقى ابن سعيد علومه في مدينة إشبيلية ثم عاد إلى مسقط رأسه. وفي (سنة ٦٣٨ هـ/ سنة ١٢٤٠ م) قرر هو وأبوه السفر لأداء فريضة الحج، فغادر الأندلس وهو في الثلاثين من عمره وارتحل إلى المشرق حيث أدى فريضة الحج وطاف بأنحاء العراق والشام ومصر وتونس.

ولكن والده توفي في طريقهما للعودة إلى أرض الوطن بمدينة الإسكندرية (سنة ٦٤٠ هـ/ سنة ١٢٤٢ م). ويواصل ابن سعيد سيره إلى القاهرة فيقيم فيها مدة ثم يقصد حلب ومنها إلى الحجاز (سنة ٦٥٢ هـ/ سنة ١٢٥٤ م). ثم يرجع قافلاً إلى بلاده لكنه يزور تونس ويقيم بها مدة عشر سنوات في بلاط المستنصر الحفصي. ثم يبارح تونس ويعود مرة أخرى إلى الشرق متجهاً إلى أرمينيا

(١) احمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣١.

فوصلها (سنة ٦٦٦ هـ/ سنة ١٢٦٧ م) حيث التقى بهولاكو. وقد التقى في رحلاته تلك بكثير من أمراء المسلمين وعلمائهم، وكانت وفاته بدمشق (سنة ٦٨٥ هـ/ سنة ١٢٨٦ م)، وإن قيل أنه توفي بتونس.

وقد سجل ابن سعيد أخبار وحوادث رحلاته فيما ألّف من كتب التاريخ، التي ما يزال الكثير منها مخطوطاً حتى الآن، ولا سيما كتابه «المغرب في حلى المغرب» الذي كان قد بدأه أبوه وجده من قبله. على أن كتاب «المغرب في حلى المغرب» قد ضاع معظمه ولم يبق منه سوى أجزاء بسيطة تضمنت تراجم لبعض الشخصيات البارزة في الأندلس ابتداء من العصر الأموي حتى نهاية عصر الموحدين. وقد نشر العالم الإسباني جارثيا جـومث [1] جزءاً من هذا الكتاب تناول فيه الكلام عن بعض شعراء الأندلس من القرن العاشر إلى الثالث عشر بعنوان (رايات المبرزين)، وكان ابن سعيد قد أهداها إلى والي القاهرة موسى بن يغمور في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب وابنه تورنشـاة وقد نشره زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيده إسماعيل كاشف بالقاهرة سنة ١٩٥٣. كما قام الدكتور شوقي ضيف بنشر بعض أجزاء من (المغرب في حلى المغرب)، تقع في جزئين من زخائر العرب بنفس العنوان (المغرب في حلى المغرب).

ومن المؤلفات التي حققت ونشرت كتاب (مختصر جغرافيا) الذي اقتبس منه أبو الفداء معلومات كثيرة، وقد حققه ونشره وقدّم له وعلّق عليه اسماعيل العربي في بيروت سنة ١٩٧٠. كذلك حفظت لنا كثير من المصادر التاريخية أجزاء عديدة من (كتاب المغرب في حلى المغرب) أمثال تقي الدين المقريزي في خططه وابن خلدون في تاريخه وأحمد المقري في كتابه (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) وخاصة في الجزء الأول منه التي احتوى على فقرات طويلة من كتاب ابن سعيد[2].

وقد قسّم ابن سعيد العالم إلى أقاليم في كتابه «بسط الأرض في الطول والعرض»، وقد أدخل ابن سعيد مصر في نطاق المغرب الإسلامي فخصها

(١) G. Gomerth: Las panderas de las Campeones

(٢) أحمد مختار العبادى ص ٣٣٢.

بنصيب كبير في تاريخه. من ذلك ما نقله المقري في كتابه (نفح الطيب) في وصف القاهرة والفسطاط، إذ يقول المقري: «قال ابن سعيد: ولما استقررت بالقاهرة تشوقّت إلى معاينة الفسطاط، فسار معي إليها أحد أصحاب القرية فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط حملة عظيمة لا عهد لي بمثلها. فركب منها حماراً وأشار إلي أن أركب حماراً آخر فأنفت من ذلك على عادة من أخلفته في بلاد المغرب فأخبرني أنه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت».

ثم يستطرد في الوصف فيقول: ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرّة، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة، ودخلت منه وهو دون غلق، يفضي إلى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع، وقد بنيت من الطوب الداكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود.

ثم سرت حتى صرت في أسواقها الضيقة، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تفي به إلاّ مشاهداته ومقاساته إلى أن انتهت إلى المسجد الجامع». ويأخذ ابن سعيد في وصف جامع الفسطاط وما كان عليه من الخراب في ذلك الوقت، إذ لم تجر عليه يد الترميم أو التعمير منذ إحراق الفسطاط أيام الفتنة بين شاور وضرغام في آخر أيام الدولة الفاطمية، وكان السبب في حرقها خشية إستيلاء الفرنجة عليها.

وفي وصف القاهرة يقول: «والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين بين القصرين، ولو كانت القاهرة كلها كذلك لكانت عظيمة القدر» ويسترسل في الوصف فيقول: «ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء وهو في موكب جليل، وقد لقي في طريقه عجلة بقر (عربة) تحمل حجارة، وقد سوّت جميع الطرق بين الدكاكين، ووقف الوزير وعظم الازدحام، وكان في موضع طباخين،

والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه، وكاد يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم»[1].

وقد خصص ابن سعيد فصلاً كاملاً عن الفاطميين وكيفية نشر دعوتهم الإسماعيلية، ولما كان الفاطميون حريصون على نشر الدعوة بسرعة، فقد كان للخلفاء نصيب كبير في هذه العملية وفي ذلك يقول ابن سعيد: وفي مصر كان الفاطميون يرسلون إليها مع جيوشهم دعاة لنشر مذهبهم فيها، فكانوا يندمجون في المصريين ويلقنونهم عقائد هذا المذهب الذي اعتنقه كثير من المصريين. وكان للخلفاء الفاطميين نصيب كبير في نشر هذه الدعوة، فقد أرسل الخليفة القائم إلى محمد بن طغج الأخشيد رسالة يدعوه إلى قبول دعوته والدخول في طاعته»[2].

ومما يذكر لابن سعيد بالفضل هو حرصه على نقل الكثير من الرحلات والأسفار التي قام بها الرحالة المشهور ابن فاطمة الذي قام برحلات بحرية طويلة في غرب أفريقية جنوبي مراكش. وقد جاء في أخباره، أن السفينة التي كان يستقلها قد غرقت عند الرأس الأبيض (ساحل الذهب الآن)، بعد أن توغّل في كشف الساحل الافريقي الغربي إلى أبعد مما كان معروفاً عند الأوروبيين حينذاك[3]. والواقع أن شيئاً من آثار ابن فاطمة لم يصل إلينا ما خلا الذي نقله عنه ابن سعيد وأشار إليه في أكثر من موضع.

لقد قسم ابن سعيد العالم إلى سبعة أقاليم، ويحدثنا عن الإقليم الرابع نقلاً عن ابن فاطمة فيقول: «قال ابن فاطمة، هو عندهم أعدل الأقاليم وأحسنها حيواناً ونباتاً والكلام في تفضيله يطول وهو أوسط الأقاليم السبعة وخير الأمور أوساطها وسكانه بين البياض والحمرة والصفرة. ولما كان الإقليم الثالث في

---

(١) ابن سعيد: المغرب ص ٤٧ ــ ٤٩.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦ ــ ٢٧.

(٣) Ch. de la Roncière: La Dècourverte de l'Afrique an Moyen Age, Vol. I, p. 23-48-49.
(عن زكي حسن: الرحالة ص ١٢٣).

جنوبيه والإقليم الخامس في شماليه حكم لهما بقرب الاعتدال ولاحت فيهما مشابه من الرابع».

«ويقع فيه من جزائر السعادات الأربع التي رسمت ويصعد البحر المحيط في ساحله إلى حيث الطول (٦) درجات و(٣٠) دقيقة فيقع هنالك مازنغان وهي فرضة مشهورة تحمل منها القمح إلى سبته وغيرها وبينها وبين أسفي[١] (٥٠) ميلاً ولها طرف يدخل في البحر (١٢) ميلاً وفي شمالها يصب نهر أم ربيع تدخله المراكب المتوسطة، وعلى جنوبيها مدينة أزمور على ميلين من البحر وسكانها أكثرهم صنهاجة وهي قاعدة لولاتها وبينها وبين طرف أمازيغان (١٢) ميلاً وفي شمالي هذا النهر على (٥٠) ميلاً من فرض تامسنا المشهورة بالفتح ومعظم سكانها برغواطة». ويستطرد في الوصف فيقول: «وفي شمالها (٦٠) ميلاً مصب نهر سلا وحلقة صعب على مدخل المراكب[٢]، وعلى جانبه الجنوبي عند المصب رباط الفتح[٣]، وفي مقابلتها على شمالي النهر مدينة سلا، وفي شمالها مصب نهر المعمورة وهو من أنهار المغرب المخصوص بالحوت الطيّب المعروف عندهم بالشايل الذي يكون في اختلاط الماء المالح بالحلو ويحمل من هناك إلى الأقطار»[٤].

ثم ينتقل ابن سعيد إلى وصف الإقليم الثالث فيقول: «وأول ما يلقاك منه جزيرة جربة في شرقي قابس بينها وبين البر مجاز ضيق وبين هذا المجاز وقابس

---

(١) أسفي: فرضة مراكش.

(٢) لا يستطيع الاهتداء إلى مسالك نهر سلا غير قوم يعرفون بوقاصة وينسبون إلى سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(عن نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات ص ٨١).

(٣) رباط الفتح: أختط يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدينة الرباط ورسم حدودها وبدأ بناءها قبل وفاته، فلما ولي ابنه يعقوب المنصور شرع في إتمام بنائها. وأقام في وسطها مسجداً عظيمًا متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منار الإسكندرية، يصعد إليها بغير درج وتسمى الامنارة حسان. وتم بناء المدينة (سنة ٥٩٣/ سنة ١١٩٦) وذلك على أثر انتصاره في موقعة الأرك. (المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٦٦).

(٤) ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض ص ٧١.

مرحلة[1]. والجزيرة مرحلة وسكانها خوارج في شماليها جزيرة انبذو شبه خالية تأوي إليها المراكب ويسقى منها الماء وفي شماليها تقع صقلية. ومن شرقي جربة وجنوبيها يقهقر البحر إلى الشمال حتى تكون مدينة طرابلس. وفي شرقيها على مرحلتين جبل نفوسة المتصل بجبل دمر وما يتصل به من الجبال إلى جبل درن. ومنه تمتاز طرابلس أنواعاً من الخيرات حتى الخضر والفاكهة وفيه الزيتون والتمر والتين والزبيب». ويستطرد في الوصف إلى قوله: «وعلى الجملة فإذا فارقت طرابلس مشرقاً لا تلقى مدينة فيها حمام ولا حبار إلى أن تتصل إلى الإسكندرية وفي آخر صعود البحر إلى الجنوب يكون قصر أحمد».

ويصف مدينة طبرق وبرقة فيقول: «وهي كانت قاعدة البلاد في أيام الروم وكانت البلاد تعرف بانطابلس فسمّتها العرب برقة لما رأتها كثيرة الحجارة المختلطة بالرمل. ولطبرق مرسي قل أن يكون له نظير على هذا البحر ما للرياح عليه سبيل كأنه حوض منقور في حجر وبقايا أسوار هذه المدينة تدل على قديمها وفي وجهتها المجرى المعروف بالطنان وفي شرقي ذلك من القصور المشهورة عند العرب، وفي شرقيها العقبة الكبيرة وهي أول حد الديار المصرية»[2].

وينتقل بنا إلى بلاد الروم فيتحدث عن ملطية فيقول: «ملطية بلدة من بلاد الروم ذات أشجار وفواكه وأنهار ويحتف بها جبال كثيرة الجوز وجميل الثمار مباحة لا مالك بها، وهي قاعدة الثغور وهي شمالي الجبل الدائر الذي سيس في غربية، وهي بلدة مسوّرة في بسيط والجبال تحف بها من بعد. ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقيها ويمر بسور البلد، وهي شديدة البرد وهي في الجنوب عن سيواس، ولملطية أيضاً قُني تدخل البلد وتجري في دوره وسككه والجبال محيطة بها على بعد منها»[3].

وكان جديراً بابن سعيد أن يحرص على التحدث عن مراكش فيقول: «مراكش من المغرب الأقصى محدثة بناها يوسف بن تاشفين في أرض صحراوية

---

(١) المرحلة تساوي بريدين أي (٢٤) ميلاً.
(٢) ابن سعيد ص ٧٩.
(٣) المرجع السابق ص ٢١٢.

وجلب إليها المياه وأكثر الناس فيها البساتين فكثر وخمها. ولا يكاد الغريب يسلم فيها من الحمى. وجنوبي مملكة مراكش جبل درن وشماليها مملكة سلا وغربيها البحر المحيط. وشرقيها الجهات التي بين سجلماسة وفاس ودور مراكش سبعة أميال ولها سبعة عشر باباً، وحرّها شديد وهي في شمالي أغمات بميله يسيره إلى الغرب وبينهما نحو خمسة عشرة ميلاً»[1].

ويحدثنا ابن سعيد عن مدينة الموصل وعن تقدم الفنون والصناعات بها في العصر السلجوقي وذلك عند تسجيله لأحداث رحلته إلى الجزيرة والعراق والموصل (سنة ٦٤٨ هـ/ سنة ١٢٥٠ م) فيقول: «إن مدينة الموصل كانت فيها صنايع جمة لا سيما أواني النحاس المطعم (المكفت) التي كان يحمل منها إلى الملوك»[2].

□ □ □

---

(١) ابن سعيد ص ٢٣١.

(٢) المرجع السابق ص ٤١٢.

عماد الدين
اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن أيوب
المعروف «أبو الفداء»

ولد أبو الفداء بدمشق (سنة ٦٧٢/ سنة ١٢٧٣ م) حيث استقر أهله بعد فرارهم من وجه المغول[١]. وكان جده أميراً على حلب، وقد استعادت أسرته مجدها في عصر الناصر محمد بن قلاوون الذي عين «أبو الفداء حاكمًا (سنة ٧١٠ هـ/ سنة ١٣١٢) ثم صار ملكا (سنة ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م) وانتهى الأمر بتنصيبه سلطاناً لمملكة حماة ولقب بالملك المؤيد (سنة ٧٢٠ هـ/ سنة ١٣٢٠ م).

وقد شارك أبو الفداء منذ نعومة أظفاره في محاربة الصليبيين[٢]، فقد شارك وهو في الحادية عشرة من عمره في احدى التجريدات مع والده وعمه أمير حماة وذلك (سنة ٦٨٤ هـ/ سنة ١٢٨٦ م). وقد ساعده الاشتراك في الحروب في تلك السن الصغيرة على التمرس في فنون القتال، الاقبال على المساهمة في كثير من التجريدات الحربية[٣]، حتى إذا ما تولى السلطان الناصر محمد (سنة ٦٣٩ هـ/ سنة ١٢٩٣ م) لم يترك أبو الفداء حملة من الحملات الشامية التي خرجت لمحاربة كل من الروم أو المغول إلا اشترك فيها[٤].

وانتماء «أبو الفداء» إلى الأسرة الحاكمة في مدينة حماه، كما كان هو أميراً وأحد ورثة الأسرة الأيوبية أهله للانخراط في طبقة المثقفين والتمرس على أيدي

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية، ج ٢، ص ٢٩٤.

(٢) Ginn (H.A.R): Islamic Biographical Literature, Historians of The Middle East I P. 118 (éd Bernad Lewis et Holl, London 1962).

(٣) أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، ص ٥٥.

(٤) أبو الفداء: مختصر تاريخ البشر، ج ٤ ص ٤١ ــ ٤٨، (القاهرة سنة ١٩٠٧).

كبار المؤرخين. هذا فضلاً عن كثرة رحلاته، ذلك أن عزلته في حماه لم تدم طويلاً، إذ لم يكد يعين حاكمًا على مدينة حماه في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى كثر تردده على الديار المصرية منذ (سنة ٧١٢ هـ/ سنة ١٣١٢ م) فقد كان يحضر إليها مرتين أو ثلاث مرات سنوياً على فترات متقطعة محملاً بالهدايا للسلطان. كما كان يصاحب السلطان في رحلاته للصيد والقنص فقد خرج معه مرتين مرافقاً له في تلك الرياضة التي كان يجيدها أبو الفداء. كما سافر مع الناصر محمد لتأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام[١].

وكان الملك المؤيد اسماعيل أبو الفداء صاحب حماه عالماً فقيهاً مؤرخاً وجغرافياً وفلكياً. كان كثير الاحسان على العلماء، فقد أوى إليه أثير الدين الأبهري، فرتب له ما يكفيه ورتب لجمال الدين ابن نباته في دمشق كل سنة ستمائة درهم غير ما يتحفه به. وبفضل أبي الفداء وفضل أسرته من قبل أصبحت حماه مدينة العلم والأدب بعد أن كانت أشبه بالقرون الوسطى[٢]. وما تزال آثار أسرة أبو الفداء في حماه تشهد بفضلها، مسجدها الجامع المعروف باسم جامع الدهشة أو جامع الحيات، ولا يزال الجامع يحتفظ بالكثير من فسيفسائه الذهبية والمتعددة الألوان. كما لا يزال يحتفظ بلوحته التأسيسية التي جاء فيها: أمر بعمل هذا الجامع المبارك السلطان الملك المؤيد عماد الدنيا والدين اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين ابن الملك الظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب في شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائه[٣].

وقد هيأت نشأة «أبو الفداء» وثقافته وكثرة رحلاته أن يكون من أئمة كتاب عصر المماليك الذين استطاعوا أن يسجلوا لنا كل ما دار في عصرهم من أحداث سياسية وعمرانية في الشام ومصر بل والأقاليم المنعزلة التي ضمنها كتابه المعروف باسم «المختصر في أخبار البشر». وتؤكد أخبار وتواريخ كتابه

(١) المرجع السابق، ج ٤ ص ٧٩ ـ ٨٥ ـ ٩٧.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤ ص ٣٥٢؛ خطط الشام ج ٤ ص ٥١ لكرد علي.
(٣) يوسف بن عبد الهادي: ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ص ٢٨.

«المختصر» أن «أبو الفداء» قد عاش جميع أحداث عصره، هذا فضلاً عن صلته الوثيقة بالسلطان الناصر محمد قد مكنته دون شك من الاطلاع على القضايا الدقيقة المتعلقة بسياسة الدولة المملوكية. ومن ثم فهو لم يفرض نفسه على التاريخ ولم يتعب في جمع أحداثه كما فعل المؤرخ بين الدواداري ولكنه يشبه إلى حد كبير المؤرخ بيبرس الدوادار الذي كان له فضل كبير في تسجيل أحداث العصر المملوكي وإن كان ينقصه جودة الأسلوب والسرد الممتع الذي امتاز به «أبو الفداء»[1].

ويعتبر «تاريخ أبي الفداء»، كما كان يعرف كتابه المختصر في تاريخ البشر» تكملة لتاريخ ابن الأثير[2] المتوفى (سنة ٦٣٢ هـ/ سنة ١٢٣٤ م). فقد أخذ كتابه الكامل فلخصه وأدخل فيه كثيراً من أخبار الأدباء والعلماء وتوسع في أخبار عرب الجاهلية وأبقاه على حوادث السنين فجاء في ثلاثة مجلدات.

وجاء بعد «أبو الفداء» عمر بن الوردي المتوفي سنة ٧٤٩ هـ فاختصر تاريخ أبي الفداء.

كما عني عناية خاصة بتراجم الوفيات مع حرصه على ذكر فضل أولئك الذين ثقفوه أو عاونوه على تفهم المصادر القديمة، أمثال ابن واصل المتوفي (سنة ٦٩٧ هـ/ سنة١٢٩٨م) فقد ترجم له فقال: «ولقد ترددت إليه بحماه مرات كثيرة وكنت أعرض عليه ما أحله من أشكال كتاب اقليدس واستفيد منه وكذلك قرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب في العروض فإن جمال الدين صنف لهذه المنظومة شرحاً حسناً مطولاً فقرأته عليه وصححت أسماء من له ترجمة في كتاب الأغاني»[3].

كما استفاد أبو الفداء من رحلاته الكثيرة فألف مصنفاً في الجغرافيا هو «تقويم البلدان» لا يقل خطراً وشأناً عن مؤلفه التاريخي، والذي من أجله

---

(١) Little (Donald): An Introduction to Mamluk Historiography p. 42 (Wies Baden 1970).

(٢) أحمد رمضان أحمد: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص ٩٦ ــ ٩٧.

(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج ٤ ص ٣٩.

اعتبر أبو الفداء أعظم مؤرخ جغرافي في ذلك العصر على اختلاف الأوطان والأديان كما يقول سارتون[1]. وقد اعتمد أبو الفداء في تأليفه كتابه «تقويم البلدان على بطليموس والبروني وخاصة ابن سعيد المغربي، إلا أن كتابه حاز شهرة عظيمة فاقت كل كتب الجغرافيا الرياضية التي سبقته مع أنه لم يكن من المجددين إنما حاول أن يضبط موقع أهم مدن العالم وذلك من حيث الطول والعرض. وقد قسم كتابه إلى جزئين، مقدمة جغرافية رياضية ثم قسم الجزء الأول إلى قسمين، تناول في أوله معلومات عامة عن البلاد المشار إليها والقسم الثاني يحتوي على جدول بأسماء الأماكن والمصادر والطول والعرض واسم الاقليم الحقيقي والإسم العرفي وخلاصة وصفية للمكان. وقد ترجمت من هذا الكتاب نبذ ترجمت إلى اللغات الاوروبية منذ القرن السابع عشر. كما نشره كاملاً لأول مرة رينو وكذا سلين (Renaud et de Slane) في باريس سنة ١٨٤٨.

ويحدثنا أبو الفداء حديث المطلع على بواطن الأمور فيما يختص بالحروب الصليبية ونور الدين زنكي فيقول[2]: «وانتقلت الزعامة من عماد الدين إلى ابنه نور الدين محمود الذي انتزع دمشق من أحد خلفاء طغتكين سنة احدى وخمسين وخمسمائة. أما عن المدن التي كانت للاسماعيلية، صرخد وبصرى وبانياس وغيرها من المدن الواقعة في منطقة دمشق فربما عمدت أحياناً إلى التماس العون من الفرنجة لمواصلة كفاحها ضد المسلمين الآخرين. أما بنو فضل المنحدرين من طي وهم أوسع القبائل انتشاراً في بادية الشام، فإننا نجدهم يحالفون الصليبيين تارة والفواطم تارة أخرى».

وتناول في شيء من التفصيل الحديث عن العرب والبيوت الحاكمة في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية كبنى مرداس في حلب وبني عمار في طرابلس وبني منقذ في شيزر فيقول: «وكانت أقدم الامارات، إمارة بني مرداس في حلب. وينسب بنو مرداس إلى بني كلاب وهم بطن من ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن حفصة بن قيس، فهم

---

(١) Sarton: Vol. III p. 308.

(٢) أبو الفداء: المختصر، ج ٣ ص ٢ ـ ٣.

من العرب المضرية». ويتكلم عن بني عمار فيقول: وقد استغل أبو طالب بن عمار هذه الظروف (ضعف الدولة الفاطمية) وكون إمارة بطرابلس وتلقب بأمين الدولة وكان رجلاً ذكياً وفقيهاً شيعياً» ويستطرد في سرد تاريخ الامارات العربية والأحداث التي دارت بينها وبين الصليبيين فيقول عن بني منقذ في شيزر: وتعرضت شيرز لهجمات الامارتين الصليبيتين انطاكية وطرابلس ومكان زعيم السلاجقة السلطان محمد بن ملكشاه وكانت العساكر يقودها شرف الدين مودود وآقسنقر البرسفي وبرسق بن برسق. ولم تسلم شيزر من جماعة الباطنية فدبروا مؤامرة للاستيلاء على المدينة إلا أن المؤامرة باءت بالفشل»[1].

وينتقل للحديث عن الآثار التي تزخر بها بلاد الشام، فيعدد عمائر مدينة حلب وبعلبك وقصور الأمويين وغيرهم من أمراء الشام وعليه القوم فيقول عن حلب: وتعرف حلب بالشهباء والبيضاء وذلك لبياض أرضها لأن غالب أرضها من الحجارة الحوارة وترابها يقرب إلى البياض وإذا أشرف عليها إنسان ظهرت له بيضاء.

ومبلغ ما هو موجود بداخل حلب ثمانية ومائتين مسجد، وعدد ما هو موجود بين أبوابها أربعة عشر مسجداً، ومبلغ ما هو كائن بأرباض حلب خمسة عشر وعدد مساجد الحاضر السليماني مائة وعشرة. ومساجد الرابية وجور حفال من ضواحي حلب فبلغ مائة وثمانية وستين مسجداً، ومساجد باب انطاكية ومساجد المضيق ومساجد التي بالظاهرية والرمادة وبانقوسا والهزازة فقد بلغ عددها ثمانية وخمسين ومائة»[2].

ويصف أبو الفداء العمائر المدنية في بلاد الشام فيقول: وممن اشتهر في البناء وتشييد العمائر ابن واصل، فقد قام ببناء عدة من الدور والقصور وغيرها في حماة». كما تحدث عن دار الملك ودار رضوان بحلب التي قال عنها

---

(١) أبو الفداء: المختصر، ج ١ ص ١١٢.
(٢) أبو الفداء: المختصر، ج ٢ ص ٢١٧.
(٣) المرجع السابق: ج ٨ ص ٩٣.

أبو الفداء: «أنها تشبه في تخطيطها قصور الأمويين مثل قصر خرانة وقصر مشتى وقصر الطوبة وقصر خربة المفجر وقصر الحير الشرقي وقصر الحير الغربي»[١].

وقد تعرض أبو الفداء في سرد تاريخ بلاد الشام إلى الحديث عن بعض الجوانب الاجتماعية وكيف كان أهل الشام رغم ما يعانون من ويلات الحروب مع الصليبيين، إلا أن ولعهم بالموسيقى والغناء لم يغادرهم أبداً ففي ذلك يقول: «ومن مغنيات العسكر، المغنية المعروفة بالحضرمية وهي كما يقول ابن الساعي[٢]، كانت من عرب (آل مرا) يوم وافوا دمشق لحرب التتار في زهاء أربعة آلاف فارس فكانت تغنيهم من الهودج سافرة وكانوا يرقصون بتراقص السهارى»[٣].

وقد ضمَّن تاريخه الكثير من الموضوعات الهامة التي تحدثنا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمسلمين، فيتكلم مثلاً عن تحويل أكثر البلاد إلى ضياع في العصر العباسي فيقول: «فلما كثرت الأموال في أيام عمر ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال وحرَّم على المسلمين اقتناء «الضياع والزراعة والمزارعة»[٤]، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حتى إلى عبيدهم ومواليهم. أراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل لا يمنعهم انتظار الزرع ولا يقعدهم الترف والقصف، فإذا أسلم أحد من أهل الذمة، سكان البلاد الأصليين صار ما كان في يده من الأرض وداره إلى أصحابه من أهل قريته تفرّق فيهم وهو يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها ويسلمون إليه ماله ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين».

ويستطرد في سرد تاريخ هذا الموضوع الهام، وهو ما آلت إليه الضياع، إذ لم يطل العمل بالقواعد السابقة، إذ اختزن الناس المال والضياع في عهد بني

(١) المرجع السابق، ج ٢ ص ١٧٨.
(٢) ابن الساعي: مختصر أخبار الخلفاء، ص ٥٧.
(٣) أبو الفداء: المختصر، ج ٢ ص ٧٣.
(٤) المقريزي: الخطط والآثار، ج ٢ ص ٢٥٩.

أمية، حتى أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، وأمر باسترجاع الضياع المغتصبة إلى أهلها من النصارى أو اليهود أو المجوس. . أما خلفاء العباسيين في أوائل دولتهم بذلوا الجهد في انصاف الناس، فلم يغتصبوا ضيعة ولا مالاً لكن بعض الذين دخلوا في خدمتهم أو انتموا إليهم كانوا يمدون أيديهم إلى ضياع الناس، وكان الخلفاء ينصفون أصحاب الضياع إذا تظلموا ويردون ضياعهم إليهم. على أن ذلك لم يقلل من مطامع أهل الدولة في أموال الناس، فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع، التي تقبض على هذه الصورة تصير إلى الخليفة أو الدولة فآل ذلك إلى استكثار الخلفاء أنفسهم من الضياع. على أن أكثر ما يكون اقتناء الضياع لحاشية الخليفة وأهله. ويقص علينا أبو الفداء قصة تبين مقدار ما صار من هذه الضياع لدى حاشية الخليفة ووزرائه فيقول: «ومن هذا القبيل ما فعله الحسن بن سهل لما زفت ابنته بوران إلى المأمون فإنه كتب ضياعه في رقاع اسم كل ضيعة في رقعة ونثرها على القواد فمن وقع له رقعة أخذ الضيعة المسماة فيها»[١].

ويكمل تاريخ الضياع فيقول: «وكانت الضياع بالأجمال مسمين الضياع العامة وهي ضياع رجال الدولة وأرباب الثروة من الأهلين وغيرهم والضياع السلطانية وهذه أقسام، الضياع الخاصة وهي ما يملكه الخليفة نفسه ولا يشاركه فيه أحد. وقد رأيت خراج هذه الضياع في جريدة علي بن عيسى (٥١٦,٤٤٧) ديناراً. والضياع العباسية وهي الغالب لبني العباس أهل الخليفة وقد بلغ عددهم في أيام المأمون (٣٣,٠٠٠) نفس، وبلغ خراج تلك الضياع سنة ست وثلثمائة (١٤٤,٧٦٠) ديناراً سوى ما هو منها في واسط. والضياع المستحدثة قد رأيت خراجها في تلك السنة (٢٨٩,٠٣٦) ديناراً. والضياع الفراتية وسميت بذلك لأنها واقعة على ضفاف الفرات وخراجها ذلك العام (٦١٧,١٢٦) ديناراً»[٢].

---

(١) أبو الفداء: المختصر، ج ٢ ص ٣١.
(٢) أبو الفداء: المختصر، ج ٢ ص ٢٤.

ويتكلم عن الآداب الفارسية وعن نشأة مدينة ومدرسة جنديسابور فيقول: «على أن الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الأشعار والأخبار وكتب العقائد والأديان إلى أيام سابور بن أردشير، وفي أيامه ظهرت طائفة المانوية وانتشبت بين سابور والروم حروب انتهت بنصرته وحمل عدداً من أسراهم إلى بلاده وأنشأ لهم في الأهوار مدينة سماها (جنديسابور) فحببوا إليه العلم فعمل على استرجاع علوم الفرس من اليونان، فبعث إلى بلاد اليونان استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى الفارسية»[1].

ويحدثنا عن اعتناق المأمون مذهب الاعتزال فيقول: «فلما تظاهر المأمون بالاعتزال وقال بخلق القرآن قامت الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم أكثر عدداً ولم يعد في وسعه الرجوع عن قوله فعمل على تأييده بالبرهان وجعل يعقد المجالس للمناظرة في هذا الموضوع. وعمل على نقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية وأطلع عليها فقويت حجته وازداد تمسكاً بالاعتزال. ولما يئس من إقناع الناس بالبرهان والقياس عمد إلى العنف، باشر في العام الأخير من حكمه وهو خارج بغداد فكتب إلى عامله فيها اسحق بن ابراهيم أن يمتحن القضاة والشهود وجميع أهل العلم بالقرآن فمن أقرَّ أنه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى فليعلمه به»[2].

ويحدثنا عن حروب الصلبيين حديث العارف ببواطن الأمور فيقول عن الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٦/ سنة ١٢٤٨ ووصولها إلى دمياط (سنة ٦٤٧ هـ/ سنة ١٢٤٩ م) فيقول: وسرعان ما دب الرعب في قلوب أهل دمياط، فتركوا مدينتهم، بعد أن أشعلوا النار في سوق المدينة، بل أن بعض عرب كنانة الذين عهد إليهم الصالح نجم الدين أيوب الدفاع عن المدينة ولوا الأدبار أيضاً، وتركوا أبواب المدينة مفتحة، وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل»[3].

---

(١) المرجع السابق، ج ١ ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق، ج ٢ ص ٣٣.

(٣) أبو الفداء: حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

ويتحدث في شيء من الاعتزاز والافتخار عن خروج الصليبيين من عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون، فيقول: «وقد واجه السلطان الرسل قائلاً: ألم تحضروا مفاتيح المدينة معكم» ولم يكتف بهذا بل وعد الفرنجة إذا سلموا دون قتال أن يأمن خروجهم جميعاً من عكا ومعهم أموالهم. وركز المسلمون هجماتهم على القلعة التي كان يدافع عنها ملك الفرنجة) (هنري الثاني) فانهارت وتسلمها المماليك. واستطاعت قوات السلطان اقتحام المدينة رغم المقاومة العنيدة التي أبداها مقدم الراوية وقائد الاسبتارية حتى خر كلاهما قتيلاً في المعركة، وكانت السفن الباقية في عكا قليلة، فغرق معظمها لكثرة من ركبها من طلاب النجاة. أما باقي الفرنجة فقد وقعوا أسرى في يد المسلمين في سنة تسعين وستمائة»[1] (سنة **١٢٩٢ م**).

ومن أهم مؤلفات «أبو الفداء» كتاب «تقويم البلدان» الذي سجل فيه بدقة ما شاهده في رحلاته وأضاف عليها مشاهدات من سبقه من الرحالة الجغرافيين، فمن ذلك وصفه لمدينة باريس نقلاً عن ابن سعيد إذ يقول: «قال ابن سعيد، وعلى ساحل البحر المحيط في الاقليم السابع بلاد بيطو وسكانها الفرنج ومنها تجتاز الملوك لأفرنسة إذا عدموا في أفرنسة عادة متوالية لهم. وفي شمالي بيطو مصب نهر بريس. وفي وسط هذا النهر وجانبيه مدينة بريس قاعدة أفرنسة، وهي ثلث قطع كما هي مدينة الباب فالوسطى التي هي الجزيرة لفرنسيس سلطان الفرنج والجنوبية للجند والشمالية لسائر قوامهم وتجارهم ورعيتهم» ويستطرد في وصف نهر بيطو فيقول: «وهذا النهر ينزل من جبل دنيوس الكبير يقال له في الشمال جبل مليحة، ومن شرقيه منبع نهر دبنيوس الذي يقال أنه أكبر من النيل ومن جيحون. وهو مشهور بنهر دونا ويسميه الترك طنا، وعلى جانبيه وفي جزره إلى مصبه في بحر القسطنطينية من المدن والعمائر الكثيرة إلا أنها معجمة الأسماء خاملة الذكر عندنا»[2].

وينتقل إلى شمالي افريقية فيتحدث عن برقة: «وأرض برقة أرض واحدة ومياهها قليلة ومنها إلى مدينة زلّة عشر مراحل غرباً. وزلّة مدينة صغيرة ذات

---

(١) أبو الفداء: حوادث سنة ٦٩٠ هـ.

(٢) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٩٢ ــ ٢٩٧.

سوق عامر وهي حصن منيع، ومن زلّة يدخل إلى بلاد السودان أيضاً ومن زلّة إلى مدينة زويلة عشرة أيام في جهة الغرب والجنوب ومن زلَّة إلى سرت تسعة أيام ومن سرت إلى ودّان خمس مراحل وودّان هذا ناحية في جنوب سرت وهي قطران بينهما رمية سهم والقصر الذي يلي البحر خال والذي يلي البرية مسكون، ولها آبار كثيرة يزرعون بها الذرة وبغربيها غابات وبها توت وتين ونخيل»[١].

وينتقل إلى غرب برقة فيقول عن مدينة بجاية: وهي قاعدة المغرب الأوسط ولها نهر على شاطئه البساتين والمنازه في شرقي بجاية ويقابل بجاية من الأندلس طرطوشة وعرض البحر بينهما ثلاث مجار[٢]. وغربي بجاية جزائر بني مزغنان وهي فرضة مشهورة من عمل بجاية. وفي آخر حد مملكة بجاية وشرقي قسطينة مرسى الخرز المحصوص بالمرجان وأمام هذا المرسى جزيرة سردانية»[٣].

ويذهب إلى أقصى الساحل الغربي لأفريقية فيصف طنجة من الأقليم الرابع، ومدينة طنجة على فم بحر الزقاق، واتساع البحر عندها ثلث مجرى، فإذا شرَّق عنها اتسع عن ذلك، وهي مدينة أولية وقد استحدث أهلها لهم مدينة على ميل منها على ظهر جبل ليمتنعوا بها. وماء طنجة مجلوب من قني إليها من بعد. وأضيق ما يكون البحر من طنجة إلى سبته وقدره ثمانية عشر ميلاً. وهناك موضع يقال له قصر المجاز، ومن طنجة إلى قصر المجاز مرحلة لطيفة ومن قصر المجاز إلى سبتة كذلك»[٤].

ويدخل بنا إلى داخل المغرب الأقصى في أواخر الأقليم الثالث ويتحدث عن مدينة فاس «وفاس مدينتان يشق بينهما نهر، وفي فاس عدة عيون تجري وللمدينتين ثلاثة عشر باباً والمياه تجري بأسواقها وديارها وحماماتها وليس بالمغرب ولا بالمشرق مثلها في هذا الشأن، وهي مدينة محدثة إسلامية».

---

(١) أبو الفداء: ذكر بلاد المغرب ص ٢٦ ــ ٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.
(٣) مجار:
(٤) أبو الفداء: ذكر بلاد المغرب، ص ٤٨.

ويتكلم عن سبب تسميتها باسم فاس فيقول: «ونقل ابن سعيد عن الحجازي، أنهم لما شرعوا في حفر هذه المدينة وجدوا فأساً في موضع الحفر فسميت بذلك»[1].

ويرتحل أبو الفداء إلى المشرق ويعود إلى أوطانه، فيصف لنا مدينة تدمر وما بها من الآثار القديمة «وتدمر بليدة ببادية الشام من أعمال حمص وهي في شرقي حمص، وأرض تدمر غالبها سباخ وبها نخيل وزيتون، وبها آثار عظيمة أولية من الأعمدة والصخور، وهي عن حمص على نحو ثلاث مراحل وبينها وبين دمشق تسعة وخمسون ميلاً».

وخير ما نختتم به الحديث عن «أبو الفداء» وصفه لموطنه الحبيب مدينة حماه: «حماه مدينة أولية وبلدة قديمة وهي من أنزه البلاد الشامية. والعاصي (نهر يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها. ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة وفي داخلها الأرحية على الماء. وبها نواعير على العاصي تسقى أكبر بساتينها ويدخل منها الماء إلى كثير من دورها. ونهر حماة يسمى الأرنط والنهر المقلوب لجريه من الجنوب إلى الشمال. ويسمى العاصي لأن أغلب الأنهر تسقى الأراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تركب البلاد. ونهر حماة لا يسقى إلا بنواعير تنزع منه الماء. وهو يجري بكليته من الجنوب إلى الشمال وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك تسمى الرأس في الشمال عن بعلبك على نحو مرحلة عنها. ويسير من الرأس شمالاً حتى يصل إلى مكان يقال له قائم الهرمل بين جوسية والرأس. ويمر في واد هناك وينبع من هناك غالب النهر المذكور من موضع يقال له مغارة الراهب. ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً ويمر على سور انطاكية حتى يصب في بحر الروم عند السويدية».

□ □ □

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٢ ـ ٥٤.
(٢) المرجع السابق، ص ١٩١.

شهاب الدين أبو العباس
أحمد بن يحيى فضل الله العمري

ولد ابن فضل الله بمدينة دمشق (سنة ٧٠٠ هـ/ سنة ١٣٠١ م) ونشأ وترعرع فيها وتلقى علومه الدينية والعربية على شيوخها وفي ذلك يقول ابن حجر: «وقرأ العربية على كمال الدين ابن قاضي شهبة والفقيه على شهاب الدين ابن المجد والشيخ برهان الدين ابن الفركاح وقرأ الأحكام الصغرى على ابن تيمية وتخرج في الأدب بالشهاب محمود وبالوداعي وشمس الدين بن الصائغ الكبير وابن الزملكاني وأبي حيان وسمع الحديث على جماعة الوزراء والحجاز»[١]. ويقال أن نسبه ينتهي إلى عمر بن الخطاب وكان يكنى أبا العباس.

وكان ابن فضل الله كما تذكر المصادر ذكياً قوي الحافظة جميل الخلقة قدير في كتابة النثر حتى قيل عنه «حتى كان يكتب من رأس القلم ما يعجز عنه غيره في مدة مع سعة الصدر وحسن الخلق وبشر المحيا»[٢]. أما عن مقدرته في نظم الشعر فكانت متوسطة وفي ذلك يقول ابن حجر: «وله شعر كثير جداً لكنه وسط».

وقد ترجم له الصفدي[٣] فقال: «هو الإمام الفاضل البليغ المفوة الحافظ

---

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ج ١ ص ٣٣١.
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٢.
(٣) الصفدي.

حجة الكتاب إمام أهل الأدب أحد رجالات الزمان كتابة وترسلاً وتوسلاً إلى غايات المعالي وتوصلاً، وإقداماً على الأسود في غاباتها، وإرغاماً لأعدائه يمنع رغائبها، يتوقد ذكاء وفطنة ويلتهب وينحدر سيله مذكرة وحفظاً».

ويضيف الصفدي في وصف أسلوبه في الكتابة من نثر وبلاغة فيقول: «ويتصبب ويتدفق بحره بالجواهر كلاً، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعمرة نظاماً، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة، وتندي عبارته انسجاماً وصياغة، وينظر إلى غيب المعاني من ستر رقيق، ويغوص في لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق. قد استوت بهديته وارتجاله، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله. يكتب من رأس قلمه بديهاً، ما يعجز تروي القاضي الفاضل أن يدانيها تشبيهاً، وينظم من المقطوع والقصيد جوهراً، يخجل الروض الذي باكره الحيا مزهراً».

ويحدثنا عن شعره فيقول: وأما نظمه فلعله لا يلحقه فيه إلاّ الافراد وإضافة الله تعالى إلى ذلك كله حسن الخلق الذي هو العمدة في كل فن. وهو أحد الأدباء الكملة الذين رأيتهم، وأعني بالكملة الذين يقومون بالأدب علمًا وعملاً في النظم والنثر ومعرفة تراجم أهل عصره ومن يتقدمهم على اختلاف طبقاتهم وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة. ثم أنه شارك من رأيته من الكملة في أشياء وتفرّد عنهم في أشياء، وبلغ فيها الغاية لأنه موجود في الإنشاء والنثر وهو فيه آية، والنظم وسائر فنونه والترسل البارع عن الملوك».

كما تناول الصفدي في ترجمة ابن فضل الله الحديث عن العلوم والتواريخ التي ذكرها في مصنفه (مسالك الأبصار) مما يدل على تمرّسه في تلك العلوم ومعرفته التامة لها، بل وتفوقه على معاصريه فيها فيقول: ولم أر من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيزخان وهلم جرا معرفته وكذلك ملوك الهند والأتراك. ومعرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها فإنه فيها إمام وقته. وكذلك معرفة الأسطرلاب وحل التقاويم وصور الكواكب».

وفي ذلك يقول ابن فضل الله في مقدمة كتابه: «ولا أعني ذوي الممالك الصغار إذا كان في مملكة سلطان قاهر عليهم، آمر فيهم، إذ هم جزء من كل، بل الذكر لكل سلطان يستحق اسم السلطنة، لاتساع ممالك وأعمال، وكثرة

جنود وأموال ويتغطى بذيله من لعله يكون في مملكته من ذوي الممالك الصغار، كصاحب حماة مع صاحب مصر، وصاحب ماردين مع صاحب إيران. اللهم إلاّ أن تكون تلك المملكة مفردة لملك أو ملوك، وليس عليهم سلطان يجمعهم حكمه، ويمضي فيهم أمره، كملوك الجبل وملوك جبال البربر، وما يجري هذا المجرى ويسري كوكبه هذا المسرى»[1].

أما عن الوظائف التي شغلها ابن فضل الله الإفتاء فيقول الصفدي[2]: «وقد أذن له العلاّمة شمس الدين الأصفهاني في الإفتاء على المذهب الشافعي، فهو حينئذ أكمل الكملة الذين رأيتهم. ولقد استطرد الكلام يوماً في ذكر القضاة فسرد ذكر القضاة الأربعة الذين عاصرهم شاماً ومصراً وألقابهم وأسمائهم وعلامة كل قاصد منهم حتى أني كدت أقضي بالعجب مما رأيت».

وقد تولىّ ابن فضل الله وأسرته بعض الوظائف الإدارية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وخاصة في تنظيم شؤون البريد. كما تولى القضاء قبل أن يتولى الكتابة في ديوان الإنشاء بمصر ودمشق. ولما تولى والده وظيفة كاتباً للسر على عصر ذلك السلطان، عهد إلى ابن فضل الله وإلى شقيقه قراءة الرسائل على السلطان الناصر محمد[3]، كما جاء في ترجمته لابن حجر. كتب الإنشاء بمصر ودمشق، ولما وليّ أبوه كتابة السر كان هو يقرأ البريد على السلطان.

وكان ابن فضل الله حاد الطبع عنيد مكابراً مما أثار عليه حاشية السلطان وبطانته فأوغروا صدر السلطان عليه فأمر باعتقاله ومصادرته ولما لم يبد اهتماماً بهذه العقوبة حكم عليه بقطع يده[4]. على أن الزمان تجهم له أكثر من مرة إذ غضب عليه السلطان في مناسبات كثيرة، فقد زج به في السجن بعد قطع يده ونسيه مدة طويلة حتى رفع له ابن فضل الله قصته فأفرج عنه وذلك سنة

---

(١) ممالك الأمصار ج ١ ص ٣.

(٢) الصفدي.

(٣) D. Little: An introduction to Mamluk Historiography, p. 40.

(٤) Salibi (Kamel): Lists Chronologiques des grœnds Cadis de l'Egypte sous les Mamelouk RETI XXV, 1957, Fadl Allah El 'Emri, II, pp. 732-733.

٧٤١ هـ وعاد إلى خدمة السلطان. ولما وقع الطاعون في دمشق وكان يومئذ بها، عزم على الحج، ثم توجه بزوجته إلى القدس فماتت عنه فدفنها، وعاد هو إلى دمشق فمات بحمى أصابته وكان ذلك (سنة ٧٤٩ هـ/ سنة ١٣٤٨ م).

ويحدثنا الصفدي عن توليه ديوان الإنشاء ووظيفة كاتب السر فيقول: «صرف الزمان أمراً ونهياً، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً، ووصل الازراق بقلمه، ورويت تواقيعه وهي سجلات لحكمه وحكمه، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه».

ثم يضيف فيقول: «هذا مع ما فيه من لطف وسعة صدر وبشر محيا رزقه الله أربعة أشياء، لم أرها اجتمعت في غيره، وهي الحافظة فما اطلع على شيء إلّا كان مستحضراً لأكثره، والذاكرة التي إذا أراد ذكر شيء من زمن من تقدم كان ذلك حاضراً كأنه إنما مرّ به بالأمس، والذكاء الذي يتسلط به على ما أراد، وحسن القريحة في جودة وسرعة».

وقد كان ابن فضل الله محباً للرحلة والارتحال والانتقال من مكان إلى مكان رغبة في رؤية كل غريب والإطلاع على العجائب والسياحة في أرض الله الواسعة، وقد عبّر أبو فضل الله عن رغبته هذه في مقدمة كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»: أما بعد، فلما كانت النفوس لا يصلحها إلّا التنقل من حال إلى حال، والتوقُّل على شرفات الشد والارتحال للإطلاع على الغرائب والإستطلاع للعجائب: قال الله تعالى: ﴿أو لم يسيروا في الأرض﴾، وقال: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها﴾ وقال تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾. ولقد ذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، خطبة قُسّ بن ساعدة بعكاظ وفيها قوله: إن في السماء لَخَبَرا وإن في الأرض لعَبَرَا».

ويبينّ ابن فضل الله المنهج والخطة التي سار عليها في تأليف كتابه فيقول:

(١) الصفدي.

«فاستخرت الله تعالى في إثبات نُبذة دالة على المقصود في ذكر الأرض ، ما فيها ومن فيها، الأظهر فالأظهر والأشهر فالأشهر، ولم أجد بدّاً من ذكره في ذلك ومثله، وحالة كل مملكة، وما هي عليه، هي وأهلها في وقتنا هذا، مما ضمنه نطاق تلك المملكة، واجتمع عليه طرفا تلك الدائرة. لأقرب إلى الأفهام البعيدة غالب ما هي عليه أم كل مملكة من المصطلح والمعاملات. واعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له، فيما رأيته بالمشاهدة، وفيما لم أره بالنقل ممن يعرف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأذنه».

ثم يبينّ لنا في وضوح تدقيقه في النقل مع الإشارة إلى مضمون الكتاب فيقول: «ولم أنقل إلاّ عن أعيان الثقات من ذوي التدقيق في النظر والتحقيق للرواية. فإن نقلت عن بعض الكتب المصنَّفة في هذا الشأن، فهو من الموثوق به فيما لا بد منه، كتقسيم الأقاليم، وما فيها من أقوال القدماء واختلاف آراء الحكماء إلى غير ذلك من غرائب وعجائب، وأخبار ملل ودول وذكر مشاهير أعلام وتاريخ سنين وشهور وأيام»[1].

وقد اقتصرت أبحاث ابن فضل الله في هذا الكتاب على ممالك الإسلام إذ يقول: «ولم أقصد في المعمورة سوى الممالك العظيمة، ولا خرجت في جهاتها عن الطريق المستقيمة. وقنعت بما بلغه ملك هذه الأمة، وتمت بكلمة الإسلام على أهل النعمة، ولم أتجاوز حدها، ولا مشيت خطوة بعدها، إلاّ ما جره سياق الكلام، أو طارح به شجون الحديث، مما اندرج في أثناء ذلك، أو اضطربت إليه تصريحات السالك أو اقتضاه سبب أو دخل مع غيره في ذمَّة حسب».

ثم يستطرد فيقول: «وإن كان في العمر فسحة وفي الجسم صحة وللهمة نشاط وللنفس انبساط، لأذيِّلنَّ بممالك الكفار هذا التصنيف وأجيء بفارسه المعلم وخلفه من سيبهم رديف».

ويحدثنا الصفدي[2] عن مؤلفاته فيقول: «وصنَّف فواصل السمر في

---

(١) أبو فضل الله العمري: مسالك الأبصار ج ١ ص ٤.

(٢) الصفدي:

فضائل آل عمر أربع مجلدات، وكتاب مسالك الأبصار في الممالك والأمصار في عشرين مجلداً كبار، وهو كتاب حافل ما أعلم أن لأحد مثله. والدعوة المستجابة وصبابة المشتاق والمدائح النبوية مجلد، وسفرة السفر ودمعة الباكي ويقظة الساهر ونفحة الروض. ونظم كثيراً من القصائد والأراجيز[1] والمقطعات والدوبيت والموشح والبليق[2] وأنشأ كثيراً من التقاليد والمناشير والتوقيع ومكاتبات الملوك وغير ذلك».

ويحدثنا عن الوقت الذي ألّف فيه مصنفه العظيم منوّهاً ومشيداً بالسلطان الذي عاصره واستظله بظله فيقول: وشرعت في أيام من ماننا بإحسانه، وأمتنا في سلطانه، سيدنا ومولانا ومالك رقابنا ابن السلطان السيد الكبير الملك الناصر، العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر المؤيد المنصور، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، وارث الملك، ملك العرب والعجم والترك، نائب الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البحرين خادم الحرمين حامي القبلتين مبايع الخليفتين، بهلوان جهان، إسكندر الزمان، ناشر علم العدل والإحسان، مملك أصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان. جامع ذيول الأقطار، مبيد البغاة والطغاة والكفار، هازم الروم والفرنج والكرج[3] والأرمن والتتار، سلطان البسيطة مثبت أركان المحيطة، إمام

---

(١) الرجز: ضرب من الشعر ووزنه مستفعلن ست مرات، والذرجوزة القصيدة منه والجمع أراجيز وقد رجز وارتجز ورجزه أنشده أرجوزة. (القاموس المحيط).

(٢) البليق: جمعها بلاليق، وهو عبارة عن نوع من الأدب الفكاهي. ينشده شاعر تعاونه جوقة من المغنين وغالباً ما يصاحب ذلك الرقص. ومن موضوع البلاليق عادة هو الفخر والبطولة والشجاعة وكثيراً ما تكون من بين الموضوعات التعريض ببعض الشخصيات دعابة وتندراً.

ـ ابن دنيال الموصلي، عبد الحميد يونس: خيال الظل ص ٣٦.

— Paul Kahle: The Arabie Shadow Play, p. 35.

ـ أبو المحاسن: المنهل الصافي ج ١ ص ٣٠٤، النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣١٧.

ـ أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام.

(٣) هم أهل البلاد المعروفة عند الأفرنج باسم (جورجيا) (تعليق أحمد زكي باشا على هامش مسالك الأبصار ج ١ ص ٢ هامش (٢).

المتقين ولي أمور المؤمنين، متعهد حج بيت الله الحرام، وزيارة سيد المرسلين أبي المعالي محمد بن مولانا السلطان الكبير الشهير أبي الظفر قلاوون سيد ملوك الأرض على الإجماع المخصوص بملك أشرف البقاع.

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملء المسامع والأفواه والمقل فأدام الله أيامه وأدار على مفارق النجوم أعلامه.

ويحدثنا ابن فضل الله العمري في موسوعته عن تاريخ كسوة الكعبة في الجاهلية والإسلام حتى أيامه فيقول: «وحكى الأزرقي أن معاوية كسا الكعبة الديباج قال: «وكانت تكسى يوم عاشوراء ثم إن معاوية كساها مرتين. ثم كساها المأمون ثلاث مرات، فكان يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية، والقباطي يوم هلال رجب، والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان. وهذا الأبيض ابتدأه المأمون سنة ست ومائتين حين قالوا له: الديباج الأحمر يتخرّق قبل الثانية فسأل عن أحسن ما تكون فيه الكعبة. فقالوا: الديباج الأبيض ففعله».

ولعل أهم ما جاء في تاريخ الكسوة هو وصفه لها في أيامه، إذ يقول: قلت: وهي الآن تكسى في العام مرة واحدة في وقت الموسم، وتحمل إليها الكسوة من الخزانة السلطانية بالديار المصرية، صحبة الركب (أي ركب الحجيج). فيتولّ ذلك أمراء الركب ويحضرون بأنفسهم فتكسى، ويأخذ الأشراف وبنو شيبة الكسوة العتيقة ويقتسمونها ويأخذون في كل قطعة منها أوفر الأعواض وتحمل إلى سائر البلاد للبركة.

ثم يضيف فيقول: وعهدي بصاحب اليمن يبعث إليها كسوة فتلبس تحت الكسوة المصرية، وهما سوداوان من الحرير الأسود بكتابة بيضاء، فيها آيات جاءت في القرآن في ذكر الكعبة.

ثم يصف لنا ما رآه بنفسه على سطح الكعبة ومباشرته لكسوتها بيده فيقول: ولما حججت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، وصعدت أنا وأمراء الركب المصرب لتلبيس الكعبة الشريفة، حتى كنا على سطحها. فرأيته مبلطاً بالمرمر

والرخام الأبيض، ومن جوانبه جدر قصار فيها حلق لمرابط الستور تجُر فيها الكسوة بالحبال ثم تربط في تلك الحلق. ويستطرد فيقول: وأنا أحمد الله، إذ بيدي توليت خلع الكسوة العتيقة عنها وتلبيسها الكسوة الجديـدة. وحملت الكسوة العتيقة في تلك السنة إلى السلطان بمصر لتجهز إلى السلطان أبي الحسن المريني مع ما يجهز عوض هدية بعثها في هذه السنة، صحبة مريم زوجة أبيه وعريف السويدي، وجماعة من أكابر دولته وعوِّض بنو شيبة والأشراف عنها من بيت المال بمصر.

ويستطرد في وصف غسل الكعبة واشتراكه هو في غسلها فيقول: «والعادة جارية أن تغسل الكعبة المعظّمة بماء زمزم في السابع والعشرين من ذي القعدة، وتشمر ستورها، وتلبس يوم الأضحى وتغسل بماء الورد عند عود الركب من منى أوان منصرفهم. وكل ذلك حضرته في هذه السنة وتوليتـه بيدي ولله الحمد»[١].

ويتكلّم عن المساجد المعروفة بأسماء زوجات الرسول، فأعطانا معلومات صحيحة مبنية على دراسة دقيقة، فيقول عن مسجد عائشة: «هو بالتنعيم في الحل عند أول الحرم، ولا يحضرني من بناه، وكل مسجد هناك يسمى بهذا، وأشهرها المصاقب للطريق على يسار الداخل إلى مكة، وإنما نسب إلى عائشة لكونها اعتمرت من التنعيم. ولعلها أحرمت في البقعة التي بنى بها المسجد، وعمرتها معروفة على ما تضمنته الأحاديث».

أما عن مسجد ميمونة فيقول: «وسمي بذلك لمكان قبرها. وهناك مات أبو جعفر المنصور ودفن محرماً، على ما هو مذكور في موضعه. وميمونة هي بنت الحارث إحدى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت أختها أم عبد الله بن العباس»[٢].

ويروي لنا تاريخ بقيع الغرقد فيقول: «وهو مدفن أهل المدينة النبوية وفيه

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٠٠.
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٢١.

تدافن أكثر أهل المدينة. ويستطرد فيقول: وأول من دفن بالبقيع عثمان بن مظعون، قال المطلب بن عبد الله بن حنطب: أول من دفنه النبي صلى الله عليه وسلم بالبقيع، عثمان بن مظعون، ثم قال لرجل عنده: إذهب إلى تلك الصخرة، فأتني بها حتى أصنعها عند قبره، فمن مات من أهلنا دفناه عنده. رواه ابن أبي شيبة».

قال عليّ بن أبي طالب: ثم اتبعه ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم، رواه ابن أبي شيبة أيضاً.

ويحدثنا عن سبب تسمية المدفن بالغرقد ومعنى الغرقد فيقول: «قال الأصمعي: قطعت غرقدات في هذا الموضع حين دفن فيه عثمان بن مظعون فسمي بقيع الغرقد لهذا. أما عن معنى الغرقد قال الخليل «البقيع من الأرض موضع فيه أروم شجر، وبه سمي بقيع الغرقد، والغرقد شجر كان ينبت هناك. والبقيع يلي باب المدينة الذي في جهة الشرق، الذي وراء دار عثمان بن عفان ومنه يخرج إلى البقيع» (1).

وينتقل بنا ابن فضل الله العمري إلى دمشق فيحدثنا عن عظمة بناء المسجد الأموي، مما جعل بني العباس أعداء الأمويين يقرون بفضلهم عليهم لإقامة مثل هذا المسجد فيقول: وقال أحمد بن إبراهيم بن ملّاس: «حدثنا أبي عن أبيه قال: لما قدم المهدي يريد بيت المقدس، ومعه عبيد الله الأشعري كاتبه قال: يا أبا عبد الله، سبقنا بنو أمية بثلاث: بهذا البيت لا أعلم على الأرض مثله، وبنبل الموالي وبعمر بن عبد العزيز لا يكون والله فينا مثله أبداً، فلما أتى بيت المقدس ودخل الصخرة (قبة الصخرة) قال: يا أبا عبيد الله هذه رابعة» (2).

ويضيف فيقول: قال أحمد: وحدثنا أبي أن المأمون لما دخل مسجد دمشق ومعه المعتصم ويحيى بن أكثم قال: ما أعجب ما في هذا المسجد، قال المعتصم دهنه وبقاؤه، فإنا ندعه في قصورنا فلا يمضي عليه عشرون سنة حتى يتغير قال:

---

(1) مسالك الأبصار ج 1 ص 132.
(2) مسالك الأبصار ج 1 ص 192.

ما ذاك أعجبني عنه، فقال يحيى بن أكثم: تأليف رخامه فإني رأيت فيه عقداً ما رأيت مثلها قال: ما ذاك أعجبني قال فما هو، بنيانه على غير مثال متقدم».

وينقل لنا كذلك قول الإمام الشافعي الذي اعتبر المسجد الأموي من عجائب الدنيا الخمس: وقال الشافعي: «عجائب الدنيا خمس: منارة ذي القرنين، والثانية أصحاب الرقيم بالروم والثالثة مرآة ببلاد الأندلس معلّقة على باب مدينتها الكبيرة، إذا غاب الرجل من بلادهم على مسافة مائة فرسخ وجاء أهله إليها، يرون صاحبهم من مسافة مائة فرسخ. والرابعة مسجد دمشق، والخامسة الرخام والفسيفساء، فإنه لا يدري له موضع».

ومما يذكر بالفضل وسعة الإطلاع لابن فضل الله هو جمعه الموضوعات المتشابهة والمنتشرة في جميع أنحاء العالم في فصل واحد مع ترتيبها حسب التسلسل التاريخي، فمن ذلك مثلاً حديثه عن البيوت المعظمة عند الأمم[١] والشعوب القديمة والتي كانوا يحجون إليها سبعة، ويذكر من بينها قصر غمدان، فيقول: وخامسها بيت غُمْدانَ بصنعاء اليمن وهو من أشهر الآثار وأظهر المعالم. كان مسكن التبابعة من حمير، ومنهم شمر بن مالك وأسعد أبو كرب. وكفي بذكرهما. طافا الأرض وبلغا الآفاق. وقصر غُمدان هذا هو المذكور في الأشعار والمشهور في الأخبار (أي قصص العرب) وفيه يقول ابن أبي الصلت:

إشرب هنيئاً عليك التاج معتبقاً	في قصر غُمدان داراً منك محلالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن	شيباً بماء فعادا بعدُ أبوالا

ويستطرد في سرد تاريخ قصر غُمدان فيقول: «بناه الضحاك بمدينة صنعاء، كان يأتيه منهم من يتقرّب بالزهرة (كوكب الزهرة). وخرَّبه عثمان بن عفان، رضي الله عنه، والآن مكانه بركة وآثاره كالجبل الضخم، وكان الوزير عيسى بن الجراح، لما نفي إلى اليمن احتفر به قبراً وبنى عليه سقاية. قال

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٢٢٢، ٢٢٣.

البكري: وزعم أهل اليمن أنه سيبني على يد غلام يخرج من بلاد سبأ يؤثر في هذا العالم تأثيراً عجيباً»[1].

وبعد فهذا قليل من كثير مما جاء في موسوعة ابن فضل الله العمري، الذي لم ينشر منه حتى الآن إلّا الجزء الأول الذي قام بتحقيقه أحمد زكي باشا الذي يحدثنا عنه فيقول: واهتديت إلى هذا الكنز في مكامنة في دور الكتب بأمهات العواصم في ديار أوروبة وفي خزائن المخطوطات بالقسطنطينية العظمى. لكن الجزء الأول منه بقي في حكم المفقود، فإن نسخته التي بخزانه آيا صوفيا ليست بذاك. ولقد تداركتني العناية، فعثرت بطريق الصدفة على كتاب مدشوت في الأضابير المبعثرة بين الأوراق المنتشرة في أسافل الخزانات بسراي طوب قبو بالقسطنطينية، وكان الكتاب بعنوان «مرآة الكائنات» تصفحته قليلاً فإذا به الضالة المنشودة»[2].

ويستطرد أحمد زكي فيقول: «وأحضرت الكل إلى القاهرة، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية، وليس يوجد في أي قطر آخر بالمشارق والمغارب نسخة كاملة مثل التي أعدتها لمصر. وقد عنيت كل العناية، وبذلت غاية الجهد في تحقيق الجزء الأول وسافرت إلى فلسطين لتطبيق ما أورده المؤلف عن المسجد الأقصى من البيانات المعمارية الفنية والإصطلاحات الهندسية البنائية التي لم يجر بها قلم كاتب قط، لا من العرب ولا من العجم، لا قديماً ولا حديثاً.

وقد تنبه المستشرقون إليه فاستقوا من بحره الطامي مثل «كاترمير» (Quatremère) الفرنسي وأماري (Amari) الطلياني، فكان لهما القدح المعلي والراية البيضاء في استخراج كنوز المعارف من هذا المعدن الغني السخي الكريم».

وموسوعة «مسالك الأبصار» تقع في أربعة عشر جزءاً، وموضوع الكتاب كما يصفه ابن فضل الله «وصف الأرض وما اشتملت على بر وبحر»، وهو

---

(١) مسالك الأبصار ص ٢٢٣.

(٢) مقدمة كتاب مسالك الأبصار.

قسمان أولهما في الأرض وهو على نوعين: أولهما المسالك وثانيهما الممالك، فأما المسالك ففيها وصف لمقدار الأرض وهيئتها وذكر للأقاليم السبعة والبحار وما يتعلّق بها وذكر للطرق وذكر للقبلة وكيف يستدل عليها إلى آخره. وأما الممالك ففيها وصف لممالك الإسلام وحدها.

وأما القسم الثاني من الكتاب فأبواب عدة منها باب في المقارنة بين المشرق والمغرب، وباب في الديانات وثالث في طوائف المتدينين ورابع في التاريخ أرّخ فيه للدول التي جاءت قبل الإسلام ثم الدول الإسلامية إلى عهده.

ولابن فضل الله العمري مصنّفات كثيرة غير موسوعته السالف الإشارة إليها منها كتاب بعنوان فواصل السحر في فضائل آل عمر، أي عمر بن الخطاب ومن هنا، كما يقول ابن حجر، جاءت نسبته العمري. ويقع الكتاب في أربعة مجلّدات.

□ □ □

عبد الرحمن بن خلدون

ترجع أسرة ابن خلدون إلى الأندلس حيث كان أجداده من مدينة أشبيلية ولكن ابن خلدون ولد في تونس (سنة ٧٣٢ هـ/ سنة ١٣٣٢ م). أما بقية ترجمة حياة ابن خلدون فقد اختصرناها من ترجمته لنفسه، فهو من المؤرخين الذين ترجموا لأنفسهم ترجمة ذاتية (Auto-Biography). على أن ابن خلدون لم يكن هو أول من نحا هذا المنحى فقد سبقه إلى ذلك ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» ولسان الدين بن الخطيب في كتابه «الاحاطة في أخبار غرناطة والحافظ بن حجر في كتابه «رفع الأصر عن قضاة مصر».

إلا أن ابن خلدون فاقهم جميعاً في هذا المضمار فقد أفاض في التعريف بذاته إفاضة دقيقة وشاملة، إذ أعطانا تاريخاً مفصلاً عن سيرته وأهم أحداث حياته إلى ما قبل رحيله عن الدنيا ببضعة شهور. وقد سجل سيرته في كتابه «التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب» وذيل به كتابه «العبر» ثم أدخل عليه كثيراً من التعديلات والزيادات وأضاف إليه تاريخ المراحل الأخيرة من حياته التي وصل في رواية الحوادث فيها إلى (سنة ٨٠٧ هـ/ سنة ١٤٠٤ م). فعظم بذلك حجم الكتاب مما دعاه إلى أن يغير عنوانه القديم فسماه «التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غرباً وشرقاً.

وقد درس ابن خلدون على عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس واستقروا فيها. وقد عمل منذ شبابه في دول شمال افريقيا وبلاد الغرب التي عاصرها وعاش أحداثها، بل وشارك في كثير من صنيع أحداثها،

فقد عمل في دولة الحفصين في تونس ودولة بني عبد الواد في تلمسان ومع نبي مرين في فاس. وفي فاس اتصل ابن خلدون بالوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب حينما نفى مع سلطانه إلى المغرب وتوطدت بينهما الصداقة حتى أن ابن الخطيب أفرد له ترجمة دقيقة بعد عودته إلى وطنه في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة».

وقد امتد عمل ابن خلدون إلى دولة بني الأحمر في غرناطة عندما هاجر إلى الأندلس بعد أن سدت في وجهه قصور المغرب وأصبح موضع ريبة فيها. وفي (سنة ٧٦٤ هـ/ سنة ١٣٦٣ م) سافر ابن خلدون إلى اسبانيا في مهمة رسمية تتعلق بتأكيد صلح بين ملك المغرب وملك قشتالة (بدرو القاسي) الذي كان يقيم في مدينة أشبيلية مقر أجداد ابن خلدون. وهناك عرض عليه ملك قشتالة أن يبقى في اشبيلية وأن يرد عليه أملاك أسرته. ولكن ابن خلدون اعتذر شاكراً ثم رحل إلى غرناطة.

وفي غرناطة التقى ابن خلدون بصديقه ابن الخطيب، وتسرى بجارية اسبانية تدعى هند، وبعد إقامة قصيرة عاد إلى المغرب حيث انغمس في حياة سياسية زاخرة بالأحداث. ويبدو أن من أهم الأحداث المحزنة التي أثرت في حياة ابن خلدون تلك النكبة التي أودت بحياة صديقه ابن الخطيب، لذلك لم يتردد في العمل على إنقاذه، كما جاء في كتابه قوله: وبعث إلَّي ابن الخطيب من محبسه مستصرخاً بي متوسلاً، فخاطبت في شأنه أهل الدولة، وعولت فيه منهم «علي ونزمار» و«ابن ماساي» فلم تنجح تلك السعاية، وقتل ابن الخطيب في محبسه وكان ذلك في (سنة ٧٧٦ هـ/ سنة ١٣٧٤ م)[١].

وقد أثر هذا الحدث المؤسف المحزن تأثيراً بالغاً في نفس ابن خلدون حتى أنه كرهه لحياة السياسية كرهاً آثر معه الاعتزال والانطواء عن الحياة العامة كلياً مدة أربع سنوات من (سنة ٧٧٦ هـ/ سنة ٧٨٠ هـ) قضاها منعزلاً في قلعة (تاوغروت) أو قلعة بني سلامة، التي تبعد عن مدينة فرندة بمقدار خمسة

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص ٢٢٧.

كيلومترات في ولاية وهران غربي الجزائر[1]. وما تزال أطلال هذه القلعة باقية، كما يقال إنها تحوي مغارة كبيرة يظن أن ابن خلدون قد ألف مقدمته فيها، والتي جاء فيها: «سالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها، على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة».

وخرج ابن خلدون من عزلته تلك ليصبح رحالة فقد عاش قرابة ثلاثين عاماً قضاها سائحاً في مشارق الأرض ومغاربها، والتي سجل أحداثها في كتابه «ورحلته غرباً وشرقاً»[2]. إلا أن ما سجله ابن خلدون في كتابه كان تاريخاً أكثر منه مشاهدات رحالة، إذ جاءت رحلته متضمنة للأحداث التي عاشها والتي أخذت عليه جل اهتمامه ومعظم عنايته. وتفسير ذلك هو أن ابن خلدون لم يكن يرتحل طلباً للرحلة في حد ذاتها وإنما تحت قسر الأحداث في معظم الأحوال، فقد كان يروح ويغدو في ظروف تبلغ من قسوتها في بعض الأحيان أن يكون مشرداً عرضه للقتل[3].

وهكذا نرى أن ابن خلدون قد حرمنا من ملاحظاته ومشاهداته كرحالة، فلم يروى لنا ملاحظاته عن حياته في مصر في عصره اللهم إلا بالنسبة للقضاء، ولم يذكر لنا شيئاً عن أخبار حجيته إلى مكة المكرمة، ولا عن زيارته لفلسطين أو دمشق إلا مقابلته لتيمورلنك وذلك من الناحية التاريخية فحسب، وفي ذلك يقول: «وهذا الملك (تمر) من زعماء الملوك وفراعنتهم والناس ينسبونه إلى العلم وآخرون إلى اعتقاد الرفض لما يرون من تفضيله لأهل البيت وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كله في شيء. وإنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم. عمره بين الستين والسبعين وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني، فيجرها في قريب

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨.

(٢) نشره محمد بن تاويت الطنجي (عن أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٤٦).

(٣) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب ص ٨٥.

المشي. ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة وهو مصنوع له، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده».

أما عن كيفية مقابلة ابن خلدون ليتمورلنك، فقد تصادف عندما احتل تيمورلنك مدينة دمشق أن كان ابن خلدون بها، فاستعمل الأخير الحيلة حتى خرج منها وقصد تيمورلنك راجياً انقاذ المدينة وحدثه حديثاً عذباً كله اطراء ومديح، فأعجب به تيمورلنك وقرر أن يستبقيه في خدمته، فلم يرفض ابن خلدون، وإنما استأذنه في أن يذهب إلى القاهرة ليعود بأهله وكتبه، فأذن له، ورحل ابن خلدون إلى مصر وهو لا يكاد يصدق بالنجاة[1].

ومن القصص الطريفة التي تدور حول مقابلة ابن خلدون لتيمورلنك خبر بغلته، ومقل هذه الأحداث الصغيرة التي تكثر عند الرحالة، نادرة إلى حد العدم عند ابن خلدون مما يفقد رحلته عنصراً هاماً من عناصر الرحل ومميزاتها[2]. أما عن البغلة فقد أخبر بها ابن خلدون أنه عند مقابلته ليتمورلنك أهداه هدية وطلب منه بغلته فأرسل له ثمنها إلى مصر بعد عودته، فرفع ابن خلدون من شأنها وهكذا دخلت في صفحات التاريخ فأصبحت (بغلة ابن خلدون) من البغال ذات الشهرة التاريخية في عالم البغال.

والحقيقة أن ملكه ابن خلدون في كتابه التاريخ غلبت على ملكه الوصف الجغرافي ورواية المشاهدات المرئية والمروية عنده كرحالة التي قض فيها نصف عمره بل وشبابه كله في الرحلة والسياحة. ولعل من القليل الذي عني بوصفه ما قاله في وصف القاهرة[3] «رأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وايوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والدواوين في جوه، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب من علمائه». ويستطرد في الوصف فيشبه شاطىء بحر النيل «بالجنة ومدفع مياه

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٤٥.
(٢) حسني حسين محمود: أدب الرحلة ص ٩٩.
(٣) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٣٢٠.

السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه، ويجبى لهم الثمرات والخيرات ثجة. ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم. وما زلنا نحدث عن هذه البلد، وبعد مداه من العمران واتساع الأحوال»[١].

ولم يكتف ابن خلدون بوصفه الشخص للقاهرة، بل اقتبس فقرات من وصف شيوخه لها كناية عن شدة إعجابه بها وصدق تحديثه عنها وتطبيقاً لمنهجه العلمي المبني على التحقيق والتدقيق والاستشهاد. فمن ذلك نقله عن أبي عبدالله المقري، الذي مر بها عائداً من الحج «ومن لم يرها لم يعرف عز الإسلام» وعن أبي العباس بن إدريس الذي قال له فيها: «كأنما أطلق أهله من الحساب» مشيراً بذلك إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب. وينقل عن أبي القاسم البرجي قوله: «ان الذي يتخيله الإنسان، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها، لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها».

أما عن عادات الناس وتقاليدهم كما رآها أو شاهدها فلم يحدثنا عنها إلا بمقدار ما يتضمن سرد الأحداث التي مر بها في حياته الخاصة، فمن ذلك ما ذكره من فسد القضاة وخراب ذمم الكتاب والمفتين وذلك لانخراطه في سلك القضاة والافتاء والتدريس في مصر. فقد تولى ابن خلدون التدريس في الأزهر الشريف كما تولى مشيخة خانقاه بيبرس جاشنكير[٢]، كما تولى منصب قاضي قضاة المالكية ست مرات[٣]. . .

وفي وصفه لفساد القضاة يقول: «فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر، والطيب ملتبساً بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة، فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمين للقرآن وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٢.
(٢) المقريزي: الخطط والآثار ج ١ ص ٤١٨.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧٦.

فيظنون بهم الخير ويقسمون لهم الحظ من الجاه بتزكيتهم عند القضاة والتوسل لهم، فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم. ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب، ومؤلم النكال. وكان منهم كتاب لدواوين القضاة والتوقيع في مجالسهم، وقد دربوا على املاء الدعاوى وتسجيل الحكومات، واستخدموا اللامراء فيما يعرض لهم من العقود بأحكام كتابتها، وتوثيق شروطها، فصار لهم بذلك شغوف على أهل طبقتهم، وتمويه على القضاة بجاههم، يدرعون به مما يتوقعونه من عبثهم. وفشا في ذلك الضرر في الأوقاف، وطرق الغدر في العقود والأملاك. فعاملت الله في حسم ذلك بما آسفهم عليَّ وأحقدهم».

ويندر أن يتحدث ابن خلدون عن خلجات نفسه، ولعله بذلك يتعالى عن مشاعره، فمن ذلك روايته الجافة عما حدث لأسرته وآل بيته. فقد أرسل ابن خلدون إلى أسرته يستقدمهم من تونس بشفاعة سلطان مصر في شأنهم عند سلطان تونس «فما هو إلا أن وصلوا مرسى الاسكندرية فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه وما فيه، وذهب الموجود والمولود، فعظم الأسف واختلط الفكر».

ثم عاد فذكر فجيعته في أسرته وزوجه عندما اصطلحت عليه الهموم وكثر عليه الشغب بمناصبته العداء من قبل أهل الدولة في مصر حتى اضطر إلى ترك منصب القضاء فيقول: «فكثر الشغب عليَّ من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين (كذا) فأصابهم قاصف من الريح فغرقت وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج من المنصب».

وقد كان ابن خلدون يقدر الحضارة الإنسانية حق قدرها وصلتها بالتاريخ لذلك نراه يلجأ أحياناً إلى مقدمات تاريخية في بداية الموضوعات. ولعل من الموضوعات الهامة التي تناولها ابن خلدون في مقدمته، هو حضارة العرب ومن ثم تاريخهم قبل الاسلام، فعلى سبيل المثال نراه يفصل الحديث عن العصبية

العربية قبل الاسلام فيقول: «وأما القبائل العدنانية أو عرب الحجاز ونجد فلم يظهروا قبل الإسلام، إلا قليلاً، ولم ينشئوا دولة إلا بعد الإسلام. وهم قبائل عديدة مواطنهم على الغالب في نجد والحجاز والعراق وتهامة وكلها بادية رحالة إلا قريشاً فقد كانوا حضراً يقيمون في مكة وبعض أهل الطايف. وأعظم القبائل العدنانية قبيلة (معد) ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها ويقال أنه كان معاصراً لارمياً النبي[١].

وتفرع من معد أياد ونزار وسكنت أياد العراق وتشعبت إلى بطون وأفخاذ، وأما نزار ففيها العظمة والقوة ولها الفضل الأعظم على العرب لأن منها جاءهم النبي. وانقسمت نزار إلى قبيلتين ربيعة ومضر فسكنت ربيعة في جزيرة العراق ومن بطونها[٢] ضبعة وأسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم. وأما مضر بن نزار فهم أهل الكثرة والغلب بالحجاز أكثر من سائر بني عدنان وكانت الرئاسة بمكة، ومن مضر شعبت عدة عمائر من جملتها قريش وتشعبت قريش إلى خمسة وعشرين بطناً من جملتها بنو عبد مناف ومنهم بنو هاشم رهط النبي وبه شرفت مضر بعد الإسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها».

ويستطرد ابن خلدون فيتكلم عن العصبية العربية في الإسلام فيقول: «وكان عمر كثير العناية بالعصبية العربية يوصي العرب بحفظ أنسابهم لئلا تضيع عصبيتهم ومن وصاياه «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد، إذا سئل أحدكم عن أصله قال من قرية كذا»[٣].

---

(١) ابن خلدون المقدمة ج ١ ص ٣٠٠.

(٢) قد رتبت أنساب العرب في ست طبقات كما جاءت في الماوردي:
١ ــ الشعب: هو النسب الأبعد (الأصلي عدنان وقحطان).
٢ ــ القبيلة: وهي ما انقسمت فيها أنساب الشعب (ربيعة ومُضَر).
٣ ــ العمارة: وهي ما انقسمت فيها أنساب القبائل (قريش وكنانة).
٤ ــ البطن: وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة (بنو عبد مناف وبنو مخزوم).
٥ ــ الفخذ: وهو ما انقسمت فيه أنساب البطن (بنو هاشم وبنو أمية).
٦ ــ الفصيلة: (بنو أبي طالب وبنو العباس).

(٣) ابن خلدون ج ١ ص ١٠٩.

إلا أن عمر مع حرصه على العصبية العربية واختصاص جزيرة العرب بها فقد حرص العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال: «ليست الحجاز لكم بدار إلا على النجعة. . . سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها»[1] لعلمه أن في العراق والشام عرباً يتحدون معهم وينصرونهم. وكان عرب العراق ناقمين على الفرس من أيام دولتهم لما كانوا يسومونهم من الاضطهاد، وكانت ديانة عرب العراق والشام النصرانية ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين.

ولكن عمر منعهم مما وراء ذلك (أي العراق والشام) خوفاً على العصبية العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق، ولهذا السبب أيضاً نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعم اعتماداً على الحديث القائل: «السكة[2] ما دخلت دار قوم إلا دخله الذل»[3].

وينتقل ابن خلدون من العصبية العربية، إلى علوم العرب القديمة والعلوم الدخيلة فيقول في التنجيم والنجوم: «إن العرب، قالوا بابطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم[4]، ولعلهم أول من فعل ذلك فمالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء. وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الأفلاك ويؤلفون الأزياج ويقيسون العروض ويراقبون السيارات ويرتحلون في طلب ذلك العلم إلى الهند وفارس ويتجرون في كتب الأوائل ويتمون ما نقص منها أو يجمعون بين مذاهبها.

ويحدثنا عن المكاتب أو خزائن الكتب في الأندلس، فيقول: وكأن المأمون مثالاً في إنشاء المكاتب بالممالك الإسلامية، فاقتدى به بنو أمية في الأندلس وأشبههم به الحكم بن الناصر الذي تولى الخلافة من (سنة ٣٥٠ ــ سنة ٣٦٦هـ) وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جماعاً للكتب على أنواعها بما لم يجمعه

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٢.
(٢) السكة: المحراث.
(٣) ابن خلدون ج ١ ص ١١٩.
(٤) ابن خلدون ج ١ ص ٤٥٧.

أحد من الملوك قبله. فأنشأ في قرطبة مكتبة جمع إليها الكتب من أنحاء العالم فكان يبعث في شرائها رجالاً من التجار ومعهم الأموال ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب. فجعلوها في قاعات خاصة من قصر قرطبة أقاموا عليها مديراً ومشرفاً ووضعوا لها الفهارس لكل موضوع على حدة. وذكروا أن فهارس الدواوين وحدها أربعة وأربعين فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة[١].

ومن الموضوعات التي أجاد ابن خلدون تدوينها أجاده لم يسبق إليها هي الموضوعات الحضارية، فهو صاحب القدح المعلي في هذا الميدان وليس ذلك غريباً على عالم مؤسس لعلم الاجتماع، وصاحب نظرية نشأة الدول وأعمار الأجيال. فيحدثنا عن المعيشة العائلية عند المسلمين من حيث اللباس والطعام والأثاث والرياش والحلي والمجوهرات وما إلى ذلك من موضوعات، وذلك منذ بداية الإسلام حتى عهده، فيتكلم عن طعام العرب قبيل الاسلام فيقول: «وأما الفقراء، فقلما يأكلون لحم الابل أو الضأن وإنما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد أو الخنافس أو العقارب، وإذا جاعوا أكلوا العلهز وهو وبر الابل يمهونه بالحجارة في الدم فيطحنونه وكان حال القرشيين قريباً من ذلك»[٢]. فلما جاء الإسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ووقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها فأشكل عليهم أمرها، وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فأحضره إلى أصحابه فظنوه ملحاً فطبخوا طعاماً ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعماً ولم يعلموا ما هو فرآه رجل عرف ما فيه فاشتراه منهم بقميص خلق. ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها[٣].

ويحدثنا ابن خلدون عن تأثر العرب بالفرس وتأنقهم في طعامهم فيقول: «ذكروا أن الحجاج بن يوسف أولم لختان أحد أولاده فاستحضر الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال: «أخبرني بأعظم صنيع شهدته» فقال: «شهدت أيها

---

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ١٤٦.
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٧٠.
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٤.

الأمير بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحائف الذهب على أخونة الفضة أربعاً على كل واحد، وتحمله أربع صحائف ويجلس عليه أربعة من الناس فإذا أطعموا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها» فلما سمع الحجاج ذلك أكبره وغلبت عليه البداوة فقال: يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس»[1].

ويستطرد فيقول: «على أنهم ما لبثوا أن رضخوا لتيار الترف حتى تكيفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم فبعد أن كانوا يحسبون الكافور ملحاً والرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاغداً وعجنوا الحنطة بنخالتها[2]، فاقوا الفرس والروم في التأنق والتنعم فتقننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبّهة للشهوة إلتماساً للمزيد من اللذة».

ويترك الحديث عن الطعام وينتقل إلى الحديث عن البذخ في اللباس فيقول: «وأول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام. وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك فلما رآه في أبهة الملك أنكرها عليه وقال له: «أكسروية يا معاوية؟»[3].

وينتقل إلى الأثاث والرياش فيقول: فما لبث المسلمون أن تحضّروا وأثروا حتى اتخذوا الأسرة الذهب والعاج وفاقوا الأكاسرة والقياصرة قبلهم. وأول من اتخذ السرير في الإسلام معاوية بن أبي سفيان. ولم يقدم معاوية على ذلك إلاّ بعد استئذان المسلمين واعتذر بثقل جسمه فزعم أنه بدين فأذنوا له فاتخذه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء[4].

ويأخذ ابن خلدون على رجال الدين مجاراتهم للخلفاء والأمراء فيبحثون عن مسوغات شرعية لشرب الخمر وغيرها من المنكرات، فيقول: «واشتهر

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٥.
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٧٠.
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٦٩.
(٤) ابن خلدون ج ١ ص ٢١٧.

بشربها غير واحد من الخلفاء وأهلهم ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب، فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين إلى انتحال المسوغات لشربها فأخذوا يبحثون في الفرق بين أنواعها وميّزوا بين المحلل والمحرّم منها فأجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ وفي أي أنواعه حلال وأيها حرام ويقال بالإجمال أن أهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرّمونه»[1].

وقد أفاض ابن خلدون في الحديث عن مجالس الأدب والشعر وعن احترام الخلفاء لأهل العلم فمن ذلك يقول: «والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم إلى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزيدي وسيبويه وغيرهما. وقد أوصى الأحمر بالوصية التالية «يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمن قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن وعرّفه الأخبار وروه الأشعار وعلّمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلّا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلّا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، قومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة»[2].

ويحدثنا عن ألعاب الخلفاء وملاهيهم في الأندلس فيقول: واصطنع السلطان أبو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بناحية بنزرت في بقعة ببسيط من الأرض وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه حمر الوحش فإذا ركب للصيد تخطّى السياج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج»[3].

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٥.
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٥.
(٣) المرجع السابق ج ٦ ص ٢٨١.

ولقد درس وتتلمذ على ابن خلدون عدد من المؤرخين المصريين نخص بالذكر منهم تقي الدين المقريزي الذي صاهره وتأثر به في كتاباته وقد توفي ابن خلدون سنة ٨٠٨ هـ.

وقد طبع كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» في بولاق بمصر سنة ١٨٦٧ في سبعة أجزاء، والجزء الأول منه هو المقدمة المشهورة التي ينظر فيها للتاريخ على أنه فرع من الحكمة أي الفلسفة، وأن باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها[١].

□ □ □

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٤٥.

الباب الرابع

رحَّالة المشرق

سبق أن تناولنا في شيء من التفصيل الأسباب والدوافع المتعددة التي دعت المسلمين إلى الارتحال، ولعل من أهم تلك الأسباب الرغبة الملحّة في معرفة المسالك والممالك الموصلة بين أقطار الدولة الإسلامية المترامية الأطراف وذلك من أجل جمع العلوم والمعارف أو رغبة في الكسب والتجارة، هذا فضلاً عن تأدية فريضة الحج التي تكاد تكون عاملاً مشتركاً مع كل تلك الأسباب.

وإذا كنا قد تناولنا في الباب الثالث أولئك الرحّالة الذين عنوا في المقام الأول من رحلاتهم بالجانب الجغرافي الذي سجلوه ودوّنوه في مصنفاتهم التي تدور كلها حول موضوع المسالك والممالك وتقويم البلدان، فإننا نخص بالذكر في هذا الباب الرحّالة الذين خرجوا من مشرق العالم الإسلامي بقصد الرحلة والإطلاع على بلدان العالم الإسلامي فقط دون غيرها من الأسباب المادية أو العلمية السالف الإشارة إليها، اللهم إلاّ المعرفة الشخصية ببعض بلاد المسلمين إلى جانب تأدية فريضة الحج بطبيعة الحال، ومن ثم فإنهم تركوا لنا فيما تركوا مصنّفات سجلوا فيها أخبار رحلاتهم فقط، ولم ينقلوا في، معظم الأحيان، ممن سبقهم شيئاً ولم يقتبسوا من كتب التاريخ نصوصاً اللهم إلاّ ما يكمل قصة أو يوضح حدثاً أو يسترجع خبر أثر قد إندثر.

وإذا كان الرحالة الجغرافيون قد قدّموا خدمات جليلة في مجال الجغرافيا الرياضية من حيث الأطوال والعروض والمسافات وما إليها وكذا مجال الجغرافيا الوصفية وتقويم البلدان، فإن أولئك الذين ساحوا في البلاد بقصد الرحلة دون

سواها، لم تخل رحلاتهم من قيمة أدبية تجلّت فيها عرضوه من مواد وعلوم ووصف بأسلوب جذّاب ارتفع بها إلى عالم الأدب وفي نفس الوقت وصل إلى مستوى من الخيال الفني يعتد به.

على أن أبرز ما يميّز أدب الرحلات هو التنوع في الأسلوب فمن سرد قصصي إلى حوار جذاب بأسلوب مباشر وغير مباشر إلى جنوح إلى خيال يصل في كثير من الأحيان إلى حد الأسطورة أو الخرافة وإن لم يخل من متعة ذهنية كبرى.

وقد اتخذ أستاذنا الدكتور شوقي ضيف من هذه الميزة التي انفرد بها أسلوب الرحلة عند العرب حجة قوية في دحض التهم التي وجهت إلى الأدب العربي وهو خلوه من الفن القصصي، إذ يقول: خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة. فقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللهو والعبث اللفظي والتكلّف في تزويق العبارة إيثاراً للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه، مما يفتقده كثير من الأدباء والمحترفين[1].

وليس معنى هذا أن أسلوب أدب الرحلة قد وصل إلى حد الكمال، ذلك أنه لا يخلو من كثير من العيوب، لعل أبرزها هو اعتماده على السجع أحياناً، كما يلجأ إلى الصرامة والجفاف في تناوله للموضوعات العلمية أحياناً أخرى، ومع هذا وذاك فهو يظل مشوباً في أغلب الأحيان بشيء من الطراوة والإخضرار يبقيانه عضاً وعلى شيء من اللين[2].

ويعدد شوقي ضيف مميزات أدب الرحلة فيقول: فلقد أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوعه وغنى مادته فهو تارة علمي وتارة شعبي وهو طوراً واقعي وأسطوري على السواء، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة. لذا فهو يقدّم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب. وبهذه المميزات والخصائص يمكن اعتباره نمطاً خاصاً من أنواع الأدب،

---

(١) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب ص ١٠.

(٢) المرجع السابق ص ١١.

قد لا يرقى إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة أو الشعر أو المسرحية، ولكنه يجمع بينها جميعاً دون شك.

ونود قبل أن نترجم لبعض رحّالة المشرق الذين سجّلوا مشاهداتهم في كتب عرفت (بالرحلة) أن نستدرك فنقول أننا قد تناولنا في الباب الثاني، في إيجاز ترجمة بعض الرحّالة الأوائل الذين لم تصل إلينا مدوّنات رحلاتهم، اللهم إلاّ تلك المقتطفات التي اقتبستها مصادر العصور الوسطى. ونخص بالذكر منها، سلاّم الترجمان الذي أوفده الخليفة الواثق العباسي (٢٢٧ ــ ٢٣٢ هـ/ ٨٤٢ ــ ٨٤٧ م) من مدينة سمراء إلى سور الصين العظيم، وابن فضلان مبعوث الخليفة المقتدر بالله العباسي (سنة ٣٠٩ هـ/ سنة ٩٢١ م) إلى روسيا، وأبودلف الذي أوفده الأمير الساماني نصر بن أحمد (سنة ٣٣١ هـ/ سنة ٩٤٢ م) مع بعثة لأحد أمراء الصين.

إنه برغم بساطة العرض وجمال الأسلوب وسهولة التعبير ووضوحه وخاصة في رحلة ابن فضلان وكذا التزامه بصدق الكلمة وعرضها بدون تزويق في الألفاظ أو إفراط أو تفريط في الأسلوب، مع دقة الملاحظة لطبائع البشر وطبائع الأشياء التي شاهدها أو خبرها، فإن رحلتهم اختلفت تماماً عن رحلات الرحّالة الذين نحن بصدد الترجمة لهم في هذا الباب. ذلك أن كلاًّ من الرحّالة الثلاثة ابن سلاّم الترجمان وكذا ابن فضلان وأبودلف، كانوا رسلاً موفدين بمهمة خاصة وبالتالي فإن رحلاتهم كانت سفارة رسمية التزموا فيها الصفة الرسمية إلى حد كبير ولم تترك لهم الحرية الشخصية التي تمتاز بها الرحلات الأخرى.

□ □ □

ناصر خسرو

ولد ناصر خسرو في قياديان بـالقرب من بلخ (سنـة ٣٩٤ هـ/ سنة ١٠٠٣ م) من أسرة متوسطة الحال وتثقف ثقافة واسعة وشارك في علوم عصره ونال حظاً وافراً من معارفه، فالتحق بخدمة السلطانيين الغزنويين محمود ثم ابنه مسعود، وزار الهند، ثم عاد إلى فارس وشغل منصباً كبيراً عند السلاجقة. فقد التحق ناصر بخدمة جفـري بيك السلجوقي حاكم خراسان، وتولى أمر خزانته في مرو مدة طويلة حتى نسب إليها.

وقد نشأ ناصر خسرو في جو مضطرب سياسياً ودينياً، وكان حائراً كسائر الناس في ذلك العصر في المذهب الحق الذي ينبغي له أن يتبعه،أيكون سنياً أم شيعياً. وكان ناصر خسرو واسع الإطلاع يقرأ الفلسفة ويناقش آراء الفارابي وابن سينا. وإزاء حركات تشعّب المذاهب والملل والنحل التي حرص أعداء القومية العربية والدين الإسلامي على نشرها لتحطيم الإسلام والمسلمين وتفريق كلمتهم وتشتيت وحدتهم، حاول ناصر أن يصل إلى الحقيقة فرجع إلى القرآن وكتب الحديث، ورجع إلى التوراة والإنجيل، وكتب مذاهب الهنود بلغاتها الأصلية وأطال النظر في الأفستا والزند واتصل بعلماء الأديان، مسلمين ونصارى ويهود ومجوس. وناقشهم في المسائل التي لم يهتد إلى رأي فيها فلم يظفر بمن يقنعه. ورأى أن يرحل إلى بلاد العرب وفارس وتركستان والهند، لعله يجد من يهديه إلى الطريق الحق لمعرفة الله ولكنه مع هذا كله لم يصل إلى ما يريد[1].

---

(١) يحيى الخشاب: ناصر خسرو ص ٤١ ــ ٥٢ (بالفرنسية ــ وترجمه يحيى الخشاب إلى العربية).

وقد أوصلت هذه الحالة من تشتت الفكر، ناصر خسرو، إلى حالة من الشك وصلت به أو تكاد إلى الإلحاد الذي ظهر واضحاً في شعره. فقد كان من أعظم شعراء الفرس وأغزرهم مادة، وانتهز خصومه فرصة الشك هذه وأخذوه ببعض أبيات قالها تنم عن الحيرة والشك وقد تصل إلى حد الكفر. وقد أدت هذه الحالة التي وصل إليها ناصر خسرو إلى اختلاف الآراء فيه فبعضهم يرميه بالكفر، والبعض الآخر يصفه بالتقوى ويصل نسبه بالإمام علي، رضوان الله عليه ويجعله من الحكماء المسلمين[1].

وقد أدت حالة الزيغ والشك التي وصل إليها ناصر خسرو إلى الإدمان في شرب الخمر شهراً كاملاً حتى تراءى له ذات ليلة في المنام رجلاً ينهره لأنه يدمن على الشراب وينهاه عن المعاصي ويشير إلى القبلة قائلاً: من جد وجد ثم ينصرف عنه. ويصحو ناصر خسرو من نومه ويتمثل الرؤيا وكأنها حقيقة، ويعتزم الرحلة إلى مكة، إلى القبلة التي أشار إليها محدّثه، فينصرف إلى مرو ويطلب إعفاءه من الوظيفة ويعزم على تأدية فريضة الحج وكان ذلك في جمادي الآخرة (سنة **٤٣٧** هـ/ سنة **١٠٤٥** م).

غادر ناصر خسرو مرو مستصحباً أخاه أبا سعيد وغلاماً هندياً في رحلته التي كانت في الحقيقة تفسيراً للرؤيا التي ارتأها وهي الحج إلى قبلة المسلمين ألا وهي بيت الله الحرام. وقد قسّم الدكتور يحيى[2] الخشاب الرحلة إلى مراحل ثلاث، المرحلة الأولى وتبدأ بخروجه من مرو (سنة **٤٣٧**/ سنة **١٠٤٥** م) ومنها إلى نيسابور والري وتبريز وميافارقين وآمد وحران ودخل سورية بطريق منبج. وزار أمهات المدن في بلاد الشام مثل حلب وحماة والمعرة، ثم اتجه إلى الشاطىء فزار طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكاء ثم الرملة ومنها اتجه إلى بيت المقدس ثم حج وعاد إلى القدس بطريق دمشق وسافر براً إلى مصر فوصل (سنة **٤٣٩** هـ/ سنة **١٠٤٧** م) وأقام في مصر ثمانية أشهر.

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامة ص **٩** (ترجمة يحيى الخشاب).

(٢) ناصر خسرو: سفرنامة ص **١٩**.

ويبدو واضحاً أن المرحلة الأولى من رحلته كانت بقصد أداء فريضة الحج وليس له مأرب سياسي أو ديني، وفي أثناء عودته من مكة إلى بيت المقدس كان في نيته أن يذهب إلى مصر. وليس من شك أن رغبته في زيارة مصر كانت سعياً وراء البحث عن الحقيقة، حيث يوجد بها مذهب ديني عرف بنشاط دعاته في خراسان. وفي هذه المرحلة اتصل ناصر خسرو بالعلماء يناظرهم ويتحدث إليهم، فقد خرج من نيسابور في صحبة الخواجة الموفق[١]، كما قابل عليّ النسائي في سمنان[٢]، ومقابلته في تبريز الشاعر قطران الذي سأله عما أشكل عليه من أشعار الدقيقي. وقد نزل ضيفاً في بيت رجل بمدينة قرول، فطلب منه أعرابي أن يحفظه القرآن فأخذ ناصر خسرو يتفكه معه ويحفظه سورة قل أعوذ برب الناس[٣].

وتبدأ المرحلة الثانية من رحلته بعودته لتأدية فريضة الحج للمرة الثانية (سنة **٤٣٩** هـ/ سنة ١٠٤٧ م) وعودته إلى مصر حيث أقام ناصر خسرو ثلاث سنوات وثلاثة أشهر حتى (سنة **٤٤٢** هـ/ سنة ١٠٥٠ م). ولكنه لم يذكر شيئاً عن اهتمامه الشديد بالدعوة للمذهب الشيعي الإسماعيلي مذهب الدولة الفاطمية اللهم إلّا تلك الإشارات العديدة للمستنصر على أنه أمير المؤمنين[٤]. إلّا أننا نستطيع أن نتبينّ أنه كان يتمتع بمركز ممتاز أثناء إقامته الطويلة بها. فقد حج مرتين في صحبة رسول الخليفة على الرغم من حالة القحط التي اجتاحت الحجاز في وقته. وعاد في المرة الثانية في صحبة أمير مكة، وسمح له رؤية مائدة الخليفة يوم العيد مما يدل على تمتعه بمعاملة ممتازة من الخليفة والوزير وهذا يقطع باعتناقه المذهب الإسماعيلي مذهب الفواطم، الذي تحدث عنه في ديوانه[٥].

أما المرحلة الثالثة من الرحلة فتبدأ بمغادرة عاصمة الفاطميين نهائياً وذهابه

---

(١) سفرنامة ص ٣.
(٢) المرجع السابق ص ٣.
(٣) المرجع السابق ص ١٠.
(٤) سفرنامة ص ٦٣ ــ ١٠٤.
(٥) المرجع السابق ص ٢٨.

إلى الحج بطريق عيذاب إلى جدة، وبعد تأدية الفريضة للمرة الثالثة، عاد إلى بلخ عن طريق الحجاز وفلج والحسا والبصرة ثم إلى بلخ حيث وصلها (سنة ٤٤٤ هـ/ سنة ١٠٥٢ م).

عاد ناصر خسرو إلى بلخ (سنة ٤٤٤ هـ/ سنة ١٠٥٢ م) كما أسلفنا القول، في صحبة أخيه أبي الفتح عبد الجليل، وقد طوَّف كثيراً في خراسان التي عينّ فيها داعية من قبل الفاطميين. ثم انتقل إلى مازندران فأقام بها زمناً طويلاً حتى نسب إليها وقد استطاع أن يقنع كثيراً من أهلها بالدخول في مذهبه. إلاّ أن دعوته هذه وشهرته بمذهب الإسماعيلية مما يتنافى مع مذهب الدولة السنية، أثار الناس والحكومة عليه، فاعتدى على منزله واضطر أهله إلى هجره، كما هاجر هو إلى (يمُكان) حيث أخذ يصنف الكتب والرسائل في مذهبه، وكان بعضها يوحي من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله نفسه[١].

وقد صنَّف ناصر خسرو كثيراً من المؤلفات منها المنظوم ومنها المنثور، لعل أهمها هي الديوان وسعادت نامة وروشنائي نامة وكلها منظومة. أما المنثورة فهي زاد المسافرين وخوان الإخوان والرسالة ووجه ودين ثم موضوع رحلتنا سفر نامة. كما عثر على مخطوطة تحتوي على جزء من كتاب كشايش ورهايش وكتابه وجه ودين أراد أن يقلّد به كتاب (البيان) الذي وضعه غياث أحد كبار رجّال الدعوة الباطنية في أوائل القرن الثالث الهجري، وهو يحوي شرحاً باطنياً لأركان الإسلام والجهاد والإمامة[٢].

وظل ناصر خسرو يدعو لمذهبه في (يمُكان)، ولا يزال قبره هناك للآن يؤمه الإسماعيليون النزاريون[٣] من الصين وآسيا الوسطى الروسية والهند والأفغان.

(١) ناصر خسرو: خوان الإخوان ص ١١٦ (نشر يحيى الخشاب).
(٢) ناصر خسرو: سفرنامة ص ٣٢.
(٣) نزار هو ابن الخليفة المستنصر.

وقد قام بترجمة كتاب سفرنامة عن الفارسية العلّامة شارل شيفر (Charles Schefer) والتعليق عليه مع مقدمة وترجمة لناصر خسرو وذلك في باريس. كما نشره (غنى زادة) في برلين ثم ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب في القاهرة. وقد كتب ناصر خسرو حوادث رحلته يوماً فيوماً، تشهد بذلك دقته في الوصف لبعض الأماكن وبعض الحفلات، فالصفات التي يصفها والأسماء التي يذكرها ليست مما يعلق بالذاكرة سنوات عدة، ثم يكون بمثل هذه الدقة. كما كان ناصر خسرو دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصّي الأخبار ورواياتها، مما أثرى رحلته (سفرنامة)[1] بالصور المليئة بالمعلومات عن البلاد التي زارها،كما ألقت رحلته كثيراً من الضوء على الشؤون الاقتصادية والاجتماعية قبيل مجيء الحملات الصليبية إلى بلاد الشام.

وقد أحب ناصر خسرو مصر حباً شديداً حتى قيل أن تعصّبه للمذهب الإسماعيلي جعله يبالغ في وصف مصر ويمجّدها ويثني عليها، كما يبالغ في التحدث عن ثراء المصريين وعما هم فيه من الرغد والأمن فمن ذلك قوله في سيرة الخليفة الفاطمي[2]: بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حد أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم، بل يسدلون عليها الستائر. ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شيء منها. ويحكى أنه كان بمصر يهودي وافر الثراء يتجر بالجواهر الكريمة، وكان مقرباً من السلطان الذي كان يعتمد عليه في شراء ما يريد من الجواهر الكريمة، وذات يوم اعتدى عليه الجنود وقتلوه. فلما ارتكبوا هذا الجرم خشوا بطش السلطان، فركب عشرون ألف فارس منهم وخرجوا إلى الميدان. وهكذا خرج الجيش إلى الصحراء وخاف أهل المدينة مغبّة هذه المظاهرة إذ ظل الجيش في الصحراء حتى منتصف النهار، فخرج إليهم خادم القصر ووقف بباب السراي وقال: إن السلطان يسأل إذا كنتم مطيعين أم لا؟ فصاحوا صيحة واحدة: نحن عبيد مطيعون ولكننا أذنبنا» فقال الخادم: يأمركم السلطان بأن تعودوا فعادوا في الحال.

---

(١) سفرنامة ص ٩.
(٢) سفرنامة ص ١٠٨.

ويستطرد ناصر خسرو في التعريف باليهودي ومدى ثروته التي هي جزء من ثروة مصر فيقول: واسم هذا اليهودي المقتول أبوسعيد، وكان له ابن وأخ، وقيل إنه لا يعرف مدى غناه إلاّ الله، فقد كان على سقف داره ثلثمائة جرة من الفضة زرع في كل منها شجرة كأنها حديقة وكلها أشجار مثمرة. وقد كتب أخوه لما ملكه الفزع، رسالة إلى السلطان يقول فيها: «إني أقدم للخزانة مائتي ألف دينار مغربي حالاً». فأمر السلطان بعرض الرسالة على الناس وتمزيقها على الملأ، وقال: «كونوا آمنين وعودا إلى بيوتكم فليس لأحد شأن بكم، ولسنا بحاجة لمال أحد» واستمالهم إليه[1].

ويتحدث عن القضاة ورواياتهم والمراسيم التي يصدرها الخلفاء يدعو فيها الناس لتأدية فريضة الحجّ فيقول: «ويتقاضى قاضي القضاة ألفي دينار مغربي في الشهر، ومرتب كل قاض على قدر مرتبته، وذلك حتى لا يطمع القضاة في أموال الناس أو يظلمونهم. والعادة في مصر أن يقرأ مرسوم السلطان في المساجد في منتصف رجب وهذا نصه: «يا معشر المسلمين، حلّ موسم الحج، وسيجهز ركب السلطان كالمعتاد وسيكون معه الجنود والخيل والجمال والزاد». وينادي بذلك في شهر رمضان أيضاً، ويبدأ الناس في السفر ابتداء من أول ذي القعدة، وينزلون في موضع معين، ثم يسيرون في منتصف هذا الشهر».

ويسجل لنا ناصر خسرو حالة القحط التي أصابت الحجاز ونصيحة الخليفة للناس بعدم السفر إشفاقاً منه على المصريين وعلى أهل الحجاز وعلى المسلمين عامة فقد جاء في المرسوم الذي قرىء على الناس سنة تسع وثلاثين وأربعمائة وهي السنة التي حج فيها ناصر خسرو للمرة الأولى، ما يلي: «يقول

---

(١) ويعلّق يحيى الخشاب عن وضع اليهود في مصر نقلاً عن «Mann: The jews in Egypt» أن الخليفة أعطى أخوي اليهودي المقتول أماناً لكنه لم يستمر إلاّ بضع ساعات ثم قتل الإخوان بعد ذلك في نفس اليوم. وعندي أن نص ناصر خسرو يخالف ما استنتجه (Mann) الذي اندفع يعدد تضحيات اليهود. وفي رأينا أن شهادة ناصر خسرو هي التي يؤخذ بها حيث أنها شهادة شخص عاش في مصر ورأى بعينه كيف يعامل اليهود وغيرهم من أهل الذمة (سفرنامة ص ١٠٩).

أمير المؤمنين إنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام، فإن به قحطاً وضيقاً وقد هلك به خلق كثيرون، وإني أقول هذا شفقة بالمسلمين»[١].

ويتبينّ لنا دقة وصف ناصر خسرو عندما يحدثنا عن وصف مائدة الخليفة فيقول: «يقيم السلطان مأدبة في كل من العيدين، ويأذن بالإستقبال في قصره للخواص والعوام. وتنصب مائدة الخواص في حضرته ومائدة العوام في سرايات أخرى. وقد سمعت كثيراً عن هذه المآدب فرغبت في رؤيتها رؤيا العين، فذهبت عند أحد كتّاب السلطان، وكنت قد صاحبته فتوطّدت الصداقة بيننا وقلت له: رأيت مجالس ملوك وسلاطين العجم مثل السلطان محمود الغزنوي وابنه السلطان مسعود، وقد كانا ملكين عظيمين ذوي نعمة وجلال، وأريد أن أرى مجالس أمير المؤمنين». فنقل رغبتي إلى الموكل بالستار المسمى «صاحب الستر» وقد تفضل هذا فسمح لي بالذهاب، في آخر رمضان سنة أربعين وأربعمائة (سنة ١٠٤٩)، وكان المجلس قد أعد لليوم الثاني، وهو يوم العيد، حيث يحضر السلطان بعد الصلاة فيجلس في صدر المائدة.

ويستطرد في وصف أيوانات القصر وأجنحته وقاعاته، فيقول في وصف قاعة الذهب[٢]: «كان بهذا الأخير تخت يشغل عرضه بتمامه وعلوه أربع أذرع وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث، وعليه صور المصطاد (لعلها الصيد) والميدان وغيرهما، كما أن عليه كتابة جميلة. وكل ما في هذا الحرم من الفرش والطرح من الديباج الرومي والبوقلمون، نسجت على قدر كل موضع تشغله. وحول التخت درابزين من الذهب المشبك (لعله يقصد مقصورة) يفوق حد الوصف. ومن خلف التخت، بجانب الحائط درجات من الفضة. وبلغ هذا التخت من العظمة حتى أني لو قصرت هذا الكتاب كله على وصفه ما استوفيت الكلام وما كفى»[٣].

---

(١) سفرنامة ص ١١٠.

(٢) المقريزي: ج ٢ ص ١٥٢ قاعة الذهب هي قاعة العرش بالقصر الشرقي الكبير (الآن حلّ محلها الصاغة).

(٣) سفرنامة ص ١٠٦ ــ ١٠٧.

وينتقل ناصر خسرو إلى الحجاز فيصف لنا جدة فيقول: «وجُدة مدينة كبيرة لها سور حصين، تقع على شاطىء البحر وبها خمسة آلاف رجل، وفيها أسواق جميلة وقبلة مسجدها الجامع ناحية المشرق. ولها بوابتان إحداهما شرقية تؤدي إلى مكة والثانية غربية تؤدي إلى البحر. ويبلغ السائر من جدة جنوباً على شاطىء البحر، اليمن ومدينة صعدة. وإذا سار شمالاً بلغ الجار وهي تابعة للحجاز. وأمير جدة تابع لأمير مكة تاج المعالي[1] بن أبي الفتوح الذي هو أمير المدينة أيضاً. وقد ذهبت إلى أمير جدة فأكرم وفادتي وأعفاني مما كان يجب عليَّ من المكس ولم يطلبه. وقد كتب إلى مكة يقول عني: «هذا رجل عالم فلا يجوز أن يؤخذ منه[2]. . »).

ويحدثنا عن الطائف وعن مطار والثريا وجزع وسربا فيقول: «وقصبة الطائف هذه مدينة صغيرة بها حصن محكم وسوق وجامع صغيران، وبها ماء جار وأشجار ورمان وتين كثير وبجوارها قبر عبد الله بن عباس، رضي الله عنه. وقد بنى خلفاء بغداد (أي العباسيون) هناك مسجداً كبيراً يقع القبر في زاويته على يمين المحراب والمنبر، وبنى الناس هناك بيوتاً سكنوها». ويستطرد في وصف المدينة فيقول: سرنا من الطائف واجتزنا جبالاً وأراضي صخرية وكنا نجد حيثما سرنا قلاعاً محصنة وقرى. وقد أروني وسط الصخور قلعة خربة، قيل إنها كانت بيت ليلى وقصتهم في هذا عجيبة. ومن هناك بلغنا قلعة تسمى (مُطار) وبينها وبين الطائف إثنا عشر فرسخاً. ثم بلغنا ناحية تسمى (الثريا) بها نخيل كثر وتزرع أرضها بمياه الآبار والسواقي. وبعد ذلك مررنا بقلعة تسمى (جزع)، وعلى مسافة نصف فرسخ منها أربع قلاع، نزلنا عند أكبرها وتسمى حصن بني نسير[3]، وهناك قليل من النخيل.

---

(١) هو تاج المعالي بن أبي الفتوح حسن بن جعفر العلوي، من بني موسى العلويين الذين حكموا مكة والمدينة منذ (سنة ٣٥٠/ سنة ٩٦١م) وكان آخرهم أبو المعالي (في عهد ناصر خسرو طبعاً) (ابن الأثير ج ١٠ ص ١٢).

(٢) سفرنامة ص ١٢٠ ــ ١٢١.

(٣) صححها (Shifer) ببني نمير، وهم من أبناء عامر، يسكنون الجبال والوديان في جزء من بلاد نجد واليمامة (ياقوت ج ٢ ص ٢٨٩) (عن سفرنامة ص ١٣٨).

ويستمر في وصف رحلته حتى يصل إلى سربا فيقول: وبلغنا مكاناً في وسط أرض ملؤها الصخور يسمى (سربا) رأيت به جبالاً كل منها كالقبة[1] لم أر مثلها في أي ولاية. وفي كل جهة في الطريق بها شجر به ثمر في حجم حبة السلة، كنت أقنع بأكل حبات منها. وبعد معاناة ومشاق ومتاعب كثيرة بلغنا (فلج) في الثالث والعشرين من صفر[2] (سنة **٤٤٣** هـ ــ سنة **١٠٥١** م).

فإذا ما وصل ناصر خسرو مدينة البصرة استرعى انتباهه عملية المد والجزر بالخليج العربي فيقول: يحدث المد ببحر عمان (الخليج العربي) عادة مرتين كل أربع وعشرين ساعة، فيرتفع الماء مقدار عشر أذرع، وحين يبلغ الأرتفاع أقصى مداه يبدأ الجزر بالتدريج فينخفض الماء عشراً أو إثني عشرة ذراعاً.

ويعرف بلوغ ارتفاع الماء مقدار الأذرع العشر بظهوره على عمود أقيم هناك أو على حائط. وحين يبدأ المد يدفع البحر ماءهما مسافة أربعين فرسخاً حتى يظن أنهما يرتدان إلى منبعيهما (أي دجلة والفرات). ويقال إن المد والجزر متعلقان بالقمر فيبلغ المد أقصى مداه حين يكون القمر على الأفقين، يعني أفقي المشرق والمغرب، ومن ناحية أخرى حين يكون القمر في اجتماع الشمس واستقبالهما يزداد الماء، أي أن المد يزيد في هذه الأوقات ويعظم ارتفاعه، وحين يكون القمر في التربيعات تأخذ المياه في النقصان»[3].

ويعدد لنا ناصر خسرو أحياء مدينة البصرة في عهده فيقول: والبصرة عشرون ناحية، في كل منها كثير من القرى والمزارع وهي: جِشان شربة، بلاس، عقر ميسان، المقيم، نهر حرب، شط العرب، سعد، سام، الجعفرية، المشان، الصمد، الجونة، الجزيرة العظمى، مروت، الشرير، جزيرة العوش، الحميدة، الحويزة، المنفردات.

---

(١) تسمى هذه الجبال بجبل الطويق (عن شيفر ص ٢١٩، سفرنامة ص ١٣٩).
(٢) سفرنامة ص ١٣٩.
(٣) سفرنامة ص ١٤٩.

أما عن ميناء البصرة فيقصّ علينا القصة التالية: ويقال إن من المتعذر في وقت ما أن تمر سفينة من فم النهر الأبلة لعظم عمق مائه، فأمرت امرأة من أثرياء البصرة بتجهيز أربعمائة مركب ملأتها كلها بنوى التمر وأغرقتها هناك بعد إحكام سدادها، فارتفع القاع وتيسّر عبور السفن. وفي الجملة فقد غادرنا البصرة في منتصف شوال سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (سنة ١٠٥١ م).

ونسير مع ناصر خسرو إلى عبادان على الشاطىء الشرقي للخليج حيث يقول: «تقع عبادان على شاطىء البحر وهي كالجزيرة، إذ الشط هناك ينقسم إلى قسمين مما يجعل بلوغها متعذراً من أي ناحية من غير عبور الماء. ويقع المحيط جنوب عبادان، ولذا فإن الماء يبلغ سورها وقت المد، كما أنه يبتعد عنها أقل من فرسخين أثناء الجزر. ويشتري بعض المسافرين الحصير من عبادان، ويشتري البعض الآخر المأكولات منها»[١].

ويصف لنا المنار الذي يهدي السفن ليلاً في الخليج أمام عبادان والذي يعرف بالخشاب فيقول: «ولما ارتفعت الشمس، ظهر في البحر شيء يشبه العصفور الذري، وكان يكبر كلما أقتربنا منه، فلما واجهناه من اليسار على مسافة فرسخ خالفت الرياح، فرموا المرساة، ولفوا الشراع فسألت ما هذا؟ قالوا إنه الخشاب[٢]. ويتكوّن من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق. وهو مربع قاعدته متسعة وقمته ضيقة، ويرتفع عن سطح البحر أربعين ذراعاً وعلى قمته حجارة وقرميد مقامة على عمد خشب كأنها سقف، ومن فوقها أربعة عقود يقف بها الحراس»[٣].

ويستطرد ويحدثنا عن تاريخ تلك المنار فيقول: يقول البعض إن الذي بنى الخشاب هذا تاجر كبير، ويقول آخرون بل بناه أحد الملوك، وكان الغرض منه شيئين أحدهما أنه بني في جهة ضحلة يضيق البحر عندها، فإذا بلغتها سفينة

---

(١) سفرنامة ص ١٥١.

(٢) الخشبات: هي أساطين منصوبة في البحر يوقد فوقها بالليل سراج ليهتدي به أصحاب المراكب (الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ١٣٤).

(٣) سفرنامة: ص ١٥١.

كبيرة ارتطمت بالأرض. ففي الليل يشعلون سراجاً في زجاجة بحيث لا تطفئه الرياح وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون.

والثاني ليعرف الملاحون الاتجاه، وليروا القرصان إن وجدوا فيتقونهم بتحويل اتجاه السفينة، ولما اجتزنا الخشاب، بحيث أصبح لا يرى، رأينا آخر مثله، ولكن ليس على سطحه قبة لأنهم لم يستطيعوا إكماله»[١].

□ □ □

(١) سفرنامة: ص ١٥٢.

أبو المظفر
أسامة بن مُرْشد بن علي بن منقذ
الكناني

لقد أجمل لنا بروكلمان[1] ترجمة رحالتنا أسامة إجمالاً مفيداً، رأينا أن نبدأ به ثم نعود فنفصّل هذه الترجمة. يقول بروكلمان: أدخل أسامة ابن منقد فناً جديداً في الأدب، وهو أن يكتب الأديب سيرته بقلمه. ولد في السابع والعشرين من جمادى الآخرة (سنة ٤٨٨ هـ/ سنة ١٠٩٥ م) في شَيْزَر حيث كانت أسرة تملك إمارة صغيرة. وفي (سنة ٥٣٢ هـ/ سنة ١١٣٨ م) نفاه عمه عز الدين الذي كان يتولى الحكم، والذي رأى في شجاعة أسامة وطموحه خطراً يهدده، فذهب أسامة إلى دمشق حيث استقبله الأتابك شهاب الدين محمود بن تاج الملك ابن بوري استقبالاً حسناً.

واستطاع أسامة في دمشق أن يعقد علاقات صداقة مع «فرسان المعبد» من الصليبيين، لأن أسرة بوري كانت ترتبط بمعاهدة صداقة مع مملكة بيت المقدس. ثم أبعد عن دمشق بسبب المؤامرات، فذهب إلى مصر سنة(٥٣٨ هـ/ سنة ١١٤٤ م)، وهناك عاش أولاً في غزلة هادئة لا يشغل نفسه إلّا بالصيد، وفي سنتي سنة ٥٤٤ هـ، سنة ٥٤٨ هـ، اشترك في قتال الصليبيين بعسقلان.

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ٦ ص ٢٢ (ترجمة عبد الحليم النجار).

ولما سئم العيش بمصر عاد (سنة ٥٤٩ هـ/ سنة ١١٥٤ م) إلى دمشق حيث كان السلطان قد آل إلى نور الدين بن زنكي، وكان أسامة قد خدم في جيش زنكي بالموصل من (سنة ١١٢٩ إلى سنة ١١٣٨ م)(١).

وبعد أن أدى فريضة الحج (سنة ٥٥٧ هـ/ سنة ١١٦٢ م) اشترك في حملة نور الدين ضد الفرنجة، وهي التي انتهت بالإستيلاء على حارم (سنة ٥٦٠ هـ/ سنة ١١٦٤ م). وفي هذه السنة نفسها انتقل إلى ديار بكر، فلقبه قرة أرسلان الأرتقي بحصن كيفا لقاء حسناً، فقضى هناك عشر سنوات شغل فيها نفسه بالأدب خاصة. وفي (سنة ٥٧٠ هـ/ سنة ١١٧٤ م) استدعاه صلاح الدين الأيوبي إلى بلاطه بدمشق وكان أسامة قد لقي الحظوة لدى صلاح الدين من قبل ولكنه فقد هذه الحظوة بعد ذلك. وكان عليه أن يبقى في دمشق حين انتقل السلطان إلى القاهرة (سنة ٥٧٢ هـ/ سنة ١١٧٦ م) للإقامة بها. وتوفي أسامة بن منقذ بدمشق في الثالث عشر من رمضان (سنة ٥٨٤ هـ/ سنة ١١٨٨ م)(٢).

أما عن إنتاجه العلمي فيفصله بروكلمان فيذكر:

١ ــ كتاب الاعتبار، تناول فيه سيرته بقلمه، وفيها أوصاف ملوّنة للحياة في عصره. وقد نشره ديرنبورج (H. Derenbourg) في باريس سنة ١٨٨٦. كما نشره فليب حتي معتمداً على مخطوطة الإسكوريال بمدريد، في برنستون (Princeton) سنة ١٩٣٠ م. كما ترجمه فليب حتي إلى الإنجليزية في نيويورك سنة ١٩٢٧ وترجمه كذلك إلى الإنجليزية بوتر (Poter) في لندن سنة ١٩٢٩. هذا فضلاً عن الترجمة الألمانية لشومان (Schuhmann) في أنسبروك سنة ١٩٠٥،

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢ ص ٤٠٠، ياقوت: إرشاد الأريب ج ٢ ص ١٧٣، ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٩.

(٢) طاهر النعساني: مجلة المجمع العلمي بدمشق ص ٢٣٠ (المجلد العاشر سنة ١٩٣٠، فليب حتي في المحلة السابقة ص ٥١٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٣.

والترجمة الروسية لسر (Sallier) في بتروجراد سنة ١٩٢٢ وألحق بها كراتشكوفسكي بهذه الترجمة مقدمة وملاحظات وثبت للمراجع.

٢ ــ وتصنيفه الثاني هو «كتاب البديع في البديع» تناول فيه ذكر محاسن وعيوب الأسلوب الشعري[١].

٣ ــ كتاب المنازل والديار، مخطوط بقلم المؤلف أكمله في حصن كيفا سنة ٥٦٨ هـ/ سنة ١١٧٢ م) وقد نشره مصطفى حجازي سنة ١٩٦٨ (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية).

٤ ــ وكتاب «لامية الآداب» ويشتمل على كتاب الوصايا وكتاب السياسية وكتاب الكرم وإطعام الطعام وكتاب الشجاعة والأدب والبلاغة وكتاب ألفاظ الحكمة في معان شتى[٢]. وكتاب لباب الأدب ويشير فيه إلى مصنّفات أخرى له، هي فضائل الخلفاء الراشدين[٣]، والتأسي والتسلي من المراثي والتعازي[٤]، ودرء الظالم وردّ المظالم[٥]، والشيخ والشباب[٦].

٥ ــ وكتاب «تلخيص مناقب العمرين»، (أي عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز) لابن الجوزي[٧].

٦ ــ ولعل من أطرف مصنّفات أسامة بن منقذ هو كتاب «العصا»[٨] على أن هذا العنوان ليس من ابتداع أسامة، ذلك أنه يذكر لنا في مقدمته الباعث له

---

(١) نشره أحمد بدوي وحامد عبد المجيد بعنوان (البديع في نقد الشعر) (القاهرة سنة ١٩٦٠).
(٢) نشره أحمد محمد شاكر بالقاهرة سنة ١٩٣٥.
(٣) لباب الأدب ص ١٧٣.
(٤) المرجع السابق ص ٢٩٤، ٤١٠.
(٥) المرجع السابق ص ٣١١.
(٦) المرجع السابق ص ٣٧٧.
(٧) نشرة أحمد تيمور بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١٠ ص ٣١٣.
(٨) نشره عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات ج ١ ص ١٧٥.

على هذا التأليف، وهو قصة قصّها عليه والده جاء فيها على لسان أبي يوسف القزويني مخاطباً أبا الحسن بن بوين حين أمسك من كتبه كتاباً يسمى «العصا» لمؤلف ضاع اسمه، «ما أحوجك أن يكون ما في يدك فوقها» قال أسامة[1]: «ولي منذ سمعت هذا الخبر نحو من ستين سنة أتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر فلا أجد من يعرفه. وكلما تعذر وجوده ازددت حرصاً على طلبه إلى أن حداني اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا».

ويعلّق عبد السلام هارون[2] على كتاب العصا لأسامة فيقول: ويدور في خلدي أن ذلك الكتاب الذي ظل أسامة يبحث عنه دهراً إنما هو كتاب «العصا» للجاحظ وهو من مشتملات البيان والتبيين وأن أسامة إنما التبس عليه الأمر فظن ذلك الكتاب الذي دار حوله الحديث كتاباً مستقلاً لمؤلف آخر غير الجاحظ، على حين أنه عرف «كتاب العصا» للجاحظ واقتبس منه كثيراً في كتابه هذا.

ومع تقديرنا العظيم للأستاذ عبد السلام هارون محقق مخطوطة «العصا» لأسامة ولرأيه، إلّا أننا لا نتفق معه بأن الكتاب الذي يبحث عنه أسامة قرابة ستين عاماً كما جاء في مقدمة «المخطوطة» هو من مشتملات كتاب البيان والتبيين للجاحظ وذلك اعتمادنا على أن أسامة قرأه واقتبس منه. وفي الحقيقة أن هذا السبب لا ينهض دليلاً مقنعاً على أن أسامة ظن لم يعرف أن الكتاب المفقود، هو في الواقع من تصنيف الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، بل على العكس من ذلك فإننا نعتقد أن قراءة أسامة واقتباسه من «عصا»[3] الجاحظ خير دليل على اقتناعه بأنه موضوع آخر غير كتاب العصا المفقود.

---

(١) أسامة: العصا المقدمة.

(٢) نوادر المخطوطات ج ١ ص ١٧٨.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين المجلد الثاني ج ٣ ص ٣٥ ــ ١١٣.

أما من حيث أسلوب كتاب «العصا» لأسامة، فهو يمتاز بالعناية الفائقة يسرد ما يعرض له في حياته من أحداث هامة وما يتلقفه من أخبار وقصص طريفة ولا سيما أخبار الصالحين والزهاد، مثل قصة جرار وقصة حسن الزاهد[١] والظريف من قصص الأقدمين[٢].

هذا فضلاً عن الأشعار التي ألفها خصيصاً في موضوع العصا والتي دبج بها مؤلفه وذلك على غرار ما صنع في كتابه «الاعتبار» وكتاب «لباب الآداب».

أما تفصيل ترجمة حياة رحّالتنا أسامة بن منقذ، فقد ولد أسامة كما سبق القول بشيزر في جمادي الآخرة (سنة ٤٨٨ هـ/ سنة ١٠٩٥ م)، ويذكر سنان الدولة شبيب بن حامد بن حميد، ابن عم أسامة فيقول: «ولدت أنا وهو (أي أسامة) في يوم واحد يوم الأحد السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربع[٣] مائة».

وشَيْزر التي ولد بها رحالتنا أسامة بن منقذ، بلدة ذات قلعة حصينة تقع على نهر العاصي إلى الشمال الغربي من حماة وتعد في عمل حمص[٤]. ويصف ياقوت قلعة شيزر فيقول[٥]: قلعة يشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأرند[٦] عليه قنطرة في وسط المدينة، أوله من جبل

---

(١) نوادر المخطوطات ج ١ ص ٢٠٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١ ص ١٩٩ وهي: قصة «العصا فرس جذيمة الأبرش بن مالك الأزدي ملك الحيرة».

(٣) أسامة: الاعتبار ص ١٢٤.

(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ٧٥، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧٩.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ٣٨٣؛ مراصد الإطلاع: ج ٢ ص ١٤٠.

(٦) في الأصل: (الأردن) تحريف، وهو رافد من روافد نهر العاص (حسن عباس: أسامة بن منقذ ص ٩).

لبنان تعد في كورة حمص. وقد وصفها أبو الفداء[1] بقوله: وهي ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة أكثرها الرمان، قال في العزيزي، بينها وبين حماة تسعة أميال، وبينها وبين حمص أيضاً ثلاثة وثلاثون ميلاً. ومن شيزر إلى انطاكية ستة وثلاثين ميلاً، ولها سور من لبن، ولها ثلاثة أبواب، والعاصي يمر مع السور من شماليها.

لقد كان لأسرة أسامة أثر كبير في تكوينه وتنشئته، فقد كان والده الشخصية الأولى التي تأثر بها، يدل على ذلك مدى الحب والإعجاب اللذين احتفظ بهما أسامة لوالده منذ نعومة أظفاره وظلا يملآن جوانحه حتى بعد أن تخطّى والده التسعين من عمره، ولا غرابة في ذلك فقد كرَّس الأمير مرشد بن علي حياته لرعاية أولاده، وعنى عناية خاصة بولده أسامة.

وإذا كان الولد حقاً سر أبيه في معظم الحالات ــ وهو كذلك مع أسامة ــ فلا بد لنا أن نعرف شخصية الأمير مرشد في شيء من التفصيل. كان مرشد شديد التديّن، فقد حفظ القرآن وقرأ العربية على أستاذه[2] أبي تراب حيدرة، فبرع في علوم القرآن، كما دأب على نسخ القرآن فقد كان حسن الخط[3].

ذكره السمعاني[4] فقال: «من الأمراء الفضلاء المجودين في الأدب وصنعة الشعر. رزق أولاداً كباراً فضلاً شعراء ورأيت مصحفاً بخطه كتبه بماء الذهب على الطلق الصوري، ما أظن أن الأعين رأت أحسن منه».

ويبدو أن الأمير مرشد قد ورث التديّن عن والدته التي شاهدها أسامة وتحدث عنها في كتابه «الاعتبار» وقال: «إنها كانت من صالحي المسلمين في

---

(١) تقويم البلدان ص ٢٦٣.
(٢) أسامة: الاعتبار ص ٢١٥.
(٣) المرجع السابق ص ٥٣.
(٤) السمعاني: الأنساب ص ٣٤٦، ياقوت معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٢٦.

الدين دقة وصوماً وصلاة حتى أنها كانت تأبى التيسير على نفسها في الصلاة مع أنها شارفت المائة سنة»[١].

وإلى جانب تديّنه كان مرشد فارساً شجاعاً كثير المباشرة للحروب أثخن بدنه بالجراح التي رآها أسامة. كما كان شديد الثراء فكانت له ضياع كبيرة يديرها له وكلاء. ولكنه لم ينفق هذا المال في معصية، بل أنفقها في أنواع البر والخيرات، أما وسائل المتعة والتسلية التي كان ينفق فيها بعض أمواله فكانت رياضة الصيد التي توافق الحياة الحربية الخشنة وميوله الدينية التي عاشها حتى قيل أنه كان يركب للصيد وهو صائم، فقد كان «يركب إلى الصيد يوماً ويستريح يوماً»[٢].

أما عن أم أسامة وأخت له كبيرة فلم يرد لهما ذكر في كتاب أسامة (الإعتبار) إلاّ في سياق الأحداث، ذلك أنه عندما هاجم الإسماعيلية حصن شيزر خرج الرجال لقتالهم، وتصادف أن عاد أسامة إلى داره لطلب شيئاً من سلاحه، وكانت أمه تظنه قتل، فإذا به يرى أمه قد أجلست أخته على روشن[٣] يشرف على الوادي، فلما سألها عما تفعله، أجابته: «يا بني أجلستها على الروشن وجلست برا منها، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي، فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والجلاجين مأسورة» وهذا يدل على مقدار نخوة أمه التي لا تقل عن نخوة الرجال.

وكان يتكلّف الأمير مرشد في سبيل استحضار البزاة والشواهين والصقور والفهود الفارهة والكلاب السلجوقية والزغارية والجياد من أجل رياضة الصيد الأموال الباهظة. وكان لديه عدد من الفهود المدرّبة اختص منها فهدة كانت

---

(١) الاعتبار ص ١٢٦ — ١٢٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٩.

(٣) الروشن: الرف والكوة والشرفة البارزة عن سمت الجدار، والجمع رواشن.

تقيم لديه في داره، وقد خصّها بجارية تخدمها، وكانت هذه الفهدة لا تؤذي أسراب الغزلان وغيرها من الحيوان الذي يسرح ويتوالد في أفنية الدار[١].

وكان أسامة أكثر إخوانه غراماً بالصيد وأعظمهم مهارة فيه، ويروي لنا أسامة كيف طارد برذوناً[٢] انفلت منهم من الصباح الباكر إلى بعد العصر، حتى قلق عليه والده فيقول: وأخذته وعدت والوالد رحمه الله واقف في ظاهر البلد ينتظرني بالصيد ولا ينزل في داره فالبراذين بالوحش أشبه مما هي بالخيل[٣].

ويحدثنا أسامة عن أسد ظهر على الجسر وأخذ يهدد أهل شيزر فيقول: وخرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر، فلما وصلنا حمل علينا من أجمة كان فيها فحمل على الخيل، ثم وقف وأنا وأخي بهاء الدولة ــ رحمه الله ــ بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي ــ رحمهما الله ــ ومعهما جماعة من الجند. والأسد قد ربض على جرف النهر يضرب بصدره على الأرض ويهدر. فحملت عليه فصاح أبي لا تستقبله يا مجنون فيأخذك، فطعنته، فلا والله ما تحرّك من مكانه ومات موضعه، فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم. وكان ذلك وأسامة غلام دون العاشرة لكنه شديد السطوة قوي الإرادة عنيف البطش. كذلك أفاض أسامة في ذكر مشاهداته لرياضة الصيد والبيزرة[٤] مع ملوك الشام وأمرائها وفي ذلك يقول: «وأنا ذاكر فصلاً فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص والجوارح فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر، ومن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء

---

(١) الاعتبار ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨.

(٢) البرذون: دابة بين الحمار والفرس، وكان البرذون يستعمل في البريد وهو مقطوع الذنب.

(٣) الاعتبار ص ١٠٤.

(٤) البيزرة: هي الصيد بالطيور، وهو ما أسماه العرب بالبيزرة، ولا غرو في ذلك فإنها رياضة الملوك والأمراء ويضرب بها المثل في نهاية الشرف. وهي كلمة فارسية أصلها بيزار وعربت بازيار أي صاحب الباز، والبيزرة هو علم أحوال الطيور الجارحة كما أن البيطرة علم الحيوان (الجواليقي: الألفاظ الفارسية).

أتابك زنكي بن آق سنقر، وما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود ابن تاج الملوك، وما حضرته مع الملك العادل نور الدين المظفر محمود بن أتابك زنكي، وما حضرته بديار بكر مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان ابن داود أرثق»[1].

وقد يكون من الطريف أن ننقل هنا رواية أسامة عن مشاهداته لرحلة صيد مع ملك الأمراء أتابك زنكي، إذ يقول[2]: «كان له الجوارح الكثيرة، فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزاة[3] ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتصيد منها ما تصيد وتخطىء ما تخطىء ووراءهم الشواهين[4] الكوهية[5] على أيدي البازدارية، فإذا اصطادت البزاة وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور فتلحق وتصيد، وترسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيدها فإنها من سرعة الطيران على صفة عجيبة».

كذلك حاز أسامة قصب السبق في ميدان الوغي، فقد خرج (سنة ٥١٣ هـ/ سنة ١١١٩ م) ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، مستنفراً الناس والعرب لنهب زرع مدينة أفامية لتعول شيزر من لجأ إليها محتمياً بها، ولم يصحب

---

(١) أسامة: الاعتبار الباب الثالث ص ١٠٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) الباز: من أهم طيور الصيد الجارحة، وهي على خمسة أقسام هي: البازي والزرق والباشق والعنصي والبدياق. والبازي أحرها مزاجاً لأنه قليل الصبر على العطش، وهو خفيف الجناح سريع الطيران وإناثه أجرأ على عظام الطير من ذكوره. وأحسن أنواعه ما قلّ ريشه واحمرت عينيه مع حدة فيهما (الدميري: حياة الحيوان الكبرى؛ القزويني: عجائب المخلوقات؛ الجاحظ: كتاب الحيوان).

(٤) الشاهين جمعه شواهين وشياهين، أعجمي معرب، وهو ثلاثة أنواع، شاهين وقطامي وأنبقي. والشاهين من جنس الصقر، إلاّ أنه أبرد منه وأيبس مزاجاً وحركته في العلو إلى السفل شديدة، ولهذا ينقض على صيده انقضاضاً دون تحويم. وعنده جبن وفتور وهو مع ذلك شديد الضراوة على الصيد (المنجلي: أنس الملا بوحسن الفلا؛ الدميري: حياة الحيوان الكبرى).

(٥) الكوة: كلمة فارسية معناها الجبل، واستعملت هنا كصفة للشواهين التي تسكن الجبال (الجواليقي: معجم الألفاظ الفارسية).

أسامة غير عشرين فارساً لحماية هؤلاء النهابة لأنه متيقّن أن أفامية ليس بها فرسان، وإذا قد وصلها في تلك الليلة ستون فارساً وستون رجلًا فطاردوا أسامة وفرسانه، وعندما تنبه أسامة إلى الخطر المحدق بالعزل الذين ينتهبون الزرع يهون عليه الموت، ويستدير وحده ليلقى فرسان الأفرنج فيقتل متقدمهم ويستقبل خيلهم المتتابعة وينهال عليهم بطعناته الفتّاكة حتى يلجئهم إلى الفرار، مع أنه لم يمارس القتال قبل اليوم.

ويستطرد أسامة في سرد بقية القصة فيقول: ويطير الخبر إلى شيزر قبل وصوله فتضج له ويستقبله والده ويستخبره فيقول: يا مولاي كان أول قتال حضرته فلما رأيت الأفرنج قد وصلوا إلى الناس هان عليّ الموت فرجعت إلى الأفرنج لأقتل، أو أحمي ذلك العالم». ولكن القصة لا تنتهي عند هذا الحد، بل يستدعيه عمه في وقت متأخر وإذا عنده فارس من الأفرنج جاء من أفامية خصيصاً ليبصر ذلك الفارس الذي طعن فليب الفارس، فإن الأفرنج تعجّبوا من تلك الطعنة التي أصابته فخرقت الزردية من طاقتين، وسلم فليب لأن الطعنة أصابت خاصرته ولم تصادف منه مقتلاً.

إلّا أن حياة أسامة المثيرة للإعجاب والإجلال كانت في نفس الوقت دافعاً قوياً للحسد والموجدة، فقد توجس عمه خيفة منه على أولاده الصغار. ويبدو أن الوشاة قاموا بدورهم في تجسيم هذه الهواجس عند عمه الأمير سلطان، مما جعل أسامة يقرر الخروج من شيزر (سنة ٥٢٥ هـ/ سنة ١١٣٠ م) إلى حمص حيث حضر حرباً بين صاحب حمص وعسكر ملك الأمراء أتابك زنكي بن آق سنقر، فجرح وأسر وحمل إلى حماة حيث اعتقل في قلعتها. ويحس أسامة مرارة الأسر فيزيد هذا من كمده وسخطه، ويخلص أسامة من أسره ليقيم بالموصل حيث ينتظم في الجيش الأتابكي ويعمل تحت إمرة صلاح الدين محمد بن أيوب الياغسياني مساعداً له ومعيناً، ويلقي بنفسه في أتون المعارك، ويخوض غمار الحروب، وقد بلغ به الأمر أنه كان يلبس عدة القتال ويتقلّد حسامه وينام، بينما جواده بالباب ملجمًا استعداد منه للقتال في كل وقت.

وهكذا نستطيع القول أن أسامة قد بدأ حياته كرحالة منذ خروجه من

شيزر (سنة ٥٢٥ هـ/ سنة ١١٣٠ م) مخاصماً الأهل وذهب إلى العراق ومنها إلى دمشق ثم إلى مصر وعودته مرة ثانية لدمشق. ثم ارتحاله إلى حصن كيفا وينتهي به المطاف في دمشق للمرة الثالثة حيث توفي (سنة ٥٨٤ هـ/ سنة ١١٨٨ م). ومن الواضح أن سبب الرحلة التي سجّلها في كتابه «الإعتبار» وفي غيرها من مؤلفاته لم تكن لسبب من أسباب الرحلة المتعارف عليها، بل كانت أشبه بالنفي منها بالرحلة.

لقد كانت حياة أسامة حياة عريضة حافلة بالبطولة في عصر زخر بقوى الشر والعدوان، فقد عاثت الحملات الصليبية فساداً في بلاد الشام ونجحوا في الإستيلاء على بيت المقدس سنة ٤٩٠ هـ أي بعد ولادة أسامة بعامين، وإن كان الحظ قد ابتسم له فقد شهد إجلاءهم عنها على يد صلاح الدين سنة ٥٨٣ أي قبل وفاته بعام. هذا فضلاً عن القوى العربية الداخلية المتناحرة فيما بينها فهناك عرب بني كلاب في حلب والإسماعيلية أو الحشاشون الذين امتدت مؤامراتهم مناطق واسعة من بلاد الشام ثم تركزوا في حلب. وقد اشترك أسامة في الحرب ضد هؤلاء جميعاً، فقد حارب مع أتابك الموصل زنكي تسع سنوات، وقضى أعواماً طويلة وهو يحارب الصليبيين، بينما كان في بلاط البوريين في دمشق كما قاد ضدهم عدة حملات في فلسطين، واشترك مع نور الدين محمود بن زنكي في أكثر حملاته مما أكسبه خبرة واسعة في ميادين القتال وشجاعة نادرة كانت موضع احترام أصدقائه وأعدائه من فرسان الصليبيين على حد سواء.

ولم تقتصر شهرة أسامة على شجاعته وجهاده في سبيل الإسلام والعروبة فحسب، ذلك أن الجانب الفكري والعلمي من حياته لا تقل شهرة وتقديراً. فقد درس القرآن على والده معلمه الأول ودرس الحديث على أبي الحسن علي بن سالم السِنْبِسي[1] ودرس النحو على أبي عبد الله الطليطلي[2]، والأدب على

(١) السنبسي: نسبة إلى سنبس وهي قبيلة معروفة من طيء منها شعراء وفضلاء وجماعة من أهل العلم (أنساب السمعاني ص ٣١٢).

(٢) كان الشيخ أبو عبد الله الطليطلي متولي دار العلم بطرابلس فلما أخذها الأفرنج نفذ والد أسامة وعمه واستخلصاه ومعه يانسي الناسخ، وكان الأخير قريب الطبقة في الخط من طريقة ابن البواب (الإعتبار ص ٢٠٨).

ابن المنيرة[1] الذي حببه في الشعر بخاصة. كما التقى بكثير من العلماء كالسمعاني صاحب الأنساب وابن عساكر صاحب تاريخ دمشق والعماد الأصفهاني صاحب الجزيرة، كذلك كانت له علاقة وثيقة بالشاعرين الكبيرين ابن حبوس وابن الخياط.

وتدل مصنّفات أسامة التي تركها على سعة اطلاعه وقوة حافظته، فقد ورد في أخباره أنه فقد في رحلاته التي ارتحل إليها من الشام إلى العراق ثم إلى مصر وبلاد الحجاز أربعة آلاف كتاب، لا شك في أنه قد قرأ معظمها إن لم يكن كلها. ويأتي في مقدمة أعماله كتابه النادر (الاعتبار)[2]، الذي يعتبر من كتب السيرة في المقام الأول سجل فيه مشاهداته ومرئياته في سياحاته ورحلاتهم هذا فضلاً عن عنايته عناية تامة بتسجيل سيرته وسيرة أهله وأسرته. ويمتاز كتاب الاعتبار بأمانة النقل وصدق الرواية ودقة الملاحظة وجمال التعبير وبراعية الأسلوب القصصي، وهو مصدر مهم لأحوال الشام ومصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية في عصر رحالتنا أسامة بن منقذ.

ويعتبر إنتاجه الأدبي في ديوانه الذي يشهد له بدقة الحس وصدق العاطفة وبعده عن التصنّع الذي كان يغلب على شعراء عصره من أشهر دواوين الشعر في عصره، وكان صلاح الدين الأيوبي من أشهر المعجبين بشعر أسامة. وله في الأدب كتبه الجامعة، لباب الآداب الذي جمع فيه روائع الحكم والنوادر والأشعار وكذا كتاب العصا وكتاب البديع في نقد الشعر. وكتاب المنازل والديار الذي جعله رثاء حاراً لداره بعد أن حلّ بها الخراب وكتاب التأسي والتسلي، وكتاب الشيب والشباب وكتاب أزهار الأنهار[3].

---

(١) كان ابن المنيرة بحراً في العلم وله تصانيف كثيرة منها كتاب في (نقد الشعر) وكتاب في (غريب القرآن) وكتاب (بحر النحو). وكان مؤدب أمامة وهو من كفرطاب ولكنه نزل شيزر. توفي ابن المنير سنة ثلاث وخمسين وخمسائة (الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٥ ص ٢٤٧؛ ياقوت معجم الأدباء ج ٩ ص ١٢٣).

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ج ١ ص ٧٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٨ ص ٣٨٢؛ ياقوت: معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٥٨.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٢٧.

وقد كان لأسامة باع كبير في كتابة التراجم نراه في كتابه ذيل يتيمة الدهر، واختصار مناقب عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز[١]. كذلك ساهم بخط وافر في علم التاريخ نجده في تاريخ[٢] البدري وأخبار[٣] البلدان وتاريخ القلاع والحصون[٤].

وهناك مجموعة كبيرة من مؤلفات ومصنّفات أسامة ولكن للأسف لم نقف على مكانها حتى الآن وفيما يلي بيانها[٥]: كتاب أخبار أهله وأخبار النساء وأزهار الأنهار تاريخ أيامه، ردع الظالم وردّ المظالم وفضائل الخلفاء الراشدين، كتاب القضاء نصيحة الرعاة والنوم والأحلام[٦].

وقد يكون من المفيد أن ننقل للقارىء بعض آراء وأفكار أسامة التي تدل على سعة الأفق والعقلية العالمية غير المتعصّبة رغم تديّنه الشديد وجهاده في سبيل الإسلام، وذلك عندما يحدثنا عن تقدير الصليبيين لفضائل خصومهم المسلمين تقديراً أخذ ينمو على مرّ الزمن. ومن أظهر ألوان هذا التأثير ذلك المسلك الكريم الذي سلكه كثير من فرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية، وهو اتجاه فكري كان أشد ما تشكو منه الكنيسة، وفي ذلك يقول أسامة: «لما زرت بيت المقدس خصص لي فرسان المعبد (The Knight Templar) الذين كانوا قد احتلوا المسجد الأقصى زاوية صغيرة ملحقة به، لأقيم فيها الصلاة، واستاءوا استياء شديداً من تدخل أحد الصليبيين كان قدم مؤخراً، واتجه هذه الوجهة الجديدة في سبيل الحرية الدينية[٧].

---

(١) القفطي: أنباء الرواة ج ٢ ص ٢٣٢.
(٢) حسن عباس: أسامة بن منقذ ص ١٥٥.
(٣) أبو الفداء: تقويم البلدان ص ٢٥٥.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٨٤.
(٥) حسن عباس: أسامة ص.
(٦) الاعتبار ص ١٨٦.
(٧) الاعتبار ص ٩٩.

ونستطيع أن نتبينّ دقة أسامة وتمتعه بعقلية علمية واسعة من وصفه للتنور الذي كان يوقد في ليالي[1] الوقود في الجامع الأموي الكبير بدمشق فيقول: «فيوقد التنور[2] الفضة الذي كان معلّقاً فيه، وكان مليحاً في شكله وتعليقه غير متنافر في الطول والعرض، واسع التدوير فيه عشر مناطق في كل منطقة مائة وعشرين بزاقة[3]. وفيه سرورات بارزة مثل النخيل في كل واحدة عدة بزاقات تقرب عدة ذلك من ثلثمائة ومعلّق بدائر سفله مائة قنديل نجومية»[4].

ويحدثنا أسامة عن حفاوة استقبال الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله عند وصوله إلى مصر فيقول: «فأقرني الحافظ لدين الله ساعة وصولي فخلع عليّ بين يديه ودفع لي تخت (أي صندوق) ثياب ومائة دينار، وخوّلني دخول الحمام وأنزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس، كل ذلك لا يستعاد منه شيء وأقمت بها مدة في إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع زاج».

أما عن عقيدة أسامة ومذهبه، فقد كان معتدلاً في تشيعه ولعل هذا ما أراده الذهبي والحنبلي عندما قالا: «فيه تشيع». هذا وينبغي أن نقرر أن تشيع أسامة ليس بتهمة باطلة تحتاج للدفاع عنها، فإن تشيع أسامة لم يمنع الذهبي من أن يصفه بقوله «أنه كان أحد أبطال الإسلام»[5].

□ □ □

---

(١) ليالي الوقود: هي من الاحتفالات الدينية التي استجدت في العصر الفاطمي استعداداً لقدوم شهر رمضان وذلك في مصر والشام. وليالي الوقود الأربع، هي ليلة مستهل رجب وليلة نصفه وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه. وعرفت بالوقود لأنه كان يزاد الوقيد في الجوامع وتوضع في صحونها التنانير (أحمد رمضان: المجتمع في بلاد الشام ص ٢٤١).

(٢) التنور لغة هو الفرن، أما من الناحية الفنية فهو وسيلة من وسائل الإضاءة يصنع عادة من المعدن ويحتوي على عدد كبير من الشموع أو المسارج التي تضاء بالزيت والفتيلة وهي تشبه (النجف) (سعاد ماهر: مشهد الإمام علي بالنجف).

(٣) بزاقة: من الناحية الفنية، هي الفتيلة التي توضع في المسرجة أو القراية وتشعل فتضيء مستمدة نورها من زيت المسرجة (زكي حسن: فنون الإسلام ص٦٠٣).

(٤) أسامة: الاعتبار ص ٢١١ (نشر فليب حتي).

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ص ١٣٧.

الحافظ أبو سعد (أو أبو سعيد)
عبد الكريم التميمي السمعاني

ولد السمعاني بمدينة مرو سنة ٥٠٦ هـ/ سنة ١١١٢ م) وكان أبوه سعد السمعاني من بيت علم ودين، فقد ظهر من هذا البيت كثير من العلماء والرؤساء. وكان أبوه محدثاً وفقيهاً[١]. وقد أمضى السمعاني طفولته وصباه في مدينة مرو عاصمة خراسان حيث داوم على البحث والدراسة فتبحر في الفقه والحديث والأنساب حتى انتهت إليه رئاسة أسرته.

وقد اختلف في سبيل طلب العلم إلى كثير من البلدان، إذ رحل إلى بلاد ما وراء النهر وجميع أنحاء خراسان وإلى قومس والري وأصبهان وهمذان وبلاد الجبل والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وكثير غيرها من البلاد[٢]. ولما كانت رحلاته تلك من أجل العلم فمن الطبيعي أن يتلقى بالعديد من الشيوخ والعلماء الذين تكبر مشقة الرحلة وصعابها من أجل الالتقاء بهم والتعرف عليهم حتى ينهل من منهلهم ويرتوي بمعارفهم، ومن ثم فليس بكثير أن يكون عدد شيوخه الذين التقى بهم قد نيف على الأربعة آلاف شيخ.

وقد جمع السمعاني حصيلة رحلاته المتعددة في كثير من المصنفات لعل

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢ ص ٢٧٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٠.

أهمها كتاب «تذيّل تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي الذي يقع في نحو خمسة عشر مجلداً. وكذا كتاب «تاريخ مرو»[1] مسقط رأسه وموطن أهله وعشيرته ويقع في عشرين مجلداً. ولعل أشهر كتب السمعاني ومصنفاته على الاطلاق كتاب «الأنساب» الذي كان بيت القصير من رحلاته المتعددة، والذي حرص أن يسجل فيه أنساب العرب والعشاير من أفواه شيوخها، وليس نقلاً من المصادر القديمة فحسب. ويقع كتاب الأنساب في ثمان مجلدات.

ولعل أبرز ما تميز به كتاب الأنساب، تلك التراجم التي جمعها على حروف المعجم والتي عنى بنسبة كل واحد منها إلى بلد أو قبيلة أو صناعة أو تجارة أو غير ذلك. هذا فضلاً عن الحوادث الهامة التي حدثت في الموقع الذي ترجم لأصحابه.

وقد لخص ابن الأثير كتاب الأنساب للسمعاني ويعرف باسم «اللباب في معرفة الأنساب». وقد نشر (سنة ١٩١٢) في سلسلة ذكر جب (Gibb) تحت رقم (٢٠).

أما عن الأسلوب الذي اتبعه في كتابه «الأنساب» والذي خالف به كل من كتب من قبله في (باب الأنساب) والذي يثبت تطور الفكري التاريخي عند مؤرخي المسلمين في العصور الوسطى، فلعل ما كتبه عن نسب بني منقذ في شيزر يعطينا فكرة واضحة عن هذا الأسلوب المتميز الذي ابتعد كثيراً عن النقل والاسناد، واهتم بإعطاء فكرة واضحة عن تراجم الأشخاص إلى جانب أصولها.

يبدأ السمعاني الحديث عن بني منقذ بالحديث عن علي بن منقذ الذي حارب الروم في جيش بني حمدان وأسر مع أبي فراس الحمداني في غزوة مغارة الكحل (سنة ٣٤٩ هـ/ سنة ٩٦٠ م). ويستمر في سرد قصة بني منقذ فيقول أن أبا المتوج مقلد بن نصر بن منفذ الكناني الملقب بمخلص الدولة قد أقام في

---

(١) براون: تارخ الأدب في ايران، ج ٢ ص ٥٩٥ (ترجمة الدكتور الشواربي).

جماعة كبيرة من أهل بيته عند جسر بني منقذ الذي يشرف على شيزر وأنهم كانوا يترددون إلى حماة وحلب.

ويقول السمعاني عن الأمير مرشد بن علي بن منقذ «من الأمراء الفضلاء المجودين في الأدب وصنعة الشعر بهذه القطعة (أي بشيزر) وهو منها، ورزق أولاداً كباراً فضلاء شعراء. ورأيت مصحفاً بخطه كتبه بماء الذهب الطلق الصوري (أي ورق الكاغد) ما أظن أن الأعين رأت أحسن منه»[1]. ويستطرد في ذكر مصنفات مرشد فيقول: «وقد صنف تفسيراً ضخمًا ترجمه بالتفسير الكبير، جمع فيه علوم القرآن، قراءاته، وغريبه وعربيته وناسخه ومنسوخه وتفسيره وسبب نزوله وفقهه، كما كتب بخطه عدداً كبيراً من الختمات»[2].

ويكمل السمعاني التعريف ببقية أسرة الأمير مرشد والد أسامة بن منقذ فيقول: «أما إخوة أسامة فثلاثة، أكبرهم أبو الحسن علي بن مرشد كان فصيح العبارة مليح الشعر من بيت الإمارة والفروسية، توفي بعد سنة عشرين وخمسمائة».

ويحدثنا عن شيوخ وعلماء أسرة بني منقذ وأنسابهم فيقول: «وسمع أسامة الحديث وتلقى علومه على الشيخ الصالح أبي الحسن علي بن سالم السنبسي بالنون الساكنة والباء الموحدة المكسورة بين السينين المكسورتين، هذه نسبة إلى سنبس، وهي قبيلة معروفة من طي منها شعراء وفضلاء وجماعة من أهل العلم»[3].

وقد يكون من المفيد قبل أن نختتم الحديث عن راحلتنا السمعاني أن ننقل هنا ترجمة بروكلمان له، استكمالاً لبعض المعلومات التي لم ترد في ترجمتنا له وكذا نبين باقي مؤلفاته التي لم نتعرض لها. فيحدثنا بروكلمان عن دراسته

---

(١) السمعاني: الأنساب، ص ٣٤٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٧.
(٣) السمعاني: الأنساب، ص ٣١٢.

فيقول: «وقام برحلات واسعة لدراسة الحديث[١] أقام خلالها زمناً طويلاً في بيت المقدس وهو بأيدي النصارى وفي دمشق[٢]. وعاد إلى مرو (سنة ٥٣٨ هـ/ سنة ١١٤٣ م) وقام بالتدريس هناك في المدرسة الأحمدية[٣]، وتوفي (سنة ٥٦٢ هـ/ سنة ١١٦٧ م).

ويعدد بروكلمان مؤلفات السمعاني فيقول: «كتاب الأنساب»، بدأ وضعه (سنة ٥٥٠ هـ/ سنة ١١٥٥ م) بناء على رغبة عمر بن علي البسطامي، الذي كان قد قابله فيما وراء النهر. يشرح معاني الأنساب ويشتمل كلامه عن الأسماء التي في ايران وما وراء النهر خاصة على مادة هامة، ويترجم باختصار لأشهر الاعلام[٤]، ويقع في ثمانية مجلدات[٥]. وقد اختصر عز الدين بن الأثير المتوفي (سنة ٦٣٠ هـ/ سنة ١٢٣٢ م) كتاب «الأنساب» وسماه «اللباب» في ثلاثة أجزاء، وكاد يطغي على الأصل في سعة الانتشار. كما اختصره السيوطي[٦] بعنوان «لب الألباب في تحرير الأنساب»، ومن هذا المختصر مختصر لرضى الدين محمد بن علي حيدر الحسيني الشامي بعنوان «اتحاف ذوي الألباب»[٧].

ومن مؤلفاته التي لم نذكرها كتاب «الإسفار عن حكم الأسفار» وكتاب «فضائل الشام» وكتاب «أدب الاملاء والاستملاء» الذي نشره مكس ويسويلر في ليدن سنة ١٩٥٢. كما صنف كتاب في «أدب القاضي» وكتاب صلوات النبي»

---

(١) مرآة الجنان، ج ٣ ص ٣٦٦؛ السبكي: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٥٩.
(٢) أبو الفداء: ج ٣ ص ٦٠٥؛ ابن تغري بردى، ج ٣ ص ١٢٣؛ السيوطي: طبقا الحفاظ، ج ١٦، ص ١٢.
(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤ ص ١٠٧ ــ ١١٠؛ الكتاني: الفهرس ج ٢ ص ٣٧٣.
(٤) حاجي خليفة: ج ١ ص ١٣٥٠.
(٥) بروكلمان: ج ٦ ص ٦٤.
(٦) السيوطي المتوفي (سنة ٩١١ هـ/ سنة ١٥٠٥ م).
(٧) بروكلمان: ج ٦ ص ٦٥.

الذي استعمله الطاووسي المتوفي (سنة ٦٦٤ هـ/ سنة ١٢٦٦ م) في كتاب «المجتبى من الدعاء المجتبى»[١] كما ترجم إلى الفارسية.

ومن المؤلفات الخاصة التي انفرد بها السمعاني كتاب «النزوع إلى الأوطان» حيث تناول فيها الحديث عن تأسيس مدينة (سَرَخْس) وقد نوه عنه في كتابه «الأنساب»[٢] وكذا كتاب «الحمّام»[٣] الذي نقل عنه[٤] السبكي كثيراً. هذا فضلاً كتاب «المنتخب» وهو معجم لشيوخه، ومجموعة صغيرة من الأحاديث والحكايات والأشعار لابنه عبد الرحيم[٥].

□ □ □

---

(١) المرجع السابق، ج ٦ ص ٦٦.
(٢) الأنساب ورقة ٢٩٦.
(٣) الجزولي: المطالع، ج ٢ ص ٣؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٠٨.
(٤) السبكي: طبقات الشافعية، ج ١ ص ١١٤.
(٥) بروكلمان: ج ٢ ص ٦٦.

أبو محمد عمارة بن علي بن زيدان نجم الدين اليمني الحكَمي

ومن رحالة المشرق المتميزين الذين خرجوا من جنوب شبه الجزيرة العربية، وساحوا في كثير من البلاد بغية الرحلة في حد ذاتها، عمارة اليمني. وبرغم شهرة عمارة الواسعة كشاعر من شعراء الفاطميين الفطاحل، إلا أن أحداً لم يذكره أو يكتب عنه كرحالة، ولعل السبب في ذلك، أنه لم يجمع تسجيل أحداث رحلاته في مصنف واحد، بل أفرد لكل بلد زاره أو ارتحل إليه مصنفاً خاصاً به.

وإذا كان أسامة بن منقذ قد أدخل في الأدب فن كتابه الأديب سيرته بقلمه، فإن عمارة اليمني قد سجل سيرته مفتخراً بنسبه وحبه شعراً ونثراً. فقد كان عمارة أحد الشعراء المجيدين والكتاب المنشئين المترسلين وأحد مفاخر اليمن الذين لعبوا دوراً هاماً في سياسة القصور وخارجها، وواحد من أوفياء الدنيا الذين فضلوا الموت على الغدر.

أما عن مولد عمارة، فإنه يفهم مما كتبه هو في مؤلفه «المفيد في أخبار زبيد» أنه كان في حدود سنة خمس عشرة وخمسمائة. وكان مسقط رأسه في قرية الزرائب التي يطل عليها العكوتان[1] وجبل عكار الذي أخرج من عمارة طفلاً

---

(١) العكوتان: جبلان منيعان لا يطمع أحد في حصارهما لمناعتهما (عمارة: تاريخ اليمن، ص ٢٤).

طلق اللسان يتكلم بسليقة عربية فصحى[1]. ويرجع نسب عماره إلى قحطان ثم من قبيلة الحكم بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. وبهذا النسب الرفيع ظل عمارة مفتخراً به حتى أنه هدد به الوزير الصالح طلائع بن زريك في قصيدة جاء فيها:

إلى الذي لولا سنى وجهه	أظلم في عيني سني الكوكب
من يعرب العربا حيث التقت	شعائب السؤدد من يعرب
إن ذكر الإسلام لم يفتخر	غيرهم حي بنصر النبي
أو ذكر الجود فمن طيء	أبو عدى نجعة المجدب
وهذه أفعال أبنائهم	حاضرة تشهد للغيب

وقبيلة الحكم قبيلة عزيزة الجانب شهيرة ذائعة الصيت في الجاهلية والإسلام على حد سواء، فقد ساهمت مساهمة تذكر في الفتوحات الإسلامية، فمنها الجراح بن عبد الله الحكمي فاتح أرمينية في عهد الدولة الأموية. ومنهم أبو نواس الشاعر المشهور ومنهم الوزراء آل الجراح في الدولة العباسية الذين منهم علي بن عيسى ابن داود بن الجراح. ولا زالت لهذه القبيلة بقية تسكن في مخلافها ووطنها مخلاف الحكم المسمى المخلاف السليماني[2].

---

(١) يقول ابن خلكان ص ٤٦٢ ونقل عنه بروكلمان، ج ٦، ص ٨٠ أن ولادة عمارة كانت في مدينة مُرْطان بوادي وسَاع في تهامة اليمن في حدود (سنة ٥١٥ هـ/ سنة ١١٢١ م) ويعلق (الأكوع محقق كتاب اليمن لعمارة) علي ابن خلكان فيقول: لا أدري ممن أخذ ابن خلكان لأنه ناقل بينما عمارة يتحدث عن نفسه، ص ٢٤.

(٢) سليمان بن طرف هو الحكمي من حكم بن سعد العشيرة ابن مذحج من آل عبد الجد المشهورين بزعامة المخلاف السليماني منذ ظهور الإسلام. ومنهم عبد الجد الوافد على الرسول صلى الله عليه وسلم والذي أفرشه رداءه. وقد سمي المخلاف باسم سليمان بن طرف الحكمي، ولا زال يحمل المخلاف هذا الإسم إلى هذا الوقت، كما لا زال لآل طرف الرياسة والامارة حتى القرن السادس الهجري (عمارة: تاريخ اليمن ص ٦٥ (هامش ٢).

وبدأ عمار رحلته وهو ما يزال حدثاً يافعاً، فقد أرسله أبوه وهو لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره إلى مدينة زبيد لطلب العلم وذلك (سنة ٥٣١ هـ/ سنة ١١٣٧ م). وكان في رحلته تلك منفرداً لم يصحبه إلا مرافقه الذي وكل إليه توصيله إلى زبيد، كما حمّله رسالة لأحد أصدقائه ليكفل له ولده ويقوم بأوده ويوجهه ويرشده في كل مناحي اتجاهاته نحو أي علم ينهل منه من أعلام زبيد ويرتشف بوجه خاص علم الفقه. وكانت زبيد في ذلك الوقت حاضرة تهامة واليمن الأسفل وكعبة القصاد ومطمع أنظار العلماء والمتعلمين، كما كانت متجراً رابحاً لأرباب الصنائع والحرف والتجار والأدباء والشعراء يرتادونها من كل صوب، هذا فضلاً عما منحتها الطبيعة من موقع طيب ممتاز.

وفي زبيد تتلمذ على شيخه الفقيه أبو محمد بن أبي القاسم الإبار الذي تلقى عنه الفقه الشافعي والذي آثر في حياته العلمية تأثيراً بالغاً ظل يذكره بكل إجلال واحترام. كما أخذ عن علماء زبيد الشيء الكثير في فنون شتى، لعل أبرزهم الشيخ نصر الله بن سالم الحضرمي. ولم يزل يترقى في سلم العلم والمعرفة حتى لقب بالفقيه.

وقد حدثنا عمارة عن نشأة مدينة زبيد وتاريخها في كتابه «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد فيقول:[1] «وقرأت في كتاب المفيد لأخبار زبيد تأليف الملك المكين أبي الطامي جياش بن نجاح بن نصير الدين مالك زبيد قالوا: «لما كان في سنة تسع وتسعين ومائة أتى إلى المأمون بقوم من ولد عبد الله بن زياد، فانتسب أحدهم واسمه محمد بن فلان بن عبيد الله بن زياد بن معاوية وانتسب منهم رجل إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك، ومن ولد هذا الرجل الوزير خلف بن أبي الطاهر وزير جياش بن نجاح، فقال المأمون لهذا الأموي: إن عبد الله بن علي بن العباس ضرب عنق سليمان ابن هشام وأعناق ولديه في يوم واحد، فقال الأموي، أنا من ولد الأصغر من ولد سليمان بن هشام ومنا قوم

---

(١) عمارة: المفيد ص ٣٨.

بالبصرة في أفناء الناس، وانتسب له رجل إلى بني تغلب واسمه محمد بن هارون. فبكى المأمون وقال: وأني لي بمحمد بن هارون، يعني أخاه الأمين، ثم قال له: أما الأمويان فيقتلان، وأما التغلبي فعفي عنه رعاية لاسمه واسم أبيه، فقال، ابن زياد: أكذب الناس يا أمير المؤمنين لأنهم يزعمون أنك حليم كثير العفو متورع عن سفك الدماء بغير حق، فإن كنت تقتلنا على ذنوبنا فإنا لم نخرج يداً عن الطاعة، ولم نفارق في بيعتك رأي الجماعة، وإن كنت تقتلنا على جناية بني أمية فيكم فالله يقول: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فاستحسن المأمون كلامه وعفا عنهم جميعاً، وكانوا أكثر من مائة رجل، ثم أضافهم إلى أبي العباس الفضل بن سهل ذي الرياستين، وقيل إلى أخيه الحسن».

ويستطرد عمارة في سرد قصة ابن زياد وتأسيس مدينة زبيد فيقول: «فلما بويع لابراهيم[١] بن المهدي ببغداد في المحرم سنة اثنين ومائتين وافق ذلك ورود كتاب عامل اليمن بخروج الأشاعر وعك في تهامة عن الطاعة، فأثنى ابن سهل على هذا محمد بن زياد وعلى المرواني والتغلبي عند المأمون، وأنهم من أعيان الرجال وأفراد الكفاءة، وأشار بتسييرهم إلى اليمن، ابن زياد أميراً وابن هشام وزيراً، والتغلبي حاكمًا ومفتياً، فخرجوا في الجيش الذي جهزه المأمون إلى بغداد لمحاربة ابراهيم بن المهدي، وحج ابن زياد ومن معه في سنة ثلاث ومائتين وسار إلى اليمن ففتح تهامة بعد حروب جرت بينه وبين العرب بها، واختط[٢] زبيد في

(١) هو أبو اسحق ابراهيم بن المهدي بن المنصور العباسي أخو هارون الرشيد، بويع بالخلافة في بغداد بعد قتل الأمين لخوف بني العباس وأهل العراق من خروج الأمر إلى العلويين بعد أن جعل المأمون ولاية العد لعلي بن موسى الرضى وأمر بخلع السواد شعار العباسيين وإلزامهم بلبس الخضرة. ثم غير المأمون رأيه عندما بلغه مبايعة عمه ابراهيم بالخلافة، فجاء إلى بغداد سنة ٢٠٤ واختفى ابراهيم ثم أعلن المأمون العفو عنه.

(٢) أول من اتخذ مدينة زبيد عاصمة لملكه هو ابن زياد، ولكنها موجودة منذ العصر الجاهلي، فهي مشهورة بوادي زبيد. كما جاء ذكرها في خبر سطح الكاهن وفي حديث الأشعريين حين قدموا على الرسول صلى الله عليه وسلم، فسألهم من أين جئتم، قالوا من زبيد، قال بارك الله في زبيد. وفي (الجندي) وكان من وصايا المأمون لابن زياد أن أمره بأحداث مدينة باليمن في بلاد الأشاعر بوادي زبيد، وإنما اشتهرت بابن زياد لاتخاذها حاضرة ملكه ومقر عزه وتمصيرها (المفيد: ص ٤٥ هامش (٣).

شعبان سنة أربع ومائتين»[1].

وبعد أن نال عمارة بغيته في زبيد من العلم والدراسة وحاز أكبر لقب يمنح للدارسين المتفوقين وهو لقب «الفقيه ثم لقب القاضي، أحس بالملل والسآمة وتاقت نفسه الوثابة إلى طلب العلا، فلم يجد سبيلاً سوى الخروج إلى عدن[2] بحجة الاشتغال بالتجارة في ظاهر الأمر، وفي قرارة نفسه رغبته في الاتصال بملوك عهده لعله يجد سلوته وما تصبو إليه نفسه، وقد وفق في رحلته هذه إلى عدن بمجرد نزوله بها قابلة الأديب الشاعر المشهور أبو بكر بن محمد العندي، الذي نصحه بأن يعمل قصيدة يمدح فيها الداعي محمد بن سبأ[3] الزريعي، صاحب الدعوة في تلك البلاد. لكن عمارة اعتذر بحجة أنه لا يجيد الشعر، فعمل أبو بكر قصيدة على لسان عمارة هنأ بها الداعي بأعراسه على بنت الشيخ بلال، وتولى أبو بكر العندي القاءها أمام الداعي فنال بذلك جائزة من الداعي وأخرى من بلال أعطاهما عمارة وقال له: «إنك قد وسمت عند

---

(١) وصف الربيع زبيد في كتابه (قرة العيون، ج ١ ص ٣٢٢) فقال: وهي مدينة مدورة الشكل عجيبة الوضع على النصف فيما بين البحر والجبل ومن جنوبهاالوادي المبارك المسمى زبيد الذي دعا الرسول صلى الله عليه وسلم فيه بالبركة فليس في اليمن واد أبرك منه. ومن شماليها وادي رمع ومن شرقيها الجبال الشامخة والحصون الباذخة والمعاقل المنيعة والمساكن الرفيعة ومن غربيها البحر الزاخر والسفن المواخر والنخيل الباسقة والحدائق الفائقة فجعلها ابن زياد دار ملكه. (الربيع: قرة العيون، ج ١ ص ٣٢٢).

(٢) المفيد: ص ٢٨.

(٣) قال الجندي في تاريخه السلوك في تاريخ العلماء والملوك المتوفي سنة ٧٣٢ هـ: دخل الداعي سبأ عدن فوقف بها سبعة أشهر ثم توفي سنة ٥٣٢ هـ وتولى بعده ولده الأعز فلم يلبث إلا قليلاً وتوفي سنة ٥٣٤ هـ وكان نائبه بعدن الشيخ بلال بن جرير فكتب إلى محمد بن سبأ يأمره بالمبادرة إلى عدن ووعده بالقيام معه بالروح والمال. فخرج مع الهمدانيين فتلقاه بلال قرب عدن وترجل بين يديه وسار معه الى المنظرة وأقعده فيها ثم نزل فقعد مع الناس واستحلف له العسكر جميعاً وكل من كان تحت طاعة أبيه من أهل السهل والجبل. وزوجه بلال بابنته، ثم قدم رسول من خليفة مصر بتقليده الدعوة ونعته بالمعظم ونعت وزيره بلال بالنعوت الجليلة وكان محمد بن سبأ ملكاً كريماً جواداً مدحه كثير من الشعراء.

(الربيع: قرة العيون، ج ١ ص ٣١٠).

القوم بسمة شاعر فطالع كتب الأدب ولا تجمد على الفقه، ومن ذلك الحين لقب عمارة «بالشاعر». ومن ثم فقد اشتغل بالشعر وصحبة الملوك، ولم يزل مصاحباً لملوك آل زريع خاصة وقويت بينهم الصلة وارتفعت بينهم الكلفة حتى أنه لم يقل شعراً في غيرهم من ملوك اليمن.

ويبدو أن أهل زبيد قد حقدوا على عمارة ما وصل إليه من شهرة وسعة في الرزق من رحلته إلى عدن وخاصة أقرانه من الفقهاء، فكادوا له واوغروا صدور ملوك زبيد عليه فأدخلوا إلى أذهانهم أنه يتآمر عليهم وأنه قد أدخل في مذهبهم الكفر والالحاد، حتى تخوف عمارة منهم وكانت إقامته بزبيد بعد رجوعه من عدن على حذر وتحفظ.

وقد رأى عمارة أن خير وسيلة للهرب من هذا الجو المملوء بالدسائس والأحقاد أن يخرج الى الحجاز لتأدية فريضة الحج، وهكذا ارتحل للمرة الثالثة (سنة **٥٤٩**هـ / سنة **١١٥٤**م) واختار الإقامة بمكة بعد انتهاء مناسك الحج ليأمن حسد الفقهاء وكيدهم. وهناك أخذ يعقد مجالس الوعظ في الحرم الشريف، وقد كثرت حلقات درسه ووعظه واتسعت حتى بلغ صيته أمير مكة قاسم بن هاشم بن فليته[1] فطلبه فأعجب به وبذكائه ووجد فيه خير سفير لتصفية الخلاف الذي بينه وبين الخليفة الفائز الفاطمي. فسيره الأمير قاسم إلى مصر سنة **٥٤٩** فوصلها سنة **٥٥٠**هـ فتلقاه الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن زريك بالعطف والقبول على أثر انشاد أولى مدائحه في قاعة الذهب بالقصر الشرقي الكبير والتي جاء فيها:

الحمد للعيش بعد العزم والهمم ... حمداً يقوم بما أولت من النعم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفداً إلى كعبة المعروف والكرم

---

(١) عمارة: النكت المصرية في أخبار الوزارة المصرية، ص ٧ ــ ٨.

حيث الخلافة مضروب سرادقها | بين النقيضين من عفو ومن نقم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً | فوز النجاة وأجر البر بالقسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما | وزيره الصالح الفراج للغمم
ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها | عقود مدح فما أرضى لكم كلمى
زيادة النيل نقص عند فيضهما | فما عسى يتعاطى مِنه الدِيم[1]

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الخليفة الفائز ووزيره، فخلع عليه الخليفة بعد إنشادها الخلع الموشحة بالذهب كما دفع إليه الصالح طلائع خمسمائة دينار وأتته مثلها من السيدة أخت الخليفة، وأطلقت له الرسوم من دار الضيافة في مناسبات كثيرة، وأقام له الأمراء الولائم في بيوتهم تكريماً له وانتظم عمارة في سلك جلساء الوزير[2].

وبقي عمارة في مصر ينعم بكرم الدولة الفاطمية، وقبل عودته إلى مكة ثم إلى زبيد (سنة ٥٥١ هـ/ سنة ١١٥٦ م) أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ابن زريك فمنحه الخليفة وأخته ألف دينار، ومنحه الوزير مائتي دينار لقصيدة أخرى أنشدها له في داره. وكان لتدخل الوزير أثر في إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت عنده لداعي اليمن السابق وقد مات فأشير على ولده وورثته أن يعدل عن المطالبة بها. وقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن زريك[3] وذوي قرباه وغيرهم من الأمراء وختم كلامه بهذه الكلمات «ذكر الله أيامهم بحمد لا يكلُّ نشاطه ولا يطوي بساطه فقد وجدت فقدهم وهُنت بعدهم»[4].

(١) النكت العصرية، ص ٣٢ ــ ٣٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٧.
(٣) المصدر السابق، ص ٩٣ ــ ١٢٠.
(٤) المصدر السابق، ص ١٢٠.

ولما أتى مكة في العام نفسه حاجاً مرة ثانية عهد إليه من جديد بالذهاب إلى مصر رسولاً، فأتاها في شعبان (سنة ٥٥٢ هـ/ سنة ١١٥٧ م) واستقر به المقام فيها. وقد أحسن إليه الوزير ابن زريك وبنوه وأهله كل الاحسان، وصحبوه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو المواهب على الرغم من اختلاف وإياهم في المذهب الديني[1].

وقد أبى عمارة اعتناق عقدية الفاطميين الاسماعيلية، وقد حاول الصالح طلائع أن يغريه بالمال فقدم إليه ثلاثة آلاف دينار ووعد أن يزيد في إغراقه عليه إن هو أجاب إلى ما طلبه منه، ولكن عمارة اعتذر بلباقة، وقد حدَّث عن نفسه **فقال**: لم يشعر في بعض الأيام حتى جاءتني من الملك الصالح رقعة فيها أبيات بخطه ومعها ثلاثة أكياس ذهباً وفيها قوله:

قل للفقيه عمارة يا خير من ... أضحى يؤلف خطبة وخطابا
أقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى ... قل حطة وادخل علينا البابا
تلق الأئمة شافعين ولا تجد ... إلا لدينا وسنة وكتابا
وتعجل آلاف وهي ثلاثة ... صلة وحقك لا نكون جوابا

قال فأجبته مع رسوله[2]:

حاشك من هذا الخطاب خطابا ... يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علماؤكم ... معمور معتقدي وصار خرابا
ودعوتم فكري إلى أقوالكم ... من بعد ذاك أطاعكم وأجابا
فأشدد يديك على صفاء مودتي ... وأمض على وسد هذا الباب

(١) ابن خلكان، ج ١ ص ٤٧٦.
(٢) النكت العصرية، ص ٤٥.

ويقول عمارة اليمني في مدح الفواطم رغم الاختلاف في العقيدة البيت التالي:

مـذاهبهم في الجود مـذهب سُنَّةٍ وإن خالفوني في اعتقاد التشيع[١]

ولما مات ابن زريك (سنة ٥٥٦ هـ/ سنة ١١٦١ م) أصبح حزن عمارة على وفاته مثاراً لنظم قصائده. فلما تولى شاور[٢] الوزارة قرب عمارة إليه وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته فصار يتردد على داره ويجلس إلى مائدته ونال الكثير من صلاته[٣]. ويحدثنا عمارة عن عدم وفاء الناس وذمهم لبني زريك بعد انقراض دولتهم فيقول: لما تم الأمر لشاور وانقرضت دولة بني زريك جلس شاور حوله جماعة من أصحاب بني زريك وممن لهم عليهم إحسان وإنعام فوقعوا في بني زريك إلى قلب شاور فأنشدته:

صحت بـدولتك الأيـام من سقم وزال مـا يشتكيه الـدهـر من ألم
زالت ليالي بني زريك وانصرمت والمـدح والذم فيهـا غير منصـرم
كـأن صـالحهم يــومـاً وعــادلهم في صدر ذا الرست لم يعقد ولم يقم

وقد امتاز عمارة بوفائه النادر فمن ذلك ما حدث عندما قدم نجم الدين أيوب من الشام على ولده صلاح الدين، وخرج الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية للقائه وأنزله بمنظره اللؤلؤة فسكنها حتى مات العاضد (سنة ٥٦٧ هـ/ سنة ١١٧١ م) واتفق أن حضر عنده يوماً شاعرنا عمارة وكذا الرضى يحيي الأحدب الشاعر فأنشد الأحدب يقول في نجم الدين:

يا مالك الأرض لا أرضى بها طرفا منها وما كان منها لم يكن طـرفا

---

(١) ديوان عمارة ص ٢٨٨ ــ ٢٩٣.
(٢) النكت العصرية، ص ٦٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٣.

قد عجل الله هـذا الدار تسكنهـا   وقد أعدت لـك الجنات والغـرفا
كـانوا بهـا صـدفاً والـدار لؤلؤة   وأنت لؤلؤة صـارت بهـا صـرفـا

فقال عمارة في قصيدة يرد عليه فيها:

فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمة   لأن فيـه حفـاظـاً دائمـاً ووفـا

وظل عمارة اليمني على وفائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم على يد صلاح الدين الأيوبي بأحر القصائد وأجمل الرثاء وكان ينشد ذلك بين الناس مما أثار حفيظه أصحاب صلاح الدين. كما تناقلت قصائد رثائه معظم معاصـروه ومن أتى بعده من الكتـاب من أمثال ابن واصـل والقلقشندي والمقريزي ممن تناول تاريخ الدولة الفاطمية. ومما جاء في مطلع قصيدة الرثاء:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل   وجيده بعد حسن الحلى بـالعطل

وجاء في قصيدة أخرى:

لمـا رأيت عراص القصـر خاليـة   من الأنيس وما في الربع سادات
أيقنـت أنهـم عن ربـعهـم رحلوا   وخلفـوني وفي ربعـي حـزازات
سـألت أبله قلبي في السلو وقـد   يقـال للبلة في الـدنيـا إصـابـات
فقـال رأى ضعيف لا يـطاوعني   كيف السلو وأهل القصر قد ماتوا
يا رب إن كان لي في قربهم طمع   عجـل بـذلـك فللتسـويف آفـات

كما نظم شعراً كثيراً في الاشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته، ولكن إخلاصه للفاطميين أقصاه عن عطف الدولة الأيوبية. وقيل إنه تآمر مع

(١) ديوان عمارة، ص ٢٨٧.

جماعة من المصريين وبمعاونة الفرنجة في القدس[١] لإعادة ابن الخليفة العاضد[٢] الى العرش. وكان القاضي الفاضل يزود عنه ويصد صلاح الدين عن أذيته، فلما عرف الحقيقة كاملة وأحس بهم صلاح الدين طالبهم وقاررهم فلم ينكروا ولم يروا في ما فعلوه منكر فشنقهم يوم السبت ثاني شهر رمضان (سنة ٥٦٩ هـ/ سنة ١١٧٣ م).

وهكذا انتهت حياة عمارة اليمني رمز الوفاء والاخلاص بعد أن ترك لنا العديد من المصنفات والدواوين والقصائد الشعرية نذكر منها تاريخ اليمن، المسمى «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد»، الذي ألفه للقاضي الفاضل، كما يقول في مقدمته: «وبعد فإني في سنة ثلاث وستين وخمسمائة حضرت مجلس المولى القاضي الأجل الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد البيساني حرس الله علوه وأدام سموه، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء عن الخلافة العاصرية، ضاعف الله قدرتها وأعز نصرتها فحداني، بل هداني أمره إلى وضع كتاب أجمع فيه ما علق بحفظي من أخبار جزيرة اليمن سهلاً ووعراً وبراً وبحراً ومدد ممالكها وأبعاد مسالكها وحروب أهلها ووقايعهم ومآثرهم وصنايعهم وأخبار قضاتها ودعاتها وأخبار أعيانها وأمرائها ومن روى لي عنه أو رأيته من شعرائها، فامتثلت في ذلك ما ندب إليه وعولت في الصفح عند التصفح عليه، وما هو ممن أستجيز لقاءه حياء وإجلالاً بميسور خاطري، ولو لم يشجعني تغاضيه عاقني محاذرته من خجله المتجاسر»[٣].

وقد قام بنشرة كاسلزكاي مع ترجمة انجليزية وملاحظات سنة ١٨٩٢ في لندن كما طبع في مصر عدة طبعات:

H. Cassels Kay: Yaman, its early mediaeval History by Najm ad-Din Omarah al-Hakami. (London 1892).

---

(١) H. Drenbourg: Omara du Yemen, Sa Vie et Son Œuvre Autobiographie et Recit sur Le Vizirs D'Eypte (Vol. IV I.X Paris 1897).

(٢) بروكلمان: ج ٦ ص ٨١ (هامش (١)).

(٣) المفيد: ص ٣٦ — ٣٨.

كما ألف كتاب «النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية» الذي احتوى ترجمة لنفسه بقلمه على غرار ما فعل أسامة بن منقذ، مع وصف لمساجلاته الشعرية مع الوزراء، مع الصالح طلائع بن زريك ومع شاور ومع الكامل ومع ابن الكامل هذا فضلاً عن قصائد ورسائل شعرية أخرى كثيرة. وقد نشر هذا الكتاب الاستاذ ديرنبورج (H. Deren bourg) سنة **١٨٩٧ ــ** سنة **١٩٠٩** بباريس بمدرسة اللغات الشرقية[١]. ومن مصنفاته الشعرية الهامة (ديوانه) الذي قاله في مصر، والذي لخص في «مختارات من ديوانه» وقد طبع في القاهرة[٢].

كما وضع قصيدة في «النيل ومصر وزوال الفاطميين» موجودة نسخة منها في مكتبة برلين برقم ٧٦٩٦: ١[٣]. وقصائد عن «الأهرام وقصيدة في «صلاح الدين» ترجمها فستينفلد (Wüsten Feld)[٤]. كما ذكرها القلقشندي في «صبح الأعشى» عن جغرافية وإدارة مصر، كما ذكرها المقريزي[٥] في خططه.

كما صنّف لمدينة زبيد التي تعتبر وطنه الثاني كتاباً أسماه «المفيد في أخبار زبيد» ذكره السخاوي في كتابه[٦] «الإعلان بالتوبيخ فيمن ذم التاريخ» ومن تصانيفه الأخرى المعروفة وإن لم تصل إلينا ولكن ذكرتها المصادر التاريخية الأخرى كتاب «الأنموذج» ذكره الجندي في تاريخه المعروف: السلوك في تاريخ العلماء والملوك»، وكتاب الجندي ما يزال مخطوطاً، وقد توفي الجنـدي سنة **٧٣٢** هـ.

□ □ □

---

(١) بروكلمان، ج ٦ ص ٨١.
(٢) المفيد: ص ٣٥.
(٣) بروكلمان: ج ٦ ص ٨٢.
(٤) المرجع السابق، ج ٦ ص ٨٢.
(٥) المقريزي: الخطط والآثار ج ١ ص ٤٩٥.
(٦) السخاوي: الاعلان بالتوبيخ فيمن ذم التاريخ، ص ١٢٧.

أبو الحسن علي بن أبي بكر (وقيل أبي طالب) بن علي الهروي

ولد الهروي بمدينة الموصل، أما أسرته فيرجع أصلها إلى مدينة هراة ومن هنا، عرف رحالتنا بالهروي نسبة إليها. وقد قضى الهروي حياة مرتحلاً في أنحاء المشرق والمغرب الإسلامي وفي الهند والقسطنطينية والمغرب وصقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط حتى عرف باسم السائح الهروي[١]، وفي ذلك يقول ابن خلكان[٢]: «إنه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه». وقد كرر هذه الملاحظة كذلك جعفر بن شمس الخلافة، إذا قال أن الهروي قد سجل اسمه على صنم الاشمونيين (تماثيل الفراعنة) كما قال بيتين من الشعر في شخص كان يستجدي من الناس بأوراقه جاء فيهما[٣]:

أوراق كريته في بيت كل فتي ... على اتفاق معان واختلاف روى

قد طبق الأرض من سهل ومن جبل ... كأنه خط ذلك السائح الهروى

---

(١) زكي حسن الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٨٩.

(٢) ابن خلكان وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣١.

(٣) الهروي الإشارات في معرفة الزيارات، ص ٤٨، (دمشق، المعهد الفرنسي، سنة ١٩٥٣).

وقد عنى الهروي عناية بزيارة مساجد ومزارات البلاد التي ارتحل إليها والاختلاط بأهلها، كما قيل أنه كانت له نزعة صوفية وفيه فضيلة وله معرفة بعلم السيما[1].

وقد زار مدينة القسطنطينية في عهد الامبـراطور عمانويل كومنيوس (سنة ١١٤٣ ــ سنة ١١٨٠) ودخل بعد ذلك مدينة دمشق (سنة ٥٦٨ هـ/ سنة ١١٧٢ م) وذلك قبل أن يستعيدها صلاح الدين الأيوبي من يد الفرنجة. وهبط الاسكندرية (سنة ٥٧٠ هـ/ سنة ١١٧٤ م) حيث التقى بابن الرحال المحدث واستمع إليه. ويقال أن القائد أبو القسم بن حمود حمله رسائل إلى صلاح الدين، يطلب فيها تجهيز حملة ضد صقلية.

ومن الأحداث التي أثرت في الهروي تأثيراً كبيراً، هو فقدانه كتبه بينما يصاحب القافلة التي نهبها رجال ريكاردوس من الصليبيين في جنوب فلسطين (سنة ٥٨٨ هـ/ سنة ١١٩٢ م) على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم. فلما طلب ريكاردوس الهروي لمقابلته امتنع ولم يقابله، فقد كان ضياع كتبه ما يزال يحزنه ويؤرق باله، كما كان حنقه على ضياع المذكرات التي جمعها في رحلاته المتعددة يسبب له ضيقاً وحنقاً بالغاً. أو لعل كما يقول زكي حسن[2]، أن تقواه وشدة اعتداده بنفسه حملاه على أن يرفض مقابلة الملك ريكاردوس قلب الأسد، الذي سمع بفضله وحرص على أن يتحدث إليه.

واتصل الهروي في خاتمة حياته في حلب بالملك الظاهر صلاح الدين فأقام تحت رعايته وفي كنفه إلى أن توفي (سنة ٦١١ هـ/ سنة ١٢١٤ م). وكان الملك الظاهر يعرف فضل الهروي فقربه منه وخاصة لمعرفته السيما، فشمله برعايته

---

(١) نوع من السحر والتمويهة.
(٢) زكي حسن الرحالة المسلمون، ص ٩٠.

وأنشأ له مدرسة يلقى فيها دروسه بظاهر حلب. فلما توفي دفن الهروي في قبة ملحقة بمباني المدرسة.

وليس من المستبعد أن يكون الهروي قد صنف كتابه «الإشارات في معرفة الزيارات» أثناء إقامته في حلب في كنف الملك الظاهر، إذ توجد نسخة منها في دار الكتب المصرية بعنوان «رحلة أبي الحسن بن أبي بكر بن الهروي الموصلي، تمت كتابتها (سنة ٦٠٢ هـ/ سنة ١٢٠٥ م). وقد طبع المعهد الفرنسي كتاب الزيارات بدمشق سنة ١٩٥٣ م. ويشير الهروي إلى كتب أخرى من تأليفه مثل كتاب «منازل الأرض ذات الطول والعرض»، «وكتاب الآثار والعجايب والأصنام»[١]. كما اشار ابن خلكان إلى كتاب آخر من تأليف الهروي اسمه «الخطب الهروية»[٢].

ويقدم الهروي لكتابه الاشارات، فيقول: «أما بعد فقد سألني بعض الأخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر له ما زرته من الزيارات، وما شاهدته من العجايب والأبنية والعمارات وما رأيته من الأصنام والآثار الطلسمات في الربع المسكون والقطر المعمور، ووقع الامتناع إلى أن حصل لي الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز شرفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته، إذ كان قدومه من دار السلام وقبة الاسلام وذكر الشيخ الرسول الزيات». وتوضيحاً لذلك فقد ذكر ابن خلكان[٣] في ترجمته ما يلي: ولما جاء الرسول ابن النافذ وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله إلى صلاح الدين ليوثق العلاقات بين السلطان والبلاط العباسي، ومر بدمشق كان الهروي فيها، وكان اجتماعه به سبباً في تأليف كتاب «الاشارات إلى معرفة الزيارات» ثم يكمل قصة تصنيف كتابه ومتى ابتدأ في كتابته فيقول: «فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب».

---

(١) الهروي، ص ٣.
(٢) ابن خلكان وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٢.
(٣) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣١.

ويحدثنا عن الاسلوب الذي اتبعه في تسجيل زيارته وتدوين رحلاته فيقول: «وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الإيجاز، وأنا أستعيذ بالله من شر حاسد نكد معاند يقف على ذكر الصحابة والتابعين وآل الرسول، صلوات الله عليهم أجمعين. وعلى ذكر بعض الآثار فأقول قرأنا في التاريخ الفلاني ضد ذلك، وذكر فلان غير ذلك. وأنا مما لا أشك في قوله ولا أطعن في حديثه إلا أنني ذكرت ما شاع خبره وذاع ذكره بطريق الاستفاضة والله أعلم بصحته».

وبرغم كثرة الخرافات والأساطير التي يزخر بها كتاب الاشارات، إلا أنه في كثير من الأحيان يدقق ويمحص الأخبار التي يمكن تحقيقها، كما نجد بين طيات الكتاب وصفاً وأحاديث تدل على دقة الملاحظة وعمق التفكير، فمن قوله في مقدمة كتابه: «وقد ذكر بعض أصحاب التواريخ جماعة من آل البيت رسول الله عليهم الصلاة والسلام، ومن الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم، قتلوا أو ماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر ولم أر في أكثر هذه الأماكن ما ذكروه، ولا شك أن قبورهم اندرست وآثارهم طمست وذهبت آثارها وبقيت أخبارها. والزائر له صدق نيته وصحة عقيدته. وقد ذكروا أيضاً بلاداً أخر وأماكن وطرقات لا تعرف الآن لتقادم العهد وتغير الزمان.

وفي ختام مقدمته يرجو من القارىء العذر إذا ما صادفه خطأ أو سهو وهذه عادة معظم مؤرخي المسلمين وكتابهم، مما يدل على تواضع العلماء وسماحتهم، فيقول الهروي في هذا الصدد: «وان جرى فيما أذكره شيء بطريق السهو والغلط لا بطريق القصد، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح عن ذلك وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق. فإن كتبي أخذها الانكتار ملك الفرنج ورغب في وصولي إليه فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر».

ثم يحدثنا عن سياحاته وترحاله فيقول: «وقد زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة وقد نسيت أكثر ما رأيته وشذ عني أكثر ما عانيته. وهذا مقام

---

(١) الهروي، ص١ ــ ٢.

لا يدركه أحد من السائحين والزهاد ولا يصل إليه أكثر المسافرين والعباد إلا رجل جال الأرض بقدمه واثبت ما ذكرته بقلبه وقلمه»[١].

وكان حرياً بالهروي وهو الذي ارتحل من أجل رؤ ية الآثار والمزارات أن يؤخذ بعظمة أهرامات مصر وآثارها وفي ذلك قوله: «الأهرام من عجائب الدنيا وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيها عمارة أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع، ورأيت بمصر أهراماً كثيرة منها خمسة كبار والباقي صغار. فأما الكبار فاثنان عند الجزيرة[٢] واثنان عند قرية يقال لها دهشور، وهرم عند قرية يقال لها ميدوم»[٣] ثم يناقش الآراء والأفكار التي سمعها عن السبب في بناء الاهرامات واستخدامها وتاريخها فيقول: «وقد اختلفت أقاويل الناس فيهاوفي بانيها وما يريد بها، ومنهم من قال أنها قبور للملوك، ومنهم من قال أنهم عملوها خوفاً من الطوفان، وقيل إن المأمون فتح هرماً منها، وهو أحد الهرمين[٤] عند الجزيرة (الجيزة) فوجدوا داخله بئراً مربعه في تربيعها أبواب يفضي كل باب منها إلى بيت فيه موتى بأكفانهم. وقيل إنهم وجدوا في رأس هذا الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر على مثال القبر، وفيه صنم كالآدمي الرهنج، وفي وسطه إنسان عليه درع من الذهب مرضع بالجوهر وعلى صدره سيف لا قيمة له (أي نادر لا يقدر بثمن) وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ضوؤه كالنار»[٥].

ولم تكن الآثار وعجائب المباني هي التي تعجب الهروي وتأخذ عليه

(١) المرجع السابق، ص ٢.

(٢) المقصود الجزيرة محافظة الجيزة.

(٣) الهروي، ص ٤٨.

(٤) ومما يدل على صدق رواية الهروي عن محاولة الخليفة المأمون لفتح هرم الجزيرة، ما ذكره اليعقوبي ورده الطبري وغيرهم من المؤرخين هذا فضلاً عن الحقيقة الملموسة الآن، وهي أن سطوح الهرم الأكبر الخارجية كانت ملساء فقد كانت مغطاة بحجر أبيض مصقول، فلما أراد المأمون فتح الهرم، أمر بإزالة هذه الطبقة للبحث عن مدخل الهرم الذي قيل له أن فيه كنوز لا يقدر، وبذلك ظهرت مداميك الهرم بغير عطائه الأملس حتى الآن.

(٥) الهروي، ص ٣٢.

مشاعره في مصر فحسب، بل ان نيلها وجوها ونباتها وزهورها بل كل ما يوجد بها كان له في نفس رحالتنا الشيء الكثير، وفي ذلك يقول؛» فإن ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا. ورأيت بها في آن واحد مجتمع وردا ثلاثة ألوان، وياسمينا لونين ونيلوفرا (زهرة اللوتس) لونين، وآساً ونسريناً وريحاناً وخبزياً وبنفسجياً ومنوراً ونبقاً وأترنجاً وليموناً مركباً وطلعاً وموزاً وجميزاً وحصرماً وعنباً وتيناً أخضر ولوزاً وقنى وفقوساً وبطيخاً وباذنجان وباقلا أخضر ويقطيناً وحمصاً أخضر وخساً والبقول والرمان وهليوناً وقصب السكر[2]».

كما يعجب بمباني مصر ويخص بالذكر منها مدينة الاسكندرية حيث يقول «وبيوت الاسكندرية ثلاث طبقات وعمارة المدينة على هيئة ورقة لعبةالنرد»[3].

وينتقل من مدينة الاسكندرية في أقصى شمال مصر إلى مدينة أسوان في أقصى جنوبها فيصفها ويقول «آخر بلاد الصعيد وبلاد الإسلام وبها الجنادل حجارة نابتة في وسط البحر، فإذا كان وقت زيادة النيل، يوضع عليها سِرج، فإذا زاد البحر (أي النيل) وأخذها أرسلوا بالبشارة إلى مصر، فينزلوا في مركب صغير ويسبقوا الماء ويبشروهم بالزيادة، وجميع معادن حجارة المانع والعمد التي بالديار المصرية ومسال (المسلات) فرعون وعمد السواري بالإسكندرية من جبال هذه المدينة (أي من حجر الجرانيت). ورأيت آثار القطاعات[4] في الجبل والحجارة المانع والعمد المقطوعة»[5].

كما كتب الهروي عن المقابر الأثرية في صعيد مصر وعن المميات الموجودة

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٥١.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٨.

(٤) ومما يدل على قوة ملاحظة السائح الهروي ورغبته الصادقة في رؤية كل الآثار والعجائب التي يصادفها في رحلاته بعينيه هذا فضلاً عن صدقه مما قاله عن رؤيته لأماكن وكيفية قطع العمد والمسلات من أحجار أسوان إذ ما تزال يوجد في جنوب أسوان في الطريق إلى السد، يوجد مسلة لم يتم قطعها بعد وهي ترجع الأسرة ١٨ الفرعونية.

(٥) الهروي، ص ٦٩.

بها وعن لفائف الكتان الملفوفة بغاية الدقة والعناية حول تلك المميات. وقد أثبتت الحفريات والاكتشافات الأثرية الحديثة والمنسوجات الوافرة التي عثر عليها المنقبون عن الآثار في تلك المقابر، كل ذلك يؤيد ما كتبه الهروي كل التأييد[1].

والحقيقة أن الهروي أطنب في ذكر ووصف آثار مدينة الأقصر، فقال: «مدينة بها من الآثار والقصور (يقصد المعابد) والأصنام (أي التماثيل) وصور الأصنام وصور السباع والدواب ما لم أر مثله في بلاد الصعيد ولا في غيرها، وذرعت يد صنم فكان من المرفق إلى مفصل الكف سبعة أذرع»[2].

□ □ □

(١) زكي حسن الرحالة المسلمون، ص ٩٢.
(٢) الهروي ص ٦٨.

عبد اللطيف موفق الدين
أبو محمد الطبيب البغدادي

ولد عبد اللطيف في بغداد (سنة ٥٥٧ هـ/ سنة ١١٦٢ م) حيث بدأ دراسته الأولى كما هي عادة عصره بحفظ القرآن وسماع الحديث واللغة والنحو وإجادة الخط وحفظ الشعر والمقامات. فلما حصل على الإجازة من شيوخ بغداد، انتقل إلى خراسان فلما اطمأن إلى أنه أخذ عن شيوخها كل بغيته، ارتحل إلى الموصل حيث حدَّث في مدرسة ابن مهاجر ودار الحديث. فلما اكتملت ثقافته وأصبح عالماً بأصول الدين واللغة والطب والفلسفة والتاريخ[١]، ارتحل إلى أجزاء أخرى من العالم الإسلامي وفي مقدمتها مصر.

ويعتبر عبد اللطيف البغدادي من الرحالة العلماء الذي اشتهر بمعرفته للطب، فضلاً عن تبحره في النحو واللغة وعلم الكلام. وكان عبد اللطيف بطبعه يملُّ الاستقرار في مكان واحد مدة طويلة، لذلك نجده يذهب مرتحلاً إلى دمشق رغبة في التقاء بعلمائها فوقعت بينه وبينهم مناظرات، كانت له فيها الغلبة عليهم. ومن ثم فقد حدثت بينه وبينهم جفوة خرج على أثرها إلى القدس ووفد على معسكر صلاح الدين بظاهر عكار حيث التقى بالقاضي بهاء الدين ابن شداد وعماد الدين الكاتب والقاضي الفاضل. ولما علم القاضي الفاضل

---

(١) السيوطي حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ١، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣.

برغبة عبد اللطيف في الذهاب إلى مصر زوَّده بخطاب توصية إلى وكيله بمصر ابن سناء الملك الذي استقبله استقبالاً حافلاً وأحسن وفادته، كما قدمه إلى شيوخ مصر وعلمائها مثل ياسين السبيائي وموسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي، الذي قال عنه عبد اللطيف «كنا نتحاور الحديث فتكون الغلبة لي بقوة الجدل وفضل اللسن ويتغلب الشارعي بقوة الحجة وظهور المحجة»[١].

وقد ألَّف عبد اللطيف العديد من المصنفات العلمية، أهمها كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» والذي ترجمه إلى الفرنسية سنة ١٨١٠م دي ساسي (De Sacy Silvestre) وكتاب «مختصر تاريخ مصر» ترجمه سنة ١٨٠٠م (G.White)، وكتاب «الجامع الكبير في المنطق الطبيعي والإلهي» ويقع في عشر مجلدات. ويمتاز أسلوب عبد اللطيف كما يقول نقولا زيادة[٢] بالاتجاه العلمي الذي يغلب على تقييده لمشاهداته مما يثبت أنه رأى وفحص ونقب فضلاً عما يسمع. أما الميزة الثانية في أسلوبه، فهي أنه إذا روى له أمر وشك فيه أظهر ذلك في كتاباته.

وبعد قضاء فترة وجيزة في مصر رحل عبد اللطيف إلى بيت المقدس حيث التقى مع صلاح الدين الأيوبي بعد عقد الهدنة، ويحدثنا عن هذا اللقاء، فيقول «وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة. ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع».

ولكن سرعان ما عاود عبد اللطيف الحنين لزيارة مصر، وعاد إلى مصاحبة الشارعي حتى توفي. وبرغم أن صلاح الدين ومن بعده أولاده كانوا قد رتبوا لعبد اللطيف مائة دينار في الشهر، إلا أنه لم يركن على هذا المال بل كان يشغل نفسه بالعمل فأكبَّ على الاشتغال بالعلم في دمشق وإقراء الناس بالجامع

---

(١) عبد اللطيف البغدادي الإفادة والاعتبار، المقدمة، ص ٩.
(٢) نقولا زيادة الجغرافيا والرحلات، ص ١٧٤ . ,

الأموي. فلما رحل إلى مصر كان يقرىء الناس بالجامع الأزهر صباحاً ومساءً ويقرىء الطب للكثيرين في وسط النهار.

وبرغم الاختصار الملحوظ لرحلته إلى وادي النيل في كتابه «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر» إلا أنها تمتاز بدقة الوصف وشمولها لجميع مناحي الحياة العمرانية والاجتماعية هذا فضلاً عن الأسلوب العلمي الذي تميزت به كتابات الطبيب العالم عبد اللطيف البغدادي. ومن الأمثلة التي تدل على دقته في الوصف العلمي المعماري حديثه عن عمائر مصر، إذ يقول «وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية حتى أنهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة، ودورهم أفيح وغالب سكناهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وقلما تجد منزلاً إلا وتجد فيه باذاهنج[1]. وباذاهنجاتهم كبار واسطه للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام حتى أنه يغرم على عمارة الواحدة منها مائة دينار إلى خمسمائة، وإن كانت الباذاهنجات في المنازل الصغار يغرم على الواحد منها مائة دينار، وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ويبنون الحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق». ويستطرد في وصف دورات المياه وكيفية إحكام بنائها مما يدل على تقدم حضاري في ذلك الوقت مع رقي في الفن العمارة، إذ يقول «ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة، ويحفرون الكتف إلى المعين فيغبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح»[2].

---

(١) باذاهنج والجمع باذاهنجات، كلمة فارسية معناها منفذ التهوية، ويوجد الباذاهنج بأعلى العمائر، وهو عبارة عن فتحة تمتد من أعلى المبنى حتى تصل إلى الطابق الأرضي أو إلى فناء الدار أو صحنه على أن تكون في الجهة الشمالية أو الجهة الغربية وهي الجهات التي تأتي منها الرياح الباردة في فصل الصيف ويكون الباذاهنج في النهاية الشمالية أو الغربية للمباني، ويعرف في مصر باسم (الملقف) أما إذا وجدت الفتحة في منتصف الدار فإنه يطلق عليها إسم (الشخشيخة) وخاصة في عمائر العصر العثماني.

(٢) الإفادة والاعتبار، ص ٣٨.

ومن العمائر المدنية التي أُخذ بجمالها ودقة بنائها الحمامات العامة بمصر، إذ يقول «لم أشاهد أتقن منها وصفاً ولا أتم حكمة ولا أحسن منظر ومخبراً، أما أولاً، فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين إلى أربع روايات، وأكثر من ذلك، يصب فيه ميزابان[1] ثجاجان[2] حار وبارد، وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جداً مرتفع، فإذا اختلطا فيه (أي الماء الحار والبارد) جرى منه إلى الحوض الكبير، وهذا الحوض نحو ربعه فوق الأرض وسائره في عمقها ينزل إليه المستحم فتنقع فيه[3]. وداخل الحمام مقاصير بأبواب، وفي المسلح[4] أيضاً مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم. وهذا المسلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفي وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة وجميع ذلك مزوق السقوف مفوف الجدران مبيضها مرخم الأرض بأصناف الرخام المجزع باختلاف ألوانه وترخيم الداخل يكون أبداً أحسن من ترخيم الخارج. وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الآذاج، جاماته[5] مختلفة الألوان ضافية الأصباغ بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه، لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ داراً لجلوسه وتناهى في ذلك لم تكن أحسن منه»[6].

وواضح مما سجله عبد اللطيف في كتابه الاعتبار، أن أعظم ما استرعى انتباهه في مصر ولم يجده في غيرها من البلدان التي زارها أو قرأ عنها، هو كثرة عمائرها الأثرية مع ضخامتها وعظمتها، إذ يقول في هذا الصدد «وإذا رأى اللبيب هذه الآثار، عذر العوام في اعتقادهم عن الأوائل بأن اعمارهم كانت

---

(١) الميزاب الصنبور.

(٢) ثجاجان ثج الماء أي سال، وثجه أساله. والثج سيلان دم الهدى، والثجة الروضة فيها حياض. (القاموس المحيط) والمراد هنا أن الصنبورين يصبان الماء دون انقطاع.

(٣) هذا الحوض الكبير يعرف في الحمامات اعامة باسم (المغطس).

(٤) المسلح مكان التدليك.

(٥) جامات جمع مفردها، جامة وهي كلمة فارسية، يستخدم في الزخارف الإسلامية بمعنى شكل أقرب ما يكون من الدائرة وليس بدائرة ويتوسط الموضوع الزخرفي.

(٦) الإفادة والاعتبار، ص ٨٣.

طويلة وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج إليه في ذلك من علم الهندسة، واجتماع الهمة وتوفر العزيمة، ومصابرة العمل والتمكن من الآلات، والتفرغ للأعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان، وخاصة الإنسان، ومقاديرها ونسب بعضها من بعض وكيفية تركيبها، وبصفاتها ومقادير وصنع بعضها من بعض»[1].

ويحدثنا عن بناء الهرم الأكبر ومداخله وطريقة الوصول إليه، فيقول «وقد سلك في بناء الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان، ولذلك صبرت على ممر الزمان، بل على ممر صبر الزمان، فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، لها الملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلاً هي غاية إمكانها، حق انها تكاد تحدث عن فوقها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم، وذلك أن وضعها على مخروط يبتدىء من قاعدة مربعة، وينتهي إلى قطة، ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله في وسطه، وهو يتساند على نفسه، ويتواقع على ذاته، ويتحامل بعضه على بعض. فلس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها، ومن عجيب صنعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع، فإن الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية، وليست كذلك عندما تلقى السطح».

وينتقل من الحديث عن الهرم الأكبر إلى وصف السراديب المحفورة إلى مسافات كبيرة في مرتفعات الضفة الشرقية لنهر النيل جنوب القاهرة، فيقول «إنها مقابر كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار متداخلة، وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث، وتسمى المدينة، حتى لعل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يوماً أجمع ولا ينهيها، لكثرتها وسعتها وبعدها، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام»[2].

(١) المرجع السابق، ص ١٦٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠١.

ويترك عبد اللطيف البغدادي الحديث عن الآثار وإعجابه بها وفن هندستها للحديث عن موضوع علمي آخر يختص بتربه مصر وما ينمو فيها من نباتات ومن إلى ذلك فيقول «إن أرض مصر رملية لا تصلح للزراعة، لكنه يأتيها طين أسود مختلطاً بماء النيل عند مده (أي في وقت معين وهو وقت الفيضان) تستقر الطين وينضب الماء فيحرث ويزرع، وكل سنة يأتيها طين جديد ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شيء منها، كما يفعل في العراق والشام».

ومن الموضوعات الطريفة التي حدثنا عنها هو التفريخ الصناعي للدجاج وأن ذلك كان يتم في معامل خاصة بها وهو يذكرنا بما هو حادث الآن في أرقى البلاد الأوروبية للتفريخ الصناعي، والذي كنا نعتقد أننا قد أخذنا هذه الطريقة عنهم علمًا بأنها معروفة لنا منذ القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد على أقل تقدير، وفي هذا يقول «من ذلك حضانة الفراريج بالزبل قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة، وربما لم يعرفوه أيضاً، وإنما ذلك عندهم صناعة ومعيشة ينجز فيها ويتكتسب منها. ويسمى الموضع معمل الفروج، وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت ما بين عشرة أبيات إلى عشرين بيتاً في كل بيت ألفا بيضة ويسمى بيت الرّقيد». ويستمر في وصف هذه البيوت وكيف تتم عملية حضانة البيضة ثم عملية التطريح (أي الفقس) ويختم الموضوع بقوله: «وأحمد الأوقات عاقبة لعمله أمشير وبرمهات وبرموده[٢] وذلك في شباط وآذار ونيسان، لأن البيض في هذه المدة يكون غزير الماء كثير البزرة صحيح المزاج، والزمان معتدل صالح للنشء والتكوين وينبغي أن يكون البيض طرياً، وفي هذه الأشهر يكثر البيض أيضاً»[٣].

□ □ □

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٢) أمشير وبرمهات وبرمودة شهور قبطية تقابل الشهور الميلادية فبراير ومارس وابريل وتقابل شباط وآذار ونيسان.

(٣) الإفادة والاعتبار، ص ١٨ ــ ١٩.

أبو عبد الله
زكريا بن محمد القزويني الأنصاري

ولد القزويني بمدينة قزوين بإيران (سنة ٦٠٠ هـ/ سنة ١٢٠٣ م) حيث أمضى طفولته وشطراً من صباه ثم ارتحل إلى دمشق حيث أقام فترة من حياته. وتولى القضاء في عهد الخليفة المستعصم العباسي، آخر خلفاء الدولة العباسية (٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨ م) وذلك في مدينة واسط والحلة بالعراق. وهكذا نرى أن القزويني قد ارتحل وساح في إيران والشام والعراق، هذا فضلاً عن اتصاله بكثير من الرحالة وقرأته لما سجلوه عن رحلاتهم وسياحاتهم مما أفاده كثيراً في كتاب رحلته المعروف باسم «آثار البلاد وأخبار العباد».

كما ترك لنا القزويني مصنفاً آخر هو كتاب «عجائب المخلوقات»، هو دون شك أجل ما أنتجه في هذا الميدان علماء العصور الوسطى قاطبة[1]. ويشتمل هذا الكتاب على بيان التقويم الشمس والنجوم والأجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن وكل ما يتعلق بالوحوش والحيوانات الخرافية المختلفة. وقد قام المستشرق وستفلد (Wustenfeld) على نشر كتاب القزويني «آثار البلاد وأخبار العباد» وكتاب «عجائب المخلوقات» في سنتي (١٨٤٨ ـ ١٨٤٩م).

وقد اشتمل كتاب «آثار البلاد» الذي سجل فيه القزويني أخبار رحلاته

(١) زكي حسن: الرحالة في العصور الوسطى، ص ١٢٨.

ورحلات الرحالة اللذين التقى بهم وقرأ كتاباتهم، وكذا أخبار من سبقوه من الرحالة، على كثير من المعلومات الجغرافية الهامة ولكنها لا ترتقي إلى المستوى الذي بلغته المعلومات التي أوردها الرحالة الجغرافي ياقوت الحموي وغيره من الرحالة الجغرافيين المبكرين. أما عن الأخبار الأخرى التي تتصل بأحداث العباد وأخبارهم، فلا نعتقد أن هناك مصنفاً سبقه أو عاصره ضارعة أو بزه فيها. فقد اشتمل الكتاب على كثير من الأخبار المتصلة بتراجم شعراء الفرس الذين اتصل بهم القزويني كالفردوسي وناصر خسرو وعمر الخيام وعنصري ورشيد الدين الوطواط[١]. هذا فضلاً عما اشتمل عليه وزخر به من الأخبار الممتعة المسلية[٢].

وتدلنا أخبار الرحلات والرحالة الذين سجل لنا القزويني أخبار رحلاتهم المفقودة أو التي وردت في ثنايا كتب الآخرين، على سعة إطلاعه ومقدرته الفائقة على استخلاص ما هو مفيد وهام وفي نفس الوقت طريف وممتع. فمن الواضح أن القزويني قد أطلع على ما كتبه ابن حيان[٣] القرطبي وابن بسام[٤] عن

(١) براون: تاريخ الأدب في إيران، (المترجم)، ج ٢، ص ٦١٣.

(٢) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٤، ص ٥٨٦.

(٣) ولد ابن حيان بقرطبة سنة ٤٠٦ هـ وتوفي سنة ٤٩٦ هـ، ويعتبر من أعظم مؤرخي الأندلس في عصرها الوسيط. ولعل أعظم مؤلفاته التي تعنينا في موضوعنا هو «المقتبس في أخبار الأندلس» وخاصة القطعة الثالثة التي تتناول عصر عبد الرحمن الناصر. ويتناول المقتبس تاريخ الأندلس من الفتح العربي حتى أواخر القرن الرابع الهجري، ولهذا اضطر ابن حيان إلى اقتباس مادة كتابه من كتب المؤرخين الذين سبقوه خاصة عيسى الرازي، ومن ثم سماه المقبس. كما كان المقتبس مرجعاً لكثير من المؤرخين الذي جاؤوا بعده، فقد نقل عنه ابن بسام وابن الخطيب وابن غذاري كما يقال أن رجلاً يدعى عبد الرحمن بن عون كتب مختصراً لتاريخ ابن حيان (أحمد مختار العبادي، ص ٣٢١).

(٤) هو أبو حسن علي بن بسام الشنتري نسبة إلى مدينة شنترين في عرب الأندلس (البرتغال حالياً) المتوفي (سنة ٥٤٢ هـ/ سنة ١١٤٧ م). وقد كان ابن بسام أديباً ومؤرخاً كما يبدو ذلك واضحاً من موسوعته الأدبية «كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» التي تضمنت تراث القرن الخامس الهجري. ولما كان ابن بسام أديباً وليس مؤرخاً فقد اعتمد في الجزء التاريخي من كتابه على ما كتبه المؤرخ ابن حيان، فحفظ لنا الشيء الكثير من هذا الكتاب الجليل الضائع.

السفارة[1] الأندلسية التي أرسلها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (سنة ٣٤٤ هـ/ سنة ٩٥٦ م) إلى أتو الأكبر امبراطور الجرمان والذي كان يومئذٍ زعيم النصرانية، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام. فقد استفاد القزويني من هذه السفارة الأندلسية في المعلومات والأحداث الطريفة والهامة عن بعض بلاد الجرمان.

فيحدثنا القزويني عن الامبراطور أتو فيقول: «ويقال أن أتو ملك الصقالبة أو ملك (اللمان) وتسمية (هوتوا) أو (هوتو)[2]. أما عن موضوع السفارة[3] فيقول: ففي ذلك العام وفد على قرطبة سفير، هو يوحنا ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة، فاستقبل بحفاوة، ولكن الناصر لم يقابله فلما ألح في طلب المقابلة والمحادثة، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولاً أسقفاً إلى (أتو) فسجنه مدة ثلاثة أعوام، وأنه سيسجنه (أي يوحنا) أضعاف هذه المدة لأنه أرفع مكاناً من ملك النصرانية».

ويستمر في سرد قصة السفارة إلى أن يقول: «وأخيراً قرر الناصر أن يرسل رسولاً إلى (أتو) يستوثق من نياته وعواطفه، وأن يبقى (يوحنا) سجيناً حتى يعود

---

(١) لقد توالت سفارات ملوك النصرانية على الخليفة عبد الرحمن الناصر، وفي ذلك يعلق المؤرخ بيدال، فيقول: «وصلت الخلافة الأندلسية في ذلك العصر أوج روعتها، وبسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا ودول المسيحية وكلفت بذلك السكينة العامة».
(أحمد مختار العبادي، ص ٤٩١، عن:
R.M. Pidal: Les Origienes del Espanol. P.421).

(٢) لقد نقل نفس هذه البيانات عن الامبراطور (أتو) كل من:
(أ) ابن خلدون، ج ٤، ص ١٤٣.
(ب) ابن غذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٣) وبرغم إشارة المصادر التاريخية إلى تلك السفارة في غموض وإيجاز إلا أنها تتفق جميعاً في تاريخ السفارة وهو (سنة ٣٤٤/ سنة ٩٥٦م) (عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج ٢، ص ٤٥٦).

رسوله. وكان الرسول هو ربيع (أوريفا) الأسقف[١]، وكان عالماً ويحبوه الناصر بعطفه وتقديره لعلمه وجليل خدماته. وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة بعد سنتين من سفره، فارتاح الناصر لنتائج سفارته، وأذن برؤية يوحنا رسول (أتو).

ومهما يكن من أمر هذه السفارة، فإن الذي عُنِيَ القزويني باقتباسه منها هو وصف سفير الخليفة عبد الرحمن الناصر، (ربيع الأسقَف) للبلاد التي اخترقها في فرنسا والمانيا ذهاباً وإياباً، مما أتاح له الفرصة باستكمال وصف هذا الجانب من مناطق وبلاد أوروبا، فقد ورد ذكر بعد البلاد الفرنسية والألمانية والهولندية في كتابه آثار البلاد مثل إيطرخت وأبو لده ومفانجة وشلشويق وواطر بوررونة[٢].

ومن الرحالة الذين نقل على لسانهم أخبار رحلاتهم سلَّام الترجمان التي تبدو رحلته أشبه بالأسطورة منها بالحقيقة، والتي يذكر منها القزويني: «يزعم سلَّام أن الخليفة (العباسي الواثق سنة ٢٢٧ هـ ــ ٢٣٢ هـ) قد أعطاه كتاباً إلى حاكم أرمينية ليقضي حوائجهم ويسهل مهمتهم، فزودهم بكتاب توصية إلى حاكم إقليم السرير، وكتب لهم هذا الحاكم إلى أمير إقليم اللان. وكتب هذا الأمير إلى فيلانشاه، وكتب فيلانشاه إلى ملك الخزر في إقليم بحر قزوين، فوجه معهم خمسة من الأدلاء وسار الجميع ستة وعشرين يوماً، فوصلوا إلى أرض سوداء كريهة الرائحة».

ويستمر القزويني في سرد رحلة سلَّام حتى يأتي إلى وصف السد الذي بناه الاسكندر ذو القرنين والذي يقع بين ديار المسلمين وبين ديار يأجوج ومأجوج، والذي رآه الخليفة الواثق في منامه مفتوحاً، ومن أجل ذلك أرسل سلَّاماً لينقذ السد، فيقول: «وتقدم الركب إلى جبل لا نبات عليه يقطعه واد عرضه مائة وخمسون ذراعاً، وفي الوادي باب ضخم جداً من الحديد والنحاس، عليه قفل

---

(١) هو ربيع بن زيد من زعماء النصارى المعاهدين وكان يجيد العربية واللاتينية. (ابن خلدون، ج ٤، ص ١٤٣).

(٢) G.Jacob: Studien in Arabischen Geographen. P. 126.

طوله سبعة أذرع وارتفاعه خمسة وفوق الباب بناء متين يرتفع إلى رأس الجبل. وكان رئيس تلك الحصون الإسلامية يركب في كل جمعة ومعه عشرة فرسان، مع كل منهم مزرية من حديد فيجيئون إلى الباب ويضربون القفل ضربات كثيرة، ليسمع من يسكنون خلفه، فيعملوا أن للباب حفظة، وليتأكد الرئيس وأعوانه الفرسان من أن أولئك السكان لم يحدثوا في الباب حدثاً».

ومن المقتطفات المفيدة التي نقلها لنا القزويني من رحلة أبي دلف الخزرجي إلى الصين والهند، وصفه للخزف الصيني إذ يقول عن لسان أبي دلف: وكان الخزف الصيني يقلد في بعض البلاد الأخرى ولا سيما في إيران وملبار[١]، ولكن الأواني الصينية كانت تفضل في الأسواق على كل ما كان يصنع تقليداً لها.

كذلك أفاد القزويني من مشاهدات ابراهيم الطرطوشي الأندلسي المتوفي (سنة ٤٧٧ هـ/ سنة ١٠٨٥ م) الذي أتيح له رؤية بعض المدن في فرنسا وأوروبا الوسطى، ومما نقله القزويني عنه حديثه عن مدينة النساء التي قال عنها: «مدينة النساء مدينة كبيرة واسعة الرقعة في جزيرة من جزائر بحرالمغرب،أهلها نساء[٢] لا حكم للرجال عليهن، يركبن الخيل ويباشرن الحرب بأنفسهن ذوات بأس شديد، عند اللقاء. ولهن مماليك يختلف كل مملوك إلى سيرته، ويقوم بالسحر ليخرج مستتراً قبل انبلاج الصبح، فإذا وضعت إحداهن ذكراً وأدته في الحال».

وقد حرص القزويني في وصفه للبلاد التي زارها أو ارتحل إليها أن يتحدث عن كل شيء فيها بحيث ينقل صورة كاملة المعالم لقارئه، فمن ذلك وصفه للقدس: «بيت المقدس هي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي، ثم ضرب الدهر ضرباته واستولت عليها الأمم وخربوها. وقد عمَّرها أحد ملوك الفرس، فصارت أعمر مما كانت وأكثر أهلاً.

---

(١) ملبار جزائر تقع إلى الشرق من سلطنة عمان.

(٢) وهي المرأة التي تعرف باسم المرأة الأمازون.

والتي عليها الآن أرضها وضياعها جبال شاهقة، وليس بقربها أرض وطيئة، وزروعها على أطراف الجبال. وأما نفس المدينة فهي فضاء في وسط ذلك وأرضها كلها حجر، وفيها عمارات كثيرة حسنة. وشرب أهلها من ماء المطر ليس فيها دار إلا وفيها صهريج، مياهها تتجمع في الدروب، ودروبها حجرية ليست كثيرة الدنس، لكن مياهها رديئة»[1]. ولا يكتفي القزويني بوصفه لمدينة القدس بل تقتبس فقرات مما كتبه المقدسي[2] عنها ليكمل به صورة المدينة، فيقول: «إنها متوسطة الحر والبرد وقل ما يقع فيها ثلج، ولا ترى أحسن من بنيانها ولا أنظف ولا أنزه من مساجدها. وقد جمع الله فيها فواكه الغور والسهل والجبل. والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز».

أما عن أخبار العباد فيحدثنا القزويني عن مناقب الإمام الحسين رضوان الله عليه، فيقول: «أتى أعرابي الحسين وهو جالس في مسجد جده رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعد وفاة أخيه الحسن، فسلم عليه، وقال: يا ابن رسول الله، إني قتلت ابن عم لي وقد طولبت بالدية، فهل لك أن تعطيني شيئاً، فقال له: يا أعرابي نحن قوم لا نعطي المعروف إلا على قدر المعرفة. فقال الأعرابي: سل ما تريد، فقال له الحسين: يا أعرابي ما النجاة من الهلكة؟ قال المتوكل على الله، عز وجل، قال وما الهمة؟ قال: الثقة بالله، ثم سأله الحسين غير ذلك وأجاب الأعرابي، فأمر له الحسين بعشرة آلاف درهم، وقال هذه لقضاء ديونك وعشرة آلاف درهم أخرى، وقال هذه تلم بها شعثك وتحسن بها حالك وتنفق منها على عيالك».

ويضيف القزويني على ذلك، فيقول: «وكان الحسين مع جوده الذي امتاز به وكرمه الذي كان مضرب الأمثال لا يجاوز حد السخاء إلى الإسراف والتبذير، فمن أقواله المألوفة: «لا تتكلف ما لا تطيق ولا تنفق إلاَّ بمقدار ما تستفيد»[3].

---

(١) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد»، ص ١٠٧.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١١٧.

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٣٠٧.

ويحدثنا عن جماعة الصوفية التي بدأت تلعب دوراً هاماً وخطيراً في المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، في القرن الرابع الهجري، فلم يعد دورها محدوداً بالزهد والتقوى فحسب، بل أصبح لها كيانها العقلي والروحي، ومن ثم فقد تصدى العلماء والفقهاء بعد أن كثر عددهم واشتهر أمرهم فاتهموهم بالكفر وفساد العقيدة، بل اعتبروهم خطراً على المجتمع، وفي هذا الصدد، يقول القزويني: «وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الهجوم والإضطهاد للصوفية أن كوّنوا لأنفسهم جماعات أشبه ما تكون بالأحزاب، ولكل فرقة أو جماعة مبادئها وأصولها وشيخها وأتباعها، وعلى كل صوفي أن يأتمر بأوامر شيخه ومرشده»[1].

أما عن كتابه الثاني «عجائب المخلوقات»، فلعل من أهم الموضوعات التي عنى بها القزويني في هذا المصنف هو الفلك والجغرافية الطبيعية إلى جانب عنايته بكل ما هو عجيب وغريب من المخلوقات. فبالنسبة لموضوع الفلك، يحدثنا عن معرفة العرب بالنجوم قبل الإسلام، فيقول: «ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة، فقد عرفوا السيارات والأبراج وعرفوا عدداً كبيراً من الثوابت ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين في الأمم الأخرى. وفي قدم أسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها مثل بنات نعش الكبرى والصغرى والسها والظباء والربع والرابض والعوائذ والذئبين والنثرة والفرقد والقدر والراعي وكلب الراعي والأغنام والرامح والسماك وعصا الضياع وأولاد الضياع والسماك الرامح وحارس السماء والأظفار والفوارس والكف المخضب والخباء والعيوق والعنز والجديين»[2].

ثم يتكلم عن منازل القمر وتسمية العرب لها، فيقول: «أما منازل القمر فقد قسموها إلى ثمانية وعشرين قسمًا خلافاً لما كان عند الهنود فإنها سبعة وعشرين قسمًا عندهم. وأراد العرب منها غير ما أراده أولئك إذ كان مرادهم منها

(١) المرجع السابق، ص ٢٤١.
(٢) القزويني: عجائب المخلوقات، ج ١، ص ٥٠.

معرفة أحوال الهواء في الأزمنة وحوادث الجو في الفصول السنة. وكان العرب إذا عدوا المنازل بدأوا بالشرطين لأسباب تتعلق بإقليمهم، وأسماء المنازل هي:

١ ــ الثريا.
٢ ــ الدبران.
٣ ــ الهقعة.
٤ ــ الهنعة.
٥ ــ الذراع.
٦ ــ النثرة.
٧ ــ الطرف.
٨ ــ الجبهة.
٩ ــ الزبرة.
١٠ ــ الصدفة.
١١ ــ العواء.
١٢ ــ السماك.
١٣ ــ الغفر.
١٤ ــ الزبانيان.
١٥ ــ الإكليل.
١٦ ــ القلب.
١٧ ــ الشولة.
١٨ ــ النعائم.
١٩ ــ البلدة.
٢٠ ــ سعد الذابح.
٢١ ــ سعد بلع.
٢٢ ــ سعد السعود.
٢٣ ــ سعد الأخبية.

٢٤ ــ الفرغ المقدم.

٢٥ ــ الفرغ المؤخر.

٢٦ ــ بطن الحوت.

٢٧ ــ الشرطان.

٢٨ ــ البطين»[١].

وقد تناول كذلك الحديث عن طبيعة البحر الأحمر والعوامل والتأثيرات الجوية والبحرية القاسية، التي تتعرض لها السفن التي تمر به ومن ثم فقد كانت تحتاج إلى مواصفات خاصة. وبرغم المعلومات الدقيقة التي ذكرها في وصف السفن إلا أن الأسباب التي ذكرها كانت لا تخلو من جانب أسطوري لا أساس لها من الصحة، ففي ذلك، يقول: «إن السبب هو خوف الملاحين من جبال المغناطيس، وهي جبال كثيرة قد علا الماء عليها، فلهذا لا تستعمل المسامير في هذا البحر خوفاً من جذب جبال المغناطيس لها»[٢].

وإذا ما انتقلنا إلى عجائب المخلوقات يحدثنا عن الصيد بالطيور وهو ما أسماه بالبيزرة وعن أنواع الطيور التي تقوم بعملية الصيد، فيقول: «تنقسم جوارح طير الصيد إلى خمسة أنواع، هي: الطغرل، وهو من طيور الصيد الجوارح، وهو أعظمها وأكبرها وأكثرها شراسة وهو يوجد فقط في خوارزم بأرمينيا. ويمتاز بقوة احتماله فهو ينقض عشر مرات ويستطيع صيد كل الحيوانات التي تستطيع الطير».

ويستطرد في وصف طيور البيزرة: «والباز عائلة كبيرة منها البازي والزرق

---

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٣١.

والباشق والعفصي والبدياق، ويقال أن لا يكون إلا أنثى[1] ذكرها نوع آخر كالحدأة والشواهين، ولهذا اختلفت أشكالها»[2].

ويستمر في سرد وصف البازي، فيقول: «والبازي أحرها مزاجاً لأنه قليل الصبر على العطش، ومأواه مساقط الشجر العالية الملتفة والظل الظليل. وهو حفيف الجناح سريع الطيران وإناثه أجرأ على عظام الطير من ذكوره. وهذا الصنف تصيبه الأمراض وانحطاط اللحم والهزال. وأحسن أنواعه ما قلَّ ريشه واحمرَّت عينيه مع حدة فيهما. ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق عريض الصدر بعيداً ما بين المنكبين شديد الإنحراط إلى ذنبه، وأن يكون فخذاه طويلتين مسرولتين بريش، وذراعاه غليظتين قصيرتين، وفرخ البازي يسمى غطريفاً»[3].

□ □ □

---

(١) لكن ورد في كتاب «صنعة الصيد بواسطة الجوارح» الذي ألفه الامبراطور فردريك الثاني ملك صقلية (سنة ١٢٥٠ م) والذي كتبه باللاتينية، أثبت خطأ هذا القول بأن البازي أنثى وأن ذكره شيء آخر. على أن الفرق هو أن الصائد الكبير الجثة المعتبر في الصيد في جميع أجناس الجوارح هو الإناث (سعاد ماهر: البيزرة في التاريخ والآثار، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثالثة، سنة ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م بالرياض).

(٢) عجائب المخلوقات، ص ٢٥٠.

(٣) القزويني: عجائب المخلوقات، ص ٢٥١.

زين الدين
عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري

ولد عبد الباسط في مدينة ملطية (سنة ٨٤٤ هـ/ سنة ١٤٤٠ م) حيث كان والده يشغل إحدى الوظائف الإدارية الكبرى في عصر المماليك الجراكسة. فقد كان أبوه خليل بن شاهين الظاهري أحد أمراء المماليك الذين يشغلون وظائف إدارية هامة في الدولة المملوكية. وقد سجل لنا خليل الظاهري خبرته ودرايته في الشؤون الإدارية في كتابه «زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك». والحقيقة أن كتاب «زبدة كشف الممالك» يعتبر من المصادر الموثوق بها التي تناولت عرض وتصنيف الوظائف السياسية والإدارية بل والإجتماعية في دولة المماليك في القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة.

ولعل من الوظائف التي كان خليل من أوائل الذين عنوا بذكرها وتصنيفها بين الدرجات العسكرية، أولئك الذين تولوا وظائف إقامة العمائر والمباني في العصر المملوكي، فهو يحدثنا عن لقب المهندس أو المعمار في العصر المملوكي، وهو (شاد العمائر) فيقول: «إنه يشغل هذه الوظيفة أمير عشرة في أول الأمر ثم صار يشغلها قوم بغير أمرة، وقد يعاونه موظف آخر يسمى «ناظر العمارة» كان له الأمر على المهندسين والحجارين وصناع العمائر وغيرهم»[١].

---

(١) خليل الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٥.

كذلك غني خليل الظاهري بإبراز قيمة عرب الشام وكذا طوائف التركمان مما أفاد منها ولده عبد الباسط في كتاباته عن هذه الطوائف في البلاد التي ارتحل إليها حتى المغرب الأقصى، فيقول خليل مثلاً عن العرب: «كان السلاطين يجلون عرب الشام وينزلونهم منزلة رفيعة وخاصة عرب آل فضل وآل مراء وآل علي، الذين كانوا يدعون أنهم ولد جعفر بن يحيى البرمكي من العباسية بنت المهدي وأخت هارون الرشيد»[١] ويتحدث عن طوائف التركمان في بلاد الشام وعن الوظائف التي كانوا يشغلونها وأسماء تلك الوظائف وألقابها وكنيتها، فيقول: «ووجدت طوائف متفرقة من التركمان الخاضعين للماليك منها ابن كبك والبارزاتية[٢] وابن شعاسير والأوزارية والأركية وأواح أغلو الكندولية والقبجولية وهؤلاء بدورهم ينقسمون إلى فروع كثيرة»[٣]. ولعل من طريف ما سجله خليل الظاهري واستفاد منه ابنه عبد الباسط بالنسبة لمركز المرأة في العصر المملوكي وما تمتعت به المرأة من الإجلال والتقدير حتى أنهم خصوهم بعدد من الألقاب مثل خوند وخاتون. ويفصل معنى هذه الألقاب ولمن تُمْنَح، فيقول: «كان لقب (خوند) خاصاً بزوجات السلاطين كما نراه في المواضع يخاطب بها السلاطين أنفسهم. أما لفظ خاتون فمعناه في الأصل أميرة ثم أصبح يستعمل لتكريم المرأة بصفة عامة»[٤].

وبرغم ما وصل إليه خليل الظاهري من مركز إداري مرموق فإن ولده عبد الباسط قد سلك طريقاً آخر، فقد عكف على دراسة الفقه واللغة العربية والأدب وقرض الشعر، كما تخصص في دراسةالطب. على أن عبد الباسط كان يكسب معظم معاشه من التجارة والتأليف وفي بعض الأحيان من قرض الشعر، وخاصة المديح منه.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٥.
(٢) البازراتية أي الذين يصيدون الطيور الجارحة مثل الباز.
(٣) زبدة كشف الممالك، ص ١٠٥.
(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٢١.

وقد أتيح لعبد الباسط القيام بالعديد من الرحلات بدأت منذ (سنة ٨٦٥ هـ/ سنة ١٤٦٠ م) واستمرت حتى (سنة ٨٧٤ هـ/ سنة ١٤٦٩ م) زار فيها الكثير من بلاد المغرب، كان قصده الأول منها دراسة الطب والالتقاء بأعلام الأطباء في تلك البلاد وفي سبيل كسب عيشه كان يقوم بالتجارة.

خرج عبد الباسط من بلاد الشام (سنة ٨٦٥ هـ/ ١٤٦٠ م) على إحدى السفن التابعة لأسطول البندقية التجاري فمر في طريقه على جزيرة رودس وظل في رحلته البحرية هذه ثلاثة وثلاثين يوماً وصل بعدها إلى تونس عاصمة بني حفص[١] التي كان يخضع لها معظم بلاد المغرب.

وبعد أن أقام عدة شهور في عاصمة الحفصيين وفي كنفهم غادرها على إحدى سفن البندقية إلى طرابلس (أو إطرابلس) ثم غادرها إلى قابس ثم إلى القيروان وعاد مرة أخرى إلى تونس. ولما وصل إلى تونس فكر في زيارة المغرب الأوسط فارتحل إلى قسطنطينة وبجايا ومازونا وتلمسان ووهران التي كان يحكمها دولة بني عبد الواد[٢].

---

(١) يرى جمهور المؤرخين أن الحفصيين ينتسبون إلى جدهم أبي حفص عمر، وقيل أنهم ينتسبون إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب، وهم فرع من الموحدين ينسبون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر رأس قبيلة الهنتاتة من مجموعة مصمودة البربرية. وكان الموحدون قد عهدوا إلى بعض أفرادها بولاية تونس سنة ٦٠٢ هـ/ ١٢٠٥ م، فاستأثروا بهذا المنصب، حتى استطاع السلطان زكريا الحفصي (سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م) أن يؤسس دولة مستقلة امتد نفوذها الأدبي من طرابلس شرقاً إلى مدينة سبتة غرباً وإلى سلجماسة جنوباً. وأعلن ابنه أبو عبد الله محمد بن زكريا الحفصي نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين المستنصر (سنة ٦٥٧ هـ/ سنة ١٢٥٩ م) أي بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد على يد التتار. وقد توارثت أسرة الحفصيين حكم البلاد بعد ذلك أكثر من ثلاثة قرون (المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٣٣٩ ـ ٣٤١، السلاوي الناصري: الاستقصار لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٢، ص ١٩٦ ـ ٢٠٠).

(٢) ظهرت دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط (سنة ٦٣٣ هـ ـ سنة ٧٩٦ هـ/ سنة ١٢٣٥ م ـ سنة ١٨٩٣ م) على أنقاض دولة الموحدين، واتخذت من تلمسان عاصمة لها. وقد أسس هذه الدولة يغمر أسن بن زياد، وهو من أصل بربري، على أن صفة الدولة البربرية =

وأقام عبد الباسط فترة في وهران وتلمسان حيث التقى بكثير من علمائها وفقهائها وكذا بعض الأطباء المقيمين بها والوافدين عليها، حيث أنها كانت في ذلك الوقت، مركزاً ثقافياً ممتاز للثقافة والحضارة الإسلامية. ثم أبحر منها على باخرة تابعة لجنوة إلى الأندلس وذلك (سنة ٨٧٠ هـ/ سنة ١٤٦٥ م)، فوصل مالقـة وزار غرناطة[1] التي بقي فيها قرابة شهرين ونصف.

= لم يؤثر على اهتمامها بالثقافة العربية، فازدهرت تلمسان في ظل دولة عبد الواد كمركز ثقافي، كما اشتهرت بحدائقها الغناء التي كانت تصدر حاصلاتها عن طريق الموانىء الساحلية، ولم تحكم دولة عبد الواد سوى الجزء الغربي مما يقابل الجزائر حالياً. وقد طمع كل من الحفصيين وبني مرين في الاستيلاء عليها، ودخل المرينيون فعلاً تلمسان في منتصف القرن الثامن الهجري (١٤ م) إلى أن أحيا الدولة أبو حمو الثاني (سنة ٧٦١/ سنة ١٣٥٩ ــ سنة ٧٩٢ هـ/ سنة ١٣٨٩ م)، وأصبحت الدولة تعرف باسم الفرع الجديد وهو (بنو زيان أو بنو حمو) ومع أن تلمسان كانت تعتبر في ذلك الوقت حاضرة المغرب الأوسط، إلا أن المدن الساحلية كانت تكون جمهوريات مستقلة أشبه بالجمهوريات القائمة على الساحل المواجهة. وقد أدى هذا التفكك إلى طمع الصقليين في الجزائر فغزوا بعض مدنها الساحلية واحتلوها فترة خلال القرن الثامن الهجري، ولم تحقق للجزائر وحدتها الإقليمية إلا في العهد العثماني (السلاوي الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٣، ص ٢٨، وصلاح العقاد: المغرب العربي، ص ١٢).

(١) أسس محمد بن يوسف بن نصر دولة غرناطة الذي يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة سعيد الخزرج، وقد استغل محمد فرصة الاضطراب السائد في بلاد الأندلس في أواخر عهـد الموحدين، وحاول أن يؤسس له ملكاً، فاستولى على غرناطة ومالقة وريا واتخذ غرناطة عاصمة له، وبايعه أهالي هذه البلاد (سنة ٦٢٩ هـ/ سنة ١٢٣١ م) وتلقب بالغالب بالله. وقد تتابع على عرش غرناطة أكثر من عشرين ملكاً من أسرة محمد بن يوسف بن نصر وكان المتقدمون منهم الذين حكموا منذ قيام دولة غرناطة حتى أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) على شيء كثير من الدهاء السياسي، وكان مؤسس دولتهم قد وضع أساس السياسة التي ساروا عليها ومن أهم أركانها صد خطر الإسبان وتوطيد صداقتهم بالدولة المرينية بالمغرب الأقصى. ومن ثم قامت بين الدولتين علاقات سياسية، فعاون بنو مرين دولة غرناطة في كثير من الحروب التي قامت بها ضد المسيحيين في إسبانيا.

وقد اهتم ملوك غرناطة بتشجيع العلوم والآداب وكان يضم بعضهم علماء العلوم والفقه كأبي عبد الله بن محمد الذي ولي عرش غرناطة سنة ٦٧١ هـ، كما ولي وزارتها بعض رجال الأدب كلسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة). ودخلت غرناطة =

بعد ذلك عاد عبد الباسط إلى المغرب الأوسط فنزل وهران حيث أقام عدة أشهر غادرها إلى تونس ومنها استقل باخرة جنوية ورجع إلى الاسكندرية ماراً بليبيا، وكان ذلك في شوال (سنة ٨٧١ هـ/ سنة ١٤٦٧ م).

وقد سجل لنا عبد الباسط رحلته في كتابه «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم» ضمن أبحاث تاريخية عن دول العالم الإسلامي وخاصة تاريخ مصر وسورية، وهو يشبه في أسلوبه المنهج الذي اتبعه تقي المقريزي[١]، في كتابه «الخطط والآثار». ولم يصلنا من «الروض الباسم» إلا أجزاء في مخطوطتين بمكتبة الفاتيكان، وقد قام المستشرق ليفي ديلافيدا (Levi Della Vida) بنشر المقتطفات الخاصة بالأندلس مع ترجمة وتعليقات في مجلة الأندلس سنة **١٩٣٣**. كذلك قام برنشويج (Brunschwig) بنشر الأجزاء الخاصة بتونس والجزائر ومراكش ومعها ترجمة وتعليقات فرنسية[٢].

ولعل من أبرز مميزات رحلة عبد الباسط هو تسجيله لبعض الجوانب الاجتماعية السائدة في البلاد التي زارها وارتحل إليها، وذلك بأسلوب قصصي بارع، ثم يترك للقارىء بعد ذلك يستخلص بنفسه الوضع الاجتماعي دون تدخل منه. فمن هذه القصص، قصة نزوله هو وغيره من التجار المسلمين على ساحل البحر بالقرب من بجاية بعد تركهم السفينة الجنوية التي قدموا عليها، فلما رأوهم البربر ظناً منهم أن السفينة لقرصان الفرنجة. وتبين القصة في وضوح ما كان يقوم به المسيحيون من غارات على ثغور إفريقية لأسر المسلمين، ثم يعود مرة أخرى بسفنهم لأخذ الفدية من أهل الأسرى. ومما ذكره عبد الباسط في هذه

= في دور الضعف والانحلال بسبب الانقسامات الداخلية وانحلال دولة بني مرين في المغرب الأقصى هذا فضلاً عن اتحاد ولايتي قشتالة وأرجونة سنة ١٤٦٩ م، وذلك بزواج ملكه قشتالة إيزابلا بملك أرجونة فرديناند فسقطت في ٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ الموافق ٣ يناير سنة ١٤٩٢ م (السلاوي: الاستقصاء، ج ٤، ص ٢٨).

(١) زكي حسن، الرحالة المسلمون، ص ١٧٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٧٤.

القصة «فلما تركنا السفينة ورأتنا طائفة من البربر في تلك الناحية فروا وظنوا السفينة لبعض قرصان الفرنج غيروا هيئتهم حيلة لأخذ المسلمين، فصار التجار ينادونهم من البعد باللغة العربية ويقرؤن بالشهادتين والبربر لا يلتفتون إليهم لكونهم لا يعلمون اللغة العربية بل البربرية فلا يفرقون بين لغة الفرنج والعرب».

ثم يحدثنا في قصة أخرى عن حالة الفوضى وعدم استتباب الأمن في المغرب الأقصى في ذلك الوقت وما كان يتعرض له التجار من اللصوص وقطاع الطرق، وكيف كان التجار يحتالون بأطرف الحيل وأعجبها للحفاظ على أرواحهم وأموالهم، فيروي لنا قصة جماعة من التجار باعوا في فاس وأرادوا العودة إلى أوطانهم، فيقول: «فاتفق أربعة منهم على الرجوع بحيلة احتالوها مشت على العرب وقطاع الطرق، بأن شروا حميراً وجعلوا عليها أخراجاً بما كان معهم من المال النقدي، وعمدوا إلى عبى عتيقة فجعلوها أغطية على الأخراج. وأنهم أخذوا الطحال من الغنم فجففوه ودقوه وحملوه معهم مع شيء من الغراء، وخرجوا وكانوا إذا قربوا من طائفة من العربان أو نجع أذابوا الغراء الذي معهم وجعلوا يلطخون مواضع من أبدانهم على رقابهم ووجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى نصف الساق ثم يذرون على ذلك مما معهم من الطحال المدقوق المجفف ويمشون بأسكانهم، ويوهمون بأنهم مجاذيم من أهل البلاء، وأنهم يجولون بحميرهم عليها زادهم وأثاثهم فكانوا إذا اجتازوا على العرب ورأوهم على تلك الحالة هربوا فارين منهم وأبعدوا عنهم يخشون العدوى حتى كانوا يجعلون لهم من أنواع المآكل على ممرهم بالطريق ويشيرون إليهم من البُعد بأن يأخذوا ذلك ويدعون لهم من غير أن يقربوا منهم ولا يصلوا إليهم. ولم يزالوا على ذلك حتى وصلوا إلى بلادهم، ولم يروا إلا الخير والسلامة، وكان يكاد أن لا يطير الطير من شرور من اجتازوا بهم من العربان وعدَّ ذلك من غريب الحيل والنوادر».

وكان عبد الباسط يكسب نفقات رحلاته وزيارته، كما أسلفنا القول من

التجارة في العبيد وفي البضائع والمغوبية، هذا فضلاً عن إقراضه الشعر في مدح رؤساء الدول التي زارها فكان يكافأ على قصائده بإعفائه من الضرائب على تجارته أحياناً وبمنحه الهبات والعطايا أحياناً أخرى. فمن ذلك القصيدة التي قالها في مدح السلطان المتوكل على الله الحفصي صاحب تونس (سنة ٨٦٧ هـ/ ١٤٦٢ م)، جاء فيها:

ألا يا آل حفص يا ملوكاً ... ويا درراً بهم نظمت سلوك
ألا فقتم ملوك الأرض طراً ... فما من بعدكم أحد مليك

وقد سرَّ المتوكل على الله الحفصي سروراً عظيماً وكتب لعبد الباسط «ظهيراً بإعفائه من المغارم واللوازم فيما يتّجر فيه» كما نظم قصيدة في مدح صاحب تلمسان من بني عبد الواد، فكافأه «بتحرير ظهير بمسامحته في كل ما يتصرف فيه من أنواع المتاجر».

وقد تناول عبد الباسط في كتابه «الروض الباسم»، دراسة تاريخ الدول الإسلامية ولا سيما مصر وسورية، على أن هذه الدراسة لم تقتصر على الجانب السياسي فحسب، بل تناولت كذلك الجانب الاجتماعي والاقتصادي بل والصناعة كذلك، فيحدثنا في هذا الصدد، فيقول: «ومن أنواع الدهان الذي اشتهرت به بلاد الشام الصباغة، فقد كان للصباغ الدمشقي حديث بعيد في الأقطار لثبوت ألوانه ولطافة لمعانه. وكانت أصباغه معدنية لا غش فيها، ومن أصباغهم الأصفران (الزعفران) والروس[1]، والبرفير[2] وكذلك النيل[3] الذي يستخرج من الحولة أو يؤتى به من الهند، الذي كان يصبغ به ثياب العمال والفلاحين»[4].

---

(١) الروس: هو الزعفران كذلك (ابن سيده، ج ٥، ص ١٢٢).

(٢) البرفير أو الفرفير وهو الأرجوان (ابن سيده، ج ٥، ص ١٢١).

(٣) النيل: نبات النيلة وهو أزرق داكن.

(٤) الروض الباسم، ص ٤١.

ويتكلم عن تاريخ مصر في عصر المماليك، فيحدثنا عن الحروب البحرية التي حدثت بين القبارصة والمصريين، فيقول: «لم يغفر المماليك للقبارصة ما حلَّ بالإسكندرية على أيديهم (سنة ٧٦٧ هـ/ سنة ١٣٦٥ م) وأخذوا يترقبون فرصة الانتقام، فأمر يلبغا الخاصكي ببناء المراكب والسفن، وأرسل إلى الشام يأمر بتشغيل كل من يعرف يمسك منشاراً في قطع الأخشاب وبناء السفن برسم غزو قبرص. وفي (سنة ٨٢٧ هـ/ سنة ١٤٢٣ م) وردت الأخبار بأخذ الفرنج مركبين من مراكب المسلمين قرب دمياط فيها بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل، واستولى ملك قبرص (جانوس) على سفينة محملة بالهدايا مرسلة من برسباي إلى السلطان مراد العثماني، فأرسل السلطان برسباي ثلاث حملات لتأديب القبارصة كانت الأولى سنة ٨٢٨ هـ، أحرقت عدة سفن للقبارصة وأغارت على ليماسول وأحرقت جانباً من مبانيها ثم عادت إلى مصر بعد شهرين ومعها عدد كبير من الأسرى وقدر ضخم من الغنائم»[١].

ويستطرد في سرد أخبار هذه الحملات، فيقول: «وكانت الحملة الثانية سنة ٨٢٩ هـ، اتجهت أولاً إلى بيروت وطرابلس ثم إلى قبرص ووصلت إلى ميناء قرباص[٢] ومنها سارت حتى وصلت إلى فاماجوستا في الشرق حيث نزل الفرسان والمشاة إلى البر. وما كاد الخبر يصل إلى حاكم المدينة حتى أسرع بإرسال سفاره إلى قائد الأسطول يطلب الأمان ويخبره بدخوله في طاعة السلطان ويقول أنه مملوك السلطان وأن المدينة مدينته، فأعطاه القائد الأمان بعد أن رفعت راية مصر على المدينة. ومكث المصريون أربعة أيام في فاماجوستا شنوا فيها الغارات على الضياع المجاورة وأوسعوها نهباً وأسراً وتحريقاً، ثم أقلعوا ناحية الملاحة حيث دارت معارك بين المسلمين والقبارصة قتل فيها كثير من الفرنج بعد أن حلت بهم الهزيمة. ثم توجه الأسطول إلى ليماسول فاستولى على

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٢) قرباص تقع على الشاطيء الشمالي الشرقي للجزيرة.

قلعتها وهدم وحرق جزءاً كبيراً منها، كما رفعوا الراية السلطانية على المدينة ثم عادوا الى القاهرة»[1].

وقد حرص عبد الباسط كل الحرص على مقابلة الأطباء والمتطببين في البلاد التي ارتحل إليها حتى ولو كانوا من أهل الذمة، بل إن تقديره للعلم والمتعلمين، وسعة أفقه وتسامحه الديني واحترام عقائد الآخرين، لم تمنعه من تسجيل تقديره وإعجابه بطبيب يهودي لقيه في تلمسان سنة ٨٦٩هـ، حتى أنه دعا له بالهداية للإسلام، وفي ذلك يقول: «ولازمت في الطب الرئيسي الفاضل الماهر موسى بن يهودا صموئيل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي المتطبب هداه الله للإسلام، لم أسمع بذمي ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم وفي علم الموفق والميقات وبعض العلوم القديمة مع التعبير الزائد في دينه على ما يزعمه ويعتقده».

ويضيف عبد الباسط في ترجمة حياة الطبيب اليهودي، فيقول: «وهو في الأصل من يهود الأندلس وولد بمالطة قبل العشرين وثمانمائة وأخذ عن أبيه وغيره، وأجازني وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان وهو مقرب ومختص لصاحبها».

□ □ □

---

(١) الروض الباسم، ص ١٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٧.

الباب الخامِس

رحالة المغرب

إذا استعرضنا تراجم الرحالة من أهل المغرب نجد أن الدافع إليها كان لأغراض شتى، لعلها لا تختلف كثيراً عن أغراض رحالة المشرق. وفي هذا الصدد يحدثنا الفاسي[1] عن أنواع الرحلات عند المغاربة، فيقول: الرحلة الحجازية في المقام الأول والرحلة السياحية والتي تقتصر في كثير من الأحيان على العدوتين الأندلس والمغرب. ثم الرحلة الرسمية والرحلة الدواسية والأثرية والاستكشافية والزيارية والسياسية والعلمية والمقامية والدليلية والخيالية والعامة والسفارية.

على أن الرحلة الحجازية لتأدية فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة التي كانت مهبط الوحي والتي انطلقت منها الدعوة المحمدية، كانت أقوى البواعث فهي مبعث الحنين في نفوس الأندلسيين والمغاربة إلى ارتياد البلد الحرام ولينهلوا المعرفة من منابعها الأولى والأصيلة هذا فضلاً عما كان يشعر به هؤلاء الرحالة من روابط الدين واللغة التي تربطهم بإخوانهم في البلاد الإسلامية بالمشرق العربي وهي روابط بقيت قائمة حتى بعد أن تبددت الوحدة السياسية، بل لعل

---

(١) محمد الفاسي: الأكسير، ص (ح).

الرحلة كانت أقوى عند الرحالة المغاربة في عهد التفرق السياسي منها في عهد الوحدة، وذلك لما اعتاده العالم الإسلامي من حياة اجتماعية ودرجة من المعيشة ونوعاً من الحياة ولوناً من التفكير مما حتم على أفراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والأدبي.

ومن دواعي الرحلة عند المغاربة هو الرغبة في ارتياد مراكز العلم في بلاد المشرق للاتصال بكبار العلماء والأخذ عنهم واستجازتهم والرواية عنهم حرصاً على الإسناد العالي الذي يصل الطلبة بمؤلفي كتب الحديث وغيرها، من أمهات الكتب الشرعية، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً والقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[1].

ويضيف ابن تاويد الطنجي[2] إلى ما ذكره ابن خلدون عن فوائد الرحلة في طلب العلم، فيقول: «ترجع فوائد الرحلة في طلب العلم إلى أمرين، أولهما، ضمان سلامة المنهج النقلي وذلك عندما يقع تصحيح المتون المروية ووصل أسانيدها بأصحابها لتكون أساساً صالحاً للبحث والدرس وبناء الأحكام عليها، أما الأمر الثاني، كما يقول تاويد، فهو تصحيح منهج التفكير وبناؤه على أثبت القواعد، ومن الأقوال المأثورة: إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره».

على أن الإقبال على الرحلة من الرحالة الأندلسيين والمغاربة كان قد قل في أواخر العصور الوسطى، فقد جاء في تاج المفرق، أن رحلاتهم الحجازية

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٠٦ و ٤٠٧.

(٢) محمد بن تاويد الطنجي: ترتيب المدارك، ص ١٣٦.

ضعفت في القرن الثامن والتاسع الهجري بسبب دعوة العلماء إلى الجهاد وإيثاره على الحج»[١]. ويستشهد الحسن السائح على ذلك بفتاوى بعض الفقهاء التي جاء فيها: تسقط فريضة الحج عند انعدام الأمن ومن أجل الجهاد[٢]. كما قال محمد المنوني عندما تحدث عن الفراغ في تدوين الرحلات في الفترة السالف الإشارة إليها، ولاحظ أنه كان بسبب التراجع عن السفر للحجاز: ويبدو أن من سبب ذلك اشتغال من يهمهم الأمر في العدوتين بمقارعة المد الأجنبي الذي دهم المغرب الإسلامي»[٣].

ولعل من الأسباب التي انفرد بها الرحالة المغاربة هو تقديرهم للعلم وأهله. مما يدعوهم إلى إثبات سنده العلمي في مصنف يجمع فيه أسماء شيوخهم ويترجمون لهم، ويذكرون المصادر التي أخذوها عنهم والطرق التي اقتبسوها منهم وهو ما يسمى عند الأندلسيين باسم (البرنامج)[٤] وهي تسمية متطورة ولم تتفق الأوساط الثقافية في العالم الإسلامي على الالتزام بها. وفي هذا الصدد يقول الكتاني:[٥] كان الأوائل يطلقون لفظة (المشيخة) على الجزء الذي يجمع فيه المحدث أسماء شيوخه ومروياته عنهم، ثم صاروا على ذلك (المعجم). وأهل الأندلس يستعملون (البرنامج) أما في القرون الأخيرة فأهل المشرق يقولون (الثبت) وأهل المغرب الآن يسمونه (الفهرست).

ومن عوامل تدوين البرامج والفهارس لدى الأندلسيين بالإضافة إلى ما تقدم، شعور الوفاء بين العالم وشيخه من ناحية، وحنينه إلى عهد الدرس وطلب العلم من ناحية أخرى[٦]. ويضيف محمد الفاسي على ما تقدم من أنواع

---

(١) الحسن السائح: تاج المفرق، ج ١، ص ٥٥.
(٢) الونشريس: المعيار، ج ١، ص ٣٤١.
(٣) محمد المنوني: الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية، ص ٢.
(٤) محمد الفاسي: الاكسير المقدمة، ص (ح).
(٥) الكتاني: فهرس الفهارس، ج ١، ص ٣٨.
(٦) عبد العزيز الأهواني: كتب برامج العلماء في الأندلس، ص ٩٣، (مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الأول).

الرحلات عند المغاربة، الرحلات الفهرسية، ويعرفها بقوله: هي التي تقتصر مؤلفها على ذكر الرجال الذين لقيهم والشيوخ الذين قرأ عليهم والكتب التي درسها عليهم. كما يذكر أهمية الرحلة كمظهر ثقافي للفترة التي دونت فيها، فيقول: هي من أهم المصادر عن تاريخ الآداب العربية، وهي مفيدة جداً لمعرفة تراجم العلماء والأدباء في مختلف العصور والبلاد العربية.

والرحلة تصور لنا ما اشتهر به الأندلسيون من شغف بالكتب وحرص على لقاء الشيوخ، وتمثل سجلاً يكشف عن المنابع الثقافية التي ارتوى منها العالم والأصول التي اعتمد عليها، والتي كانت بغير شك، مرجعاً له فيما ألف من كتب.

ولعل من أوائل الرحالة المغاربة الذين دونوا رحلاتهم، هو أبو بكر محمد بن عبد الله المغافري المعروف بابن العربي الأشبيلي المتوفي سنة **٥٤٣** هـ، الذي رحل إلى المشرق مع أبيه سنة **٤٨٥** هـ، ؛ ولقي الكثير من العلماء والفقهاء في المهدية وبمدينة الاسكندرية وغيرهما. وقد دامت رحلته مدة طويلة، وقد سجل رحلته هذه وإن كانت لم تنشر كلها حتى الآن ويذكر الشيخ عبد الحي الكتاني أن قطعة خطية من رحلة ابن العربي موجودة بمكتبته[١]. كما توجد نسخة منها في مكتبة محمد المنوني بالرباط، ونشر إحسان[٢] عباس وحقق جزءاً منها في مجلة الأبحاث البيروتية.

وقد كان العرض الأصلي من رحلة ابن العربي، هو تلقي العلم والاتصال بالشيوخ، بينما كان غرض والده أداء فريضة الحج. وقد بدأ ابن العربي رحلته وهو ما يزال حدثاً في سن الشباب، إذ لم يكن قد جاوز السابعة عشرة من عمره حين ارتحل مع أبيه إلى المشرق».

□ □ □

---

(١) مقال الكتاني: كتاب دليل الحج والسياحة، ص٩٣، (مجلة الأبحاث البيروتية، كانون الأول، سنة ١٩٦٨).

(٢) إحسان عباس: رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل، ص ٦١.

محمد بن أحمد بن جبير
الكناني الأندلسي

ولد محمد بن جبير البلنسي الأصل الغرناطي الاستيطان بمدينة بلنسية أو بشاطبة (سنة ٥٤٠ هـ أو سنة ٥٣٩ هـ/ سنة ١١٤٥ م أو سنة ١١٤٤ م)، وتوفي بمدينة الاسكندرية سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م). وقد ذكر لنا سلسلة نسبه الرحالة التجيبي[1] ضمن ترجمته له، فقال: «هو الأديب الفاضل الزاهد أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الكناني الداخل إلى الأندلس مع بَلْجٍ[2] القُشيري[3] سنة ١١٣ هـ».

ويكمل لنا لسان الدين بن الخطيب سلسلة نسب ابن جبير، أن عبد السلام بن جبير الجد قبل الأخير، كان نزوله بكورة شرونة وهو من ولد ضمرة بن كنانة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن

---

(١) هو أبو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي صاحب الرحلة المعروفة باسم (مستفاد الرحلة والاغتراب) والمولود سنة ٦٧٠هـ والمتوفى سنة ٧٣٠هـ. وهو من أوائل من ترجموا لابن جبير. وسنتناول ترجمته كاملة عند التحدث عنه ضمن رحالة المغرب.

(٢) يقول التجيبي أنه نقل هذا النسب عن ابن فرتون (مستفاد الرحلة، ص ٢٤٣، طبع تونس).

(٣) جاء في ترجمة لسان الدين بن الخطيب لابن جبير أن جده دخل في طالعة بَلْج بن بشر بن عياض القُشيري في محرم سنة ١٢٣ هـ. (الإحاطة في أخبار غرناطة، ص ٢٣، طبعة مصر).

الياس بن مضر بن نزار بن معدن بن عدنان، بلنسي الأصل ثم غرناطي الاستيطان، شرَّق وغرَّب وعاد إلى غرناطة.

ولا شك في أن ابن جبير كان رحالة رائداً في ميدان الرحلة، وخاصة بين رحالة المغرب، نهج على منواله واقتبس منه كثير من الرحالة والمؤرخين الذين أتوا بعده، وليس أدل على ذلك من تهافت المؤرخون من القدامى والمحدثين بل والمستشرقين على الترجمة له وتحقيق ونشر رحلته. ولقد جمع لنا المؤرخ عبد القدوس[1] الأنصاري ترجمة ابن جبير من عشرة مصادر ومراجع بعضها من المشرق وآخر من المغرب وثالث من كتاب المستشرقين. وقد استهلّ هذا الحشد من التراجم بقوله، ولا غرابة في ذلك فابن جبير من أوسع الرحالين العرب فكراً وأشملهم ملاحظات وأجملهم أسلوباً وأنقاهم تعبيراً وأسلسهم بياناً، وأعمقهم استنتاجاً وإدراكاً وأكثرهم اهتماماً بأوضاع السياسة الإسلامية العامة في زمنه وأشدهم اهتماماً بتتبع أحوالها واستقصاء أدوائها وعلاجها.

وكان من أوائل من ترجم لابن جبير القاسم بن يوسف التجيبي السبتي في كتابه «مستفاد[2] الرحلة والاغتراب» وكذا لسان الدين ابن الخطيب الذي ترجم في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»[3]. ودوَّن المقري ترجمته لابن جبير في كتابه «نفح الطيب من غصن[4] الأندلس الرطيب». وترجم له المقريزي[5]، فقال: «وسمع من أبيه بشاطبة، ومن أبي عبد الله الأصيلي وأبي الحسن بن أبي العيش وأخذ عنه القراءات، وعنى بالآداب وبلغ العناية فيها. وتقدم في صناعة القريض وصناعة الكتابة ونال بها دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها. وحدَّث بكتاب الشفاء عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبي عن القاضي

---

(١) عبد القدوس الأنصاري: مع ابن جبير في رحلته، ص ١٦.
(٢) مستفاد الرحلة، ص٢٤٣.
(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة، ص ٢٣.
(٤) نفح الطيب، ج ٢، ص١٤٢، (طبع مصر).
(٥) المقريزي (تاريخ مصر المقفى).

عياض، وتوجه إلى الحج، ودخل بغداد والشام، وسمع بها، وقدم مصر فسمع منه الحافظان، أبو محمد المنذري وأبو الحسين يحيى بن علي القرشي».

ومن المحدثين ترجم له جورجي زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية»[١] وكذا خير الدين الزركلي في «الإعلام بأخبار الإعلام». كما ترجم له نقولا زيادة في كتابه «الجغرافية والرحلات عند العرب»[٢].

وقد عنى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي[٣] عناية كبيرة بابن جبير، فإن ترجمته تعتبر من أوسع التراجم الحديثة له. فقال عن رحلة ابن جبير الأولى: إنه ترك لنا وصفها على هيئة «يوميات» في كتاب «منفرد وضعه بعد رجوعه حوالي (سنة ٥٨١ هـ/ سنة ١١٨٥ م)، ورجَّح أن يكون عنوان الكتاب الأصلي (رحلة الكناني)[٤]، وقال: إنها، أي الرحلة، تمثل أهمية قصوى في تصوير حياة ذلك العصر، وهي تقدم وصفاً حياً لمصر والشام عندما بدأت فيهما حركة التحرير[٥] الإسلامية ضد الصليبيين بزعامة نور الدين زنكي وولده محمود وصلاح الدين، وقد قارن رحلة ابن جبير بمذكرات الأمير أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار). وأشاد بتصوير ابن جبير لحياة مسلمي صقلية، وغزا أهمية الرحلة إلى أمرين أولهما وصفه لآثار العصور الوسطى الممتازة في صقلية وثانيهما وصفه لبلاط النورمان، خاصة وأن الكتاب اللاتين المعاصرين لم يتركوا شيئاً يذكر عن ذلك البلاط. وختم ترجمته عن الرحلة الأولى بقوله أنها من الناحية

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٣، ص ٩٤ و٩٥.
(٢) الجغرافية والرحلات، ص ٦٠ ــ ٦٢، (بيروت، سنة ١٩٨٠).
(٣) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم الأول، ص ٢٩٩.
(٤) يعلق عبد القدوس الأنصاري على ترجيح كراتشوفسكي لاسم الكتاب فيقول: أن هذا الترجيح قد سبقه إليه حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون).
(٥) عبد القدوس الأنصاري: مع ابن جبير، ص ٢٣.

الفنية بلغت ذروة ما وصل إليه نمط الرحلة في الأدب العربي، وغمزها بقوله أنه وصف ابن جبير المفصل للأبنية ممل للقارىء العادي.

وتحدث عن رحلتي ابن جبير الثانية والثالثة، فقال: «أنه قام برحلة ثانية إلى المشرق استغرقت عامين هما (سنة ٥٨٥ هـ/ سنة ١١٨٩ م) و (سنة ٥٨٧ هـ/ سنة ١١٩١ م) ولكن لم يُحفظ لنا شيئاً عنها بالتفصيل. وقد قام برحلة ثالثة للمشرق وهو شيخ كبير، قد أحزنته وفاة زوجه في (سنة ٦٠١ هـ/ سنة ١٢٠٤ م) ولم يرجع إلى الأندلس مرة أخرى، بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متنقلاً بين مكة وبيت المقدس والقاهرة مشتغلاً بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية بالإسكندرية[1] (سنة ٦١٤ هـ/ سنة ١٢١٧ م).

وممن ذكرهم عبد القدوس الأنصاري من مترجمي ابن جبير عمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين»[2] وكذا ترجم له عبد الرحمن حميدة في كتابه «أعلام الجغرافيين العرب»[3].

وإتماماً للفائدة فقد رأيت أضيف إلى المصادر التي تناولت ترجمة ابن جبير مصادر لها أهميتها ولم يرد ذكرها في قائمة المصادر التي ذكرها عبد القدوس الأنصاري. ومن هذه المصادر كتاب «تاريخ الأدب العربي» للمستشرق بروكلمان وكتاب «تاريخ التراث العربي» لفؤاد سزكين، وكتاب «الرحالة المسلمون في العصور[4] الوسطى» تأليف زكي محمد حسن، وكتاب «رحلة ابن جبير»[5] تحقيق حسين نصار، وكتاب «أدب الرحلة عند العرب»[6] لحسني محمود حسين.

---

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم الأول، ص ٢٩٩ ــ ٣٠١.
(٢) معجم المؤلفين، ج ٨، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦.
(٣) أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ص ٣٢٣ ــ ٣٢٥.
(٤) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٧١ ــ ٨٨.
(٥) رحلة ابن جبير، المقدمة، ص (أ ــ ك) (طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٥).
(٦) أدب الرحلة عند العرب، ص (٢٣ ــ ٤٧)، (طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٦).

وأود أن أسجل هنا أنني قد أفدت من هذه المصادر جميعها، فجمعت منها ترجمة شبه متكاملة لابن جبير، فقد أثبت المتفق عليه في تلك المصادر وناقشت المختلف، إذا كان يقبل المناقشة، وسجلت الأرجح منها. وإذا أعيتني الحيلة ولم أستطع التوفيق بين بعض الروايات دونتها جميعها مع الإسناد إلى صاحب كل منها.

أما عن عنوان الرحلة التي نحن بصدد الحديث عنها، فقد اختلفت المصادر في تسميتها فقد جعلها جاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون» باسم «رحلة الكناني». بينما تبتدىء الرحلة «المخطوطة» بسميتها «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، كما تنتهي بسميتها «كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك». وبرغم شكوك (William Wright) وكذا حسين نصار من تلك التسميات ومن ثم فقد سميا الرحلة (رحلة ابن جبير) أخذاً بالأسلم والأعرف، كما يقول حسين[1] نصار، إلا أنني لا أرى مانعاً من أن تكون تلك الأسماء جميعها أسماء أعلام لرحلة بلغت من الشهرة وعلو القدر ما جعلها جديرة بتعدد أسمائها التي هي في الواقع أوصاف ونعوت لها وكنية لصاحبها.

وقد حققت «الرحلة» ونشرت عدة مرات، فقد حققها وليم رايت (William Wright) سنة ١٨٥٢ م، ثم راجعها بعد ذلك هو ودوزي (Dozy) كما حققها روبرتسون سميت (Robertson Smith) ونقحها وطبعها دي جويه (De Geoje) سنة ١٩٠٧ م، وحقق الجزء الخاص بصقلية منها أماري (Amari)[2] كما ترجم هذا الجزء كذلك كلستينو شابرلي (Celestino Schiaparelli) إلى الإيطالية سنة ١٩٠٦ م، وقد طبع في مصر النسخة الأوروبية، ثم حققت تحقيقات علمية

---

(١) رحلة ابن جبير: المقدمة، ص (هـ).

(٢) وترجمه ونشره في المجلة الآسيوية (Journal Asiatique) المجموعة الرابعة، المجلد ٧٤٦، وقد علق على ترجمته الشيخ طنطاوي.

دقيقة روعي فيها ما فات الطبعات السابقة من الأخطاء مرة ثانية في مصر[1] سنة ١٩٥٥.

ومصنفاته مجلد من الشعر على قدر ديوان أبي تمام، ويحدثنا المؤرخ المرسي الضبي المتوفي (سنة ٥٩٨ هـ/ سنة ١٢٠٢م) صاحب كتاب «بغية الملتمس في تاريخ علماء الأندلس» عن رقة وعذوبة شعر ابن جبير حتى في مجالات الزهد والوعظ، فيقول: تذاكرنا مع ابن جبير يوماً حالة الزاهد أبي عمران المارتلي، فقال: صحبته مدة فما رأيت مثله، وأنشدني شعرين، ما نسيتهما ولا أنساهما ما استطعت؛[2] فالأول قوله:

إلى كم أقول فلا أعملُ وكم ذا أحُومُ فلا أنزلُ
وأزجر عيني فلا ترعوي وأنصح نفسي فلا تقبل
وكم ذا تعلَّلُ لي ويحها بِعَلَّ وسوف وكم تمطل
وكم ذا أومل طول البقا وأغفل والموت لا يغفل

إلى آخر قوله:

فيا ليت شعري بعد السؤالِ وطولِ المُقام لما أُنقل؟

والثاني قوله:

إسمع أُخَيَّ نصيحتي والنصح من محض الديانة
لا تقربن إلى الشهادة والوساطة والأمانة
نسلم من أن تُغْزَى لزور أو فضول أو خيانة

(١) حسين نصار: رحلة ابن جبير، (مصر سنة ١٩٥٥).
(٢) يتضمن تراجم الملوك وعلماء الأندلس والوافدين عليها حتى أواخر القرن السادس الهجري.
(٣) المرسي الضبي: بغية الملتمس في تاريخ علماء الأندلس، ج ٤، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

ومن شعره كذلك جزء في رثاء زوجته أم المجد، عاتكة التي توفيت في بلاد المغرب التي كان قد أقام بها بعد انتقاله من غرناطة عشرين عاماً أو نيف، وقد سمى ديوانه هذا باسم «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح».

كما صنّف ديوان ثالث في شكوى الزمان والأصدقاء سماه «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان».

وقد تعددت رحلات ابن جبير فبلغت ثلاث قيل عنها: رحل ثلاثاً من الأندلس إلى المشرق، وحج في كل واحدة منها فُصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس، لثمان خلون من شوال سنة ٥٧٨ وصنف الرحلة المشهورة. ولما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس، قوي عزمه على إعمال الرحلة الثانية، فتحرّك إليها من غرناطة سنة ٥٨٥ هـ، ثم آب إلى غرناطة سنة ٥٨٧ وسكن غرناطة ثم مالطة ثم سبتة ثم فاس منقطعاً إلى إسماع الحديث والتصوف وتروية ما عنده. ثم رحل الثالثة من سبتة بعد موت زوجه عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشي، وكان كلفاً بها جماً معظم وجده عليها. فوصل مكة وجاور بها طويلاً، ثم بيت المقدس، ثم تحوّل إلى مصر والإسكندرية. فأقام يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه».

أما عن السبب في قيام ابن جبير برحلته الأولى، فيقص علينا القصة التالية: كتب في أول أمره عن السيد أبي سعيد ابن عبد المؤمن، صاحب غرناطة، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتاباً، وهو على شرابه. فمد يده إليه بكأس فأظهر الانقباض، وقال: يا سيدي ما شربتها قط، فقال: والله لتشربنَّ منها سبعاً، فلما رأى العزيمة شرب سبعة أكؤس فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات، وصب ذلك في حِجره، فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير. ثم رغب إلى السيد وأعلمه أنه حلف بإيمان لا خروج له عنها أنه يحج في تلك السنة، فأسعفه وباع ملكاً له تزود به وأنفق تلك الدنانير في سبيل». وهذه الرواية إن دلت على شيء فإنما تدل على تدين ابن جبير وعلى ورعه وتقواه، كما تدل على كياسته في الخروج من الورطة التي ورطه فيها أبو سعيد وهو التكفير عن شرب الخمر بالحج إلى بيت الله الحرام.

وكان ابن جبير لا يرد سائله خائباً بل كان أهل مـروءة ومعروف قاضياً لحاجة الناس، وفي ذلك يقول. يقول صديقه المرسي[1] الصنبي الرواية التالية: وأغرب ما يحكى أني كنت أحرص الناس أن أصاهر قاضي غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الغرس فجعلته (أي ابن جبير) الواسطة، حتى تيسّـر ذلك، فلم يوفق الله ما بيني وبين الزوجة، فجئته وشكوت له ذلك، فقال: أنا ما كان القصد لي في اجتماعكما، ولكني سعيت جهدي في غرضك، وها أنا أسعى أيضاً في افتراقكما، إذ هو من غرضك. وخرج في الحين. ففصل القضية ولم أر في وجهه أولاً ولا آخراً عنواناً لإمتنان ولا تصعيب. ثم إنه طرق بابي، ففتحت له ودخل وفي يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية[2] ثم قال يا ابن أخي، أعلم أني كنت السبب في هذه القضية ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذي وجدته الآن عند عمك، فبالله ألا ما سررتني بقبوله. فقلت له: أنا ما أستحي منك في هذا الأمر، والله إن أخذت هذا المال لأتلفته فيما أتلفت فيه مال والدي من أمور الشباب، ولا يحل لك أن تمكنني فيه بعد أن شرحت لك أمري. فتبسم، وقال: لقد احتلت في الخروج عن المنة بحيلة وانصرف بماله»[3].

وقد أكمل لسان الدين ابن الخطيب[4] الحديث عن أخلاق ابن جبير فقال: «وكان أديباً بارعاً، شاعراً مجيداً، سنياً فاضلاً، نزيه الهمة، سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة في الخط، كتب بسبتة عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة. ثم نزع عن ذلك وتوجه إلى المشرق، وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته. ومحاسنه ضخمة وذكره شهير ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار، رحمه الله».

---

(١) بغية الملتمس في تاريخ علماء الأندلس ج ٤ ص ٢٧٦.

(٢) الدينار المؤمنية تساوي نصف دينار مصري في عهد ابن جبير، كما جاء في رحلته ص ١٧ (طبعة بيروت).

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ٤ ص ٢٧٥.

(٤) لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة المجلد الثاني ص ٢٣٠، ٢٣١ (تحقيق محمد عبد الله عنان (مصر).

وقيل عن شعر ابن جبير ونثره «نظمه فائق، ونثره بديع وكلامه المرسل سهل حسن، وأغراضه جليلة ومحاسنه ضخمة». ومن أشهر شعره[2] قصيدته التي نظمها حين شارف المدينة المنورة حيث جاء فيها:

أقول ونِّست بالليل نارا	لعل سراج الهدى قد أنارا
وإلاّ فما بال أفق الدجى	كأن سنا البرق فيه استطارا
ونحن من الليل في حندس	فما باله قد تجلى نهارا
وهذا المسك شذا المسك قد	أُعِير أم المسك منه استعارا
وكانت رواحلنا تشتكي	وَجَاها فقد سبقتنا ابتدارا

أما عن الطريق الذي سلكه ابن جبير في رحلته إلى المشرق وإلى الأراضي الحجازية بصفة خاصة لم يكن الطريق التقليدي الذي سلكه معظم رحالة المغرب في طريقهم لتأدية فريضة الحج، وهو طريق البحر حتى أحد موانىء بلاد الشام ليرافق ركب الحجيج الشامي، لكن بسبب وجود الصليبيين[1] هناك اضطر ابن جبير إلى تغيرٍ مساره، فقد خرج من غرناطة (سنة ٥٧٨ هـ/ سنة ١١٨٣) ووصل إلى الإسكندرية بعد ثلاثين يوماً قضاه على ظهر سفينة للجنوبيين. ومن الإسكندرية اتخذ سبيله إلى القاهرة ومنها اتجه جنوباً إلى مدينة قوص وانتهى إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر. ومن عيذاب عدى البحر إلى جدة في طريقه إلى مكة والمدينة. وفي طريق عودته بعد تأدية فريضة الحج، اجتاز الطريق النجدي إلى الكوفة وزار بغداد والموصل وعاد بطريق سورية، فمر بحلب وحماة وحمص والنبك ودمشق وانتهى إلى عكاء حيث استقل إحدى مراكب الفرنجة في طريق عودته فمر بصقلية وعاد إلى غرناطة فوصلها (سنة ٥٨١ هـ/ سنة ١١٨٥ م).

وقد رافق ابن جبير رحلته هذه جده لأمه القاضي ابن عطية وكذا

---

(١) حسين نصار: رحلة ابن جبير المقدمة (ص ط).

(٢) نقولا زيادة ص ١٦٠.

أبوجعفر أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعي[1]، وأصله من أُنْدة من عمل بلنسية وسمع معه بعض الشيوخ فيها مرا عليه من بلاد. وكان أبوجعفر هذا متحققاً بعلم الطب وله فيه تقييد مفيد، مع المشاركة الكاملة في فنون العلم، وكتب للسيد أبي سعيد بن عبد المؤمن، وجده القاضي ابن عطية.

وقد يكون من المفيد أن ننقل هنا بعض فقرات من رحلته الأولى كي نتعرّف على ابن جبير عن قرب وعن أسلوبه وطريقة وصفه وكتابته، التي كانت أشبه بما نسميه اليوم باسم (بمذكرات) أو (يوميات)، ومن ثم فقد كان وصفه للأحداث وللبلاد والأماكن والمباني أكثر تفصيلاً. فيحدثنا ابن جبير مثلاً عن وصوله إلى شاطىء الحجاز عند ميناء «أبحر»[2] فيقول: «أرسينا بمرسى يعرف «بأبحر» وهو على بعض يوم من جدة، وهو من أعجب المراسي وضعاً، وذلك أن خليجاً من البحر يدخل إلى البر، والبر مطيف به من كلتا حافتيه، فترسي الجلاب منه في قراره مكنَّة هادئة. فلما كان سحِر يوم الإثنين بعده، أقلعنا منه على بركة الله تعالى، بريح فاترة، والله الُميسِّر لا رب سواه. فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدة وهي بمرأى العين منا. وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده، بيننا وبين دخول مرساها، ودخول هذا المرسى صعب المرام بسبب كثرة الشعاب والتفافها. وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة[3] أثناءها أمراً ضخماً، يدخلونها على مضايق ويصرِّفونها خلالها

(١) توفي أبو جعفر بمراكش سنة ٥٩٩ ولم يبلغ الخمسين ولم يذكره ابن جبير في رحلته غير ثلاث مرات (رحلة ابن جبير) لحسين نصار المقدمة (ص ي).

(٢) يقول حسين نصار إنه لم يعثر على هذا الاسم ومن ثم فهو يرجح أن يكون الاسم محرف، والحقيقة أن أبحر تقع إلى الشمالي جدة وهي تتبع أمانتها وهي الآن من أهم ضواحي جدة البحرية.

(٣) الجلبة: نوع من السفن الصغيرة المخيطة تستعمل في البحر الأحمر، يقول ابن بطوطة «ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة، وركب الشريف منصور بن أبي غي في جلبة أخرى، ورغب في أن أكون معه، فلم أفعل لكونه مع جلبته جمال فخفت من ذلك، ولم أكن ركبت البحر قبلها. وكان هناك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في الجلب وهم متأهبون للسفر» (ابن بطوطة ج ٥ ص١٦٣، دوزي ج ١ ص٢٢٨، سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية ص٣٣٨).

تصريف الفارس للجواد الرطب العِنان، السلس القياد ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه».

ثم يصف لنا ابن جبير مدينة جدة ومبانيها وطريقة الدخول إلى مينائها فيقول: «وكان نزولنا فيها بدار القائد علّي، وهو صاحب «جدة» من قبل أمير مكة المذكور (هو الأمير مكثر) في صرح من تلك الصروح الخوصية التي يبنونها في أعالي ديارهم، ويخرجون منها إلى سطوح يبيتون فيها. وعند احتلالنا (أي حلولنا) جدة المذكورة، عاهدنا الله عز وجل، سروراً بما أنعم الله به من السلامة ألا يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون إن طرأت ضرورة تحول بيننا وبين سواه من الطرق، والله ولي الخيرة في جميع ما يقضيه ويسنيه (أي يسهله وييسره) بعزته».

ويستطرد في وصف مكة في عهده فيقول: «وجدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور، أكثر بيوتها أخصاص، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين، وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر. وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة، وأثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم. وبها موضع به قبة مشيدة عتيقة، يذكر أنه كان منزل حواء أم البشر، صلى الله عليها، عند توجهها إلى مكة، فبنى ذلك المبنى عليه، تشهيراً لبركته وفضله، والله أعلم بذلك. وفيها مسجد مبارك منسوب إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. ومسجد آخر له ساريتان من خشب الأبنوس، وينسب أيضاً إليه، رضي الله عنه، ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد رحمة الله عليه».

ويحدثنا عن أهل جدة وما يحيط بها فيقول: وأكثر سكان هذه البلدة وما يليها من الصحراء والجبال، أشراف علويون حسنيون وحسينيون وجعفريون، رضي الله عن سلفهم الكريم. وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن من اكراء

جمال إن كانت لهم، أو مبيع لبن أو ماء، إلى غير ذلك من ثمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن، فسبحان المقدر لما يشاء. ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا، جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

ومن الموضوعات الاقتصادية التي عنى ابن جبير بالكتابة عنها في شيء من التفصيل المكوس التي كان على الحجاج دفعها لشريف مكة نظير ما يؤدي له من خدمات في مكة وفي عرفة وباقي المناسك فيقول: «وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم، قد تفرقوا على مذاهب شتى، وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها، ينهبونهم انتهاباً، ويسببون لاستجلاب ما بأيدهم استجلاباً، فالحاج لا يزال معهم في غرامة ومئونه إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه. ولولا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمر لا ينادي وليده ولا يلين شديده. فانه رفع ضرائب المكوس[1] عن الحاج وجعل عوض

(١) مكس: معناها ضريبة مرور أو رسم جمركي، وهي كلمة دخيلة على اللغة العربية وهي آرمية الأصل من كلمة (ماكسا) وعرفت في الآشورية (مكسي). ومن هذه الكلمة تكون فعل (مكَسَ) ومكّاس اسم لجامع الضرائب. وقد عرف العرب كلمة (مكس) واستخدموها منذ العصر الجاهلي، فقد كان مضاض بن عمرو الجرهمي يعشر (أي يأخذ العشر) ممن يدخل مكة من أعلاها والسميدع يعشر من يدخل من أسفلها. كما كان يعشر العمالقة الذين كانوا ولاة مكة قبل جرهم أموال مكة، ولكنهم انتهكوا حرمة الحرم فأخرجتهم جرهم وقطور إذ كانوا يأخذون عشر الميرة التي يأتي بها زوار مكة. فلما جاء الإسلام أبطل المكوس بأنواعها وفرض الزكاة على الناس في أموالهم. وكانت كلمة (مكس أو مقس) غير مستحبة عند المسلمين، وذلك لما جاء في الحديث الشريف «لا يدخل صاحب مكس الجنة» أو «أن أصحاب المكس في النار». ولعل السبب في هذه الكراهية، هو اتصال هذه الكلمة وعلاقتها بالمعاملات اليهودية (الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٥٧، المقريزي ج ١ ص ٨٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨؛ السنجاري: منائح الكرام بأخبار البلد الحرام ص ٤٧؛ دائرة المعارف الإسلامية مادة (مكس)؛ سعاد ماهر: موسوعة البلد الأمين ج ٢ ص ٣٢٧).

ذلك مالاً وطعاماً أمر بتوصيلهما إلى مكثر[1] أمير مكة فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المرتبة لهم، عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج وإظهار تثقيفهم (أي تهذيبهم وتقويمهم) بسبب المكوس. واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جدة فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر الأمير المذكور، فورد أمره أن يضمن الحاج بعضهم بعضاً، ويدخلوا إلى حرم الله، فإن ورد المال والطعام اللذان يرسمه من قبل صلاح الدين، وإلّا فهو لا يترك ماله قبل الحاج. هذه لفظة كأن حرم الله ميراث بيده محلل له اكتراؤه من الحاج. فسبحان مغيِّر السنن ومبدلها»[2].

ومن مميزات ابن جبير البارزة هو عنايته البالغة بوصف المدن التي زارها وبصفة خاصة مكة المكرمة وما تحويه من آثار وعمائر دينية ومدنية ومدارس ومستشفيات وأسواق إلى غير ذلك. فمن وصفه لآثار مكة الكريمة وأخبارها الشريفة قال: «هي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها، وهي بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلّا الله عز وجل. ولها ثلاثة أبواب، أولها باب المعلي ومنه يُخرج إلى الجبانة المباركة، وهي بالموضع الذي يعرف بالحجون، وعن يسار المار إليها جبل في أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج، يخرج منها إلى طريق العمرة، وتلك الثنية تعرف بكداء».

ويحدثنا عن عمائرها ومبانيها الأثرية المباركة فيقول: «ومن مشاهدها التي عايناها «قُبة الوحي» وهي في دار خديجة أم المؤمنين، رضي الله عنها، وبها كان ابتناء النبي صلى الله عليه وسلم بها. وقبة صغيرة أيضاً في الدار المذكورة، فيها كان مولد فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصوّنة، قد بنيت بناء يليق بمثلها. ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد

---

(١) هو مكثر بن عيسى بن فلتية تولى إمارة مكة مرتين الأولى من (سنة ٥٥٧ إلى سنة ٥٧٢ والثانية من سنة ٥٨٤ ــ سنة ٥٩٣ هـ) (ابن ظهيرة: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها ص ٢٨٣؛ الجزيري: درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة ص ٥٨١).

(٢) رحلة ابن جبير ص ٨٧.

النبي، صلى الله عليه وسلم، والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مست جسمه الطاهر، بُني عليها لم ير أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزل به، والموضع المقدس الذي سقط فيه، صلى الله عليه وسلم ساعة الولادة السعيدة المباركة، التي جعلها الله رحمة للأمة أجمعين محفوف بالفضة، فيا لها تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام ومولد خير الأنام، صلى الله عليه وعلى آله وأهله، وأصحابه الكرام وسلم تسليمًا. ومن مشاهدها الكريمة أيضاً دار الخيزران، وهي الدار التي كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يعبد الله سراً، مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه، رضي الله عنهم، حتى نشر الله الإسلام منها، على يدي الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وكفى بهذه الفضيلة ومن مشاهدها أيضاً دار أبي بكر الصديق، رضي الله عنه وهي اليوم دارسة الأثر ومن مشاهدها قبة بين الصفا والمروة، تنسب لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفي وسطها بئر يقال إنه كان يجلس فيها للحكم، رضي الله عنه. والصحيح في هذه القبة، أنها قبة حفيدة عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه بإزاء داره المنسوبة إليه، وفيها كان يجلس للحكم أيام توليه مكة، كذلك حكى لنا أحد شيوخنا الموثوقين. ويقال أن البئر كانت في القديم فيها، ولا بئر فيها الآن، لأنا دخلناها فألقيناها مسطحة وهي حفيلة الصنعة»[1].

وإذا كان لنا أن نعلق على عقلية ابن جبير، كمسلم عاصر الحروب الصليبية أبان قسوتها وضراوتها، فإننا لا نستطيع إلاّ أن نقرر أنها عقلية عالمية منصفة لم يعمها التعصب الديني البغيض، فلم يغفل ذكر ما كان هناك من مودة وعلاقات تجارية بين المسلمين والمسيحيين، فمن ذلك قوله: ومن أعجب به أن نيران الفتنة تشتغل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما التقى الجمعان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادي الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون

(١) رحلة ابن جبير ص ٩٣.

النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلاً، وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يذكر أنه ينتهي إلى أربعمائة قرية، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الأفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية. وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والإتفاق بينهم والإعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلمًا أو حرباً، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفي الحديث عنه»[١].

كذلك لم يخجل ابن جبير من ذكر أن الفلاحين المسلمين في الأرض التابعة للنصارى كانوا في رخاء يحسدهم عليه إخوانهم الفلاحون المسلمون عند الملاك المسلمين وفي ذلك يقول: «ورحلنا من تبنين سحر يوم الإثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منظمة، سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة، عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار، وخمسة قراريط، ولا يعترضهم في غير ذلك. ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع. وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله»[٢].

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٩٣.
(٢) ابن جبير ص ٣٩٩.

هذا قليل من كثير من رحلة ابن جبير التي حوت من الفوائد والتجارب والمعرفة التي يحرص كل مؤرخ أو جغرافي أو أديب الإستفادة منها، إذ أنها أصدق مرآة للعصر الذي عاش فيه صاحبها. هذا فضلاً عن أسلوب الرحلة الأدبي الممتاز الذي بلغ ذروة من ذري ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي.

□ □ □

صالح بن يزيد بن موسى
الـرنـدي

هو أبو الطيب صالح بن يزيد بن موسى بن شريف الرندي، وهو من أوائل الرحالة غير الجغرافيين الذين خرجوا من الأندلس وسجلوا لنا مصنفاً يحوي تاريخ ووصف رحلتهم. لقد نشأ الرندي في ظل دولة بني الأحمر أو بني نصر في غرناطة، تلك الدولة التي انحصر فيها الحكم الإسلامي في بلاد الأندلس، بعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب أو كما يسميها الإسبان (The Battle of Las Navas) (سنة ٦١٠ هـ/ سنة ١٢١٣ م).

فقد أسس هذه الدولة محمد بن يوسف بن نصر الذي يرجع نسبه إلى سعد ابن عبادة سيد الخزرج وذلك في غرناطة ومالقة وربما واتخذ غرناطة مقراً له. وقد دامت مملكة غرناطة أكثر من قرنين ونصف من الزمان، فقد قامت سنة ٦٢٩ وانتهت بخروج المسلمين من الأندلس نهائياً سنة ٨٩٧ هـ. ويرجع السبب في بقائها هذه المدة الطويلة إلى أن المتقدمين من أمرائها كانوا رجالاً على نصيب موفور من الدهاء والمهارة السياسية[١] بحيث استطاعوا أن يستميلوا دولة بني مرين[٢] التي قامت في مراكش على أنقاض دولة الموحدين.

---

(١) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في تاريخ غرناطة، ج ١، ص ٢٢٧.

(٢) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٣، ص ١٣٨.

أما رحالتنا فقد عاصر السلطان أبو عبد الله بن محمد الذي ولى عرش غرناطة (سنة ٦٧١ هـ/ سنة ١٢٧٢ م)، الذي اهتم بتشجيع العلوم والآداب، كما عنى عناية خاصة برجال الدين والفقهاء حتى لقب هو نفسه بالفقيه. كذلك تولى مناصب الدولة في عهده بعد رجال الأدب كلسان الدين بن الخطيب، كما يبدو أن الرندي كان من المتصلين بأبي عبد الله إما عن طريق الوظيفة أو لتبحره في العلوم والآداب.

وقد سجل الرندي رحلته إلى البلاد الحجازية في مصنفه المعروف باسم روض الأنس ونزهة النفس». وقد جاء في مقدمة الرحلة أنه طرَّز هذا الكتاب باسم سلطان غرناطة أبي عبد الله محمد الملقب بالفقيه ابن محمد ابن الأحمر. ويقع الكتاب في مجلدين، وقد قصد الرندي أن يجعله أشبه بالموسوعات مقسمة إلى عشرين باباً، احتوى كل منها موضوعاً مستقلاً عن الموضوعات الأخرى. فقد تناول في الباب الأول العالم ومعالمه، وتناول في الباب الثاني الأرض وما يتعلق بها من ذكر الأقاليم. أما الباب الثالث فخصصه لبدء البشر وافتراق الأمم. وما يتعلق بذلك والباب الرابع، تناول فيه سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، العطرة والخامس تكلم عن الخلفاء وأهل البيت، والسادس خصه لتاريخ الدولة الأموية، والسابع للدولة العباسية، والثامن في أهل الردة، والتاسع في جمل من الفتوح والحادي عشر في الحرب، والثاني عشر في الملك والرياسة، والثالث عشر في العلم والرابع عشر في الشعر، والخامس عشر في المال، والسادس عشر في النساء والبنين، السابع عشر في الأنس، الثامن عشر في الناس والزمن، والتاسع عشر في الحكايات، والعشرين في الحكم والمواعظ.

وقد تناول موضوع رحلته الحجازية في بابين من تلك الأبواب، فقد تناول موضوع الحجاز ضمن الباب الثاني الذي تكلم فيه عن الأرض وما يتعلق بها من ذكر الأقاليم والبلاد، فتكلم في شيء من التفصيل عن مكة المكرمة ووصف البيت الحرام كما تناول تاريخ المدينة المنورة والحرم النبوي[١].

---

(١) الرندي: روض الأنس ونزهة النفس، ج ١، ص ٣٠.

وتناول في الثالث الخاص ببدء البشر وافتراق الأمم موضوعات مطولة خاصة بالعرب، فقد ذكر تاريخ الغرب وأنسابها[١] ثم تناول فضائل العرب[٢] وبيوتها كما تطرق إلى الأقاويل المتعصبة والشعوبية[٣]. وأفرد فصلاً خاصاً لذكر ملوك العرب[٤] ثم تناول ولاة مكة المكرمة[٥].

وللأسف فإن الموجود من كتاب الرندي هو المجلد الأول، وهو بحوزة الدكتور محمد المنوني[٦]، وهو ينتهي عند الباب التاسع ويقع في (١٣٩) ورقة يحتوي كل صفحة (٢٣) سطراً مقاسها (٢٧,٧ × ٢٠,٥ سم). وهي مكتوبة بخط أندلسي واضح مليح عتيق، مكتوب بمحلول السواك على ورق قديم. والمخطوطة خالية من تاريخ النسخ واسم الناسخ، إلا أن الدكتور المنوني يقدر أن تكون الكتابة قريبة من عصر المؤلف ويرجح أن تكون من القرن الثامن الهجري.

وهناك نسخ مصورة من المخطوطة بحوزة معهد المخطوطات للجامعة العربية وصورة أخرى بالخزانة العامة بالرباط[٧].

وقد توفي أبو الطيب الرندي (سنة ٦٨٤ هـ/ سنة ١٢٨٥ م)[٨].

□ □ □

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٥ ـ ٦٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٨ ـ ٧٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٧٠ ـ ٧٧.
(٤) المرجع السابق، ص ٧٧ ـ ٨٦.
(٥) المرجع السابق، ص ٩٣ ـ ٩٥.
(٦) محمد المنوني: الجزيرةالعربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها.
(٧) محمد المنوني: الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية، الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية).
(٨) توجد ترجمة غير كاملة في (الذيل والتكملة) ج ٤، ص ١٣٦ ـ ١٣٩، (طبعة بيروت)، ووردت كاملة في (مختصر الإحاطة في أخبار غرناطة) وهي مخطوطة مصورة عن مخطوطة الاسكوريال، كما وجدت مع مخطوطة أخرى تحمل اسم «الإحاطة» في المكتبة الأحمدية بفاس».

محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهـــري

وإذا كان ابن جبير هو أول رحالة أندلسي كتب عن الرحلة الحجازية فإن ابن رشيد هو أول رحالة من العـدوة المغربية سجل انطباعاته عن رحلته في مؤلف خاص أسماه (الرحلة الحجازية).

وقد عاش ابن رشيد في بلاد المغرب في أواخر عهد دولة الموحدين التي انقرضت بوفاة أبي العلاء ادريس[١] الواثق بالله، وقامت دولة بني مرين بعد أن دخل أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق[٢] مدينة مراكش (سنة ٦٦٨ هـ/ سنة ١٢٦٩ م) ويتصل نسب يعقوب بن عبد الحق إلى مرين من زنانة، ومن ثم فقد عرفت دولته باسم بني الحق أو بني مرين[٣].

وقد تلقى ابن رشيد دراسته العالية في جامعة القزوين في مدينة فاس عاصمة بني مرين، فلما أسس السلطان يعقوب المدينة البيضاء التي أمر بتأسيسها

(١) ابن عذاري: المراكشي، ج ٤، ص ١٩١.
(٢) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، ص ٣٢٧، (طبعة الرباط، سنة ١٩٣٦).
(٣) السلاوي الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٣، ص ١٣٧.

(سنة ٦٧٤ هـ/ سنة ١٢٧٥ م) ملاصقة لمدينة فاس على ضفة وادي سبو من أعلاه والتي اتخذها مقراً لسلطنته[١]، انتقل إليها رحالتنا ابن رشيد كذلك.

ولعل ورع وتقوى ابن رشيد، وعدم رضائه بل وحسرته على ما حدث ويحدث للمسلمين في الأندلس كل ذلك دفعه إلى الارتحال لتأدية فريضة الحج، ومن ثم فقد خرج من فاس واتجه شمالاً إلى مدينة سبتة ومنها استقل سفينة متجهة إلى الاسكندرية وذلك سنة ٦٨٣ هـ/ سنة ١٢٨٤ م)، ومنها يمم وجهه شطر البلاد الحجازية.

وقد سجل ابن رشيد ارتساماته وانطباعاته لتلك الأماكن المقدسة في كتابه «الرحلة الحجازية»، وبرغم أن هذه الرحلة لم تحظ حتى الآن بدراسة شاملة أو نشر[٢] كامل إلا أننا حرصنا على إدراجها ضمن كتب الرحالة على اعتبار أن صاحبها أقدم رحالة مغربي. هذا فضلاً عن أنها ذكرت في كثير من المصنفات والمعاجم التي تحدثت عن الرحالة المغاربة.

ولعل من أهم المراجع التي تناولت التعليق على رحلة ابن رشيد كتاب «الرحالة المغاربة وآثارهم»[٣] لمحمد الفاسي وكذا كتاب «ذكريات مشاهير رجال المغرب»[٤] تأليف عبد الله كنون. كما تناولها الرحالة أبو سالم التعايش في شيء من التفصيل في «الرحلة العباسية»[٥] كما علقت مجلة «دعوة الحق»[٦].

وتمتاز كتابات ابن رشيد بغزارة ما جمعه من المعلومات التي تتعلق بالحالة الاجتماعية للبلاد التي زارها وخاصة مكة والمدينة، فقد عنى عناية خاصة

---

(١) الأنيس المطرب، ص ٣٣١.
(٢) محمد المنوني، ص ١٣٧.
(٣) محمد الفاسي: الرحالة المغاربة وآثارهم، ص ٤.
(٤) عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، ج ١٨، ص ١٢٤.
(٥) أبو سالم النعايش: الرحلة، ج ١، ص ٢٢٧، ج ٢، ص ٢٤٠.
(٦) مجلة دعوة الحق، (السنة الثانية العدد الثاني، ص ١١ ــ ١٢).

بتسجيل عادات وتقاليد مدن الحجاز، كما خصَّ بالذكر منها اللوائح والنظم التي يجب أن يلتزم بها الدارس والمدرس بمدارس ومعاهد وربط وخلاوي مكة والمدينة. كما ضمن رحلته الكثير من تراجم العلماء والفقهاء المقيمين والمحاورين بالحرمين الشريفين.

كما ترجم لشيوخه الذين استمع عليهم أو استمعوا له، الشيء الكثير مما تخلوا منها معاجم التراجم.

كما أجمع نقاد الرحلة على الثناء على ما امتاز به ابن رشيد من وصف دقيق يلحظ في تعبيراته وبين ثنايا الفاظه، كما يبدو واضحاً ما كان عليه ابن رشيد من الورع والتقوى وصدق العقيدة وصفاء النفس.

هذا وما يزال مخطوط الرحلة موجوداً في رباط الموقف بمكة المكرمة تحت رقم (٢٤٠) ح، كما توجد عدة أجزاء منها في وقف المغاربة في خزانة رباط الموفق بمكة المكرمة، ونسخة ثالثة رباط السلطان قايتباي[١].

□ □ □

(١) محمد المنوني، ص ١٣٨.

محمد بن أحمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحجي

ينتهي نسب العبدري إلى جده الأعلى عبد الدار بن قصي القدسي، فهو عربي صميم مثل زميله الرحالة الأندلسي ابن جبير، الذي سبقه إلى الرحلة الحجازية بتسع وثمانين عاماً. وقد فر أحدهما إلى الأندلس منذ الفتوح الإسلامية الأولى. ومن المعروف أن أصل العبدري من مدينة بلنسية التي كانت استقرت فيها البطون العربية منذ الفتح، فقد ذكر لنا ابن غالب في كتابه «فرحة الأنفس» أن كثيراً من البطون العربية التي استقرت بالأندلس، وبعض من كان ينتمي إليها من الأسر الأندلسية النابهة، وذكر لنا من منازلها، بلنسية وأوريولة وإشبيلية وغرناطة ووادي آش[1].

وإذا كنا لا نعرف الكثير عن نشأة العبدري الأولى، إلا أنه من الثابت أنه عاش هو وأسرته فترة من حياته على الصويرة[2] في المغرب الأقصى حين عزم على الخروج لتأدية فريضة الحج[3]. ففي (٢٥) ذي الحجة من سنة ٦٨٨ هـ/ سنة ١٢٨٩ م) خرج من حاجة في السوس الأقصى واجتاز شمال أفريقيا ماراً

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ١، ص ١٣٦ ــ ١٣٧.

(٢) الصويرة على مقربة من مدينة مغادور (Mogador) بمراكش.

(٣) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون، ص ١٣٢.

بالسوس الأوسط حتى وصل إلى المغرب الأوسط حيث كانت تحكم دولة بنو عبد الواد التي أسسها يغمر أسن ابن زيان الذي استقل بالحكم منذ سقوط دولة الموحدين (سنة ٦٦٨ هـ/ سنة ١٢٦٩ م). ويبدو أن العبدري كان قد قرأ رحلة ابن جبير واستفاد منها وتتبع خطواتها في مسيرته من المغرب. ويصف لنا العبدري بداية قيامه بالرحلة، فيقول: «بدأنا رحلتنا من حاجة واتجهت القافلة بنا نحو الجنوب» ويستمر في الوصف، فيقول: «ووصلنا إلى مدينة أنس وهي مدينة جميلة تتوسط سهلاً غنياً بالمراعي والماشية، وأرضها شديدة الخصب غزيرة المياه، والواحة تدور بها الحدائق ومنابت النخيل وهي بوقوعها في أطراف السوس الأقصى. وفي مكان مرتفع تتعلق بأسباب الجبال التي تشرف على المنطقة». ويستطرد في وصف بداية رحلته، فيقول: «واستمررنا في السير من أنس عبر المنطقة الوسطى، وهي بلاد اختفى العلم فيها حتى أن اسمه زال، وفقد الناس عادة التعليم، وقلما يرتل القرآن في مساجدها، ولكن الناس يكرمون رجال الدين ويولونهم ثقتهم التامة. ويتمتعون بصفة هامة هي حماية الجار واحترامه والدفاع عنه. وإذا حدث أن نشبت بين جماعة وأخرى حرب، فإن المقاتلين يلتقون في الميدان نهاراً ويتحاربون، فإذا جن الليل امتنعوا عن القتال وأووا إلى بيوتهم حتى صباح اليوم التالي. وإذا نشب الخصام بين أهل بلد واحد، فإن المتخاصمين يخرجون إلى ميدان فسيح بعيد عن السكان، ويقتتلون فيما بينهم هناك حتى لا يصيب الأذى السكان الآمنين»[(١)].

ويستمر في وصف في سير القافلة حتى يصل إلى المغرب الأوسط، ويدخل مدينة تلمسان، فيقول: «حتى وصلنا تلمسان، وقد دخلها معنا ما يزيد عن ألف حاج، وتلمسان مدينة كبيرة نصفها في السهل ونصفها الثاني في منعرج من الجبل. وفيها مسجد جامع فخم واسع، وأسواقها حافلة، وفي مرتفع من الأرض تقوم العباد. وهي مقبرة أهل التقى والمرابطين وأفخم القبور هناك وأجملها ضريح أبي مرين. وتحيط الكروم والبساتين بتلمسان بحيث تطوقها بنطاق دائم الخضرة، وفي داخلها الحمامات الحسان».

---

(١) العبدري: الرحالة، ص ١٤٦.

وبعد أن أقام العبدري فترة في تلمسان، خرج مع الركب المغربي إلى مليانة، تلك البلدة الجميلة المكونة من مجموعة من الأبنية ولا ينقصها شيء غير ميزات المدن الكبيرة، على حد قوله، وأخيراً وصل إلى مدينة الجزائر التي سحرت لبه، إذ لم يكف عن الإعجاب بها. وخرج من الجزائر إلى بجاية، وهي ميناء كبير ومدينة حصينة، ومنها اتجه إلى قسنطينة التي قال فيها،: «ولم أر في قسنطينة إلا رجلاً واحداً يصلح أن يشار إليه كعلم في المعرفة وهو الشيخ أبـو علي حسن بن بلقاسم بن باديس»[1].

ويحدثنا العبدري عن تونس بأسلوب عذب رقيق متميز غريب على القرن السابع الهجري، بل إنه يبدو وكأنه أسلوب القرن العشرين، وأن كثر فيه السجع، فمن أقواله فيها وفي أهلها ومساجدها وأرباضها وبساتينها «ثم وصلنا إلى مدينة تونس مطمح الآمال ومصب كل برق ومحط الرجال من الغرب والشرق، وملتقى الركاب والفلك وناظمة فضائل البرين في سلك، كأنها ملك والأرباض لها إكليل»، وما زالت مدينة تونس كلأها الله دار ملك وفخامة وهي إلى الآن دار مملكة إفريقية، على ضعف المملكة بها وانتهائها إلى حد التلاشي ومع ذلك فقد أربت على البلاد في كل فضيلة»[2].

ويحدِّث عن أهلها، فيقول: «وما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً،شيمًا فاضلة وأخلاقاً حميدة، وكان الأخلق بمن شاهد أخلاقهم أن يطنب في وصفهم ويضرب عمن لم يمنحهم الوداد وينصفهم، إذ ذلك من بعض واجبهم وأقل مراتبهم، ولكن الزمان لا يعين على توفية الحقوق. وناهيك ببلد لا يستوحش فيه غريب ولا يعدم فيه كل فاضل أريب يبدأون من طرأ عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة، فهو منهم بين أهل مشفق ورفيق مرفق. وقد كان بعض خيار طلبتها وحسبائهم لازمن مدة الإقامة بها وترك لأجلي مهمات أموره

---

(١) نقولا زيادة: الرحالة العرب، ص ١١٨.

(٢) العبدري: ج ٣، ص ١٢٢، (المجلة الزيتونية، المجلد الثاني، سنة ١٩٣٧).

وعرفني بفضلائها، وكان لا ينفصل عني عامة النهار، وكثيراً ما كنت أمر بمن لا يعرفني من فضلائها وأهلها فأسأله عن الطريق إلى ناحية منها، فيقوم من حانوته ماشياً بين يدي يسأل الناس عن الطريق ويدل بي، ولولا أني دخلتها لحكمت بأن الصلاح في أفق المغرب قد محى رسمه ونسي اسمه وضاع حظه وقسمه».

وعن العلم بتونس، وعن علمائها، يقول: «لا تنشد بها ضالة للعلم إلا وجدتها ولا تلتمس بها بغية معوزة إلا استفدتها، وما من فن من الفنون العلم إلا وجدت بتونس به قائمًا ولا مورداً من موارد المعارف إلا رأيت بها حولة وراداً وحائمًا». وعن علمائها: «ولقيت بها الشيخ الأديب الحسب الكاتب البليغ، ذا الفضائل المذكورة والمآثر المأثورة، شيخ الأدباء وواحد البلغاء وزين الناظمين والشعراء أبا الحسن علي بن ابراهيم التجاني التونسي، له بيت عريق في العلم والأدب قال لي بمسجد قرائه: أنا الثاني عشر مدرساً من آبائي، على نسق كلهم قد قعدوا هنا للإقراء. وبيتهم بالعلم شريف شهير وقل منهم ومن نسائهم من لا يقول الشعر. وأما أبو الحسن فهو فيه آية الزمان إجادة معنى وتنقيح لفظ، وسرعة بديهة، وكثيراً ما يمليه ارتجالاً فيجود ويتقن، وله مشاركة حسنة في العلم ورواية عن الشيوخ»[1].

ويصف مسجد تونس الجامع، فيقول: «وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً ودائرة مسقف ووسطه فضاء، قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدار، وشدت إليها حبال متينة في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شداً محكمًا. فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء، ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف».

ويصف دورها ومبانيها وصف الخبير المدقق: «وهذه المدينة (تونس) كلأها

(١) نفس المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٥.

الله من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الإتساع ونهاية الإتقان والرخام بها كثير وأكثر أبواب ديارها معمول بها عضائد وعتب وجل مبانيها من حجر منحوت محكم العمل، ولها أبواب (أي للمدينة) عديدة وعند كل باب منها ربض (أي حي) متسع على قدر البلد المستقل».

ولم يكتف العبدري بوصف تونس وأبوابها وأرباضها، بل يستطرد فيصف ذلك مدينة قرطاجنة التي تبعد عن تونس بنحو اثني عشر ميلاً، إذ يقول: «وقرطاجنة من أعجب مدن الأرض وأغربها، لما يحكي عنها من فرط الاعتناء وغرابة الصنعة، وأما الرخام فيجلب منها إلى كل موضع بإفريقية قديماً وحديثاً ولا يفنيه ذلك منها وهي الآن دائرة لا أنيس بها، وأهل تونس يخرجون إليها تفرجاً وتعبداً».

ويسير العبدري بعد ذلك مجتازاً ليبيا حتى يصل الاسكندرية، ويبدو أنه قد تأثر بآراء ابن جبير أو أنه رأى رأيه في نقمته على عمليات تفتيش الحجاج القادمين من أرض المغرب إلى الاسكندرية، فقد قال في هذا الصدد: «ومن الأمر المستغرب والحال الذي أوضح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الإجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج، ويبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال».

ويستطرد فيحدثنا عما حدث له ولرفاقه من عمال مكوس الاسكندرية، فيقول: «وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبي، وجعل الإنفصال عنهم غاية أربي، وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس، لا حرس الله مهجتهم الخسيسة، ولا أعدم منهم لأسر الآفات فريسة، فمدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء، وألزموهم أنواعاً من المظالم وأذاقوهم ألواناً من الهوان، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله».

وخرج العبدري من الاسكندرية إلى القاهرة في طريقه إلى مكة إلا أنه

خالف طريق ابن جبير، فذهب من القاهرة براً إلى العقبة فالحجاز. وقد دخل العبدري قرية الوجه على ساحل البحر الأحمر، وهي كما وصفها، الجزيري[١]: «وهو جفار في واد يسيح ماؤه ليلاً ويشح نهاراً، يرد ماءه أنه ماء النيل والفرات وكثيراً ما يحصل للحاج على منزلة العذب زحام، ويقع بينهم بسببه مشاجرات وخصام».

ومن الوجه وصل العبدري إلى وادي كرا (أو أكري) ويسمى فم الضيقة ويأخذ إليه في مرحلتين وهما أصعب ما في هذا الطريق (طريق مصر إلى مكة المشرفة) ويرد ماءه وهو جفار نباع في سيل واد بعيد المنتهى ماؤه غزير سائغ ثم يرحل إلى الحوراء، وهي على ساحل القلزم، ويأخذ إليها في أربع مراحل ويرد ماءها وهو شبيه بماء البحر لا يكاد يشرب، وإنما ترده الإبل[٢]، ومنها مضى إلى ينبع[٣]، التي يصفها العبدري، فيقول: «وينبع من بلاد الحجاز المعروفة وهي بليدة في أصل جبل ضعيفة البناء قليلة المساكن والخراب فيها كثير، وغربيها بسيط متسع وهو محط الركب ولكنه سبخة لا تنبت، وفيها نخيل وماء معين».

ويتبين لنا دقة العبدري في وصفه للطرق والمسالك عند حديثه عن صحراء البزواء، فيقول: «ومن بدر سرنا إلى الجنوب قاصدين مكة فاخترقنا صحراء البزواء[٤]، وهي صحراء ممتدة ملساء مجهل من أعظم المجاهل، نكراء يضل بها الدليل لنكارتها، ويذهل فيها الخليل عن الخليل. وهي على مسيرة ثلاثة أيام، ليس على الترفق إلمام، ولا نصبت بها على المسالك أعلام، اشتبهت فما يتميز وراء من قدام، يسرح بها الطرف فلا يقف على مداه وتظمأ بها الأفواه

---

(١) الجزيري: درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص ٤٥٠، (المكتبة السلفية ــ القاهرة).

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٤٥١.

(٣) يقول عبد القدوس الأنصاري: أنها ليست (ينبع البحر) وإنما المراد بها (ينبع النخل) (مجلة العرب، سنة ١٣٩٧).

(٤) البُزواء بضم الباء وسكون الزاي، أرض بين الحرمين (القاموس المحيط).

فلا تجد بلة تنقع صداه. وفي متنها واد يقال له (رابخ) وبعض بقول (بالغين) واذكر المطر كانت به غدران عظيمة فيبقى بها الماء زماناً، وإن قل المطر نضبت وغار الماء، فيحضر ويتعنىً فيه. وفي تلك الجهة عربان كثيرة تقيم مع الركب سوقاً عظيمة ويجلبون إليها الغنم والتمر فيتسع العيش ويرخص».

وقد دون العبدري أخبار رحلته التي أشار فيها إلى مواطنه ابن جبير وقد وصلتنا بعض مخطوطات من هذه الرحلة محفوظة في مكتبات متفرقة. وقد قام المستشرق الفرنسي شاربونو (Charbonneau) بعض مقتطفات في المجلة الآسيوية الفرنسية، في الجزء الرابع من الحلقة الخامسة[1] وبعد أن أمضى العبدري عاماً في رحلته الحجازية عاد أدراجه (سنة ٦٨٩ هـ/ سنة ١٢٩٠ م) مع الركب المصري ماراً بفلسطين إلى القاهرة براً، ثم يتجه غرباً إلى مدينة قابس فسوسة فتونس فالمغرب الأقصى حيث انتهى به المطاف.

□ □ □

(١) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون، ص ١٣٢.

القاسم بن يوسف بن محمد السبتي التجيبي

ولد التجيبي في مدينة سبتة (سنة ٦٧٠ هـ/ سنة ١٢٧١ م) في عهد دولة بني مرين. وقد تنقل بعد أن شب عن طوق إلى مدن المغرب الأقصى حيث توجد مراكز الثقافة. ولما أتم حفظ القرآن والحديث وتفقه في علوم اللغة والأدب التحق بجامعة القرويين بمدينة فاس عاصمة بني مرين.

ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره عزم على الارتحال إلى المشرق بغية تأدية فريضة الحج، ومن ثم فقد بدأ رحلته (سنة ٦٩٦ هـ/ سنة ١٢٩٦ م) التي دوّنها في مصنفه المعروف باسم (مستفاد الرحلة والاغتراب) ولكن للأسف لم يعرف منها حتى الآن إلّا مجلد واحد تناول فيه رحلته للديار المصرية وجدة ومكة المكرمة. وقد حقق هذا المجلد عبد الحفيظ[1] منصور سنة ١٩٧٥. ويقع هذا المجلد في (٤٦٨) صفحة هذا عدا المقدمة.

ولعل من الموضوعات الهامة التي جاء ذكرها في رحلة التجيبي، هو استنكاره لبدعة تعدد الأئمة بالحرم المكي المكرم، حيث يوجد أربعة في وقت واحد، ولكل مذهب من الأربعة إمام ومؤذن وموقف خاص لمصلي أهل مذهبه[2].

---

(١) قام بالنشر الدار العربية للكتاب بليبيا وتونس سنة ١٩٧٥.

(٢) رحلة التجيبي ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧.

وبرغم أن موضوع المقامات الأربعة بالحرم المكي قد تناولها بعض الرحالة المغاربة ممن سبقوا التجيبي في رحلتهم إلى مكة المكرمة، إلّا أن استنكار التجيبي لقيام كل مذهب منها بالصلوات على انفراد مع قيام المؤذن الخاص بكل منها للمنادة للصلاة على حدة، كما يقوم الأئمة الأربعة في وقت واحد بحيث يختلط الأمر على المصلين ويحدث الكثير من اللبس على بعضهم رأي يستحق الالتفات إليه والعناية به.

لذا فقد رأينا أن نتناول موضوع المقامات الأربعة بالمسجد الحرام في شيء من التفصيل، لم يثبت حتى الآن تاريخ من أحدث هذه المقامات ولعل عدم إشارة ابن عبد ربه في «العقد الفريد» إلى وجودها عندما تولى وصف المسجد، يدل على عدم وجودها في القرن الرابع للهجرة، فقد توفي ابن عبد ربه سنة **٣٢٨** هـ. ومرت العصور حتى يأتي ابن جبير في رحلته سنة **٥٧٨** هـ، ويصف لنا المقامات فيقول: «وللحرم أربعة أئمة سنية وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية[١]، وأشراف هذه البلدة على مذهبهم وهم يزيدون في الأذان (حي على خير العمل)، ولا يجمعون مع الناس إنما يصلون ظهراً أربعاً ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها. فأول الأئمة السنية الشافعي وهو يصلي خلف مقام إبراهيم، ثم المالكي وهو يصلي قبالة الركن اليماني، وله محاريب يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها. ثم الحنفي وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له

---

(١) الزيدية: نسبة إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين. ولد الإمام زيد حوالي سنة ٨٠ هـ، وتلقى علومه الأولى في المدينة، ولما توفي والده سنة ٩٤ هـ تلقى الرواية عن أخيه محمد الباقر. وقد خرج زيد للعلم يطلبه في شتى نواحيه وقد التقى بواصل ابن عطاء في البصرة ودرس معه مذهب المعتزلة ولذا تقاربت آراؤه مع المعتزلة. وكان زيد يحدث نفسه بالخلافة، فلما جاءه أهل الكوفة وحرضوه على الخروج، فذهب إلى الكوفة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك. فلما ظهر أمره حاربه يوسف بن عمر والي الكوفة، فتفرق أصحابه عنه وخذلوه، وأصر على الحرب في نفر قليل فأصابه سهم في جنبه وقيل في جبهته فمات سنة ١٢٤ هـ. وقد ظهرت الدعوة الزيدية بعد وفاته وانقسمت إلى ثمان فرق (المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ١٨١؛ الفخري ص ١١٩؛ أبو الحسن النونجتي: فرق الشيعة ص ١٩ ـ ٥٠).

وهو أعظم الأئمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها، وسبب ذلك أن الدول الأعجمية كلها على مذهبه، ثم الحنبلي وصلاته مع المالكي في حين واحد، وموضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم قال، وله حطيم معطل هو قريب من حطيم الحنفي»[١].

وقال تقي الدين الفاسي[٢] المتوفي سنة **٨٣٢ هـ** بعد ذكر تعدد صلاة الأئمة الأربعة في المسجد الحرام، أن الشيخ الإمام أبا القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب المالكي أفتى سنة **٥٥٠ هـ** بمنع الصلاة بأئمة متعددة وجماعات مرتبة بحرم الله، وقال بعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة، ثم أن بعض الناس استفتى في ذلك بعض علماء الإسكندرية فافتوا بخلاف ذلك».

ويقول ابن ظهيرة[٣] المتوفي سنة **٩٥٠ هـ**، وأما صلاة المغرب فكانوا يصلونها جميعاً أعني الأربعة في وقت واحد، فيحصل للمصلين بسبب ذلك لبس كثير من اشتباه أصوات المبلغين، واختلاف حركات المصلين، فأنكر العلماء ذلك وسعى جماعة من أهل الخير عند ولي الأمر إذاك وهو الناصر ابن برقوق الجركسي سلطان مصر فبرز أمره في موسم سنة ٨١١هـ، بأن الامام الشافعي بالمسجد الحرام يصلي المغرب بمفرده فنفذ أمره بذلك، واستمر الحال على ذلك إلى أن تولى الملك المؤيد شيخ صاحب مصر، فرسم بأن الأئمة الثلاثة يصلون المغرب كما كانوا من قبل.

ويستطرد ابن ظهيرة فيحدثنا عن حالة الصلاة في عهد الدولة العثمانية فيقول: «فأنهى ذلك إلى مولانا السلطان سليمان فبرز أمره بالنظر في إزالة التخليط فاجتمع القضاة والأمير علي بك نائب جدة في الحطيم واقتضى رأيهم أن

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١١٧.
(٢) شفاء الغرام ص ١٣٩.
(٣) الجامع اللطيف ص ٢١٣.

الحنفي يتقدم في صلاة المغرب، وعند التشهيد يدخل إمام الشافعي وكان هذا في حدود إحدى وثلاثين وتسعمائة واستمر ذلك إلى وقتنا هذا عام تسعة وأربعين وتسعمائة».

ويكمل بإسلامه[1] أحوال الصلاة بالمقامات الأربعة بالمسجد الحرام والتي كانت محل استنكار رحالتنا التجيبي سنة ٦٩٦ هـ، في القرن العشرين، الرابع عشر للهجرة، فيقول: «وقد وفق جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة السعودية، إلى إبطال تعدد الجماعات بالمسجد الحرام والمسجد النبوي وغيرهما، وجمع المصلين على إمام واحد في الصلوات الخمس، والتراويح. وكان ذلك من ابتداء توليته على الحجاز سنة ١٣٤٣ هـ، واستمر الحال على ذلك إلى العصر الحاضر».

ومن الموضوعات التي عنى بها التجيبي كذلك ودوّنها في رحلته تراجم العلماء والمبرزين من علية القوم ممن التقى بهم في رحلته كما ذكر المزارات والمشاهد المقدسة في مكة والمدينة. كما استعرض الكثير من العادات والتقاليد، وما يعانيه الحاج من ضروب البدع أيام إقامته بالحرمين. ومن الأشياء التي أعجبته في مكة إحياء ليالي رمضان[2]، إذ يقول: «ووصل في جملة المصريين جماعة من القراء المعروفين بحسن الصوت وطيب النعمة، وكانوا يجتمعون كل ليلة بإزاء باب بني شيبة من الحرم الشريف، فيقرءون جزءاً من الكتاب العزيز، متراسلين بالتلاحين على عادة القراء في هذه البلاد الشرقية، فكانت تكاد تخشع لحسن أصواتهم الجمادات». ويضيف التجيبي فيقول: «وكان لأولئك القراء المذكورين، واحد كان مقدمهم، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن العظيم، وكان ـ نفحة الله تعالى ـ إذا ذهب جزء من الليل قصد المدرسة المنصورية،

(١) عمارة المسجد الحرام ص ٢٣٣، ٢٣٤.
(٢) رحلة التجيبي ص ٤٥٩.

(وهي التي أمر بإنشائها السلطان المنصور قلاوون بجوار جدار الحرم المكي) وصعد إلى أعلى سطحها المشرف على الحرم الشريف، وتلا هناك جزءاً من الكتاب العزيز، رافعاً بذلك صوته العجيب بحيث يسمعه كل من في المسجد الحرام ويصغي إليه ويستطيبه»[1].

□ □ □

(١) رحلة التجيبي ص ٤٦٠.

أبو أحمد
عبد الله التِجاني التونسي

ولد عبد الله التجاني بين عامي (سنة ٦٧٠ هـ[1]، سنة ٦٧٥ هـ/ سنة ١٢٧٢، سنة ١٢٧٦ م) في مدينة تونس، عاصمة الحفصيين ودار ملكهم في ذلك الحين. وكانت أسرته قد وفدت إلى تونس مع جيش الموحدين في منتصف القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد). وقد نشأ عبد الله وترعرع في بيت علم ومعرفة، فقد كان جده ووالده وأعمامه وأبناء عمومته من أهل العلم والأدب والفقه. هذا فضلاً عن أن أباه كان من شيوخه الذين تتلمذ عليهم، كما كانت تربطه به صلة ومحبة كبيرة، نستطيع أن نتبيّنها من الخطاب الذي أرسله له بينما كان في قابس، وقد صدر والده الخطاب بالأبيات الآتية:

حملتم القلب إذ جد الرحيل بكم	من الصبابة ما لا تحمل الإبل
فلو سلكتم سبيل الحزم ما عجزت	إذ ذاك مني على دفع النوى الحيل
لكن عراني ذهول يوم بينكم	كم يكابد من أحبابه رحلوا
فالله يجمع منا الشمل عن عجل	فالخير أجمل ما في نيله العجل

(١) التجاني: رحلة التجاني ص ٤ نشر حسن حسني عبد الوهاب (المطبعة الرسمية تونس سنة ١٩٥٨).

كما عني التجاني عناية خاص بالتحدث عن العلماء والفقهاء الذين التقى بهم في رحلته. وقد كان للبيئة العلمية التي نشأ فيها عبد الله التجاني أثر واضح فيما دون عن العلماء والفقهاء، إذ لم يكتف بترجمة حياتهم وذكر مصنفاتهم وحسب، بل حرص على حضور دروسهم ومشاركتهم مجالسهم والإستماع إليهم. وفي هذا الصدد يحدثنا عمن التقى بهم في طرابلس فيقول[1]:

والقائم بالعلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام، وهو رجل ليس من عمرو ولا زيد، ناهيك من رجل نال من المعارف ما اشتهى، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى. حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب ذكراً لا يجاريه فيه أحد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ، حسن العبارة مشاركاً في علوم جمة. وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل أو تفسير أو تفريق أو تخريج وهو سبأي النسبة من ولد سبأ بن يسجب بن يعرب بن قحطان، وأخبرني أن مولده بطرابلس عام تسع وثلاثين وستمائة وأكثر استفادة على ما أخبرني على الفقيه القاضي أبي موسى عمران بن موسى بن معمر الطرابلسي، رحمه الله تعالى، وليس له رحلة عن بلدة إلّا إلى الحج، حج في عام ثلاثة وسبعمائة».

ويستطرد التجاني فيصف لنا المجلس العلمي الذي انعقد في طرابلس لكي يقرأ على الشيخ الإمام الحافظ أبو فارس والذي حضره الأمير أبو يحيى بن اللحياني وغيره من العلماء وجماعة من أعيان الطلبة بالبلد، فيقول[2]: ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة في العلم أحببت القراءة عليه مدة إقامتنا هناك. وطلب مخدومنا أن يكون ذلك بمحضر منه فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكنانا فعقدنا لذلك مجلساً بالقصبة وفي مجلس الأمر منها، وطلب

---

(١) التجاني: رحلة التجاني ص ٢٥١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٢.

الحضور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد فأذن لهم، ورأينا أن يكون المقروء حديث خير الأنام، الذي هو الأصل لجميع الأحكام، فابتدأت القراء بلفظي لصحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، رحمه الله تعالى، في غرة شهر شعبان. ثم ابتدأت في الشهر نفسه قراءة دولة أخرى من كتاب المسند الصحيح للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري»[1].

وكانت تونس في عهد دولة الحفصيين مؤئل العلم والمتعلمين، يفد إليها العلماء والفقهاء من المشرق للالتقاء بشيوخها يغترفون من مكاتبها العامرة ومدارسها المكتظة بأعيان الطلبة. وكانت لأسرة التجاني مكتبة حافلة بأنواع العلوم والمعارف. وقد هيأت البيئة العلمية والمناخ الثقافي الذي نشأ فيه التجاني الفرصة للنبوغة وذيوع صيته مما جعل شيخ الموحدين الأمير أبو يحيى بن اللحياني، المشرف على إدارة دولة الحفصيين في عهد السلطان أبي عصيدة، في القرن الثامن للهجرة، يختصه برعايته فاختاره كاتباً خاصة.

ويبدو أن الأمير أبو يحيى بن اللحياني كان يريد الخروج للحج ولكنه لم يرد أن يفصح عن ذلك فتظاهر بأنه يريد تفقد شؤون الدولة فحرص على أخذ التجاني معه وجعله المشرف على رسائله، ومن هنا توثقت العلاقة بين اللحياني والتجاني.

وكأنما أراد القدر أن تنتهي حياة التجاني مع حياة الأمير اللحياني الذي اصطفاه واتخذه رفيقاً له في أشرف رحلة ارتحلها في حياته، وهي رحلة الحج. فقد حدث عندما عاد ابن اللحياني عندما عاد من رحلة الحج، أن وجد تونس قد عمَّها الفوضى والاضطرابات، فرأى أن يستقر في طرابلس الغرب يرقب الأمور، فلما وجد الفرصة مواتية، هاجم تونس واحتلها، فبويع له بالسلطنة على الدولة الحفصية (سنة ٧١١ هـ/ سنة ١٣١١ م).

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٦.

ولما تولى ابن اللحياني الملك في تونس، أراد أن ينتفع بعلم التجاني وكياسته، فولاه خطة العلامة الكبرى، أي تولى رئاسة دواوين رسائله، أو كما يعرف في المشرق باسم ديوان الإنشاء. وفي ذلك يقول حسن حسني عبد الوهاب[1] «ولا مراء في أن عبد الله التجاني باشر ما ألقي على عاتقه من المهمات أحسن مباشرة طيلة عهد السلطان ابن اللحياني. ولم يزل صاحبنا يخدم بعمله وعلمه وقلمه البلاد يؤلف بين الفينة والفينة التصانيف المفيدة، إلى أن عزم مخدومه العزم على مغادرة تونس».

فلما وجد السلطان أنه لا يمكنه أن يسير بالأمر إلى نهايته ترك البلاد والسلطان وارتحل إلى الاسكندرية (سنة ٧١٧ هـ/ سنة ١٣١٧ م) وبقي بها حتى توفي (سنة ٧٢٧ هـ/ سنة ١٣٢٦ م). وتولى السلطنة بعده في تونس ابنه سنة واحدة، إذ انتزعت السلطة منه، فلقي عبد الله التجاني وغيره من أفراد أسرته حتفهم قتلاً في الهجوم الذي قام به أبو يحيى (سنة ٧١٨ هـ/ سنة ١٣١٨ م).

وقد ترك التجاني العديد من المصنفات التي فقد معظمها للأسف. وكانت تلك المؤلفات في موضوعات عدة، في الفقه والأدب والتاريخ والتراجم والحديث وحتى في الأدب النسائي.

ولعل من الموضوعات التي عنى بها علماء المغرب جمع الرسائل الهامة التي يكتبونها للملوك والأمراء وعلية القوم أو التي يتبادلونها مع أصدقائه فيصنفون لها مؤلفات خاصة عرفت باسم المراسلات. فقد فعل ذلك معاصره الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب. فقد صنّف كتاب «كناسة الدكان بعد انتقال السكان»[2] وهو عبارة عن مجموعة من الرسائل السلطانية من إملاء ابن الخطيب على لسان سلطان غرناطة وموجهة إلى سلطان فاس. وقد نص ابن الخطيب في بعض رسائله وكتبه أنه جمعها بمدينة سلا بالمغرب الأقصى في ذلك الوقت.

---

(١) رحلة التجاني ص ٢٧ ــ ٢٨.

(٢) أحمد مختار العبادي: مؤلفات ابن الخطيب في المغرب.

ولعل من أحسن مراسلات التجاني، تلك التي تبادلها مع ابن شبرين، فقد وصلته وهو (بتوزر) رسالة من شبرين، فقد ذكرها التجاني فقال: وفي أثناء إقامتنا بتوزر وصلت إلى قصيدة من الفقيه الأجل الأديب أبي بكر محمد بن أحمد بن شبرين الجذامي السبتي من مستقره غرناطة. وهذا الرجل من أعظم ما رأيت تحقيقاً، وأحسنه في النظم والنثر طريقاً. وقد كنت قد اجتمعت به بتونس ووصل إلينا في الخامس لذي القعدة من عام ثلاثة وسبعمائة، وكان في نيته التوجه إلى الحج فلم يقض له ذلك. فأقام بتونس مدة ثم ارتحل عنها عائداً إلى وطنه سبتة»[1]. ومما جاء في قصيدته:

يـا نسمة سحبت فضـول ذيـولهـا	مـا بين ورد بـالعــذيب ونـرجس
والورقة قـد صرحت على افنـانها	والأرض قد لبست ثياب السندس
حــطي رحـال تحيتي في معهــد	بين الجـوانـح منـه عهـد ما نسي
والحي من تيجان فاشرح عندهم	فرط اشتياقي نحـو ذلك المجلس

وقد رد عليه التجاني بقصيدة يعزيه فيها على ما حلّ به وبأهله وبلده جاء فيها[2]:

أمــر مــن الله لا مــرد لــه	لم يبق كهــلاً منهـم ولا يفـعــا
وخــدعــة ثـم أمــرهــا فمضت	وكم سـديـد الآراء قــد خـدعــا
هــاك سـلامي على البعــاد أبــا	بكــر فقلبي إليــك قــد نــزعــا
وثــق بــو أدين فــيــك بــه	ملتــزمــاً منــه كـلّ مـا شـرعــا
إن حـــال خــل عــن المــودة أو	أجــاب داعي السلوِّ حيـن دعــا

وقد أتيحت لرحالتنا التجاني أسباب متواتية لتسجيل رحلته لم يسبق أن

---

(١) رحلة التجاني ص ١٦٤.
(٢) المصدر السابق ص ١٧٠.

أتيحت لغيره من رحالة المغرب، على ما نعلم، فقد كان في غنى عن تحمّل أعباء الرحلة المادية والإدارية، فقد تيسّر له كل ما يخص الرحلة من مال وعتاد وركائب ومرشدين، هذا فضلاً عن حسن الإستقبال الذي كان يلقاه في حلّه وترحاله. فقد صمم الأمير أبو يحيى ابن اللحياني عندما عزم على تأدية فريضة الحج أن يكون عبد الله التجاني برفقته. وقد خرج من تونس في جمع كبير (سنة ٧٠٦ هـ/ سنة ١٣٠٦ م) وقد أمضى التجاني برفقة اللحياني عامين وثمانية شهور في رحلة الحج، ثم عاد إلى تونس فوصلها (سنة ٧٠٨ هـ/ سنة ١٣٠٨ م).

وفي تلك الفترة التي قضاها التجاني في صحبة ابن اللحياني في رحلته إلى الحجاز ومكة المكرمة، أخذ يدوّن أخبار الرحلة في كتاب عرف باسم (رحلة التجاني). وقد جمعت الرحلة إلى جانب التاريخ ووصف المشاهد والآثار، ووصف المجتمع الذي رآه وخالطه، أدباً رفيعاً فقد كتب الرحلة بأسلوب جميل وعبارة أنيقة.

وقد تجلىّ جمال الأسلوب وعذوبة عبارته في وصفه للمدن التي مرّ بها في طريق رحلته التي بدأها من تونس ثم ذهب إلى سوسة، ثم اتخذ القوم طريقاً داخلية حملتهم إلى الجم ثم إلى صفاقس التي قال في وصفها[1]: ووصلنا إلى صفاقس ظهر فرأيت مدينة حاضرة ذات سورين يمشي الراكب بينهما ويضرب البحر في الخارج منهما، وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها فأفسدتها العرب، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة، وفواكهها مجلوبة إليها من قابس وماؤها شراب لا يساغ وإنما يعتمدون في شربهم على ما يدخرونه من مياه الأمطار. ويصطاد بها من السمك أنواع تفوت الإحصاء وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعةالملوكية وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب. ومرساها مرسى حسن ميت الماء والماء يمد به ويجزر عنه كل يوم، فإذا جزر، استوت السفن على الحماة وإذا مد عامت».

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨.

فإذا ما خرجوا من صفاقس اتجهوا إلى قابس[1] التي قال عنها: «ووصلنا إليها (قابس) ضحى فرأينا بداقد استوفى المحاسن واستغرقها، وأذكر بمنظره الأنضر، وورقها الأخضر، جنة الخلد واستبرقها، وقد أحدقت غابته من جميع جهاته، وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق، ما يستوقف الطرف، ويستوفي الحسن والظرف، ويحقق ما قيل أن قابس جنة الدنيا، وأنها دمشق الصغرى وهي مدينة بحرية صحراوية فإن الصحراء متصلة بها، والبحر على ثلاثة أميال منها».

وقد صممت الجماعة على زيارة (توزر) لرؤيتها ثم العودة ثانية إلى قابس، وتوزر كما يقول التجاني «هي قاعدة البلاد الجريدية، وليس في بلاد الجريد غابة أكبر منها ولا أكثر منها مياهاً. وأصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد متسع وتتشعب منه جداول كثيرة. وتتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على أملاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة، ولهم على قسمها أمناء من ذوي الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف، وأمر مقرر مألوف. وبداخل البلد جامعان للخطبة وحمام واحد ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر، وهو من أحسن المتفرجات لأن مجتمع الماء هنالك ومنه تتفرع»[2].

ويتحدث عن حمامات مدينة طرابلس الغرب فيقول: «ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة، فرأيت حماماً صغير الساحة إلاّ أنه قد بلغ من الحسن غايته وتجاوز من الظرف نهايته. وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها، وهو الآن محبس على بعض المساجد وبالبلد حمامان آخران غيره إلاّ أنهما في الحسن دونه».

ويستطرد في وصف طرابلس حتى يأتي إلى وصف مدارسها فيقول:

---

(١) المصدر السابق ص ٨٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٥٧.

«وبداخل البلد مدارس كثيرة وأحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا وذلك فيها بين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً وأظرفها صنعاً»[1].

□ □ □

(١) المصدر السابق ص ٢٥٢.

شمس الدين
أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي
المشهور بابن بطوطة

ولد ابن بطوطة في مدينة طنجة (سنة ٧٠٣ هـ/ سنة ١٣٠٤ م) وقد عرف باللواتي نسبة إلى قبيلة لواتة البربرية، كما لقب بشمس الدين ولكنه اشتهر وعرف بابن بطوطة. وكانت أسرته عريقة المجد عالية المقام أتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى منصب القضاء والتفوق في العلوم الشرعية. ولما بلغ ابن بطوطة الثانية والعشرين من عمره، خرج من طنجة مسقط رأسه ومهد نشأته ودراسته الأولى، مرتحلاً لتأدية فريضة الحج وكان ذلك (سنة ٧٢٥هـ / سنة ١٣٢٥م). وقد عرف رفاقه في السفر تبحره في العلوم الشرعية كما تبينوا فضله ودماثة خلقه، وذلك في طريقهم إلى مصر، فجعلوه قاضياً لهم.

وابن بطوطة هو أعظم الرحالة المسلمين قاطبة وأوسعهم شهرة، حتى سمي بحق شيخ الرحالين[1]، فهو أكثرهم طوافاً في الآفاق، فقد قضى ثمان وعشرين سنة من حياته في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة. ومع ذلك فهو أوفرهم نشاطاً واستيعاباً للأخبار وأشهرهم عناية بالحديث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها[2]. كما كان من المغامرين الذين لا يقدر لهم قرار ومن الذين يدفعهم حب الاستطلاع إلى ركوب الصعب من الأمور.

---

(١) نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص ١٨٠.

(٢) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون، ص ١٣٦.

وقد انتظمت رحلاته وأسفاره التي استمرت مدة ثمانية وعشرين عاماً على الغالب، في ثلاث رحلات. غادر في الرحلة الأولى منها مدينة طنجة كما سبق القول (سنة ٧٢٥ هـ/ سنة ١٣٢٦ م) وطاف بأنحاء المغرب الأقصى ثم اتجه نحو الشرق عبر الجزائر، أو المغرب الأوسط، ثم إلى تونس وليبيا وانتهى به المطاف في أفريقية في مصر. ومن الاسكندرية اتجه جنوباً إلى القاهرة ثم إلى الصعيد حتى وصل إلى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر. ولكنه اضطر إلى العودة مرة ثانية إلى القاهرة وذلك بسبب القتال الذي وقع بين الأمير الحدربي زعيم البجاة لعيذاب، الذين عرفوا بسوء الخلق والغلظة وسطوهم على وفود الحجيج وفرض الأتاوة عليهم كما فصل ذلك ابن جبير ومن بعده العبدري، وبين أمراء المماليك المكلفون بحماية وفود الحجيج. فاضطر ابن بطوطة إلى العودة إلى القاهرة ومتابعة رحلته إلى مكة المكرمة عن طريق بلاد الشام. ووصف ابن بطوطة الطريق الصحراوي بين مصر وفلسطين، واسترعى انتباهه جباية المكوس عند (قطيا)، فقال: «ثم وصلت إلى الصالحية ومنها دخلنا الرحال ونزلنا منازلها، وبكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان، ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية وحانوت يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته. ومن منازلها (قطيا) المشهورة وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال. ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة (أي جواز سفر) من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام، احتياطاً على أموال الناس، وتوقياً من الجواسيس العراقيين. وطريقها في ضمان العرب وقد وكلوا بحفظه، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر، ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل، فإذا وجد به أثراً طالب العرب بإحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء».

وبعد تأدية فريضة الحج اتجه إلى العراق وإيران وبلاد الأناضول، ثم عاد

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ١، ص ٢٧.

إلى الحجاز وحجّ للمرة الثانية، وبقي في مكة مجاوراً مدة سنتين. وفي (سنة ٧٣٠ هـ/ سنة ١٣٢٩ م) غادر الحجاز متجهاً نحو الجنوب، فزار اليمن وبلاد الخليج العربي التي عني بإعطائنا صورة واضحة على الكثير من حالتها الاجتماعية من عادات وتقاليد وفي هذا الصدد يقول: «وأكلت في ذلك المركب نوعاً من الطعام لم آكله من قبل ولا بعد، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة، طبخها من غير طحن وصب عليها عسل التمر وأكلناه. ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه، جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها إلا من السمك، ولم ينزل إليها لبعد مرساها عن الساحل»[١].

ويستطرد ابن بطوطة فيصف لنا مدينة صور على الساحل الجنوبي لسلطنة عمان، فيقول: «ثم سرنا يوماً وليلة فوصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور. ورأينا منها مدينة قلهات في سفح جبل، فخيل لنا أنها قريبة، وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال قبله، فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي إليها والمبيت بها، وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب، فسألت عن طريقها فأخبرت أني أصل إليها عند العصر، فأكريت أحد البحريين ليدلني على طريقها، وصحبني خضر الهندي، وتركت أصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غير ذلك اليوم»[٢].

ثم سار في الخليج العربي متجهاً إلى البحرين والأحساء، فراعه مغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين، إذ يقول: «ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم، فإذا كان شهر إبريل وشهر مايه (مايو) تأتي إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون، وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه، مهما أراد أن يغوص، شيئاً يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحفاة، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً يشبه المقراض يشده على أنفه[٣]، ثم يربط حبلاً في وسطه ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في

---

(١) ابن بطولة، ج ٢، ص ٢١٧.
(٢) ابن بطوطة، ج ٢، ص ٢١٩.
(٣) يعرف المقراض الذي يشد على الأنف اليوم باسم (الفطام).

الماء، فمنهم من يصبر الساعة أو الساعتين[1] فما دون ذلك. فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتاً في الرمل، فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ويجعلها في مخلاة جلد مفوطة بعنقه، فإذا ضاق نفسه حرك الحبل، فيحس به الرجل الممسك للحبل[2] على الساحل فيرفعه إلى القارب فتؤخذ منه المخلاة ويفتح الصدف فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة. فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر[3] فيجمع جميعها من صغير وكبير، فيأخذ السلطان خمسه، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب، وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين فيأخذ الجوهر في دينه»[4].

واتجه ابن بطوطة بعد مغادرته منطقة الخليج إلى الدولة البيزنطية عبر مصر والشام. وعند زيارته لمدينة دمشق، أخذ عليه لبه الجامع الأموي الذي وصفه، فقال: «وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً وأتقنها صناعة، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً. ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه. وكان الذي تولى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، ووجَّه إلى ملك الروم بقسطنطينة يأمره أن يبعث إليه الصناع فبعث إليه اثني عشر ألف صانع. وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن. وذرع (أي مساحته) المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع، وعدد شمسات الزجاج الملونة التي فيه أربع وسبعون».

ومن الموضوعات الاجتماعية التي ذكرها ابن بطوطة وأعجب بها عندما شاهدها في دمشق هي كثرة الأوقاف حتى أنها شملت مختلف الشؤون الاجتماعية، والتي نرجو أن تعمل بها الدول الإسلامية عامة والعربية منها

---

(١) الحقيقة أن أقصى مدة يمكن أن يقضيها الغواص في الماء هي سبع دقائق.

(٢) ويعرف الرجل الممسك بالحبل (بالسيِّب).

(٣) الحقيقة أن اللؤلؤ يتكون داخل الصدفة وهي بعد في البحر.

(٤) ابن بطوطة، ج ٢، ص ٢٢١.

خاصة. ففي هذا الصدد[1]، يقول: «منها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن. ومنها أوقاف لفكاك الأساري، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير»[1].

ومن الأوقاف التي ذكرها ابن بطوطة ما يستحق الإلفات إليه حقاً ذلك أن الواقف حرص أن يوقف على أدق الأحاسيس الإنسانية، وقد عبر عنها (جورج غريب) باسم (جبر الخواطر)[2]، والذي حدثنا عنه ابن بطوطة، فقال: «مررت يوماً ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني، وهم يسمونه الصحن، فتكسرت، واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: «إجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني»، فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذاك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الموقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همّته في الخير إلى مثل هذا».

وبعد أن ترك بلاد الشام، ذهب إلى آسيا الصغرى حيث استقر في مدينة القسطنطينية، ومن هذه المدينة الأخيرة اتجه إلى أقصى المشرق حيث زار خوارزم وخراسان وبخارى التي أعجب بها وخصّ بالذكر فيها شواهد القبور التي نقش عليها أسماء علمائها وأسماء الكتب التي صنفوها، إذ يقول: «وزرت ببخارى قبر الإمام العالم أبي عبد الله البخارى مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين ــ رضي الله عنه، وعليه مكتوب: هذا قبر محمد بن اسماعيل البخارى

---

(١) ابن بطوطة، ج ٢، ص ٢٣٥.
(٢) جورج غريب: أدب الرحلة، ص ٧٣.

وقد صنف من الكتب كذا وكذا، وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم. وكنت قيدت من ذلك كثيراً، وضاع مني في جملة ما ضاع لي لما سلبني كفار الهند في البحر». ثم واصل ابن بطوطة أسفاره إلى سمرقند وترمذ ودولة آباد التي تحدث عن سوق المغنين بها، فقال: «وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات يسمى سوق طرق آباد، من أجمل الأسواق وأكبرها. فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه، وللدار باب سوى ذلك. والحانوت مزين بالفرش، وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهي مزينة بأنواع الحلى، وجواريها يحركن مهدها. وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس، وبين يديه خدمه ومماليكه. وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى يغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب، ثم ينصرف».

وبعد أن ترك إيران، ذهب إلى غزنة وكابل ثم دخل بلاد الهند وذلك (سنة ٧٣٤ هـ/ سنة ١٣٣٣ م)، واتصل بسلطانها محمد شاه بن تغلق وتوطدت العلاقة بينهما فولى ابن بطوطة منصب القضاء في دهلي التي أقام فيها قرابة ثماني سنوات. وكان طبيعياً أن تنال مدينة دهلي حظاً وافراً من وصف ابن بطوطة لها في رحلته، فلم يترك صغيرة وكبيرة فيها إلا تناولها بالوصف والتعليق، هذا فضلاً عن الإشارة إلى كثير من عادات الهنود وأحوالهم الاجتماعية. ولعل من طريف ماذكره عن الهند، حديثه عن السحرة الجوكية، إذ يقول: «بعث إليَّ السلطان محمد شاه يوماً فدخلت عليه فوجدت عنده رجلين يلتحفان بالملاحف ويغطيان رأسيهما، وأمرني السلطان بالجلوس، فجلست فقال لهما: إن هذا الشخص من بلاد بعيدة فأرياه من غريب صنعكما وصرحا بأمره. فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعاً، فعجبت منه وأدركني الخوف فسقطت إلى الأرض. فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت، وهو على حالة متربع فأخذ صاحبه نعلاً له فضرب بها الأرض كالمغتاظ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع، وجعلت تضرب في عنقه، وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا. فقال إلي السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل، ثم قال:

لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت. فانصرفت عنه، وأصابني الخفقان ومرضت حتى أمر لي بشربة أذهبت عني ذلك».

على أن الدهر سرعان ما قلب ظهر المجن لابن بطوطة في الهند، إذ غضب عليه السلطان مرة فاعتزل الخدمة ووهب ماله للفقراء والمساكين ولازم أحد الزهاد. ولكن حدث أن أراد السلطان أن يرسل سفارة من قبله إلى ملك الصين تحمل إليه هدية ثمينة، فوقع اختياره على ابن بطوطة لقيادة هذه السفارة وذلك لحبه للأسفار والرحلات.

وقد عدَّد لنا ابن بطوطة أنواعاً كثيرة من السفن والمراكب التي ركبها والتي رآها في البحار التي سار فيها مثل البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الغربي وبحر الظلمات (المحيط الهادي)، والتي جاء في وصفها: ولا تنسى الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، التي تسبق عند طياب الريح مفوقات السهام، وإعجابها بغربانها البحرية وحراقاتها الحربية وشوانيها وهول مبانيها وجلال شكلها وجمال معانيها، تبدو موشاة بالنضار الأحمر منقشة باللون الأفخر، فهن كالأرقم المنمر أو كمتلون الثمر أو الطاووس الذكر. تطير إذ فتح لها جناح القلاع فتسبق وفد الريح عند الإسراع، وتفوق سرعة السحاب عند الاتساع، فهي مع العقبان في النيق حوم وهن مع البنيان في البحر عوم»[١].

ويصف لنا ابن بطوطة المراكب النهرية المستعملة في الصين المعروفة باسم (أجفان)، فيقول: «وركبت النهر في مركب يشبه (أجفان) بلادنا الغزوية إلا أن الجدافين يجذفون فيه قياماً، وجميعهم في وسط المركب، والركاب في المقدم والمؤخر، ويظللون على المركب ثياباً تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتان وليس به، وهو أرق من القنب»[٢]. وكانت الأجفان تستعمل كذلك في سيلان بكثرة، فيحدثنا ابن بطوطة عن سلطان سيلان، فيقول: «رأيت مرة وأنا بالمعبر (مدينة

---

(١) المقريزي، ج ١، ص ٣٧٠.
(٢) ابن بطوطة، ج ٣، ص ٤١٨.

بسيلان) مائة مركب من مراكبه (يعني مراكب السلطان) بين صغار وكبار، وصلت إلى هناك، وكان بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان للسفر إلى اليمن، فأمر السلطان بالإستعداد وحشد الناس لحماية (أجفانه)»[١] .

ويصف (الأهورة) وهي من السفن التي أخذها العرب عن الهند بعد الإسلام فيقول: «وكان للفقيه علاء الملك في جملة مراكبه مركب يعرف (بالأهورة) وهي نوع من الطريرة عندنا، إلا أنها أوسع منها وأقصر. وعلى نصفها معرش من خشب يصعد له على درج، وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الأمير. ويجلس أصحابه بين يديه، ويقف المماليك يمنة ويسرة، والرجال يجذفون وهم نحو أربعين. ويكون مع هذه الأهورة أربعة من المراكب عن يمينها ويسارها، إثنان منها فيهما مراتب الأمير، والآخران فيهما أهل الطرب»[٢] .

ويتحدث عن (الجاكر) وهي من سفن الهند البحرية، فيقول: «وركبنا في مركب يسمى (الجاكر) وجعلنا فيه من خيل الهوية سبعين فرساً، وجعلنا باقيها من خيل أصحابنا في مركب آخر. وكان ركوبي أنا في (الجاكر) وكان فيه خمسون رامياً وخمسون من المقاتلة الحبشان وهم زعماء هذا البحر، وإذا كان بالمركب أحد منهم تخشاه لصوص الهنود وكفارهم»[٣] .

ويتكلم ابن بطوطة عن (جنك) نوع من مراكب الصين الكبار التي يتراوح عدد ما بها من قلاع ما بين ثلاثة واثني عشر قلعا[٤] ، فيقول: «ويخدم فيها ألف رجل، منهم البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة، تكون فيها الرماة وأصحاب الدرق والذين يرمون بالنفط. ويتبع كل مركب كبيرة منها ثلاثة،

---

(١) نفس المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٩٥.
(٢) ابن بطوطة، ج ٢، ص ٢٦٦.
(٣) نفس المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٩٦.
(٤) سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣٣٦.

النصفي والثلثي والربعي. ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان، وهي صين الصين وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جداً موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام جداً، طول المسمار منها ثلاث أذرع، فإذا التأم الحائطان بهذا الخشب، صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ودفعوهما غالباً عشرون مجدافاً، وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً أو ثلاثون، ويجذفون وقوفاً على أقدامهم وفي المجداف حبلان عظيمان، ويقف المجذفون في صفين كل صف يقابل الآخر. فتجدف إحدى الطائفتين الحبل ثم تحركه وتجدف الطائفة الأخرى، وهم يغنون عند ذلك يغنون بأصواتهم الحسان. ويجعلون للمركب أربعة ظهور ويكون فيه البيوت والمصاري[1] والغرف للتجار. والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس[2]، وعليها المفتاح يسرها صاحبها، ويحمل معه الجواري والنساء. وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد».

ويتكلم ابن بطوطة عن عادة الصينيين في تقييد ما في المراكب فيقول: «وعادة أهل الصين إذا أراد (جنك) من جنوكهم السفر أو أن يصعد إلى صاحب البحر وكتابه ويكتبون من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية، وحينئذٍ يسمح لهم بالسفر. فإذا عاد الجنك إلى الصين صعدوا إليه أيضاً وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس، فإذا فقدوا أحداً ممن قيدوه طالبوا صاحب الجنك به فإذا ما أتى ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له، وإلا أخذ فيه. فإذا فرغوا من ذلك، أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها. ثم ينزل من فيه، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة

---

(١) المصاري مفردها مصرية، وهي حجرة النوم على السفينة الكبيرة وما يتبعها من مرخاص وغيره، (دوزي، ج ١، ص ٢٠١).

(٢) السنداس: المرحاض، وهو غير عربي.

ما عندهم، فإذا عثروا على سلعة كتمت[1] عنهم عاد (الجنك) بجميع ما فيه مالاً للمخزن»[2].

فإذا انتقل ابن بطوطة من بحر الظلمات في الصين والمحيط الهندي في الهند إلى البحر الأحمر، فإنه يحدثنا عن (الجلبة) وهو نوع من السفن الصغيرة المحيطة يستعمل في البحر الأحمر، ويصفها ابن بطوطة، فيقول: «ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه (الجلبة) وركب الشريف منصور بن أبي نمس في جلبة أخرى ورغب مني أن أكون معه، فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال فخفت من ذلك، ولم أكن ركبت البحر قبلها. وكان هناك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في الجلب وهم متأهبون للسفر»[3].

ومن أنواع السفن التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته إلى الصين (الحراقة) فيقول عند كلامه عن أمير أمراء الصين «وبعث ولده معنا إلى الخليج فركبنا في سفينة تشبه (الحراقة) وركب ابن الأمير في الأخرى، ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى».

ومن سفن الصين المتوسطة الحجم التي ذكرها ابن بطوطة (الزو)، إذ يقول: ومراكب الصين ثلاثة أصناف، الكبار منها تسمى (الجنوك) والمتوسطة تسمى الزو، وللزو شرع ومجاديف كبيرة».

كذلك عدَّد ابن بطوطة من انواع السفن (السنبوك) أو (الصنبوق)، التي اصبحت في العصور الوسطى عبارة عن قوارب صغيرة يصفها ابن بطوطة كما رآها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فيقول: ثم ركبت من ساحل البصرة في (صنبوق) وهو القارب الصغير، إلى الأبلة وبينها وبين البصرة

---

(١) حفاظ الديوان أشبه برجال الجمارك في وقتنا الحاضر. وما يمليه عليه المسافر من السلع التي يملكها أشبه بالإقرار الجمركي، ثم معاقبة من يكتم عنهم سلعة بأخذ كل ما في (الجنك) مع سلع يشبه مصادرة جميع حاجيات المسافر إذا كذب في الإقرار إذ يعتبر تهريباً جمركياً.

(٢) ابن بطوطة، ج ٣، ص ٤١٦.

(٣) نفس المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٣.

عشرة أميال»[1]. ومن مراكب الصين المشهورة كذلك (الككم) وهي تشبه (الجنك) في احتوائها على المصاري (الغرف)، الا انها أصغر منها وفي ذلك يقول ابن بطوطة «ثم ان فتى لي يسمى هلالا أتاني غدوة الجمعة فقال: إن المصرية التي أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح. فذكرت ذلك للناخذاه (الربان) فقال ليس لي في ذلك حيلة، فان أحببت أن تكون في (الككم) ففيه المصاري على اختيار، فقلت نعم وأمرت أصحابي فنقلوا الجواري والمتاع إلى (الككم) وضرب آخر من سفن الصين اسمه الكندره، جاء ذكره في رحلة ابن بطوطة إلى الصين، إذ قال: ولما وصلنا كنلوس (إحدى الجزر التي تقع شرقي الصين) أقام بها عشرا (يعني ربان سفينة) ثم (كندره) يسافر فيها إلى المهل بهدية للسلطان وزوجها، فأردت السفر معه فقال «لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك، فان شئت السفر منفرداً عنهم فدونك». فأبيت ذلك، وسافر فلعبت به الريح، وعاد إلينا بعد أربعة أيام، وقد لقي شدائد فاعتذر لي وعزم عليَّ في السفر معه بأصحابي، فكنا نرحل غدوة فننزل في وسط النهار بعض الجزائر، ونرحل ونبيت بأخرى»[2].

على أن ما ذكره ابن بطوطة في رحلته من أنواع السفن والمراكب والمنشآت البحرية، مع الوصف الدقيق لها وعدد بحارتها ونواخذتها، والعادات والتقاليد المرعية فيها، وكذا شؤونها الادارية والمالية، وما إلى ذلك من الموضوعات الخاصة بالامور البحرية، ليعد بحق موسوعة في علم السفن والمراكب في العصور الوسطى.

وعاد ابن بطوطة من رحلته الأولى الطويلة إلى مكة حيث حج للمرة الرابعة، ثم واصل سيره عائداً إلى بلاده عبر مصر وتونس والجزائر ثم وصل فاس في المغرب الأقصى (سنة ٧٥٠هـ / سنة ١٣٤٩م)، وبعد أن أقام فيها مدة عام، عاده الشوق والحنين إلى الارتحال، فقام برحلته الثانية (سنة ٧٥١هـ / سنة

---

(١) ابن بطوطة ج١ ص١٢٧.
ابن بطوطة ج٣ ص٣٨٧.

١٣٥٠م) إلى الاندلس، التي كانت قد تقلصت في ذلك الوقت وانحصرت في مملكة غرناطة .

ويصف لنا ابن بطوطة رحلته إلى الاندلس فيقول، انه خرج من جبل طارق إلى مدينـة (رندة) (Ronda) ثم إلى بلدة مـربلّه (Marbella) وسهيل (Fuengirola) على الساحل الشرقي لشبه جزيرة أيبريه. وفي مدينـة سهيل تعرضت السفينة التي يستقلها لغارة بحرية من مسيحيي اسبانيا كاد يقتل فيها أو على الأقل يؤخذ أسيراً، ولكن الله سلم فقد استطاع اللجوء إلى برج المدينة فاحتمى فيه[١]. ثم واصل سيره بحذاء الساحل الشرقي إلى مدينة مالقة، التي اعجب كثير بفخارها المذهب على حد قوله، والذي يعرف فنياً باسم (الخزف ذو البريق المعدني (Luster — ware)، وكانت مدينة مالقة قد نالت شهرة واسعة في انتاجه.

ثم غادر مالقة إلى العاصمة، مدينة غرناطـة، وهناك حـاول مقابلة السلطان إلى أبي الحجاج يوسف الأول ولكنه لم يوفق وذلك لأنه كان مريضاً، وان كانت والدة السلطان قد بعثت إليه بدنانير ذهبية كرسم للضيافة.

وقد اعطانا ابن بطوطة صورة واضحة للمنشآت الاجتماعية التي وجدت في مدينة غرناطة في ذلك الوقت، فقد وصف لنا الزوايا والربط الصوفية التي كانت منتشرة في الجبال المحيطة بها مثل رباط العقاب وزاويني بني المحروق. كما أشار إلى ظاهرة غريبة وهي وجود جالية كبيرة من العجم في مملكة غرناطة في ذلك الحين. كذلك التقى ابن بطوطة بلسان الدين ابن الخطيب[٢] في غرناطة وذلك في بستان القاضي أبي القاسم بن عاصم، وباتوا معه ليلتين حدثهم فيها أحاديث غريبة عن رحلاته.

على أن مقام ابن بطوطة لم يطل في غرناطة، فرجع إلى فاس، ليهيء

---

(١) ابن بطوطة ج٣ ص ١٥٧.

(٢) لسان الدين بن الخطيب: الاحاطة في اخبار غرناطة ص ٢٥٨.

نفسه لرحلة ثالثة، كانت هذه المرة إلى افريقية. فقد استأنف هذه الرحلة (سنة ٧٥٤هـ / سنة ١٣٥٣م). وقيل ان السلطان أبا عفان أوفده في مهمة إلى بلاد السودان الغربي[١]. ومن ثم فقد استأذن في الرحيل واتجه إلى كجلماسة وانضم فيها إلى جماعة من التجار. ووصلت القافلة بعد شهرين إلى مدينة (إيوالاتن). التي قال عنها ابن بطوطة، انها أول اقاليم مملكة السودان واقصاها شمالاً، وان معظمهم من قبيلة مسوّفة. وغادر (إيوالاتن) متجهاً شطر مالي التي تقع إلى الجنوب منها وعلى مسيرة أربعة وعشرين يوماً. ويذكر ابن بطوطة عن تلك البلاد ان المسافر لا يحل زاداً وإنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج أو الخرز وبعض السلع العطرية، فاذا وصل إلى إحدى القرى جاء نساء السودان بالذرة واللبن والدجاج ودقيق البنق والأرز والفوفي، وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكسو والعصيدة، فيشتري منهن ما أحب من ذلك.

ولما وصل ابن بطوطة إلى مالي حاضرة مملكة السودان، وكان من عادة أولي الأمر فيها ألا يسمحوا لأحد بالدخول إلا بعد الحصول على إذن، ومن ثم فقد كتب ابن بطوطة إلى زعماء الجالية العربية فيها فحصلوا له على ذلك الاذن واكروا له دارا. ثم وصل ابن بطوطة إلى مدينة تمبكتو وشاهد بها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية وكان قد جاء ليقتضي مالا له كان السلطان منسا موسى اقترضه منه لما كان بمصر متوجهاً إلى الحج. كما رأى قبر المهندس الشاعر أبي إسحق الساحلي الغرناطي، الذي كان قد التقى بالسلطان منسا موسى في مكة أثناء تأدية فرضة الحج ثم صحبه بعد ذلك إلى بلاد السودان، وشيد له قصره الملكي والمسجد الجامع[٢] في تمبكتو:

وقد أعجب ابن بطوطة أعجاباً شديداً بحسن خلق أهل السودان وجميل أفعالهم وخصالهم وفي ذلك يقول: «فمن افعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد

---

(١) زكي حسن: الرحالة المسلمون ص ١٦٤.

(٢) ابن بطوطة ج٤ ص٣٥٧.

الناس عنه. وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف فيها المسافر ولا المقيم من سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم البيضان، ولو كان من القناطير المقنطرة، وانما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه. ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها. ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهو يجعلون لأولادهم القيود، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه»[(١)].

وقد انتهى المطاف بابن بطوطة في رحلته إلى السودان الغربي عند مدينة (تكّدا)، فقد وصله فيها رسول من قبل السلطان أبي عنان يطلب إليه الرجوع إلى فاس فغادر (تكدا) (سنة ٧٥٥هـ / سنة ١٣٥٤) ووصل إلى فاس بعد ثلاثة شهور.

ومما يجدر ملاحظته على ابن بطوطة هو حبه الشديد لوطنه، مما جعله يضفي على كل ما هو مغربي الشيء الكثير من الامتياز فقد جعل المغرب في قمة البلاد التي زارها من حيث الرخاء ورخص الاسعار، وكثيراً ما قارن بين بلاد المغرب والبلاد الاسلامية وخاصة مصر في تلك النواحي الاقتصادية والاجتماعية. كذلك أفرد ابن بطوطة جزءاً كبيراً من كلامه في مدح السلطان أبي عنان فارس المريني، فعدد أعماله العمرانية كبناء الميمارستانات في كل بلد من بلاد المغرب، وتعين الاطباء فيها وبناء المدارس العنانية في فاس التي امتازت عن مدارس المشرق بالاتساع وكثرة المياه. كما حدثنا ابن بطوطة عن اهتمام السلطان عنان ببناء الاساطيل البحرية، وكيف كان يذهب بنفسه إلى غابات (جاناتة) بنواحي مدينة الرباط ليشرف بنفسه على قطع الاشجار الخاصة ببناء السفن. وقد بلغ اهتمام السلطان بجبل طارق، أن أمر بعمل هيكل لهذا الموقع بأسواره وأبراجه ومخازنه وأبوابه ووضع هذا المجسم في قصره (بالمشور السعيد) وذلك

---

(١) المرجع السابق ج٤ ص٤٢٢.

لاهتمامه بهذا الثغر العظيم، وما كان يؤمله في فتح بلاد الاندلس التي سقطت في يد الاسبان.

ولقد كان من حسن حظ أدب الرحلة عند المسلمين أن يتصل ابن بطوطة بسلطان مراكش، إلى عنان المريني، فكان هذا الاتصال فاتحة خير على ابن بطوطة والأدب معاً. فقد اغناه هذا الاتصال عن الترحال بفضل ما أفاء عليه هذا السلطان من وافر النعم، فبعد ان سمع سرد ابن بطوطة لعجائب اخباره ومستغرب مشاهداته، يرويها عنده لمن تجمع حوله، دعاه إلى اثبات ذلك «فغمره من احسانه الجزيل، وامتنانه الخفي الحفيل، ما انساه الماضي بالحال واغناه عن طول الترحال، وخص به كاتبه (ابن جُزَيّ) الكلبي، الذي صاغ ما أملاه عليه ابن بطوطة في تصنيف ما جاء على فوائده مشتملاً ونيل مقاصده مكملاً ووسمه باسم «تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار»[1].

وقد تولى ابن جُزَيّ الكلبي كاتب السلطان رواية الرحلة وتلخيص المطول منها وترتيب فصولها وإضافة بعض الإشعار إليها وتحقيق بعض اجزائها مستعيناً في ذلك من كتب الرحلات السابقة كرحلة ابن جبير والعبدري [2] التي نقل منها على سبيل المثال لا الحصر، الجزء الخاص بوصفه الطريق من بدر إلى مكة «ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع (البُزْواء)، وهي برية يضل بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل سيرة ثلاث وفي منتهاها وادي رابغ . . . ».

وقد انتهى ابن جُزي من تدوين الرحلة (سنة ٧٥٧هـ/ سنة ١٣٥٦م) وختمها بقوله: انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة اكرمه الله. ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر، ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة. واتخذ حضرة فاس قراراً ومستوطناً بعد طول جولاته، إلا لما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأناً،

---

(١) ابن بطوطة ج١ ص ٢٢.
(٢) العبدري: مستفاد الرحلة والاغتراب ص ١٢٢.

وأعمهم فضائل وأكثرهم احساناً، وأشدهم بالواردين عليه عناية، واتهم بما ينتمي إلى طلب العلم حماية. فيجب على مثلي ان يحمد الله تعالى، لأن وفقه في أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة، التي اختارها هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاماً»[١].

وقد طبعت رحلة ابن بطوطة في باريس مع ترجمة فرنسية في منتصف القرن التاسع عشر على يد المستشرقين ديفريمري (Defrémery) وسانجنيتي (Sanguinetti) وطبعت في القاهرة طبعتين عربيتين، ونشر الاستاذ جب (Gibb) ملخصاً لها بالانجليزية في سلسلة (Broodway Travellers)[٢] سنة **١٩٢٩**. كما طبعت في لبنان في سلسلة الروائع اللبنانية تحقيق فؤاد أفرام البستاني كذلك ترجمت هذه الرحلة إلى معظم لغات العالم[٣].

وإذا كانت رحلة ابن جبير قد لاقت من الاهتمام ما لم تحظ بها رحلة أخرى من رحلات المسلمين، فان رحلة ابن بطوطة، أكبر الرحلات الاسلامية قاطبة، قد لاقت من تضارب آراء النقاد إزائها، بما لم تحظ به رحلة أخرى. وفي اعتقادنا ان منشأ ذلك التضارب انما يرجع إلى اسباب عدة، لعل أهمها هو ان صاحبها لم يدونها أو يسجلها بيده، كما ان الكثير من مسودات الرحلة التي سجل فيها ابن بطوطة اسماء الاعلام واسماء المدن مع تحديد مواقعها قد فقد منه في السفن والمراكب التي غرقت. هذا فضلاً عن تلك الاضافات التي اضافها ابن جُزي من عنده، وعدم فهمه لكنه بعض الموضوعات التي لا يمكن لشخص مهما أوتي من العلم أو الحكمة ان يستوعبها ما لم يكن قد شاهدها بعين رأسه أو سمعها بأذنه.

لقد اختلف بعض المؤرخين والكتاب في صحة بعض مرويات الرحالة

---

(١) الواقع ان الرحلة استمرت ثمانية وعشرين عاماً.
(٢) زكي حسن: الرحالة المسلمون ص ١٣٨.
(٣) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٥٣.

وحقيقة بعض أسفاره، فذهب قوم إلى الشك بأمانتها لكثرة ما أضفي على المرويات من غرابات، ولما أعوز الاسفار من براهين أحياناً تثبت واقعها. وذهب فريق آخر وجلهم من المستشرقين، إلى اعتبار الرحلة، أصدق ما للعرب والعجم في تقويم البلدان[1]، والاعتراف بما لعبد الله من فضل على كتابه والتاريخ الاجتماعي في العصور الوسطى.

ومن أولئك الذاهبين إلى الشك في رحلة ابن بطوطة، لسان الدين ابن الخطيب وابن خلدون، اللذان قالا إن بعض الناس كذبوا ابن بطوطة، فقال ابن خلدون: واستغرب به السامعون، وتناجى الناس بتكذيبه، ولقيت أيامئذ الوزير المغربي، فارس بن وردار ففاوضته في هذا الشأن فقال لي الوزير: اياك ان تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تراه»، ثم يعود ابن خلدون فيقول: ان الانسان ينبغي ان يهيمن على نفسه فيميز بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله، فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه» وواضح من عبارة ابن خلدون هذه ان يشك في احاديث ابن بطوطة. ومن الغريب حقاً ان يكون ابن جُزي[2] الكلبي نفسه، إلى جانب ابن خلدون، وضمن الفئة التي شكت في امانة ابن بطوطة.

أما الفئة الذاهبة إلى القول بصدق الرحلة، فأولئك الذين اعتمدوا على نسخة الكتاب الأصلية فخرجوا من تحقيقاتهم إلى صحة المعلومات مؤيدين آراءهم بما جاء به كبار المستشرقين في هذا الموضوع. ولما رأى أهل الشرق اهتمام علماء الغرب برحلة ابن بطوطة؛ عادوا إليها بعقول متفتحة وبسعة أفق، مقدرين ما تجشمه ابن بطوطة من مشقة الاسفار في الوقت الذي ضاقت فيه وسائل الانتقال، فاشبهت المسالك أمام عينيه وتعثرت الدروب، فصرف همه إلى دراسة أحوال الناس الاقتصادية والاجتماعية لا إلى ضبط التفاصيل ومراعاة الأزمنة.

---

(١) جورج غريب: أدب الرحلة ص ٦٢ ــ ٦٣.
(٢) المرجع السابق ص ٦٣.

وبعد، فهذا قليل من كثير مما يجب ان يذكر عن شيخ الرحالين، الذي وافته المنية في فاس[1] (سنة ٧٧٩هـ / سنة ١٣٧٨م)، فخبت جذوة اللهب في رجل تقاسمت عمره الاسفار. وجاء في بعض المراجع ان توفي في مدينة طنجة وان قبره يزار هناك، وقيل إنه قبر امه[2].

---

(١) المرجع السابق ص ٦١.

(٢) أحمد مختار العبادي ص ٣٥٣.

علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي

ولد القلصادي[1] بمدينة بسطة الاندلسية التي تقع إلى الشمال الشرقي لمدينة غرناطة والتابعة لكورة جيان[2]. ويصف القلصادي مسقط رأسه فيقول: بسطة مدينة ذات مناخ جميل وطبيعة خلابة، وهي مقر الألفة والأنس. ثم يدعو لها فيقول «كلأها الله وأدامها للاسلام»[3]. وكان مولد القلصادي (سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م)[4] أو قبلها بقليل[5].

وفي مدينة بسطة نشأ علي القلصادي وتلقى دراسته الأولى التي كانت تدور حول مختلف علوم عصره وخاصة تجويد القرآن وتفسيره، والحديث النبوي

---

(١) شكيب ارسلان: الحلل السندسية (يقول انه منسوب إلى بلدة قلصاده التي يظن انها هي التي يسميها الاسبان (سانتا دومينكو قلصاده). وهذه البلدة تتصل بـ(تطيلة) (Tudela) الواقعة شرقي غرناطة. وتقع قلصاده على بعد (١٩) كم إلى الغرب من تاجره على برغش. ج٢ ص ٢٧٢.

(٢) مدينة جيان مدينة اندلسية تقع في سفح جبل عال بها عيون ماء مطردة وخصب وكثير وبينها وبين بياسة ميلاً (الحميري صفة الجزيرة من الروض ص ٧٠). كما تقع على بعد (٩٧) كم شمالي غرناطة وتسمى اليوم جين (Jean) (المقري: نفح الطيب ج١ ص ١٦٥ هامش (٣)).

(٣) القلصادي: الرحلة ص ٨٢ (تحقيق محمد أبو الاجفان).

(٤) الزركلي: الاعلام ج٥ ص ١٦٣.

(٥) السنحاوي: الضوء اللامع ج٦ ص ١٤.

والفقه واللغة والحساب لصلته الوثيقة بالفرائض. ويبين لنا القلصاوي منهج دراسته فيقول انها كانت تعتمد على المنظومات والمتون وشروحها التي كانت سائدة في مدارس الأندلس والمغرب في ذلك العهد.

ويعدد لنا القلصادي شيوخه في بسطة فيقول، كان أبوالحسن علي ابن عزيز الولي الصالح مهتمًا بقراءة القرآن، أما الشيخ أبوعبدالله محمد القسطرلي الورع التقي فقد درس لّي الشريعة وعلوم العربية. أما الفقه والفرائض والحساب فقد درَّسها أبوأحمد جعفر بن أبي يحيى، هذا فضلاً عن الولي الصالح أبي بكر البياز المقرىء والعالم الورع أبي عبدالله محمد بن محمد البياني[1]. هذا ويذكر القلصادي انه خلال إقامته بمسقط رأسه بسطة كان يتردد على غرناطة عاصمة المملكة في ذلك الوقت[2].

وقد بدأ القلصادي رحلته العلمية (سنة ٨٤٠هـ / سنة ١٤٣٦م) فاتجه أولاً إلى مدينة تلمسان، التي كانت تعيش في ذلك الوقت أزهى أيام حياتها الثقافية، وفي ذلك يقول: وجعلت كلما لاح بارق ارتحت إليه أو ذر[3] شارق سلمت من البعد عليه إلى أن ركبت البحر من المنكب[4]، وسهل الله أمرنا في

---

(١) القلصادي: الرحلة ص ٣١ (تحقيق محمد أبوالاجفان).

(٢) المصدر السابق ص ١٦٢.

(٣) يقال ذرت الشمس ذرورا طلعت وظهرت، وقيل هو أول طلوعها وشروقها أول ما يسقط ضوؤها على الأرض والشجر وكذلك البقل والنبات (لسان العرب، المحيط) والشارق؛ يطلق على الشمس حين تشرق وقد يطلق على غيرها.
ذر شارق: طلع أدنى شيء منه.

(٤) المنكب: «من أعمال غرناطة وادي آنش والمنكب ولوشة) وقد كان من الحصون القوية وأصبح الآن فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز مطريل في ولاية غرناطة (المقري: نفح الطيب ج١ ص ١٦٥) وذكر الحميري في صفة الجزيرة من الروض ص ١٨٦: المنكب مرسى صيفي له نهر يصب في البحر وعليه حصن كبير وبه ربض وسوق وجامع وفيه آثار قديمة. ويقول شكيب ارسلان في الحلل السندسية ج٣ ص ٤٨: وهو أقرب مرفأ إلى غرناطة». والمنكب اليوم مرفأ ساحلي مرتفع في جنوب شرقي الاندلس بمقاطعة غرناطة وتسمى (Almuncar) (القلصادي: الرحلة (محققه) ص ٩٥).

ذلك المركب فحللنا بوهران[1] وأقمنا بها أياماً في سرور وأمان، ثم توجهنا إلى المقصودة بالذات المخصوصة بأكمل الصفات تلمسان[2]، يا لها من شأن ذات المحاسن الفائقة والأنهار الرائعة والأشجار الباسقة والأثمار المحدقة والناس الفضلاء الأكياس، المخصوصين بكرم الطباع والأنفاس، ولا ينكر وجود الفاذ من جميع الأجناس. وأدركت فيها كثيراً من العلماء والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان».

وقد أقام في تلسمان ثمانية أعوام ثم تركها إلى وهران كما جاء في رحلته «ثم أجمعت أمري على السفر، وقطعت حرف الجزم عن التواني والاستقرار، ذلك عام ثمانية وأربعين وثمانمائة، فقدمت وهران بعد مفارقة تلمسان، وأقمت بها برهة من الزمان، مع عدة من الأحباب والاخوان»[3].

وكانت تونس المركز العلمي الثاني الذي ارتحل إليه القلصادي حيث نهل من مراكزها ومدارسها مختلف الفنون والعلوم عن اعلام تونس وشيوخها. وقد استغرقت اقامته بتونس مدة سنتين ونصف، كما جاء في رحلته[4]:

---

(1) وهران مدينة على ضفة البحر ببلاد المغرب. قال البكري: المغرب ص ١٧١: بناها محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الاندلسيين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة وبني مسقن سنة ٢٩٠هـ. وجاء في ياقوت: وهران بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره نون (معجم البلدان ج٤ ص٩٣٣).

(2) تلمسان: بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة، مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما وبين وهران مرحلة (ثلاثة أميال) (ياقوت ج١ ص ٨٧١).

كانت تلمسان مركزاً علمياً وحضارياً أيام ملوكها من بني عبد واد.

انظر ما يتعلق بمدينة تلمسان أيام بني عبد واد في (موجز التاريخ العام للجزائر ص ٣٣٢ وما بعدها).

(3) الرحلة ص ١١٠.

(4) المرجع السابق ص ٣٤.

وبلغنا مرسى تونس[1] ودخلنا المدينة، وسكنت بالمدينة الجديدة من باب السويقة بقرب الشيخ الولي سيدي محرز بن خلف[2] فأقمت بها حولاً كاملاً ثم انتقلت إلى المدرسة المنتصرية[3]، فأقمت بها أيضاً سنة ونصفاً، وكنت في أثناء ذلك آخذ في القراءة والاقراء، وسوق العلم نافقة حينئذ، وينابيع العلوم على اختلافها مغدقة، فلا عليك أن ترى مدرسة أو مسجداً إلا والعلم فيه يبث وينشر».

ويغادر تونس إلى القاهرة، فيصف لنا الجزر والبلدان التي رسى عليها

---

(١) انشأ حسان بن النعماني القائد العربي الذي أرسله الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لفتح المغرب، ميناء تونس سنة ٨٢هـ بعد انتصاره على الكاهنة واسترداده مدينة قرطاجنة من البزنطيين. وهي تقع شرقي قرطاجنة، وكانت قرية صغيرة خاملة الذكر فحولها حسان إلى قاعدة حربية بحرية حصينة وزودها بدار لصناعة السفن وزودها بالمحارس وابراج المراقبة واستعان في ذلك بألف أسرة من اقباط مصر الخبراء في صناعة السفن (وجاء في المؤنس ص ٢٨٩) تونس مدينة قديمة كانت تسمى ترشيش ولما فتحها المسلمون أحدثوا بها البناء سموها تونس. وهي تقع في خليج يسمى باسمها، وقد تطورت وعظم شأنها في أيام الحفصين في القرن السابع وهي قاعدة البلاد الأفريقية في العهد الحفصي. وما زالت عاصمة البلاد التونسية. وبينها وبين مرساها بحيرة يقال انها كانت كثيرة الجنات والمياه والزرع فغلب عليها ماء البحر.

(٢) أبو محفوظ محرز بن خلف بن زريق من أحفاد أبي بكر الصديق القرشي، كان ورعاً نقياً عظيم الخشية من الله مقبلاً على الصوم والعبادة مشتغلاً بتعليم القرآن الكريم توفى سنة ٤١٣هـ ودفن قرب باب السويقة من مدينة تونس. (أبو طاهر محمد بن الحسين الفارسي: فهرست الرصاع ص ١٧٣، السراج في الحلل).

(٣) شرع في بناء المدرسة المستنصرية السلطان أبو عبد الله محمد المنتصر الحفضى سنة ٨٣٨هـ في نفس السنة التي تولى فيها. وهي تقع في سوق الفلقة، ولذلك فقد سماها السراج (في الحلل ج١ ص ٦٢٤) بمدرسة سوق الفلقة، وهي أول مدرسة تسمى باسم أمير حفصى. وقد واصل بناءها السلطان أبو عمرو عثمان وأوقف عليها، وقد تم بناؤها سنة ٨٤١. وكان من أشهر مدرسيها محمد بن عقاب، وأحمد القلشاني وأحمد القسنطيني قاضي الانكحة، وأبو عبد الله البيرموري.

وقد أعيد بناؤها وعمارتها سنة ١٠٩٠هـ في عهد علي باي المرادي وكان من شيوخها في القرن ١٣هـ أبو الفلاح صالح الكواش. وكان يختم بها الحديث من الموطأ في يوم ١٩ رمضان، وما زالت المدرسة قائمة بنهج الوصفان قرب سوق النحاس بتونس (تاريخ الدولتين ص ١٥٢).

أو مر بها في طريقه إلى القاهرة ثم جزيرة جربة ثم طرابلس والاسكندرية حتى يصل القاهرة ويقوم بزيارة بعض معالمها، وفي ذلك يقول: وكان سفرنا من مرسى تونس كلأها الله رابع عشر من شهر ربيع الأول عام أحد وخمسين وثمانمائة (سنة ١٤٤٧م) ودخلنا جزيرة جربة وأقمنا بها أياماً في هواء صحيح وفضاء فسيح».

ويصف جزيرة جربة[١] فيقول: ودائرة الجزيرة اثنان وسبعون ميلاً وطولها ثمانية عشر وكذلك عرضها، وهي كثيرة الخصب، وعمروها بالنخيل والزيتون والتفاح. ومما خصت به لين الصوف ورطوبته، وتصير الشاة من غير الجزيرة فيها بعد اقامة سنة مثل شياهها في رطوبة صوفها، ولأهلها اقتداء بآبائهم فيما ينتحلون من غير المذاهب الأربعة».

وينتقل من جربة إلى طرابلس ومنها إلى الاسكندرية فيقول: وبلغنا طرابلس، فنزلنا بها وتلاقينا مع بعض الأصدقاء والاحباب وحيونا بالبر والاكرام وأقمنا بمدرسة ابن ثابت عدة ليال وأيام. وكان سفرنا من مرساها وبلغنا إلى ثغر الاسكندرية غرة جمادى الثانية سنة ٨٥١هـ بعد مشقات عظام تحار في وصفها المحابر والأقلام حتى وقع من كل لأمر الله الاستسلام وصار الانسان ينادي بلسان الحال، أنا غرقان فما خوفي من البلل؟. فلما دخلنا المدينة وقر بنا فيها القرار، وزال عنا وعثاء السفر، أقمنا بها أياماً مستبشرين، وزرنا بها بعض الأولياء والصالحين»[٢].

---

(١) جربة بكسر الجيم وفتحها جزيرة بناحية افريقية قرب قابس، كان سكانها من البربر (ياقوت ج٢ ص٣٦) ويقول أبورأس الجربي في كتابه (مؤنس الأحبة في اخبار جربة: هي جزيرة في البحر يحيط بها البحر من جهاتها ويقرب إليها البر الكبير من الغرب عند مرسى أجيم، بينهما نحو ميلين ومجرى عميق، وفي المسافة المذكورة عند برج القنطرة طريق في البحر مبني بالحجر المنحوت من الجزيرة إلى البر الكبير، وقد أصبح الآن معبداً ومسافته نحو (٧ كم). ويقول عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري في رحلته (الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم ص٣٦) جربة جزيرة عجيبة في الجزائر قريبة من أحد جوانبها إلى البر الكبير، خصبة جداً ذات كروم وزيتون وغنم كثير وخبز وافر. كما ذكرها التيجاني في (رحلة التيجاني ص ١٢١).

(٢) رحلة القلصادي ص ١٢٤ ــ ١٢٥.

ويأخذ في وصف مدينة الاسكندرية وآثارها فيقول: والمدينة من أحسن البلاد ترتيباً وبناءً، وجدرانها بالحجر الأبيض المنجور[1]. وسككها كلها على نسق نافذة متسعة، يعلم من ذلك أنها من تخطيط حكيم. ومن عجائبها التي فيها[2] السارية خارج باب السدرة، اكتلت في أحد جوانب القاعدة التي هي عليها عشرين شبراً، وهي مربع متساوي الاضلاع. وكان سفرنا منها في بحر النيل، وبلغنا بولق (بولاق) ودخلنا القاهرة، ورأينا فيها من الأمور والأحوال ما لا يعده الحصر والقياس من كثرة الخلق وازدحام الناس. ونزلت بجامع الأزهر ووجدت هناك بعض فضلاء الأخيار من أهل المغرب. وبعد ذلك وقع اجتماعنا بصاحبنا الفقيه الامام الفذ في وقته ذي العلوم الفائقة والمعاني الرائعة أبي الفضل المشذالي[3]، لم أر مثله في تحصيل العلوم وتحقيقها، آخذ في كل علم بأوفر نصيب، وضارب فيهم بسهم مصيب، وتذكرنا أزماناً مضت بتلمسان ويا لها من ليال وأيام مع أشباح وسادة أعلام. ثم زرت هناك ما هو عندهم من المواضع المعظمة كمسجد الحسين ومقام الامام الشافعي، وشهرته تغني عن تعريفه، وهو من أشرف المواضع والبقاع. وعندهم من الامام الشريفة مقام السيدة نفيسة وقد كلل بالحلي والحلل وكساه المولى الهيبة والجلال[4].

---

(١) المنجور أو المكحول هو الأحجار التي يراعى في بنائها ان تكون محاطة بطبقة واضحة من مادة الملاط الرمادي اللون كنوع من الزخرفة كما انه يقي الحجر من الرطوبة في البلاد الساحلية.

(٢) عمود السواري: من أهم آثار الاسكندرية في العصر الروماني، أنشأه الأمبراطور ديفلديانوس سنة ٢٨٤م، تخليداً لذكرى من استشهد من اقباط مصر الذين وشوا بهم يهود الاسكندرية، فقتل من الاقباط عدد كبير في سبيل العقيدة المسيحية، ومن ثم فقد اعتبروا سنة ٢٨٤ بدء للتقويم القبطي وتعرف بسنة الشهداء. ولما خشي ديفلديانوس ثورة اقباط مصر أمام عمود السواري ارضاء لهم.

(٣) هو محمد بن محمد بن أبي القاسم المشذالي البجائي، اشتغل بالمغرب وقدم في حياة والده فأقرأ بمصر وغيرها وأبان عن تفنن في العلوم فقهاً واصولاً وكلاماً ونحواً وغير ذلك، وأخذ عنه غالب طلبة العصر. وقد أخذ عن والده وعن ابن مرزوق الحفيد الذي قال: ما عرفت العلم حتى قدم هذا الشاب لأني كنت أقول فيسلم لي كلامي، فلما جاء هذا الفتى شرع ينازعن فشرعت اتحرز وانفتحت لي أبواب المعارف ولد المشذالي بعد سنة ٨٢٠هـ وتوفي بحلب سنة ٨٦٥هـ (بغية الوعاة للسيوطي ج٢ ص٢٤٧، اعيان الاعيان).

(٤) رحلة القلصادي ص١٢٨.

وقد كانت مرة اقامة القلصادي بالقاهرة قصيرة نسبياً اذ لم تتجاوز الستة أشهر إلا قليل، ذهب بعدها إلى البقاع المقدسة. وقد اشتغل القلصادي في مكة والمدينة بتأليف كتاب في الفرائض وهو «شرح فرائض ابن الحاجب» كما اشتغل برواية الحديث النبوي عن الشيخ المحدث أبي الفتح الحسني المراغي الذي أجاز القلصادي في اسانيده على كتب الاحاديث[١].

وعند عوده من رحلته الحجازية أقام القلصادي بمصر أكثر من ثلاثة عشر شهراً أشتغل فيها بطلب العلم قراءة واقراء، كما درس المنطق على بعض العجم ودرس كتباً في التفسير والبلاغة والعلوم العقلية على الشيخ السمرقندي شمس الدين محمد الكريمي. وقد استفاد الطلبة بالقاهرة من علم القلصادي، لما عاد من الحج، فقرأوا عليه وكتبوا من مصنفاته، وهو مع ذلك يتردد إلى المشائخ ويقرأ في غير الحساب والفرائض ولا سيما العقليات[٢].

وبعد هذه الرحلة التي استمرت حوالى خمس عشرة سنة، جنى فيها القلصادي أطيب الثمار العلمية واحتك ببعض أقطاب عصره في المغرب والمشرق العربي، عاد إلى مسقط رأسه بسطة حيث بقي فترة من الزمن انتقل بعدها إلى غرناطة. وعندما أحس بالخطر يتفاقم في وطنه تحيَّل في تخليصه من شرك الشرك[٣]، الذي هو أصل البلاء والداعي لتفكك هذه الرقعة الاسلامية التي قامت فيها أزهر حضارة في ذلك العهد، رحل إلى باجة بأفريقية حيث واصل نشاطه العلمي وذلك سنة ٨٨٨هـ.

ويعد أبوحسن علي القلصادي أكثر علماء الاندلس في عهدها الأخير انتاجاً والتي كان أكثرها في الحساب[٤] والفرائض فقد بلغت مصنفاته في

---

(١) السنحاوي: الضوء اللامع ج٦ ص ١٤.
(٢) السنحاوي: الضوء اللامع ج٦ ص ١٥.
(٣) الحلل السندسية ج١ ص ٢٥٢.
(٤) الزركلي: اعلام الاعلام ج٥ ص ١٦٣.

الحساب ثلاثة عشر كتاباً. أما مصنفاته في الفرائض والفقه والنحو والعروض والمنطق وفي علم الفلك والتراجم وفي القراءات والحديث فقد بلغت ستة عشر كتاباً.

أما رحلته التي سجلها في مصنفه المعروف باسم «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب» التي تمتاز باسلوب يميل إلى الايجاز فلا يطنب القلصادي في الوصف ولا يتوسع في ذكر الجزئيات ولا في خصائص البلاد التي يزورها. أما أهمية هذه الرحلة فتكمن بالدرجة الأولى على ما ورد فيها من الاعلام الذين اتصل بهم القلصادي، وذكر أحوالهم وأشار إلى قيمتهم العلمية في أوطانهم وذكر في شيء من التفصيل ما كانوا يدرسون من ضروب المعرفة وأنواع الكتب فرحلة القلصادي من هذه الناحية يمكن اعتبارها من رحلات (المشيخة) أو (البرنامج).

ولقد اشتملت رحلة القلصادي على ثلاثة وثلاثين رجلاً أخذ عنهم القلصادي في الاندلس قبل الشروع في الرحلة وما بعدها، وفي مراكز أخرى بالمغرب العربي وبلاد المشرق خلال الرحلة ومن ثم فقد اضحت هذه الرحلة مصدراً هاماً لتراجم لشيوخ وعلماء العالم الاسلامي في القرن التاسع الهجري أخذ منه واعتمد عليه كثير من المؤرخين مثل المقري صاحب كتاب «نفح الطيب في عصر الاندلس الرطيب. كما أخذ منه أحمد بابا صاحب كتاب أنيل الابتهاج» وصاحب كتاب «كفاية المحتاج»، وابن مريم صاحب كتاب «البستان» وكذا مخلوف صاحب كتاب «شجرة النور الزكية». ومما يجدر الاشارة إليه انهم كانوا يشيرون إلى رحلة القلصادي تارة باسم الرحلة وفي الأعم الغالب كانوا يسمونها باسم (الفهرست)[1].

كما تعد رحلة القلصادي وثيقة هامة من الوثائق التي تصور نشاط العلماء وطرقهم في التدريس والتعليم والمراجع والكتب التي يتداولونها وفنون

---

(١) رحلة القلصادي ص ٧٢ (المحققه).

المعرفة التي يطرقونها. هذا فضلاً عن ما ابانه تصريحاً أو تلميحاً عن تفاوت مراتبهم في درجات العلم، وحرصهم على الاسناد وسعيهم للحصول على الاجازة ومكانتهم في مجتمعاتهم. وهكذا نرى ان القلصادي قد صور لنا العصر الذي عاش فيه نخبة من العلماء في مختلف انحاء العالم الاسلامي الذين حافظوا على السند العلمي ويتعاونون في خدمة الثقافة والدين الاسلامي في آن واحد.

وفي مدينة باجة[1] بأفريقية توفى رحالتنا علي القلصادي (سنة ٨٩١هـ / سنة ١٤٨٦م) ودفن بمكان يعرف عند أهل باجة بالسيد[2] بضاحية سيدي فرج على ربوة تشرف على المدينة.

* * *

---

(١) باجة مدينة قديمة كانت تعرف بباجة القمح، وصفها البكري وتحدث عن خصبها ومياهها وبساتينها وحصنها الحصين، وذكر انها سميت هرى افريقية لريع زرعها وكثرة أنواعه. ونقل عنه ياقوت في (معجم البلدان ج١ ص ٣١٤ وما بعدها).

وتقع باجة في الشمال الغربي من البلاد التونسية وعلى بعد (١٠١) كيلومتر من تونس العاصمة وهي اليوم مركز ولاية تسمى باسمها.

(٢) السيد: تحريف لفظ المسجد (رحلة القلصادي ص ٥٢ (المحققه)).

فهرس المصادر العربية

(أ)

ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور.

ابن بطوطة: تحفة النظار في عجائب الامصار. ط. باريس والقاهرة.

ابن جبير: الرحلة إلى المشرق، ط. ليدن ولندن والقاهرة.

ابو زيد السيرافي: ذيل لرحلة التاجر سليمان. نشره رينو. باريس ١٨٤٥.

ابن خرداذبة: كتاب المسالك والممالك. ليدن ١٨٧٣.

ابن حوقل: المسالك والممالك. ليدن ١٨٧٣.

ابن حزم القرطبي: طوق الحمامة في الالفة والآلاف؛ كتاب الفصل في الملل والنحل والاهواء؛ كتاب جمهرة انساب العرب.

ابن الابار البلنسي: الحلة السيراء.

ابو مروان بن حيان القرطبي: المقتبس في اخبار بلد الاندلس.

البيروني (ابو الريحان محمد بن أحمد): الاثار الباقية من القرون الخالية. لندن ١٨٧٦؛ تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة. نشره ساخاو لندن سنة ١٨٨٧.

ابو بكر الطرطوشي: سراج الملوك.

ابن خلدون: المقدمة؛ تاريخ ابن خلدون.

ابن خلكان: وفيات الاعيان.

ابن الفقيه: كتاب البلدان.

ابن حجر العسقلاني: التهذيب.

أبو حامد الاندلسي: تحفة الالباب ونخبة الاعجاب.

ابو الوليد بن محمد الازدي (المعروف بابن الفرضي): تاريخ علماء الاندلس.

ابو الفرج قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة.

ابن رستة: الاعلاق النفيسة.

ابو سعيد عبد الكريم السمعاني: اللباب في معرفة الانساب.

ابن بسام: الذخيرة.
ابو القاسم التجيبي السيني: مستفاد الرحلة والاغتراب.
ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات.
ابو الحسن علي بن أبي بكر الهروي: الاشارات في معرفة الزيارات.
ابن القفطي: انباء الرواة.
ابو يوسف: كتاب الخراج.
ابن النديم: الفهرست.
ابن ظهيرة: الجامع اللطيف.
ابن عبد ربه: العقد الفريد.
أبو أحمد عبد الله التجاني التونسي: رحلة التجاني.
الاتليدي: اعلام الناس.
أحمد المقري: نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب.
ابن سيده: المخصص.
أحمد بن محمد الرازي: كتاب وصف الاندلس.
ابن القفطي: تاريخ الحكماء.
الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (مختصر طبع روما ١٥٩٢).
الادريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس. عن (نزهة المشتاق).
الادريسي: ط. دوزي ودي خوي. ليدن ١٨٦٦.
اسامة بن منقذ: كتاب العصا.
اسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار. نشره فيليب حتي. جامعة برنستون ١٩٣٠.
اسامة بن منقذ: كتاب المنازل والديار.
ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب.
اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار.
ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض.
ابن منجب: الاشارة إلى من نال الوزارة.
ابن أبي أصيبعة: طبقات الاطباء.
ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب.
أبو الفرج الملطي: مختصر الدول.
أبو البركات: نزهة الاولياء في طبقات الادباء.
أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر.
أبو الفداء: تقويم البلدان.
ابن الساعي: مختصر اخبار الخلفاء.
ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار في ممالك الامصار.
أبو المحاسن بن ثغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.
ابن العماد: شذرات الذهب في اخبار من ذهب.

(ب)

البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة أو تاريخ الهند.
البكري: المسالك والممالك.
البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب.
البلاذري: فتوح البلدان.

(ت)

التنوخي: الفرج بعد الشدة.
تقي الدين الفاسي: شفاء الغرام.

(ج)

الجهشباري: كتاب الوزراء.
الجزيري: درر الفوائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة.
الجاحظ: البيان والتبيين.

(ح)

الحسن السائح: تاج المغرق.
حاجي خليفة: كشف الظنون في معرفة الكتب والفنون.

(خ)

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد.
الخوارزمي: مفاتيح العلوم.

(د)

الدمشقي (شمس الدين ابو عبد الله الصوفي): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر سنت بطرسبرج ١٨٨٩م.

(ذ)

الذهبي: تذكرة الحفاظ.

(ز)

الازرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار.
الشيخ زين الدين: تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين.
زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك؛ الروض الباسم.

(ر)

الربيع: قرة العيون.

(س)

السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك.
السخاوي: الاعلان بالتوبيخ فيمن ذم التاريخ.
السخاوي: الضوء اللامع.
السيوطي: حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة.
السبكي: طبقات الشافعية.
سليمان التاجر: سلسلة التواريخ (باريس سنة ١٨٤٥).
السيوطي: طبقات الحفاظ.

(ش)

شهاب الدين أحمد بن ماجد: كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد (مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٧).

(ص)

صالح بن يزيد بن موسى الرندي: روض الانس ونزهة النفس.

(ط)

الطبري: تاريخ الدول والملوك.
الطقطيقي الفخري: الآداب السلطانية.

(ع)

عبد اللطيف البغدادي: الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، ط. أوروبا والقاهرة.
علي القلصادي الاندلسي: رحلة القصادي (تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب)؛ (دراسة تحقيق محمد أبو الاجفان) (الشركة التونسية للتوزيع).
عمارة اليمني: تاريخ اليمن؛ النكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية.
عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص اخبار المغرب.
عبد الملك بن حبيب الالبيري: كتاب مبدأ خلق الدنيا.
العبدري: مستفاد الرحلة والاغتراب.
عثمان بن غازي: الروض الهتون في وصف مكناسة الزيتون.

(ف)

الفرماني: أخبار الدول.

(ق)

القزويني (زكريا محمد بن محمود): اثار البلاد وأخبار العباد. جوتنجن سنة ١٨٤٨.
القزويني (زكريا محمد بن محمود): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. جوتنجن ١٨٤٩.
القلقشندي: صبح الأعشى.

(م)

محمد تاويد الطنجي: ترتيب المدارك.
محمد الفاسي: الاكسير.
محمد بن أحمد بن علي بن مسعود العبدري الحيحي: الرحلة.
محمد كرد علي: الاسلام والحضارة العربية.
محمد كرد علي: الادارة الاسلامية في عز العرب.
المقدسي: حسن التقاسيم في معرفة الاقاليم.
الماوردي: الاحكام السلطانية.
الماوردي: أدب الدنيا والدين.
المرسي الصنبي: بغية الملتمس في تاريخ علماء الاندلس.
محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري: الرحلة الحجازية.
المسعودي (ابوالحسن علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر ط. باريس والقاهرة).
المسعودي: التنبيه والاشراف، ط. ليدن والقاهرة.
المقريزي: الخطط والآثار.
المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك.

(ن)

ناصر خسرو: سفرنامة (ترجمة يحيى الخشاب).

(و)

الونشريسي: المعيار.

(هـ)

هلال بن حسن الصائي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء.
الهمداني: صفة جزيرة العرب.

(ي)

ياقوت: معجم البلدان.
ياقوت: معجم الادباء.
ياقوت: ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب.

فهرس المراجع

(أ) المراجع العربية:

إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة.

أحمد راشد بك: تاريخ اليمن وصنعاء.

أحمد مختار العبادي: مؤلفات ابن الخطيب في المغرب.

أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والاندلس.

احسان عباس: رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل (بمجلة الأبحاث البيروتية كانون الأول سنة ١٩٦٨).

أبو سالم التعايشي: الرحلة.

ارنولد: الدعوة إلى الاسلام (المترجم).

بارتولد: تاريخ الحضارة الاسلامية (المترجم).

بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (المترجم).

حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي (المترجم).

جورج غريب: أدب الرحلة.

حسن عباس: أسامة بن منقد.

حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب.

حسين نصار: رحلة ابن جبير.

الزركلي: اعلام الاعلام.

سيده كاشف: مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه.

شكيب ارسلان: الحلل السندسية.

عبد الحي بن الكبير الحسني الكناني الادريسي: التراتيب الادارية (٣ أجزاء).

عبد العزيز سالم: المساجد والقصور بالاندلس.

عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم بالاندلس.

عبد القدوس الانصاري: مع ابن جبير في رحلته.
عبد العزيز الأهواني: كتب برامج العلماء في الاندلس (مجلة معهد المخطوطات بالجامعة العربية المجلد الأول).
عبد الرحمن حميرة: اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم.
عمر كحالة: معجم المؤلفين.
عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب.
فؤاد سركين: تاريخ التراث العربي.
فليب حتي: تاريخ العرب (المترجم).
فليب حتي: تاريخ سورية (المترجم).
الكناني: فهرس الفهارس.
كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي.
محمد عبد الله عنان: دول الطوائف.
نظير حسان: نظام البريد في الدولة الاسلامية.
هربرت خاصكي: البحر في تاريخ المسلمين وثقافتهم.

(ب) المراجع الأجنبية:

Beazley, C.R: The Dawn of Modern Leography, 3 Vols (Vol, 1. London 1897).

Bretschneider, E. On the Knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies and other Western Countries mentioned in Chinese Books, London, 1871.

Brunschuig R.: Deux recits de voyage inedits en Afrigue du Nord. Paris 1940.

Casanava, Paul: Notes sur les voyages de Sindbad le marin, le Caire 1922, (Extrait du Bulletin de l'institut Francais d'archeologie Oriental, IXX).

Ferrand. G: Voyage du Marchand Arabe Suleyman en Inde et en Chine redige en 851, suivi de remargeus par Abu Zayd Hassan vers 916. Trad. G. Ferrand. Paris 1922.

Relations des Voyages et tepte geographiques Arabes, persans et tures relatifs a l'Exterme — Orient de VIIIe au XVIIIes. Paris 1913 - 1914.

Fraehn, Ch. M: Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte über die Russen älterer Zeit und ihre Nachbarn. St Petersburg 1823.

Gibb. H.A.R.: Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa (Translated and selected, with introduction and notes, by Gibb, London 1929).

Heyd; W: Histoire du commerce du Levant au moyen age. Leipzig et Paris 1885 - 6.

Hirth, F. and Rochhill, W. W,: Chau Ju-Kua; His Work on the Chinese and Arab Trade in the XIIe and XIIIe Centuries entitiled Chu-fan-chi. from the Chinese and annotaterd. St. Peterburg, 1911.

G. Jacob: Studien in Arabrishen Geographen, Berlin 1891-2.

Jaubert, P. A. Geographie d'Edrisi, traduite et accompagnée de notes, tome Vet VI du Recueil de Voyages et de Memoires publié par la Societé de Geographie de Paris 1836-40.

Kammerer, A: La Mer Rouge, L'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite, Le Caire 1929-1935.

Marco Polo: The Book of Ser Marco Polo, the Venetian. Translated and edited by Sir H$ Yule. London.

Reinaud, J. T: Memoire geographique, historique et scientifique sur l'Inde, anterieurement au milieu du XIe sciecle de L'ere chretienne d'après les ecrivains arabes persans et Chinois. Paris 1849.

Renaudot, E.: Ancient Accounts of India and China by two Mohamedan Mediaeval Travellers 1733, retrenslated from the annotated French translation (1718) of the texts of Sulayman the Merchant (851 A.D) and Abu Zayd Hassan of Siraf (912 A. D).

De la Roneiere, Charles: La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age, Le Caire 1935.

De Saint-Martin, Vivien: Histoire de la geographie. Paris 1873.

Schoezer, K. Von: Abu Dolef Misaris Ben Mohalhal (texte arabe et traduction latine, Berolini 1845).

De Vaux, Carra: Les Penseurs de l'Islam (t. II, Paris 1921).

Youssef Kamal, Prince: Monumenta Géographieae Africae et Aegypti (tome III, epoque arabe).

Muller: On the Erythrean Sea.

Cary & Warmington: The Oncient Explores.

Rostovzeff: Social & Economic History of the Hellen World.

Brown. E. g.: A Literary History of Persia.

Bretschneider, E: On the Know ledge possessed by the Oncient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies and Other Western Countries mentioned in the Chinese books.

Heyd. W: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age.

B. b. Sh: The book Travels India (Trans. by P. Quennel (London 1928.

Ferrand, G: Voyage du Marchand Arabe Sulayman en Inde et en Chine redigé en (851(Suivi de remarques par Abu-Zayd Hassan ver (916) (Trad. g. Ferrand Paris 1922).

Fraehen. Ch. M: Ibn Foszlan und anderer Berichte über die Russen älterer Zeit und ihre Nach barn, Wustenfeld. F.: Des Abu Dolaf Misar Bericht über die Turkischen Horden. (Magdburg 1842).

Ferrand: Relations de voyages et detextes geographie Arabe, perse et Turc) (Paris 1913).
Kurd von Schloezer: Abu Dolcf Misaris Ben Mohalhal (Text Arabe et Traduction Latin Berolini 1845).
Casanova, Paul: Notes sur les voyages de Sindbad le Marin (Extrait du Bulletin de l'Institut Français d'Orcheologie Oriental (Gire 1922).
Sprenger: Die Poste und Reiserouten des Orient (Leipzig 1864).
Gibb. H. A. R: Islamic Biographical Literature, Historians of the Middle East (ed Bernard Lewis et Holt London 1962).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة